

أنا وأدم والمونتيسوري
رحلة أمومة

أنا وأدم والمونتييسوري

رحلة أمومة

مروة رخا

الطبعة الثالثة / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

لوحة الغلاف للفنانة: سارة حسن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٤١٧٢

I.S.B.N: 978-977-490-553-7

أنا وأدم والمونتييسوري

رحلة أمومة

مروة رخا



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

رخا، مروة

أنا وآدم والمونتيسوري: رحلة أمومة/ مروة رخا.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٥٥٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الأمومة

٢- الأطفال - تربية

ب- العنوان

١٥٥,٦٤٦٣

رقم الإيداع / ١٤١٧٢ / ٢٠١٩

المحتويات

9	تمهيد
11	الجنين
13	المولود
17	الكاتبة
19	ثورة
23	البدايات الضائعة
25	الفرحة الناقصة
29	الأب
33	أول خطوة
37	هناك فرق
39	وجدتها! وجدتها!
47	«العقل الماصر»
53	طفل مختلف
57	من عتمة الحيرة إلى نور المونتيسوري
61	الطفل السيئ
65	عالة على الحياة
73	نوبات الغضب
77	لا أريد أن ألعب
79	الخراب المستعجل
83	الحمد لله!
95	أول حزن
99	كلمات مفقودة
105	ديسبراكسيا
109	نعمة المونتيسوري
117	الفشل/النجاح

121 المنافة
127 انحسار الحب
131 قعر الحلة
135 لعنة الوراثة
141 كروت التسمية
145 التحكم بالخطأ
149 انحرافات الشخصية
159 لعب الولاد ولعب البنات
161 جزء من قلبي
165 الكون
169 الشغف
173 الطبيعة
177 المزرعة
181 أنا لست عقبة في طريق «آدم»
185 الفضول
189 من أين يبدأ التاريخ؟
193 الحكايات
203 صوت جديد
205 الثقة
209 الاستقلال والانفصال
215 الفطام
219 الحفاضات
229 النظام
235 الموت
237 أبي
241 الخيط الرفيع
245 الرسم
249 الناس
255 الكذب

257	السرقه
261	الاعتذار
263	البلاعه
267	متعه التعليم
271	درس الثلاث فقرات
277	الإنسان الرائع
281	أهميه «الحضن»
285	وصفه سحرية
291	اللغه الصينية
295	الأبجدية
303	القراءة
307	لأ
313	التليفزيون
319	احتياجات خاصة
325	الطفل المعجزة
329	الأمومة تتحداني
333	الثواب والمكافأة
337	العقاب
339	حل اللغز
343	التهديد
347	عقوبة العزل
351	الجريمة والعقاب
355	التسيب والفوضى
363	العند
371	الضرب
375	الريش
377	الطفل المشروخ
381	ضحية الإساءة
385	الفخ

389	إستراتيجيات توجيه الطفل
393	التغيير
397	جهاد الأمومة
401	ألم الحياة
405	المسؤولية
409	الهواجس
417	ما يمكننا استنتاجه
421	موافق عليّ؟
425	خمس علامات أن طفلكم يعاقبكم بطريقته
429	قواعد الأمومة/ الأبوة الأربعة
433	في الأولة سبعة
437	الوصايا العشر
443	سوبر ماما

تمهيد

هذا ليس كتابًا آخر عن الأمومة والطفولة والتربية، هذا كتاب عني، عن مروة رخا، وعن تجربتي وعن تداخلها مع المونتيسوري.

وفي نفس الوقت ليس كتابًا لتجميع أقوال د. ماريا مونتيسوري ولا ترجمة لتجربتها. فلا تتوقعوا تأريخًا لحياتها أو تلخيصًا لمخطوطاتها.

خوفًا من الفقد أو النسيان، قمت بتوثيق رحلتي الشخصية مع آدم، ابني، ومع المونتيسوري.

لا تتوقعوا كتابًا مثاليًا أو أمومة مقدسة. واجهت وما زلت أواجه كل يوم من رحلتي مع آدم عيوي وقصوري وأشباح خزانة طفولتي ومراهقتي.

قد يساعدكم هذا الكتاب على فهم أنفسكم. قد يؤلمكم. قد يبهجكم. قد يشجعكم على مواجهة أشباح الطفولة.

افتحوا قلوبكم وعقولكم واستمتعوا بمعرفة أصل كل رجل وامرأة، (الطفل).

مروة رخا

أم «آدم»

الجنين

اخترت أن أكون أمًا عزباء! رأيت جنيني كقطنية بيضاء على شاشة جهاز السونار. بكيت!
لم أصدق أنني حقًا سأصبح أمًا. قضيت أول ثلاثة أشهر فيما يشبه الصدمة، وما بين النوم
والغثيان والبكاء، وجدتني «استغنى»!

شعرت بأن لا شيء يهم ولا أحد يهم. شعرت بأن كل ما أحταجه الآن، كل ما احتجته
في يوم ما، كل ما سوف أحتاجه فيما بعد، ينمو بداخلي. ها هي القشة التي احتجتها ليكتمل
استقلالي التام. هذا الاستقلال الذي تتغذى عليه روحي. لم أعد بحاجة إلى زوج أو حبيب
أو حتى صديق! لن يؤرقني البحث عن هذا الشيء الناقص الذي لم أعرف ما هو تحديدًا _
لأشعر بالرضا والسكينة.

كثيرًا ما كنت أضع يدي على رحي وأتمسس جنيني قبل أن أتمكن من الشعور بحركته،
كنت أتمسسه وأقول له بهذا الصوت الذي لا يسمعه سوى الأم وحينها: «نحن. أنا وأنت.
ليس لأحدنا سوى الآخر. تمسك بي جيدًا. انغرس بداخلي أكثر وأقوى. لا تتركني. سأتمسك
بك. سأدافع عنك. سأحميك. لن أتركك».

آدم!

اختار أن يكون اسمه «آدم». سمّيته «آدم». وشطبت أسماء كل الذكور من قبله! خضعت لهرموناتى ولرسائله ولاحتياجاته. فتحت خزائن الحب وأغدقت عليه. شعرت بالحب يسرى بيننا. وقعت فى غرام الحب السرى الذى يربطنا. قرأت كثيرًا عن المشيمة وشعرت تجاهها بالتبجيل والتقدير والاحترام، من خلالها تصلنى رسائله وطلباته واحتياجاته، ويصله الحب والغذاء الذى يحتاجهما لينمو. قررت أن أحتفظ بالمشيمة، ثم أدفنها تكريمًا لها وعرفانًا بالجميل. طوال فترة وجوده فى الرحم كانت له نعم الأم والدعم والسند.

قررت ألا أقطع أو أشوه أعضاءه التناسلية بالختان. لقد خلقه الله كاملاً ولن أغير ما خلق. لن أبتز عضوًا سليمًا من جسده لأى سبب أو تحت أى مسمى. لن أعرضه للألم. لن أنتهك جسده لأنى وصية عليه. سأتركه سليمًا، وسوف أعلمه كيف ينظف قضيبه مثلما سأعلمه كيف ينظف تحت خصيتيه وتحت إبطيه وبين أصابعه وخلف أذنيه وداخل سُرته.

أغمضت عيني كل ليلة، وكررت طلبى: «علمنى كيف أكون أمًّا لك. أعدك أن أحاول! أعدك أن أتعلم! سوف أنصت جيدًا!»

المولود

رأيت «آدم» لأول مرة ولم يسمحوا لي باحتضانه أو لمسه. وقفت خلف الزجاج أتشوق رائحة رأسه البعيدة، فلا أرتوي! رأيت يبيكي ويصرخ. رأيت يتلوى ويتألم. رأيت ولم يتمكن هو من رؤيتي. قالوا إنه لم يستطع التنفس جيداً عند ولادته. قالوا إنه سيحتاج للبقاء في الحضانة. قالوا إنني لن أتمكن من إرضاعه في الحال.

بكيت رضيعي المحروم من حضني! بكيت مشيمتنا الغالية التي أحرقوها. بكيت جرحي النازف بين ساقَيَّ. بكيت حتى أمروني بالعودة إلى منزلي وتركه معهم. بعكس فترة حملي الناعمة، بدأ «آدم» حياته، وحيداً، بكل خشونة وألم. خذلته ولم أتمكن من تنفيذ وعدي له بالحماية والاحتواء. تركته لهم وعدت إلى منزلي بلا جنين في رحمي ولا طفل في حضني! كان هذا هو الفراغ بعينه!

حتى في وجود الدعم، تمكن مني الألم والحزن. لقد تغير نسيجي إلى الأبد. وضعت الأمومة أول علاماتها على روحي ووعيي. ها هي بذرة الخوف من الفقد وقد غرست بداخلي! تعرفت على نوع جديد من الألم، ألم لم أختبره من قبل.

مرت عليّ أربعة أيام حتى جُمعَ شملي و«آدم». في اليوم الأول، بدأت أستعد لتوديعه. في اليوم الثاني، أردت أن أموت لأستقبله على البر الآخر. في اليوم الثالث سمحو لي أن أضعه، لأول مرة ألمسه، لأول مرة أشم رأسه، قبّلت أول ما قبّلت كتفه الأيسر الصغير النصف عارٍ. في اليوم الرابع أخذته في حضني، خبأته بين ذراعيّ، وأخفيتّه في منزلي. أغلقت الباب علينا ولم أرد أن أفتحه مرةً أخرى أبداً.

يعيش الجنين في الرحم لمدة تسعة أشهر دون أن يدرك تعاقب الليل والنهار. لا يشم أو يتذوق أو يرى. يسمع ضربات قلب أمه وصوتها من بعيد. يسبح في سلام وأمان في مياهه بلا أدنى إحساس بالضوء أو الضوضاء أو الجاذبية الأرضية. في الرحم لا يشعر الطفل بالجوع أو العطش أو بالحاجة إلى الإخراج. لا يشعر بالغازات ولم يعتد على حرمة جسده أحد. هكذا كان يعيش «آدم» إلى أن بدأ حياته على كوكب الأرض في تلك الحضّانة، حيث الغرباء والألم والوخز والإضاءة العالية واللمسات الفاحصة والأصوات المزعجة.

يقول د. «وليام سيرز»، رائد مدرسة التربية بالترابط، عن مثل هذه البدايات، بأنها بدايات وعرة، أو صعبة. خلال شهور حملي، انتهيت من قراءة واستيعاب وامتصاص كلام هذا الرجل الحنون الدافئ عن الطفل ونموه وصحته والتعامل معه والمتوقع منه في أول عامين من عمره. لكن صدمة تجربة ولادة «آدم»، أفقدتني الكثير من توازني ونسيت.

بعد أول أسبوع، تحول رضيعي الملاك النائم إلى وحش كاسر على الأقل في نظري. شعرت أنه يكرهني أو يعاقبني، واستسلمت لنوبات البكاء والحزن. هل هناك طفل يبكي منذ لحظة استيقاظه حتى نومه؟ هل هناك طفل «متشنج» دائماً؟ هل هناك طفل يرضع كل عشر دقائق؟ هل هناك طفل يحتاج أن أحمله طوال الوقت بدون مبالغة؟ هل هناك طفل لا يُترك على الأرض أو السرير أكثر من دقيقتين؟ هل هناك طفل يرفض أن ينام على بطنه نهائياً؟

بعد أسبوعين، وجدت نفسي أفتح الباب وأجري برضيعي الباكي المتشنج خارج الشقة. وجدتني أهرول على السلم هبوطاً وصعوداً حتى انقطع نفسي ونزف جرحي مرة أخرى. اختلط بكائي ببكائه حتى توقف فجأة ونام، أما أنا فلم أتوقف عن البكاء. بسبب بكائه شبه

المتواصل، بدأ الجيران يخبطون على بابي ليطمئنوا أن كل شيء على ما يرام. هل ظنوا أنني أهمله؟ ربما ظنوا أنني أتركه يبكي على الأرض وأمضي لحالي!

هائمة على وجهي، أهرب منه معه إلى أمي في الساعات الأولى من الصباح. صرخ لا يتوقف! ينظر جيرانها إليّ بتعجب ويسألون إذا كان هذا هو مصدر الإزعاج في العمارة كل يوم. لا أجيبهم! لا أحتاج أن أجيبهم! تشعر أمي أن رضيعي غير سعيد على كوكب الأرض، وكأنه ولد غصباً عنه، وكأنه لا يريد هذه الحياة.

بيد مرتعشة، وأعين دامعة، أمسكت بكتاب د. «سيرز» ووجدت صفحة «البدايات الوعرة». كيف يمكنني إعادة الزمن ومسح آثار صدمة الولادة عن هذا الرضيع المستاء من الحياة على كوكب الأرض؟ كان مطلوب مني أن أعود به إلى الحياة في رحمي، إلى الهدوء والظلام والدفء. استحممت وأزلت عني بقايا روائح العطور، لممت شعري وربطته فوق رأسي، ثم أخرجت «بؤجتي» من كيسها وفتحت فيديو على اليوتيوب لتعليم كيفية ارتدائها، لفتتها حول وسطي ومن فوق كتفي وعلى ظهري ثم ربطتها. حملت «آدم» بحب ينازع النفور ووضعتة في «عبي».

مشيت به في المنزل، لم يتوقف البكاء. هبطت وصعدت الدرج، هداً البكاء قليلاً ثم بدأ مجدداً. نزلت الشارع ومشيت كأني لن أعود إلى بيتي أبداً، فتوقف البكاء. علمني «آدم»، كما طلبت منه حينها كان جنيماً في رحمي، كيف أجعله يتوقف عن البكاء. كان يحتاج أن يشعر بحضني وأن يستمع إلى ضربات قلبي، التي يألفها، وكان السير بال «بؤجة» هو الحل.

بالبكاء والصرخ علمني «آدم» متى أرضعه، وفي أي وضع يجب أن أرضعه، متى ينام وكيف ينام وكيف يفضل الصمت التام أثناء النوم. تعلمت كيف أدخل الحمام لأستحم أو لأقضي حاجتي وهو معي، كيف أنام وهو بجانبني وكيف أستيقظ حينها يوقظني. تعلمت أن أكل وهو معلق في رقبتني، وأن أقص أظافري حتى تنغرس في لحمي، وأن أعتذر عن كل المناسبات العائلية التي تتعارض مع مواعيد نومه وهي عقب المغرب! يومنا يبدأ مع الشروق وينتهي عند المغرب.

مر الشهر الأول والثاني، ثم كافأني «آدم» بالابتسام في وجهي ذات صباح! بعد الرضاعة،

كانت هذه الابتسامة أول مكافأة لي على صعوبة الفترة الماضية. بانتهاء الشهر الثالث، كنا، أنا و «آدم»، قد توصلنا إلى لغة تواصل بيننا. بدأت أفهم همهمات ونبرات بكائه ونظراته وحركة يديه وفمه وجسده. لاحظته وراقبته ففهمته. تذكرت كلامي له في الرحم: «نحن، أنا وأنت، ليس لأحدنا سوى الآخر. تمسك بي جيدًا، انغرس بداخلي أكثر وأقوى، لا تتركني، سأتمسك بك، سأدافع عنك، سأحميك، لن أتركك».

قرأت فيما بعد كلام د. «مونتيسوري» عن حياة الجنين في الرحم، كيف اتصله كل مشاعر الأم وكيف تصبح هذه الأحاسيس جزءًا من وعيه وشخصيته وتكوينه بعد الميلاد. لقد تشرب «آدم» مخاوفي وقلقي وتشبهي به، فوُلِدَ طفلًا خائفًا قلقًا متشبثًا بي. أنا مصدر الأمان الوحيد له! أنا الثقة! أنا الحب! أنا شمس مجرته دونها يظلم عالمه وينهار. بدأت أنظر للأمر من منظوره وكأنني هو، أو هكذا حاولت. تفهمت خوفه من النوم وشعرت بارتبائه، كان لا يفهم هذا النوم! ماذا يحدث له فينام؟ أين كان وهو نائم؟ ماذا يحدث له عندما يستيقظ؟ تجربة النوم بالنسبة له مربكة كال موت تمامًا.

علمته كيف ينام في حضني، على صدري، وكيف يستيقظ في حضني، على ابتسامتي. على الرغم من انتصاري الصغير هذا، ظل «آدم» يخاف وينهار إذا رأى شخصًا نائمًا أو عروسة مغمضة العين. ثم كبر وأدرك النوم بعد عدة أعوام من ميلاده. علمته كيف نضحك ونلعب عندما أقوم بقص أظافره. علمته كيف نستحم معًا وألا يخاف الماء. علمته كيف ينتظرنني بصبر إذا دخلت الحمام وهو نائم. تعلم أن يثق بي وأن يصدقني، وكان هذا انتصارًا كبيرًا.

أصبح عمر «آدم» أربعة أشهر. في كتاب د. «سيرز» صورة لطفلة، بنفس عمر «آدم»، وهي نائمة على بطنها، وترفع جذعها لأعلى مستندةً إلى ذراعيها، في وضع من أوضاع اليوجا. «آدم» لا يفعل هذا! «آدم» لم ينقلب من جنب إلى آخر! لا يهيم! كل طفل ينمو وفقًا لإيقاعه الخاص، هكذا طمأننتني الطبيبة.

الكاتبة

قبل «آدم»، كنت كاتبة!

كانت الكتابة دائماً هي وسيلة التعبير الأولى في حياتي، أقوى من الكلمات المنطوقة وأقوى من الصمت أو لغة الجسد. كانت الإنجليزية هي لغة التعبير الأولى في حياتي، اللغة العربية كانت تخنقني وتحاصر أفكاري. قبل «آدم»، كنت أكتب بالإنجليزية، وبعد محاولات عديدة، بدأت أكتب بالعربية العامية. كنت نائرة غاضبة مقاتلة متمردة - هكذا كنت. أثناء فترة الحمل الأولى، غرقت في هرمونات النكد والاكئاب وتوقفت عن الكتابة. في الثلث الثاني من الحمل، كنت أكتب لأكسب رزقي، تحولت الكتابة من متعة وقضية ومقدرة على التعبير إلى «سبوبة». كنت أجلس بالساعات في تركيز لكتابة مقال هنا أو مقال هناك، ثم أشعر بانقضاء الواجب بمجرد تسليم المقال.

بدأت أشعر بالزهد في الكتابة واجتاحني رغبة عارمة في القراءة، بخلاف كتب الحمل والولادة والطفولة، وجددتني أقرأ كل ما وقعت عليه يداي باللغة العربية. قرأت روايات «كافكا» الكابوسية وروايات د. «نوال السعداوي» كلها وبعض من «فوكو» وغيرها. كنت

أتلذذ بالقراءة بصوت عالٍ وكأنني أقرأ لـ «آدم». أتخيلني أعلمه القراءة وتمتعها وأحرره من القوالب وقيدوها، وأبتسم ابتسامة خبيثة لا يفهمها سواي.

بعثت بكتابي الثاني، «الدنيا خياراً»، إلى دار نشر محترمة لتشره. توصلنا مرات عديدة للاستقرار على اسم الكتاب النهائي، وتفاصيل المراجعة، وأرسلت لهم صورة بطاقتي لتجهيز العقد، وأبلغوني بصدور رقم لكتابي. بحلول الثلث الأخير من الحمل، اعتذرت لكل المجلات التي كنت أكتب لها واعتذرت للقراء والمتابعات، وبدأت أنسج عشي وأفرشه استعداداً لوليدي. مرت الأشهر الباقية من الحمل، وولد «آدم»، ونسيت كتابي تماماً. نسيت كل شيء! نسيت كتابي ومحاضراتي الجامعية وكورسات التدريب والعلاقات العاطفية، كله انتهى!

شعرت، وتقبلت بكل حب، أن خلايا مخي تشيخ وتموت. شعرت بالبطء في التفكير وكأن هناك مظلة ثقيلة تكبس على أفكارني. شعرت أن ساحرة من ساحرات «والت ديزني» وهبنتي طفلاً وأخذت في المقابل ملكتي وموهبتي. زمان، كنت أقرأ رسائل القارئات والقراء، وأجد نفسي أقرأ سطوراً لم يسطروها وأرى بعيني الثالثة تفاصيل حياتية لم يذكرها. كنت أستشف الكثير من بين السطور، فأقدم النصيحة المناسبة للحائر أو الحائرة. ضاع كل شيء! أقرأ السطور، أفهمها بصعوبة! لا أستشف شيئاً! لا أقرأ ما خفي ولا ما ظهر! إنه الضباب التام.

تقبلت قدرني، مثل الأميرات، ودفعت بكل حب موهبتي وتمتعي ثمناً للأوممة المنشودة.

ثورة

في يوم من الأيام، جاءتني رسالة من فريق تحرير مجلة، تصدر باللغة الإنجليزية، من المجلات التي كنت أنشر بها مقالاتي الشهرية. كان العدد الأخير للمجلة، وعلى الرغم من توقفي عن الكتابة، طلبوا مني المساهمة بمقال أخير لوداع المجلة، وتركوا لي حرية اختيار الموضوع. فكرت كثيرًا! كنت ما زلت زاهدةً في الكتابة عن الحب والعلاقات العاطفية. نظرت إلى رضيعي، وقد أتم شهره الخامس، وأصبح حقًا نور عيني وحب حياتي، وفجأة بدأت أكتب المقال.

كتبت مقالًا يحمل غضب سنوات الطفولة والمراهقة تجاه المدرسة والمنظومة التعليمية! وجدتني أعبر عن رفضي للمنافسة والمقارنة والاختبارات ومفاهيم النجاح والفشل. رفضت أيضًا ضياع الطفولة في الفصول «المكتملة» التي لا تدخلها الشمس، وفي الأوتوبيسات والسيارات في زحمة المواصلات بين البيت والمدرسة. انفجرت نائرة ضد القولية والبرمجة وقتل التفرد وتجاهل المواهب والميول. ختمت مقالي قائلةً: إنني لا أريد أن يذهب ابني إلى المدرسة ولا أعرف ماذا أفعل.

نُشر المقال وأغلقت المجلة أبوابها. أعدت نشر المقال على صفحتي في الفيسبوك وكان من الطبيعي أن أواجه بالسخرية أو اللوم على حرمان طفلي من بيئة المدرسة. تعليقان فقط استرعيا انتباهي، واحد ذكر «المونتيسوري» والآخر ذكر «التعليم المنزلي». بحثت، باللغة الإنجليزية، عن الموضوعين وانشرح قلبي!

تواصلت مع صديقتي التي ذكرت «المونتيسوري» وتحدثنا طويلاً عن دراستها لهذا النهج. انتهت المكالمة بترتيب لزيارتها لي. مريوم، أو أكثر، وجاءت صديقتي، كما وعدت، وفي يدها كتاب مصور عن المونتيسوري وقائمة بالكتب التي سأحتاجها لفهم الفلسفة التي دخلت قلبي مباشرة. طلبت الكتب من على موقع «أمازون»، وانتظرت وصول الشحنة بفارغ الصبر. وصلت الكتب وبدأت في التهامها! كنت جائعة نهمة وجاءت كلمات د. «ماريا مونتيسوري» لتشبعني وتملأ الفراغات بين أسئلتي.

أسست د. «ماريا مونتيسوري» نهجها على حب الأطفال واحترامهم، وأحاطت نموهم العقلي والجسدي والعاطفي والاجتماعي واللغوي والحياتي بهالة من الانبهار والقدسية، انعكست على جميع الأنشطة التي ابتكرتها لتلائم مراحل نموهم المختلفة.

أيًا كان شكل ولادة الطفل، دخوله المجال الأرضي يكون صادمًا ومؤلمًا بالنسبة له! عليه التنفس لأول مرة وإلا اختنق! عليه البحث عن الطعام وطلبه وإلامات جوعًا! يتعلم المص والابتلاع والهضم والإخراج لأول مرة! يدرك ملمس ورائحة الأشياء والبشر والأسطح! تصدمه الأصوات والأضواء والوجوه! لا يعرف أحدًا ولا يتذكر أي شيء سوى الحنين لرحم أمه!

عزيزتي الأم، عزيزي الأب لا تستكثرا البكاء عليه! لا تتركوه يبكي وحده!

تحدثت د. «مونتيسوري» بالتفصيل عن حياة الطفل كجنين وعند الولادة في كتابها The Absorbent Mind ودعت الأهل للتخفيف من صدمة دخول الطفل عالم البشر بالنصائح التالية:

- إضاءة خافتة قدر المستطاع.
- أصوات قليلة وخفيفة في بيئة الطفل.

- التقليل من الروائح الصناعية حوله - العطور والمعطرات كمثال.
- توفير الحوضن لأطول وقت ممكن - بدلاً من تركه على السرير أو أي سطح آخر.
- توقع وتفهم عدم انتظام مواعيد نومه وأكله أول ثلاثة أشهر.

البدايات الضائعة

للأسف بدأت القراءة عن فلسفة المونتيسوري بعد أن أتم «آدم» شهره السادس، ولم أقرأ عن الأنشطة والأدوات إلا بعد انهيار التام كأم لطفل عمره عام ونصف!

كنت أتمنى أن أنظم لـ «آدم» البيئة المناسبة له كرضيع كما نصحت د. «مونتيسوري»:

تخصيص ركن على الأرض، توضع به مرتبة كبيرة مريحة، ليست مرتفعة عن الأرض، حيث يقضي الأهل أغلب يومهم مع الرضيع حديث الولادة في هذا الركن. طلبت من الأهل وضع مرآة كبيرة على الحائط الجانبي في هذا الركن، وتعليق بعض صور الوجوه المألوفة، أو الأشكال، المطبوعة باللونين الأبيض والأسود، ليشاهدا الطفل عندما يستلقي على ظهره.

هدف هذا الركن هو إعطاء الطفل الفرصة للنمو في اتجاه أولى خطوات استقلاله، سيحاول الطفل جذب الأشكال المعلقة فوقه والإمساك بها. سيرى نفسه في المرآة ويتسلى بملامح وحركات وجهه. سينام على بطنه ويرفع نفسه لأعلى وتقوى عضلات يديه ورقبته وجذعه. سيحاول تقليد نفسه، سيجلس مستنداً إلى الحائط، ثم سيجلس دون الاعتماد

على أحد. وأخيرًا سيتجرأ على الحبو خارج الركن واستكشاف المنزل.

نصحت د. «مونتيسوري» الأهل بعدم الاستهارة في الألعاب البراقة ذات الألوان والأصوات والأزرار المتعددة. الطفل يريد الحب والحضن والنظر في وجه أهله أكثر من أي شيء آخر. كما أنه، في شهوره الأولى، لا يستطيع أن يرى سوى الأبيض والأسود والتضاد بينهما، ولا يستطيع الرؤية لأكثر من المسافة بين وجهه ووجه أمه أثناء الرضاعة. الأصوات والأغاني والموسيقى الصادرة عن الألعاب غالبًا ما تفرعه ويستحسن استبدالها بصوت الأم أو الأب ونغمات هادئة حانية من قبلها.

شروط هذا الركن:

- 1 - أن تكون المرتبة عريضة ولا ترتفع عن الأرض أكثر من 5 سنتيمترات.
- 2 - أن يستكشف الطفل الصور والأشكال المتدلية فوقه في وجود الأم، أو أي شخص بالغ، حتى لا يؤذي نفسه.
- 3 - ألا تكون للمرأة حواف مدببة حتى لا تجرحه.
- 4 - بعد عدة أسابيع يمكن للأهل تغيير الأشكال والصور، وإضافة قطعة من الكريستال تستقبل ضوء الشمس وتخرجه في هيئة ألوان مبهجة.
- 5 - ألا يتحول هذا إلى ركن للعقاب، حيث يُلقى بالطفل هناك كلما احتاجت الأم مساحة أو وقتًا.

* إذا أردتم قراءة المزيد عن تفاصيل هذا الركن، يمكنكم البحث عن "Montessori

“Mobiles”.

الفرحة الناقصة

كلما تأملت العلاقات في حياتي، وجدت لكل علاقة «تيمة» تصفها وتحددها، وكأنها لعنة أطلقت عليها في ليلة مقمرة. هناك في حياتي علاقة تيمتها «الفضيحة»، وهناك علاقة أخرى تيمتها «الدعم» وعلاقة تيمتها «مع مراعاة فروق التوقيت» وهكذا. أما «آدم»، فالتيمة الخاصة بنا هي «الفرحة الناقصة». في بدايتها كان ينقصها الزوج والأب، وكأن قراري هذا أطلق علينا لعنة هذه التيمة. بدأت ألاحظ أنني كلما اشتريت شيئاً له، وكنت حقاً فرحة به، أجد به عطلاً ما أو كسراً ما، عطل أو كسر لا يدعو للتخلص منه ولكنه يكفي لإفساد فرحتي به.

مثلاً، بعمر عام وشهرين، اشتريت لـ «آدم» مشاية، على الرغم من رفضي التام لها وتحذير الكتب العلمية منها. اشتريتها لأشجعه على المشي والوقوف لأنه حتى هذا الوقت لم يكن يقف أو يمشي. اشتريت المشاية وكان «آدم» سعيداً بها! أطلقت عليها اسم «عربية كوكو»! ما إن وضعتها على الأرض، حتى لاحظت وجود كسر بأحد أزرارها. فقدت زهوتها وضاعت بهجتها.

أما «آدم»، فقد كان التأخر ملازمًا له، تأخر في الانقلاب من جنبٍ إلى آخر، في رفع جذعه مثل الطفلة في كتاب د. «سيرز»، في الجلوس مستقلًا، في الضحك بصوتٍ عالٍ، في الوقوف، في الزحف، في المشي، في الجري، في القفز، وفي الكلام! كان يتأخر ولكنه كان يصل في وقته الخاص. كان يصل متأخرًا لدرجة أنني لا أفرح الفرحة الكاملة، كانت دائمًا فرحة حزينة منقوصة.

خطا «آدم» أولى خطواته المستقلة عندما أتم 18 شهرًا. كانت خطواته مهزوزة كسولة بطيئة. كان ما زال طفلًا صعبًا. هكذا وصفه د. «سيرز» في كتابه. الطفل الصعب هو طفل بالكِ صارخ، لا يهدأ ولا يستكين، ولا يسمح لك بالانتفات بعيدًا عنه. طفل يحتل جسديك وعقلك ويسلبك حياتك ليضعك لاحتياجاته. يحتاج الحزن وال«بزوز» واللعب والانتباه له طوال الوقت. وعدني د. «سيرز» أنني سأجد في نهاية المطاف طفلًا حانيًا حساسًا مبدعًا محبًا - فقط إذا خضعت لمطالبه المشروعة!

تعبت! نعم! تعبت! وافتقدت حياتي وأصدقائي والنوم الهنيء. قررت أنه حان الوقت لأتخلص من طفلي الصعب المزعج المؤلم، وأدخله حضانة! لم أضحك على نفسي وأدعي أنني سوف أدخله الحضانة ليلعب ويتعلم وينسط، أنا أعلم، في أعماقي، أنها كلها أكاذيب. اخترت حضانة غالية جدًا، بها أربعة أطفال وسيكون هو خامسهم، يشرف على الأطفال ثلاث مدرسات ودادة، والمكان به ألعاب لطيفة. أخذته وذهبت لرى المكان عن قرب. وقفت أراقب الأطفال وسرحت بخيالي.

ها هو «آدم»، يجلس في ركن بعيد يلعب بلعبة ويبكي عدم وجودي. رأيت طفلًا وقد مشى نحوه وأخذ لعبته. «آدم» بالكاد يمكنه الوقوف والسير بضع خطوات! لن يجري خلفه ويأخذ لعبته. «آدم» لا يتكلم نهائيًا! لن يقول له: «لا هذه لعبتي!» سوف يبكي! هل سيتحول مع الوقت لطفل عنيف يعض ويضرب ليعوض نقصه؟ هل سيتحول إلى طفل صارخ فاقد الثقة لأنه مقهور؟

سوف تتجاهله المدرسات لأنه لا يفعل ما يفعله الأطفال. من ستترك عملها وتكرس وقتها له، تأخذه ليمشي، تلاعبه بالكرة لتشجعه على الجري، تحدّثه وتعلمه الكلمات عله

ينطق، تحضنه، تضحكه، ترضعه وقتما يريد مثلما أفعل أنا؟ نظرت لطفلي الحبيب وشعرت أنه يعرف نيتي. نظر إليّ وكأنه يرجوني ألا أتخلص منه. شعرت أنه يذكرني بوعودي له حينما كان جنيناً، حينما كنت أقول له بهذا الصوت الذي لا يسمعه سوى الأم وجنينها: «نحن. أنا وأنت. ليس لأحدنا سوى الآخر. تمسك بي جيداً. انغرس بداخلي أكثر وأقوى. لا تتركني. سأتمسك بك. سأدافع عنك. سأحميك. لن أتركك».

الأب

في كتبها، وجهت د. «ماريا مونتيسوري» كلامها إلى القائمين على رعاية الطفل بدون تحديد صلتهم بالطفل، ولهذا نجد أن الأم والأب يمكنهم تطبيق نهج المونتيسوري في المنزل، وإذا أمضى الطفل وقتًا عند أجداده أو أقاربه بصورة متكررة، يمكن لهؤلاء أيضًا تطبيق نهج المونتيسوري معه. من ناحية أخرى، بداية نهج المونتيسوري كانت في الحضانات والمدارس، ولهذا يمكن للطفل أن ينشأ في بيئة صديقة في المنزل وخارجه. في الكتيبات التعليمية الخاصة بنهج المونتيسوري، يوجد تركيز على الأم ودورها في بناء شخصية الطفل وشعوره بالحب والاهتمام في أول ثلاث سنوات من عمره، ولا يوجد كلام محدد موجه للأب ولكن يمكننا اعتبار الكلام الموجه للأم موجهًا للأب أيضًا.

في كتب Dr. William Sears يوجد أجزاء مخصصة للأب ولدوره في تربية الأطفال، ولكن التركيز كان على مساعدة الأم في مسؤوليات العناية بالمنزل ورعاية الطفل، شاملة الطبخ والنظافة والغسيل والتسوق والجلوس مع الرضيع حتى تتراح الأم وإطعامه وتغيير الحفاضات واللعب معه وهكذا. في كتب أخرى للدكتور «ويليام سيرز»، يتحدث عن دور الأب كقدوة يُحتذى بها

الطفل وكنموذج للعلاقة بين الرجل والمرأة بصورة عامة، والزوج والزوجة بصورة خاصة، وكذلك الأب والأبناء. يتحدث دكتور «سيرز» عن دور الأب في تحمل المسؤولية والمشاركة والتعبير عن الحب.

يتحدث دكتور «سيرز» أيضًا عن خطين متوازيين لنمو الرجل والمرأة نفسيًا وعاطفيًا بعد أن يصبحا أمًا وأبًا! يقول إن التغيير في المرأة يحدث بمجرد الحمل لأن جسدها يتفاعل مع الجنين _بفعل الهورمونات_ نفسيًا وعاطفيًا، وتبدأ التغيرات الجذرية تأخذ مجراها. أما الرجل _إذا أراد أن يصبح أبًا_ فعليه بمشاركة زوجته كل مراحل الحمل وتطورات نمو الجنين من خلال زيارات الطبيب والقراءة والحوار الحميم حول مشاعرها والتغيرات التي تمر بها.

ينصح دكتور «سيرز» الأب بتثقيف نفسه بكل ما يخص الولادة، وقراءة نفس الكتب والمقالات، ومشاهدة الفيديوهات التي تقرأها وتشاهدها الأم. الغرض من هذا أن يشارك في مرحلة الحمل وجميع تفاصيل الولادة حتى يشعر بزوجته وتنمو لديه القدرة على التعاطف معها والشعور بمشاعرها. بدلًا من الشكوى من بعدها عنه أو التذمر من المولود الجديد، يكون هو الآخر استعد نفسيًا وعاطفيًا لتغيير شامل في حياته.

تحدث دكتور «سيرز» كثيرًا عن القدوة وكيف يتأثر الطفل بتصرفات الأم والأب وتحدثت د. «ماريا مونتيسوري» كثيرًا عن الانحرافات النفسية لدى الأطفال وكيف يتسبب فيها البالغون! تقول د. «مونتيسوري» إن: «الطفل لا يتذكر فقط ما يرى ولكن كل ما يراه الطفل يصبح مع الوقت جزءًا من روحه».

دور الأب هو إبقاء الأم سعيدة حتى تركز كل طاقتها لتربية الطفل ورعايته، تحتاج الأم طاقة لتحمل مشاق الأمومة وآخر ما تحتاجه هو رجل يهدر طاقتها في مشاحنات وإحباطات مستمرة. تذكر أن طفلك ينظر إليك ويتعلم كيف يتعامل مع الجنس الآخر وكيف يتصرف في المواقف وكيف يتحدث وبها يتلفظ. مشاعرك وطاقتك ومنظورك للحياة سوف ينتقل لطفلك من خلال تعبيرات وجهك ونبرة صوتك قبل كلماتك وتوجيهاتك.

دعوتي إلى كل أم وأب أن يتقبلا التغيرات المصاحبة لوجود طفل في حياتهم بصدر رحب

والاستمتاع برحلتهم في تربية أطفالهم. أما أنا، فمقتنعة أن هناك سيدات لم يخلقن ليكن أمهات، وهناك رجال لم يخلقوا ليكونوا آباء، وهناك أمهات وآباء لم يخلقوا ليكونوا أزواجًا وزوجات، لهذا أتمنى من كل إنسان الصدق مع نفسه ومع شريك أو شريكة حياته من البداية، حتى لا يجبر أحد على لعب دورًا غير متوافق مع طبيعته وشخصيته.

أول خطوة

لقد قرأت فلسفة المونتيسوري وتعلمتها عن ظهر قلب ولكنني لم أدرسها ولم أستكشف أيًا من أنشطتها. في الليل، بعدما نام «آدم»، جلست بجواره والهاتف المحمول في يدي، كتبت في محرك البحث، باللغة الإنجليزية، «أنشطة لطفل عمره 18 شهرًا». ظهرت أمامي روابط عديدة، تصفحتها كلها وانتعشت!

وجدت أمهات كثيرات نشيطات مبدعات مبتكرات يقدمن أنشطة غاية في الجمال والروعة لأطفالهن وبدأت أدون ملاحظاتي وأجهز قائمة بالمشتريات التي أحتاجها لأبدأ في تقديم الأنشطة لـ«آدم». اشتريت لوبيا جافة وعدسًا أصفر وأرزًا وفاصوليا وخلطتهم في علبة محكمة الغلق. اشتريت مكايل الدقيق التي تشبه الجاروف المتدرج في الحجم، واشتريت صينية مكسرات مقسمة إلى أربعة أقسام.

كان «آدم» يراقبني بحماس. جلست أمامه. فتحت علبة البقوليات والحبوب. أمسكت بجاروف كبير. أخذت فيه بعض مكونات من العلبة. نقلتهم بحرص إلى قسم من أقسام الصينية. كررت النقل إلى كل أقسام الصينية. ثم أخذت كل قسم وأفرغته في العلبة. بعد أن

انتهيت أعطيت «أدم» الجاروف وابتسمت. أخذه وانهمك في النقل والصب. كان هذا أول نشاط مونتيسوري أقدمه لطفلي.

حتى هذا الوقت، لم أستعد أيًا من مهاراتي أو قدراتي، سواء الكتابة أو التدريس. لكن كان الله معي.

قررت أن أدرس المونتيسوري حق دراسة وأن أعلم ابني بنفسي. لن يجد في أي حضانة الرعاية التي سأوفرها له. حرصت على أن تكون حياته غنية بمصادر الحب غير المشروط من الأهل والأصدقاء. حرصت على أن أكون متفرغة له. حرص هو على مكافأتي من آن لآخر وكأنه يقدم لي الوقود لأستمر.

بدأت دراسة دبلومة المونتيسوري من الميلاد حتى ثلاث سنوات وبدأت أنجح في اختيار الأنشطة المناسبة لهذا الكائن الذي يصور أنفاسي بعينه في كل لحظة وكل حركة.

على مدى السنوات المئة الماضية لم تجذب أي من أساليب التربية والتعليم اهتمامًا كما اجتذب نهج «ماريا مونتيسوري»، هذه الطريقة التربوية التي تحيط بها هالة من الغموض والعديد من التساؤلات. ماذا يعني عندما يشير أحدهم إلى نهج المونتيسوري؟ كيف تختلف هذه الطريقة عن طرق التربية والتعليم التقليدية؟ وماذا يحدث عند استخدام أساليب وأدوات المونتيسوري مع الأطفال في أول ست سنوات؟

سوف أبدأ كلامي عن المونتيسوري بمقدمة قصيرة عن شخصية «ماريا مونتيسوري»، الطبيبة الإيطالية التي تحولت إلى مربية!

قضت الطبيبة سنوات عديدة في مراقبة، والعمل مع الأطفال متأثرةً بالعديد من الأطباء والباحثين في مجال الطفولة والتربية، ثم وضعت أفكارها ونظرياتها، وقامت بتصنيع أدوات تعليمية خاصة بها.

بدءًا من بداية القرن العشرين، ولمدة 50 عامًا، وضعت «ماريا مونتيسوري» برنامجها الخاص لتشجيع وتحفيز الأطفال لتعلم المهارات التي يحتاجونها ليصبحوا، في نهاية المطاف، مسؤولين، منتجين، مستقلين، ومحبين للبيئة والسلام.

«Casa Dei Bambini» هذا هو اسم أول مركز طبقت فيه «ماريا مونتيسوري» نظرياتها في التربية وهو يعني «بيت الأطفال». هذا هو مربط الفرس ومفتاح فلسفة المونتيسوري! الطفل ليس صفحة بيضاء يكتبها الكبار، وهو ليس عجينة لينة تشكلها كما نشاء، الطفل منذ ميلاده إنسان يحتاج مساحة من الحرية والأمان ليختار ويقرر ويفكر وينمو، ولتزدهر شخصيته وتبرز موهبته.

هناك فرق

منذ أن كتبت مقالي الثوري الرافض للمنظومة التعليمية، ومنذ أن بدأت التعمق في فلسفة المونتيسوري، بدأت أعقد مقارنات واضحة وصارخة بين البيئة التقليدية وبيئة المونتيسوري، على أمل أن يحدث تغيير ما.

في المنازل، أو الحضانات والمدارس التقليدية، بيئة الطفل مصممة لتعيق نموه الطبيعي، طاوولات ثقيلة غير قابلة للنقل ومقاعد ضخمة ثابتة ورفوف خارج متناول الأيدي الصغيرة وألعاب من البلاستيك لا تغذي حواس المستكشف الصغير.

في هذه البيئة القاتلة للخيال والإبداع يتم فرض معلومات بعينها على الطفل، ومطلوب منه الحفظ والتكرار. كما يطلب من الطفل الجلوس في ثبات وصمت، فهذه هي سمات الطفل «الشاطر». إضافة إلى ذلك يتم تجاهل الفروق الفردية بين طفل وآخر، فكل الأطفال يجب أن يتعلموا نفس الأشياء بنفس الطريقة في نفس الوقت.

في بيئة المونتيسوري، سواء في المنزل أو الفصل، دور البالغين، من الأهل أو المدرسين، هو ملاحظة اهتمامات الطفل، وتقديم الأنشطة المناسبة له ولاهتماماته، يقدمون المساعدة فقط

حين يطلبها الطفل. يجب على البالغين احترام الطفل واستيعاب قدراته وحدوده والإيمان بفطرته السليمة وجمال مراحل نموه.

يحتاج الأطفال تحت ست سنوات إلى:

- كراسي وطاولات خاصة، ملائمة لهم في الحجم، ويفضل أن تكون مصنوعة من الخشب بدلاً من مادة البلاستيك.
- سلم خشبي صغير يساعد الطفل على الوصول إلى الحوض وطاولته تحضير الطعام.
- أدراج أو رفوف منخفضة تساعد الطفل على إحضار أدوات الطعام الخاصة به.
- مساحات فارغة على الأرض للسير أو الجلوس أثناء العمل على نشاط ما.

في بيئة المونتيسوري المثالية يستطيع الطفل، من عمر عام، القيام في أي وقت، الجلوس في أي مكان، إحضار اللعبة أو النشاط الذي يرغبه بنفسه وبدون مساعدة أحد البالغين. بعمر عامين، يمكنه تحضير وجبة سريعة لنفسه أو إحضار كوب ماء ليروي عطشه، يمكنه الاعتناء بنظافة يديه وإعادة النظام إلى المكان بعد الانتهاء من نشاطه.

هذه هي البيئة التي أردت توفيرها لطفلي - بيئة تساعد على تطوير المهارات الحركية وتعلمه التوازن والحذر أثناء التحرك. مهما كانت قدراته، أتمنى أن تزداد ثقته بنفسه وقدرته على الاستقلال وإحساسه بالعمل والإنتاج.

وجدتها! وجدتها!

لحسن الحظ، كانت بوصلة أمومتي سليمة منذ ميلاد «آدم» حتى اكتشفت أنشطة المونتيسوري. كنت أتركه يفتح ويغلق الأدراج، يضع ما يريد في فمه، يمسك ما تتوق له نفسه بيده، ويستكشف بحرية تامة. شجعتة على استكشاف عمل مفتاح النور وكبس الكهرباء والريموت كونترول. كنت، وما زلت، أحب شكل وجهه ونظرة عينيه وصوت نفسه عندما يركز في شيء ما. كنت أتركه يعبث بشنطة يدي ومحفظتي ودولابي فقط لأرى وجه التركيز هذا.

اكتشفت د. «ماريا مونتيسوري» أن الطفل يركز في حالة واحدة: إذا كان مهتمًا بالمهمة التي ينفذها أو النشاط الذي يمارسه. أهم علامات تركيز الطفل هي التكرار! ليتعلم الطفل، لا بد أن يركز، ولا يركز لا بد أن يكون مهتمًا وهذا الاهتمام يظهر في التكرار. في هذه المرحلة من رحلتي لم أكن «مروة رخا» التي ترأسها الأمهات ليسألن عن أنشطة لأطفالهن أو ليجدن إجابات لاستفساراتهن. كنت «أم آدم» التي تتبع فطرتها وتقرأ كثيرًا وتحاول جاهدة أن تسعد طفلها الجميل الصغير.

أكثر ما يؤلمني كـ«مروة رخا»، هي تلك الرسائل التي يتهم فيها طفل دون السابعة بضعف

التركيز أو بفرط الحركة. قبل أن تتهموا أطفالكم بضعف التركيز أو قلة التركيز أو بفرط النشاط، ضعوا أنفسكم مكانهم وانظروا إلى المهمة المطلوبة منهم، ثم اسألوا أنفسكم: هل هذه المهمة تثير اهتمام هذا الطفل؟ هل كتابة جملة ما، عشر مرات، مهمة تداعب خيال طفلك؟ هل هذا الدرس مطروح بطريقة شائقة؟ هل هو مهتم بمعرفة هذه المعلومة؟ انظروا إلى الطفل! إذا لم تجدوا أي بريق في عينيه فتأكدوا أن عقله يرفض هذه المهمة! قد تجدون الطفل يفتح ويغلق الدرج مرارًا وتكرارًا، لا تنهوه! قد تجدوه يركب قطع البازل ثم يفكها ليبدأ مرة ثانية، لا تقاطعوه! إنه يتعلم ويستوعب ويكبر!

التركيز = الاهتمام + التكرار

بدأت أقرأ عن نمو الطفل العقلي، بما أن «آدم» كان متأخرًا لغويًا وحركيًا، ليطمئن قلبي. كنت أشعر بالحيرة، يمكن لـ«آدم» أن يعبث بشنطة يدي ومحتوياتها لفترات طويلة، ولكنه لا يجلس ليلعب بال مكعبات مثلًا، أكثر من دقيقة! وجدت أن هناك تدرجًا في قدرة الطفل على التركيز.

إليك متوسط معدل التركيز في مراحل مختلفة من عمر الطفل:

- ما بين 8 و15 شهرًا يسهل تشتيت انتباه الطفل ولا يمكنه اللعب بلعبة واحدة أكثر من دقيقة!
 - ما بين 16 و19 شهرًا تكثر حركة الطفل ولكنه يستطيع إتمام نشاط لا يستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاثة على الأكثر!
 - ما بين 20 و24 شهرًا يسهل على الطفل التركيز في نشاط معين ما بين ثلاثة وستة دقائق، الأصوات تشتت انتباهه في هذه المرحلة!
 - ما بين 25 و36 شهرًا تزداد قدرة الطفل على التركيز لتصل إلى خمسة أو ثمانية دقائق ويمكنه قطع اللعب للاستماع إلى حوار أو لمراقبة ما يحدث حوله ثم العودة بسلاسة لاستكمال لعبه!
 - ما بين 3 و4 سنوات يستطيع الطفل التركيز في نشاط ما لمدة عشر دقائق!
- هناك عوامل تؤثر على قدرة الطفل على التركيز الأمثل، منها: الإرهاق أو المرض أو

قلة النوم أو أكل الكثير من الكربوهيدرات أو عدم تناول غذاء متوازن من الخضراوات والفاكهة والبروتين.

أفادتني دراسة فلسفة المونتيسوري في فهم العوامل الأخرى التي تؤثر على تركيز الطفل كشعوره تجاه النشاط المطلوب منه، النشاط محل بالنسبة للطفل أو النشاط صعب عليه أو النشاط لم يتم إعداده أو تقديمه بصورة منظمة وشائقة.

كان عليّ أيضًا أن أضع في اعتباري «أسلوب تعلم «آدم» المفضل»، كل إنسان يولد بأسلوب تعلم مفضل يساعده في تلقي المعلومات. 30% من الأطفال يفضلون التعلم من خلال السمع، وهؤلاء من السهل عليهم الجلوس في فصل والاستماع إلى شرح المعلم وفهمه. 30% من الأطفال يفضلون تلقي المعلومات بصريًا، لذلك بدون رسومات توضيحية وصور جذابة لن يتمكن هذا الطفل من الاستيعاب بسهولة. هناك 40% من الأطفال يتعلمون بالحركة ومن خلالها، لذلك الجلوس في الفصل لمدة طويلة، والاستماع إلى شرح المعلم، والنظر إلى صور وعروض، يصيبهم بالملل والنعاس. يتعلم هذا الطفل من خلال المشاركة في العروض المسرحية والتجارب العلمية العملية وزيارة المتاحف والأماكن الأثرية واستخدام يديه في البناء والتشييد.

خلال السنوات الثلاث الأولى، من خلال أنشطتي مع «آدم» وملاحظتي له، تعلمت أنه طفل حركي بصري. لحسن الحظ أن نهج المونتيسوري يعتمد على تقديم الدروس والأنشطة للطفل باستخدام أقل قدر من الشرح النظري. تجمع الأنشطة بين الأدوات التي يتفاعل معها الطفل حركيًا، والصور والوسائل التوضيحية والكثير من الحركة والاستكشاف. في كتابها «العقل الماص» - The Absorbent Mind - تقول د. «ماريا مونتيسوري»:

«يعد التركيز من الضروريات لنمو الطفل لأنه يضع حجر الأساس لشخصيته وسلوكه الاجتماعي. لا بد للطفل من معرفة كيفية التركيز، وهذه المقدرة يتم تنميتها من خلال التدريب على التركيز على الأمور. هنا تكمن أهمية محيط الطفل والبيئة التي ينشأ فيها لمساعدته على التركيز. لا أحد يستطيع أن يملي على الطفل التركيز لأن هذه قدرة تنبع فقط من داخل الطفل.»

هذه بعض النصائح التي تساعد الطفل على تنمية قدرته على التركيز:

- النظر إلى السقف لفترات طويلة لن يفيد الطفل الرضيع في شيء؛ يفضل حمل الطفل والتنزه به في الطبيعة لفترات طويلة ليرى السماء والأشجار والشوارع والمنازل والأشخاص ذهاباً وإياباً.
- الكثير من الألعاب يضر قدرة الطفل على التركيز، ينصح بتقديم لعبة واحدة مثيرة للاهتمام للطفل، وأن يترك ليتفحصها ويستكشفها.
- إذا رأيتم الطفل مستغرقاً في نشاط ما فلا تقاطعوه لأي سبب.
- إذا رأيتم الطفل يخطئ في كتابة شيء ما أو رسم أو بناء فلا تقاطعوه لتصحيحوا الخطأ.
- لا تقاطعوا عمل الطفل للثناء عليه! يمكنكم الثناء عليه بعدما ينتهي من عمله وينقطع تركيزه تلقائياً.
- تكرار اللعب أو النشاط جزء من التركيز. إذا وجدتم الطفل يكرر نفس النشاط بعد الانتهاء منه فلا تقاطعوه ودعوه يعمل على تطوير مهاراته!

كيف تساعدون طفلكم على التركيز في الحضانة أو المدرسة؟

إذا كان عمر طفلكم بين ثلاثة وستة أعوام، فيمكنكم أن تفكروا في هذه النصائح لتساعدوه على التركيز والاستيعاب.

• مدة الدراسة

لقد فوجئت أثناء دراستي لشهادة المونتيسوري للطفولة المبكرة من عمر ثلاث إلى ست سنوات أن مدة الدراسة في فصل المونتيسوري ثلاث ساعات فقط!

سألت موجهتي عن هذه التفصيلة الصادمة فقالت لي إن هناك أشياء كثيرة يحتاج الطفل أن يتعلمها خارج الفصل مثل العلاقات الاجتماعية والتعاملات الإنسانية وأمور الحياة اليومية.

قالت أيضًا إن في البداية يكون الطفل غير قادر على التركيز على نفس النشاط لمدة أطول من ربع ساعة، وتزيد هذه المدة مع الوقت حتى تصل إلى أقصاها في سن السادسة، وهي ثلاث ساعات متواصلة من العمل على نفس النشاط أو نشاطين على الأكثر.

سألته عن الوضع الحالي في حضانات ومدارس مصر بجميع مستوياتها، فقالت إن الأنشطة التعليمية المباشرة لا تزيد عن ثلاث ساعات، وباقي الوقت يقضيه الطفل في الزراعة أو النجارة أو الفن أو الرياضة أو اللعب الحر كيفما يشاء لأن هذه المساحة من اللعب الحر تساعد الطفل على فهم ما يدرسه واستيعابه وهضمه.

• الاستراحات

إذا كنا نطلب من الطفل التركيز والاستيعاب، فعلى أن نستجيب له حينما يتوقف عقله عن التركيز والاستيعاب. من حقه استراحات عديدة أثناء اليوم من دور المتلقي. من الجلوس. من الصمت. من التلقين. من الضغوط.

في فصل المونتيسوري، من حق الطفل أن يترك نشاطاً ما بدأه ويخرج للحديقة أو يتصفح كتاباً أو يدخل الرسم أو يتجه لركن الموسيقى أو يعد وجبة سريعة لنفسه. من حقه أن يستريح ويجدد نشاطه وحماسه ليعاود العمل مرة أخرى.

في الفصول التقليدية يجب أن يكون المعلم مبدعاً ويمزج العلم باللعب والحركة والتفاعل ويحاول ألا تكون المادة العلمية مدتها أكثر من نصف ساعة بحد أقصى.

• الحركة

الحركة والاحتياج للحركة من السمات الأساسية للأطفال حتى نهاية عامهم الرابع. إذا أصر المعلم على أن يجلس الطفل بلا حركة، سيفقد الطفل قدرته على التركيز في العلم، وسيركز كل حواسه في محاولة الجلوس ساكناً. سترهقه محاولات السكون والالتزام إلى حد الانفجار بمجرد الخروج من الفصل وسجنه. يحتاج الأطفال لحرية الحركة ليتمكنوا من التركيز.

• الطعام

هناك أطعمة تنمي المخ وتساعد على التركيز والاستيعاب. الخضراوات والفاكهة الطازجة والخبز الأسمر (البلدي) والبقوليات والمكسرات تنمي المخ وتبقيه متيقظًا. السكريات والمعلبات والمواد الحافظة وكل ما هو مصنع أو محفوظ مضر بالعقل والجسد ويؤثر سلبيًا على التركيز والاستيعاب.

• الشاشات

التليفزيون والآيباد والموبايل واللابتوب يؤثرون سلبيًا على التركيز إذا تعرض لهم الطفل في هذه المرحلة لمدة تزيد عن ساعة متفرقة يوميًا. كثرة الألوان والأصوات والحركة تحفز المخ وتصيب الطفل بشكل من أشكال تشتت الانتباه وضعف التركيز وتفقد القدرة على الصمت أو السكون أو العمل في هدوء. ينفر هذا الطفل من التلوين أو القراءة أو الرسم أو أي عمل يحتاج صبرًا وتركيزًا وحرصًا.

• الرياضة

ممارسة الرياضة المنتظمة عدة مرات في الأسبوع تساعد الطفل على تجديد نشاطه وتفرغ طاقته وتحفيز عقله بطريقة إيجابية.

• الفُسحة

الفُسحة بالنسبة للطفل هي الخروج في مكان مفتوح في الطبيعة حيث يمكنه اللعب والجري والانطلاق بدون أي شرط أو قيد. شراء مستلزمات المنزل من السوبر ماركت ليست فُسحة والزيارات العائلية ليست فُسحة والتدريبات الرياضية ليست فُسحة.

في النهاية أود أن أذكركم بحقوق الطفل على لسان الطفل نفسه:

أنا طفل!

لم أخلق لأجلس ساكنًا بلا حركة،

أو لأحتفظ بيدي إلى جانبي،

أو لأتبادل الأدوار أو لأقف في طوابير أو لأصبر أو لأصمت!

أحتاج إلى الحركة والتجديد!
أحتاج إلى المغامرة!
أحتاج إلى التفاعل مع العالم بجسدي كله وحواسي كلها!
دعوني أَلعب!
ثقوا بي... أنا بالفعل أتعلم!

«العقل الماص»

كيف ينمو عقل الطفل؟

تفترض نظريات التعليم التقليدية أن عقل الطفل ينمو بالتدرج في خط طولي تصاعدي ثابت من الطفولة حتى البلوغ، وكأننا ننمو ونتعلم في جميع جوانب الحياة بطريقة متناسقة ثابتة. على هذا الأساس تم وضع المناهج لتغطي القراءة والكتابة واللغة والنحو والحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم، لتبدأ جميعها في الصف الأول الابتدائي ويزداد كم المعلومات كل عام حتى الانتهاء من مرحلة الثانوي.

خلافًا لنظريات التعليم التقليدية، بنّت د. «ماريا مونتيسوري» عملها على مصطلح «مستويات النمو». هذا يعني أن نمو الطفل يحدث في موجات، ومع كل موجة يمكنه بسهولة معرفة واكتساب بعض المهارات والقدرات - إذا أعطيت له الفرصة والنشاط المناسب. كل مستوى يتسم بعدة مراحل حساسة ويجب عليكم استغلالها على أكمل وجه.

مستويات د. «ماريا مونتيسوري» للنمو تنقسم إلى عدة مراحل: من سن 0 - 6، ومن 6 - 12، ومن 12 - 18، ومن 18 - 24.

يستند نهج المونتيسوري على دراسة كل مستوى من هذه المستويات وتطوير الأنشطة والمواد والأدوات اللازمة لإتاحة أكبر فرصة للتعلم والإدراك. هذا يعني أن هناك وقتاً مناسباً يستطيع الطفل أن يتعلم فيه الأرقام والأبجدية، ووقتاً آخر يمكنه استخدام معلوماته تلك في إجراء عمليات حسابية بسيطة: تكوين كلمات مكتوبة، أو القراءة.

ما هو «العقل الماص» أو العقل الممتص؟

أهم مستوى من مستويات النمو هو المستوى الأول، من سن 0 - 6، وينقسم المستوى الأول إلى مرحلتين: من سن 0 - 3 ومن سن 3 - 6.

أطلقت د. «مونتيسوري» على هذه المرحلة فترة «العقل الماص» لأن الطفل يدرك ويتعلم من خلال امتصاص كل شيء حوله عن طريق حواسه وقدرته الفائقة على الملاحظة.

يمتص الطفل اللغة والسلوكيات والأخلاق وطريقة عمل العلاقات من حوله وطبيعة العلاقة بين الأشخاص أو الأشياء كما يدرك خواص الأشياء وصفاتها من خلال رؤيتها، لمسها، سماعها، تذوقها، وشمها. كلما تعددت تجارب الطفل الحياتية في تلك المرحلة نتج عنها عقل ثري، واستيعاب أسرع وأسهل للمعلومات في المستقبل.

الطفل تحت الثلاث سنوات يعيش بداخل رأسه، لا يرى المحيطين به كيفية تخزينه للمعلومات أو كيفية انتقائها. لا يمكنكم أن تعلموه أي شيء إلا إذا بادر هو بذلك، لن يتعلم الأرقام إلا إذا سأل عنها! لن يتعلم الفرق بين اليوم والأمس والغد إلا إذا رأى نبتة كانت بذرة أمس وظهر لها جذور اليوم وسوف تصير نبتة غداً، ثم سأل عما حدث.

يستمر الأطفال من 3 - 6 سنوات في مرحلة «العقل الماص» ولكنهم أكثر ميلاً نحو الامتصاص الواعي، يدركون أن لديهم خيارات ويريدون أن يكونوا أصحاب رأي وقرار، كما أنهم ينجذبون إلى الأنشطة التي تعطيهم شعوراً بالرضا وتحقيق الذات. هذا هو السن المناسب لتقديم أنشطة تعليمية تلائم ميولهم وتراعي الاختلافات الفردية بين طفل وآخر.

إذا أردتم أن تعلموا طفلكم آداب الحوار أو آداب الطعام أو التحية أو التحدث بصوت هادئ، يجب عليكم أن تكونوا هذا الشخص، لأن الطفل يمتص سلوككم. أول درس

للطفل في الحب واحترام الأسرة وأسس العلاقة بين الرجل والمرأة يتلقاه في المنزل عندما يمتص عقله النظرات واللمسات بين أبيه وأمه، وعندما يستمع إلى حوارهما أو صمتها، وكلما قرأ الفرق بين الوجه السعيد والوجه الحزين في وجوهها!

يستطيع الطفل دون السادسة امتصاص الحب والحنان والاحترام والسلام كما يستطيع امتصاص الغضب والقهر والألم والعنف في بيئته. يسيطر «العقل الماص» على تشكيل انطباع أولي ودائم عن العالم والعلاقات من حول الطفل من خلال بيئته وتنوع خبراته. شددت د. «ماريا مونتيسوري» على أهمية الجمال والتناغم، والنظام، والسلام في بيئة صديقة للطفل. إذا كانت البيئة معادية للطفل، سوف ينمو ليصبح عدوانياً تجاه البيئة المحيطة به.

ما هو الفرق بين طرق تعلم الطفل في أول ثلاث سنوات من عمره، وفي مرحلة الطفولة المبكرة، وفي بداية المرحلة الابتدائية؟ ما هو دوركم في كل مرحلة كمعلمين له؟

مرحلة «ما هذا»؟

أسهل مرحلة من مراحل تعليم الطفل هي تلك التي تمتد من ميلاده حتى نهاية عامه الثالث. في هذه المرحلة يتعلم الطفل من خلال الملاحظة والتكرار. ببساطة يلاحظ الطفل أفعالكم وحركاتكم وتصرفاتكم ولغتككم فيتعلم منكم ويحاول أن يحاكيكم. في محاولاته لتعلم شيء ما، ستجدونه يكرر نفس الشيء مراراً وتكراراً بلا ملل حتى يتقن ما يحاول أن يتعلمه.

دوركم كمعلمين في هذه المرحلة هو النظر لطفلكم ومتابعة عينيه ويديه لتعرفوا ماذا تقدمون له من أنشطة - أي متابعة «المراحل الحساسة». مثلاً، إذا لاحظتم يد الطفل تعبت بغطاء زجاجة المياه، فاعلموا أنه كان يراقبكم ويتعلم سر فتح الزجاجة، والآن هو يحاول أن يطبق ما تعلمه وسوف يكرره حتى يتقنه. دوركم هو تقديم فرص كثيرة له لينمي مهارة وضع الغطاء على الزجاجة ومهارة فتح وغلق مختلف الأغذية.

مرحلة «لماذا»؟

في مرحلة الطفولة المبكرة، من العام الثالث للعام السادس، تستمر «المراحل الحساسة»

في الظهور، وستجدون فضول طفلكم يتجه للحروف وللأصوات التي تكوّن الكلمات ولمزج الألوان ولمقارنة الأطوال والأوزان والتلامس والأصوات. ستجدونه مهتمًا بالمطابقة والتصنيف والترتيب وفقًا للتدرج. ستجدونه فخورًا باستقلاله وبقدراته على خلع وارتداء ملابسه والتعامل مع مختلف أدوات ربط وضبط الملابس من الزر للسوستة للحزام للشريطة والفيونكة. ستجدونه مهتمًا بكوكب الأرض والقارات والبلاد وبالشمس والقمر ودورة الأرض حول الشمس. ستجدونه مبهورًا بتتابع الأيام والأشهر وسيبدأ في حب الأرقام وإيجاد علاقات بينها وبين قيمتها واستخدامها اليومي في حياتنا.

دوركم في هذه المرحلة هو تقديم الأنشطة للطفل وفقًا «للمراحل الحساسة» وأن تراعوا احتياجه للتعلم من خلال حواسه ومن خلال تحويل كل ما هو نظري أو مبهم أو مجرد إلى أداة تجعله يلمس ويحرك ويتفاعل مع العلوم المختلفة. دوركم في هذه المرحلة هو التدرج من السهل المبسط تمامًا للأصعب فالأصعب. دوركم هو تقديم الصورة كاملة ثم تقسيمها إلى أجزاء تتدرج في التفاصيل. مثلًا تقدموا للطفل مفهوم الكائنات، وكيف تنقسم الكائنات إلى كائنات حية وكائنات غير حية، كيف تنقسم الكائنات الحية لحيوانات ونباتات، كيف تنقسم الحيوانات إلى فقاريات ولا فقاريات؛ كيف تنقسم الفقاريات إلى أسماك وبرمائيات وزواحف وطيور وثدييات. الهدف ليس تعليم الطفل التصنيف ولكنه مساعدة الطفل على إدراك العلاقة بين كل ما يدرس وربطه بالصورة الكبرى للحياة.

مرحلة كيف؟

في النصف الأول من المرحلة الابتدائية _ من العام السادس إلى العام التاسع _ تكاد «المراحل الحساسة» بصورتها المألوفة أن تختفي. يتوقف الطفل عن التكرار كطريقة للتعليم ويميل سريعًا تكرار نفس النشاط، ولهذا قدمت د. «ماريا مونتيسوري» أنشطة عديدة متنوعة لتعلم الطفل نفس المفهوم. مثلًا، لتعلم الجمع، هناك أكثر من خمس أدوات وأنشطة وامتداداتهم.

هناك تغير آخر، لا يمكن أن يتنبأ أحد بما يحاول الطفل أن يتعلم من خلال حركة يديه أو جسده. تقفون في حيرة تامة أمام طفلكم وتشعرون أنكم لا تدرون ماذا تقدمون له الآن

من أنشطة. تسمى كتب المونتيسوري هذه المرحلة بمرحلة «الخيال»! دوركم في هذه المرحلة هو إثراء الخيال وإشباعه! ليس دوركم في هذه المرحلة حشو عقل الطفل بمعلومات لا يدرك أهميتها ولا يعرف كيفية توظيفها ولا يجد علاقة بينها وبين حياته أو علاقة بينها وبين البعض. تذكروا أن هذه هي «المرحلة الحساسة للخيال».

في بداية دراستي لدبلومة المونتيسوري من 6 - 9، وجدت أن العام الدراسي يبدأ بخمس قصص تتكرر لمدة ثلاثة أعوام بنفس طريقة السرد والتجارب والتفاصيل. القصة الأولى هي قصة نشأة الكون وكوكب الأرض. القصة الثانية هي قصة بداية الحياة على كوكب الأرض. القصة الثالثة هي قصة الإنسان وتعايشه على كوكب الأرض. القصة الرابعة هي قصة تطور الكتابة. القصة الخامسة هي قصة تطور الأرقام والعد.

تفتح هذه القصص الباب أمام الطفل لتعلم فنون اللغة والرياضيات وعلوم الفضاء ودراسة المادة والتاريخ والجغرافيا وثقافة الشعوب وعلم النبات وعلم الحيوان والتجارب العلمية التي تمهد للنظريات الفيزيائية والكيميائية. تثير فضوله لمعرفة تاريخ الموسيقى والفنون ويدرك أهم مبادئ السلام: نحن ورثنا كوكب الأرض عن أسلافنا واستفدنا من اكتشافاتهم واختراعاتهم وتضررنا من أخطائهم في حق المناخ والتوازن البيئي وإقامة العدل وتوزيع الثروات. سوف يرث أبنائنا وأحفادنا الكوكب من بعدنا فأبي إرث سنترك لهم؟

طفل مختلف

في عمر عام ونصف، بدأ بعض الناس يلمحون، أو يصرحون، أن «آدم» لديه سمات توحد. كان يبكي ويصرخ إذا تغير أي شيء في الروتين الذي اعتاد عليه، مثلاً، في الاستحمام، إذا استبدلت غسل الشعر وغسل الجسد، كان ينهار من البكاء. مثال آخر، في المطبخ، إذا استبدلت مكان فوطة تنشيف الأطباق وفوطة تنشيف يدي، كان ينهار ويصرخ حتى أعيد كل شيء إلى مكانه. مثال ثالث، كان «آدم» يعرف شنطة يدي، إذا حملها أبي، مثلاً، كان يصرخ حتى يتركها. كانت مواعيد نومه وطعامه مقدسة. كان مكان الشبشب والحذاء والبوِجة مقدسًا. لم يكن مسموحًا لأحد بتغيير أي شيء.

ظل «آدم» هكذا إلى أن أتم عامه الثالث. طوال هذه الفترة، كانت «سمات التوحد» تسيطر على عقلي. كنت أحاول أن أجد سببًا منطقيًا لتصرفاته وتأخره اللغوي وحركته غير المتزنة. كان طفلاً سعيدًا. كنت أمًا قلقة. كنت خائفة. كنت تائهة. مرة تقودني القراءة إلى «سمات التوحد»، ومرة تقودني إلى «سيندروم آينشتاين»، ومرة إلى «أسبرجرز»... كنت أعرف أن هناك مشكلة بطفلي ولكنني لم أعرف ماهيتها بعد.

أما د. «ماريا مونتيسوري»، فذكرت في كتبها خمسة أشياء يجبها الأطفال بالفطرة:

- الأطفال يحبون النظام والترتيب من حولهم، كما يحبون كل فرصة للحفاظ على النظام في بيئتهم. الطفل المنظم ينشأ في بيئة منظمة ويحافظ على النظام.
- الأطفال لا يحبون اللعب أو اللعب! الأطفال يحبون القيام بأعمال جادة من واقع الحياة.
- كذلك يفضلون استخدام الأدوات الحقيقية عن البلاستيك.
- يختار الطفل العمل في هدوء أو صمت تام، وأول خطوات استقلاله هي الاعتناء بنظافته الشخصية واحتياجاته.
- الطفل لا يتعلم من خلال تلقي مكافأة أو عقاب! الطفل يتعلم من خلال وجود فرصة لتصحيح أخطائه.

قد يكون نمط نمو طفلي غير تقليدي، ولكن هذا لم يجعلني أتعامل معه على أنه غير قادر على إعادة لعبه إلى مكانها أو العناية بنفسه. بدلاً من التلفزيون، أشركت «آدم» في الأعمال المنزلية البسيطة، حتى وإن فاقت قدراته، يكفيه شرف المحاولة. وفرت له أدوات حقيقية مناسبة لحجمه بدلاً من الأدوات «الخاوية» التي لا تشبع احتياج الطفل للعمل والمشاركة.

في ظروف سليمة موائمة يستطيع طفل عمره سنتان غسل يديه ووجهه وتنشيفهم بفوطة خاصة به بدون الاعتماد على أحد. يستطيع نفس الطفل مسح أنفه بمنديل إذا عطس وتنشيف الأرض إذا انسكب منه ماء. هناك العديد من الأشياء يستطيع الطفل أن يفعلها إذا توفرت لديه مساحة من الحرية وفرصة للتعلم. الطفل يتعلم عندما تتوفر لديه الحرية لاختيار نوعية العمل الذي سيقوم به، والمواد التي سيعمل بها. اتركوا للطفل حرية الاختيار بين تصفح قصة أو رسم لوحة أو الزراعة أو قص الورق أو تقطيع الفاكهة. اتركوا للطفل مساحة كافية ليتعلم وليخطئ وليتعلم من أخطائه.

من خلال تعاملها مع الأطفال، أدركت د. «ماريا مونتيسوري» عدة حقائق مهمة كانت بمثابة الأعمدة الأساسية لنهجها:

- يجب ملاحظة ومراقبة الطفل عن قرب.

- كل طفل مختلف في الاحتياجات والشخصية والقدرات والمهارات.
- بناءً على مراقبة الطفل، ووضع قدراته واحتياجاته الفردية في الاعتبار، يتم اختيار الأنشطة والألعاب الملائمة له.
- أفضل وسيلة لتعليم الطفل شيئاً ما هي القيام بهذا النشاط أمامه عدة مرات ثم دعوته للمحاولة بنفسه.

كنت محظوظة جداً! عندما علمت بحملي، وبعدها عندما بدأت أقرأ كتب ومقالات د. «سيرز»، كانت أقصى أمنية لي أن أتمكن من إرضاع «آدم» ستة أشهر، قبل أن أضطر للبحث عن عمل. تحققت المعجزة، ومنحني الله فرصاً عديدة للعمل من المنزل، انتهزتها كلها! أعمل من المنزل حتى يومنا هذا، وتمكنت من إرضاع «آدم» ثلاث سنوات كاملة، حتى فطم نفسه بنفسه. خلال تلك السنوات الأولى من رحلتي مع «آدم»، كنت أعمل عدة ساعات فقط في اليوم، وكنت أحاول أن تكون هذه الساعات أثناء نوم صغيري. طوال فترة استيقاظه، لم أفعل شيئاً سوى النظر إليه، مراقبته، فهمه، تقديم الأنشطة التي يحتاجها، ومشاركته اللعب. في قرارة نفسي، كان الشكر والحمد يسري في جسدي لأنني لم أكن أستطيع أن أكون أمّاً غير تلك التي كنتها!

في هذه الفترة، بعدما أتم «آدم» عامه الثاني، من خلال احتكاكي اليومي به ومراقبتي له، لاحظت اهتمامه الشديد بسكين المطبخ. بدلاً من نهره وتعنيفه، قدمت له نشاطاً ملائماً: تقطيع موزة باستخدام سكين الزبد، سكين غير حاد ولكنه حقيقي. ندهت «آدم»، وقلت له، اليوم، «آدم» سيقطع معي الموز. قدمت له سكين الزبد، وقلت له إن هذا السكين الخاص به. انتبه وهدأت حركته. جلست أمامه وتحركت ببطء شديد، أعطيته الفرصة ليرى يدي المسكة بالسكين، ويدي الأخرى التي تثبت الموزة، ثم بدأت أقطع الموزة بالتصوير البطيء وهو يشاهد كيف تتحرك السكين لتقطع الموزة. جعلت هذا نشاطاً يومياً حتى يتقن طفلي مهارة التقطيع، مع تطوره، بدأت أقدم له أشياءً أكثر صلابة، وسكيناً أكثر حدة، مثل التفاح أو الخيار.

نفس الشيء انطبق على فضوله تجاه المقص والأجهزة الكهربائية، مثل المكينة والغسالة والكبة والخلاط. بدلاً من الرفض، كنت أسأل نفسي كيف يمكن أن أتيح لـ«آدم» الفرصة

ليستغل شغفه بشيء ما في تنمية مهاراته! بعد الملل والزهق الذي عاناه «آدم» في أول سنة من عمره، حتى بدأت أطبق معه أنشطة المونتيسوري، أصبحت حياتنا معاً ممتعة. هكذا نمت مهارات «آدم» في التواصل واللغة «الاستقبالية»، أن يفهم ما يقال له، ومهارات استخدام يديه وأصابعه، الحركة الدقيقة.

الأصل في المونتيسوري هو الطفل، ليس الأنشطة! لا تفرضوا على صغاركم الأنشطة التي تقرءون عنها، راقبوهم وقدموا لهم أنشطة ملائمة لاهتماماتهم وقدراتهم ومستوى مهاراتهم الحركية. علموهم ما يريدون أن يتعلموا واعطوهم فرصاً كثيرة للتكرار.

من عتمة الحيرة إلى نور المونتيسوري

كنت أعلم أن «آدم» ليس طبيعياً، بمقاييس المجتمع، لكنني كنت أرى تفرده ومعجبة به أشد الإعجاب. كانت علاقتنا صلبة وحميمة، وكنا نستمتع معاً في المنزل وخارجه. لكن رغمًا عني، فأنا ابنة المجتمع والواقع، كنت أبحث عن أسباب تأخر «آدم» اللغوي والحركي. كنت أحاول أن أجد بين السطور ما يؤكد لي أنه طفل طبيعي، أو أنه سيكون طبيعياً مع الوقت. خلال رحلة بحثي عما يطمئني، بدأت قراءة كتاب «سر الطفولة» The Secret of Childhood لـ «ماريا مونتيسوري»، في هذا الكتاب خصصت فصلاً كاملاً للحديث عن «الطفل الطبيعي»، وأطلقت لفظ Normalization للإشارة إلى عملية تحويل الطفل «المختلف» إلى طفل «طبيعي».

في بداية دراستي لنهج المونتيسوري، دبلومة الطفولة من الميلاد حتى ثلاث سنوات، شعرت باستياء كبير تجاه هذا المفهوم! لماذا تريد «ماريا مونتيسوري» تعديل وتغيير و«صنفرة» الاختلافات التي تميز كل طفل عن الآخر؟ شعرت بتناقض بين كل ما قرأت سابقاً عن احتواء نهج المونتيسوري للاختلافات الفردية بين الأطفال، وتشجيع الأهل على

مراعاة اهتمامات طفلهم في الأنشطة التي يقدمونها له، وبين هذه الدعوة لاستنساخ أطفال «طبيعيين»! فما معنى «طبيعي»؟ ومن يحدد شروط هذا الطفل «الطبيعي»؟

واصلت القراءة فوجدت إجابات أسألتي!

قالت د. «ماريا مونتيسوري» إن جميع المواليديشتركون في طبيعة واحدة تسمى طبيعة الأطفال، وأن لتلك الطبيعة سمات محددة تظهر وتنمو في وجود البيئة الصديقة التي تساعد الطفل على الاستكشاف بحرية وتتبع شغفه وتكرار محاولاته حتى يتقن مهارة تلو الأخرى. في نهج المونتيسوري، الطفل «الطبيعي» يظهر عليه الذكاء منذ شهوره الأولى - قبل أن ينمو إدراكه للأشياء - نجده لديه فضول وشغف وحب استطلاع. في البيئة الصديقة، يتعلم تفضيل السلام والهدوء والنظام على العبث والتدمير، ويستمتع بإنجاز المهام التي يختارها ولا يبدو عليه الكسل أو الوخم.

شبهت د. «مونتيسوري» الانحراف عن تلك الطبيعة بالمرض؛ تختفي الصحة خلف أعراض المرض وانحرافات الشخصية في الأطفال هي بمثابة أمراض سببتها بيئة معادية لصحة الطفل. مثلاً، الطفل الكسول المدمر الصارخ غير المهتم بأي شيء، طفل يعيش في بيئة غير صحية تسببت في مرضه وانحراف شخصيته. عند إعادة الطفل إلى «حالته الطبيعية» التي فطر عليها تختفي الكثير من الصفات غير المحببة التي تسببت في ظهورها عوامل خارجية لها علاقة مباشرة ببيئته في المنزل أو الحضانة أو المدرسة. من أمثلة هذه الصفات: عدم الترتيب، العصيان، الكسل، الجشع، الأنانية، المشاكسة وافتعال المشاكل وعدم الاستقرار الداخلي.

كما أوضحت د. «ماريا مونتيسوري» الفرق بين الهلوسة والخيال. الطفل في حالته «الطبيعية» يتخيل فيخلق وينتج ولكن الطفل الذي أتلفته الأساطير والفانتازيا يسبح في خياله حتى ينفصل عن الواقع ولا ينتج عن خياله شيء. منذ سنوات عديدة، أدركت كيف أثرت أفلام «والت ديزني» بالسلب عليّ. لقد شوهدت مفاهيم الحب والعلاقات والارتباط والزواج، وجعلتني منفصلة تماماً عن الواقع. صورة الفارس المُخلّص والأميرة التي لا تملك سوى الجمال والعلاقات السطحية حلت محل العلاقات المبنية على الحوار والصداقة والاحترام وتقبل الآخر.

اكتشفت أيضًا أنني كنت محقة في رفضي لأي شكل من أشكال العقاب لـ «آدم»؛ انتقدت «ماريا مونتيسوري» حالة خضوع الطفل لسيطرة الأهل في شكل طاعة عمياء، وأكدت على أن الطفل الطبيعي يتأرجح بين الطاعة والعصيان حتى يستطيع أن يدرك الخير والشر، وعواقب الأفعال ثم يختار الطاعة والخير بكامل إرادته، لا بدافع الخوف. لا يوجد في المونتيسوري «هو كده وخلاص» أو «أنا أمك ولازم تسمع كلامي غصب عن عينك».

سواء كنتم في بداية الرحلة مع أطفالكم، أو أخطأتم الطريق، ظهرت على شخصيتهم بعض الانحرافات، إليكم بعض النصائح لاستعادة «حالتهم الطبيعية» التي تحدثت عنها منذ قليل:

- حرروا الأطفال من السيطرة، دوركم في حياتهم هو مراقبتهم، اكتشف اهتماماتهم وفتح أبواب ملائمة لهم للاستكشاف والتعلم.
- حركوا خيالهم، لا تحركوا خيالهم بالكارتون والشخصيات الخيالية والأساطير بل قدموا لهم الأدوات التي تساعدهم على التخيل والإنتاج في الوقت ذاته، مثل المكعبات الخشب والليجو والعصيان المغناطيسية والعديد من الفرش والألوان.
- إثارة فضولهم، لا شيء يثير فضول الطفل أكثر من الطبيعة لذلك يفضل أن تكثروا من التنزه في الحدائق ومراقبة الطيور والحيوانات والحشرات في مراحل نموها المختلفة.
- مساحة للحركة، الطفل ينمو من خلال المشي والجري والنط والتسلق بحرية. لا تفرضوا عليهم الجلوس بدون حركة، أو القراءة والكتابة لفترات طويلة، قبل ستة أعوام.
- مساحة للاستكشاف، يحتاج الطفل إلى استخدام يديه لتنمية عقله وذكائه. الطفل الذي لا يستكشف بيديه يصاب بلامبالاة ويفقد فضوله وحبه للمعرفة. أول علامات الاستكشاف هي وضع الأشياء في الفم للتعرف عليها.
- الأعمال الهادفة، لا تشغلو أطفالكم بأعمال لا هدف لها وإلا ستصبح هذه شخصيتهم. إذا طلبتم منهم ري الحديقة، مثلاً، فاشرحوا لهم أهمية ما يقومون به.

الطفل السيئ

منذ ميلاد «آدم»، ومنذ ليلة الهروب الكبير، حينما فتحت باب الشقة وجريت بطفلي الباكي الصارخ المتشنج هبوطاً وصعوداً على السلم. منذ ارتدائي للبوّجة وربطه في حضني ليشعر بالأمان، منذ هذه الأيام، كانت حياتنا خارج البيت أضعاف فترة وجودنا فيه. إذا أردت تقسيمها بنسب مفهومة، لن أبالغ إذا قلت إن 80% من حياتنا كانت خارج المنزل! في أول عامين، كنا نسير يومياً داخل التجمع السكني الذي نعيش به، أو نذهب إلى النادي من الصباح الباكر ولا نعود إلا قبل موعد الغداء، أو بعده مباشرة. كنا نذهب في زيارات عائلية طويلة منتظمة عدة مرات في الأسبوع، كنت أريد أن أتأكد أنني أملك خزان الحب غير المشروط لدى صغيري. ذكريات الطفولة السعيدة الغنية بمشاعر الحب والأمان هي الملاذ في الكِبَر من قسوة الأيام وتقلبات الحياة. أنا أعرف هذا جيداً.

قبل أن يتم «آدم» عامه الثاني بشهرين، بدأت زيارتنا للمزرعة ولمساحة الانطلاق المعروفة باسم «فجنون». بالتوالي، كنا نذهب يوماً في الأسبوع إلى المزرعة، وفي الأسبوع التالي نذهب إلى فجنون. وباقي الأسبوع يمر بين الزيارات العائلية وأيام النادي وساعات

السير في الكومباوند الذي نسكنه. في القيظ، كنا نقضي أيامًا كثيرة في المول، كنا نقف أمام زجاج عرض المحال وأحدثه عما نرى. كان «آدم» يصاحبني في رحلتنا الأسبوعية للسوبر ماركت والبقال والفرن والخضري والفاكهاني. كان يرى ويلمس ويستكشف كل شيء، وكنت أنا سعيدة به ومعه، رغم شبح «الفرحة الناقصة».

كنت أراقب الأمهات من حولي، وأسمع البالغين يصفون الأطفال بأشبع الصفات، وكأن بينهم ثأراً. كم من الكراهية والاحتقار الغريب تجاه الكائنات الصغيرة. على عكس الكثير من هؤلاء البالغين، الذين يعتقدون أن الأطفال مخلوقات شريرة واستغلالية، أحبت «ماريا مونتيسوري» الأطفال واحترمت حقوقهم في اللعب والاستكشاف وحرية الحركة. هي نفسها كطفلة، لم تحب الاضطرار إلى الجلوس لفترات طويلة في الفصل، بينما تقوم مدرسة ما بتلقينها الدروس والمواد التعليمية في ملل ورتابة. أثبتت «مونتيسوري»، من خلال عملها مع الأطفال، أنهم بحاجة إلى الحركة واللمس والاستفسار باستمرار وأن هذه هي الطريقة الطبيعية ليدركوا الكثير عن التوازن، والمساحات، والفراغ والحجم، والوزن، ودروس قيمة أخرى.

الطفل السيئ هو طفل يشعر بالملل والإحباط في بيئته! قبل أن تتهموا الأطفال بأفزع الصفات، انظروا لهم وللبيئة التي يعيشون فيها، ثم اسألوا أنفسكم: أين يفرغ هذا الطفل طاقته الجسدية؟ أين يشبع هذا الطفل رغبته في الإبداع؟ ماذا يفعل الطفل بيديه طوال النهار؟ كيف ينمي معلوماته؟ هل هو طفل سعيد؟ هل يشعر بالحب؟ هل يسمع الحب؟ هل يضحك ويقهقه؟ تذكروا أن ذكاء الطفل في يديه، واليد التي لا تعمل أو تستكشف، تعبت وتخرب وتدمر!

الطفل الزهقان زنان - «ماريا مونتيسوري» بتصرف.

هل هناك سبب خفي وراء سلوك الطفل السيئ - خاصة بعد أول ثلاث سنوات؟

من الطبيعي أن يسيء الطفل التصرف من آن لآخر، ولكن ليس من الطبيعي أن يختار الطفل جميع السلوكيات السيئة ليتخذها نهجاً له. بعض الأمهات تشتكين من أطفالهن لأنهم مدمرون أو لأنهم شياطين أو لأنهم فاشلون، وأغلب هؤلاء الأمهات جربن الكثير

من طرق العقاب والثواب لتعديل هذه السلوكيات ولم ينجح في مهمته. ما هو السبب الحقيقي وراء هذه التصرفات البغيضة؟ لقد وجدت الإجابة في كتاب د. «ويليام سيرز» .The Discipline Book

يقول د. «سيرز» في كتابه إن الطفل الذي يفتقر إلى تقدير الذات يسيء التصرف. هكذا! بمنتهى البساطة!

يبدأ الطبيب الشهير ورائد مدرسة التربية بالترابط Attachment Parenting كلامه بالتعريف بتقدير الذات فيقول إنه: شعور الطفل بأنه جدير بالحب وجدير بالاهتمام وبأنه مقبول ومرغوب ومحبوب.

في رحلة تقدير الذات هناك أشياء تبنيه وأشياء تهدمه، ومن أمثلة الأشياء التي تبنى تقدير الطفل لذاته الابتسام في وجهه، والضحك معه، واللعب معه، والحديث معه، والأحضان والقبلات والكلام الإيجابي والمدح، وكذلك الرضاعة بدون جدول (الرضاعة عندما يحتاج الطفل للرضاعة)، وحمل الطفل كثيرًا، ومشاركته سرير الأهل أثناء النوم والاستجابة له ولندائه.

من الأشياء التي تهدم تقدير الذات ترك الطفل يبكي، وإهمال التعبير عن المشاعر الإيجابية له وعنه، والسخرية منه، ومقارنته بالآخرين، والانشغال عنه، والتذمر من أسئلته، وتجنب قضاء وقت معه، والتجهم في وجهه، واستخدام الكلمات النابية في التعامل معه، والحدة، ووصفه بصفات سلبية.

يدرك د. «سيرز» أننا بشر، وأن هناك أوقاتًا سنغضب أو ننفعل أو نتجهم، ولكنه يذكرنا أن الطفل يكون انطباعات حقيقية ودائمة عن نفسه وعن أسرته بناءً على ما يشعر به أغلب الوقت، وأن الاستثناء لا يصبح قاعدة إلا إذا تكرر وأصبح هو المعتاد.

إذا افتقر الطفل تقدير الذات Self Esteem، أصبح بداخله يشعر بعدم الاحترام وعدم التقدير وعدم الأهمية وعدم استحقاقه للحب، ومن هذا المنظور السلبي لذاته يختار إساءة التصرف. لماذا يتصرف باحترام وهو غير محترم؟ لماذا يحسن التصرف وهو يشعر أنه سيئ؟

لماذا يجتهد وهو فاشل؟ لماذا يحاول وهو غبي؟ لماذا يحافظ على مشاعر أهله وهو يشعر باستياء تجاههم؟

إذا أردت أن تعدل سلوك طفلك فعليك أن تعدل سلوكك أنت معه والقاعدة تقول Garbage in – Garbage out أو كما نقول بالعربية إن كل إناء ينضح بما فيه. ما فات قد فات، ابدءوا اليوم، ابدءوا الآن، ابدءوا من هذه اللحظة، ابدءوا بحضن صادق ليشعر الطفل بالأمان والحب والقبول. قبلوا طفلكم كثيرًا لأن هذا يشعره أنكم حقًا تريدونه في حياتكم، ولا تنسوا النظر إليه، في عينيه، وأنتم مخاطبونه.

اضحكوا معه كثيرًا لأن هذا يشعره بمشاعر إيجابية تجاهكم، العبوا معه كثيرًا لأن هذا يشعره أنه جدير بوقتكم، حدثوه باحترام وتجنبوا الحدة أو السخرية، لأنكم تكونون صورته الذاتية بنبرتكم تلك، اعتذروا إذا أخطأتم لأنكم تعلموه الاعتذار والتسامح، اهتموا بأسئلته واهتموا بالحوار معه، لأن هذا يشعره بأن رأيه مهم، وأعطوه مسؤوليات مناسبة لسنه لأن النجاح سينمي ثقته بنفسه، وأخيرًا، اشكروه، امدحوه، عبروا عن حبكم قولاً وفعلاً. قد يستغرق الأمر وقتًا لتشهدوا تغييرًا حقيقيًا في سلوك طفلكم، ولكن تذكروا أن الأمر بيدكم وأن سلامة طفلكم النفسية مسئوليتكم.

سأحدث بالتفصيل عن الطاعة والثواب والعقاب والتغيير الحقيقي لاحقًا في هذا الكتاب، ولكن لا مانع أن تبدءوا الآن!

عالة على الحياة

كان الكثيرون ينظرون لي بتعجب، كيف لهذه المجنونة أن تحدث رضيعها هكذا وكأنه كبير يفهم ويعقل ما تقول؟ كيف تأخذه معها في كل مكان _ حتى اجتماعات العمل _ ألا تخاف أن يبكي أو يصرخ أو يجرها أمام الناس؟ كانت لي وجهة نظر أخرى! كنت أتساءل كيف سيعرف «آدم»، إذا لم أخبره؟ كيف سيتعلم الانضباط، إذا لم يأخذ فرصًا عديدة في التدريب عليه؟ كيف سيفهم الآداب العامة والسلوكيات المقبولة، إذا لم يرها؟

من أكثر أخطاء التربية التي أشارت إليها د. «ماريا مونتيسوري» في مذكراتها وكتبها هي التعامل مع الطفل كأنه «عالة» على الحياة وليس جزءاً منها! الكثير من الآباء والأمهات ليس لديهم الوقت أو الصبر للشرح المبسط المفصل، والكثير من الأطفال يتم معاملتهم وكأنهم أشياء وليسوا أشخاصًا. العديد من الأمهات، مثلًا، يشتكين من تصرفات الطفل المزعجة في السوبر ماركت وبسبب هذا الإزعاج قررن ترك الطفل في المنزل أثناء شراء احتياجاتهن الأسبوعية أو الشهرية. لماذا يسيء الطفل التصرف؟ هل قرار الأم الحل الأفضل؟

تخيّلوا معي طفلًا جالسًا على الأرض يلعب، وفجأة تمت مقاطعته بدون استئذان، وتم

حملة، وتم تغيير ملابسه، ثم وجد نفسه خارج المنزل. تم وضعه في السيارة، وبعد وقتٍ ما، وجد نفسه أمام السوبر ماركت. تم وضعه في عربة التسوق، وبدأت الأم جولتها الشرائية، وبدأ الطفل تصرفاته المزعجة.

تصرفات الطفل تلك لا تعبر عن «قلة أدبه» بل هي تعبير عن وجوده وعن احتياج عقله للعمل. لقد أخطأت هذه الأم عند مقاطعة عمل الطفل _لعبه_ فجأة، ثم أخطأت عندما لم تسأله إذا كان يريد الذهاب معها إلى السوبر ماركت، ثم أخطأت عندما لم تشرح له لماذا سيذهبان للسوبر ماركت، ثم أخطأت عندما وضعت في عربة التسوق وتركت الملل وعدم المعرفة يسيطران عليه.

استكملاً للمثال السوبر ماركت قبل الذهاب، عليكم بالتوضيح للطفل بلغة بسيطة أهمية «المشوار»:

«انظر! لقد نفذ البيض!» أو «لم يعد لدينا طماطم!» أو «لم يتبق سوى ثلاث تفاحات!»
هكذا يستطيع الطفل أن يدرك المشكلة، وهكذا يختار التعاون بدلاً من المقاومة والتمرد.
ثم عليكم بكتابة قائمة بالمشتريات التي يحتاجها البيت، واطلبوا من الطفل المشاركة في القائمة من خلال سؤاله أكثر من مرة عما يجب إضافته لها. هذا سوف يعوده على الملاحظة والتذكر والمشاركة الإيجابية. أخيراً، أعدوا له قائمة خاصة به، تتكون من اسم وصورة المنتج، وبجانبه مربع صغير؛ مثلاً، برتقال وبجانب الكلمة صورة لبرتقالة وبجانب الصورة مربع صغير. خلال الجولة في السوبر ماركت تكون مهمة الطفل المساعدة في التسوق واستخدام القلم في حذف المنتج الذي تم شراؤه.

إذا كان الطفل أقل من عام، اكتفوا بالإشارة إلى الأشياء وذكر أسمائها. إذا كان عمره بين عام وعامين، قوموا بتغليف قائمة المشتريات الخاصة به حتى لا يمزقها. إذا كان الطفل يستطيع السير لا تضعوه في عربة التسوق! دعوه يسير أمامكم بالقائمة الخاصة به، ودعوه يشير إلى المنتجات المطلوبة. اطلبوا منه أن يساعدكم في انتقاء المنتجات الطازجة، ودعوه يراجع معكم تاريخ الصلاحية. اطلبوا منه أن يساعدكم في وزن أكياس الخضراوات والفاكهة، وتحدثوا بصوت عالٍ حتى يسمع ويفهم ويتعلم. عندما يكبر الطفل أعطوه المزيد من المسؤوليات

والكثير من الثقة وشجوعه على طرح الأسئلة.

انتهزوا الفرصة وتحدثوا عن القيمة الغذائية للخضراوات والفاكهة الطازجة واطلبوا منه أن يشير إلى الغذاء الصحي، مفرقاً بينه وبين الطعام المضر بالصحة. اشرحوا الفرق بين الطعام الطازج والمجمد والمعلب. يمكنكم استغلال الزيارات المتكررة إلى السوبر ماركت في شرح المواسم من خلال الخضراوات والفاكهة الموسمية. هناك العديد من الدروس التي سوف يتعلمها الطفل من خلال المشاركة في مهام الحياة اليومية، وأولها المسئولية وأهمية دوره كفرد من أفراد العائلة.

يمكنكم استخدام هذه الطريقة في أي موقف يتصرف فيه الطفل بإزعاج! لا تختاروا الطريق الأسهل وتتركوا الطفل في المنزل أو مع أحدهم! لا تعتادوا الهروب منه، ولا تضعوه على هامش الحياة! تذكروا أن الطفل المزعج، ليس إلا طفلاً يشعر بالإهمال، وأن الطفل الزهقان زنان، وأن دوركم هو إشباع شغفه بالمعرفة، ومساعدته في التعبير عن نفسه ومشاعره.

بهذه المناسبة، أود أن أشارككم اختراعات حديثة تضر بالطفل - وأنتم لا تعلمون!

لا أعلم تحديداً في أي لحظة في تاريخ البشرية تم التشويش على الفطرة والغريزة في العلاقة بين الأم وطفلها. كيف تمكنت شركات تصنيع ألعاب الأطفال من إقناع الأمهات بمزايا هذه المنتجات؟ أقرأ في كتب «آدم» عن حياة الإنسان البدائي، وأجد الأطفال يلعبون ويزحفون ويحبون ويمجرون بين الأمهات، داخل المنزل وفي فناء المنزل وأمام الحظائر ووسط الحقول. تحمل الأم طفلها وترضعه وتلعب معه وتغني له وتحدثه وتدعه يستكشف حتى يكبر - هكذا بكل بساطة كانت الأمومة والطفولة. اليوم، أكبر عقبة في نمو الطفل الحركي والعقلي والعاطفي واللغوي هي أمه! كيف تحولت الأم إلى عقبة؟

هذه بعض الاختراعات التي تضر بنمو الطفل في أعوامه الثلاثة الأولى:

السور

ما هو؟ هو سور أنيق ملون تستخدمه الأم «لتأمين الطفل». يتم تسوير منطقة ما في المنزل

ووضع بعض الألعاب بداخلها ثم ترك الطفل خلف السور مثل الحيوان الحبيس. لأن فطرة الإنسان الحرية وغريزته تدفعه للاستكشاف، يبكي الطفل ويحاول الهروب من سجنه، وكلما نجح أو كلما أوشك أن ينجح، تعيده الأم خلف السور مرة أخرى.

هذا السور كارثة إنسانية تحول الطفل من إنسان لحيوان حبيس. هذا السور لا يؤمن شيئاً سوى المنزل والتحف! هذا السور ينمو في وجدان الطفل ليتحول إلى حاجز فعلي بين الطفل وأهله في أعوامه المقبلة مما يجعل تربيته وتهذيبه من أصعب ما يكون.

الرباط

هل تخافين على طفلك أن يختطف؟ هل تخافين أن يتوه منك؟ هل الحل الأمثل هو أن تربطيه؟ هذا هو منطق «الرباط». تماماً مثلما يفسح الرجل كلبه وهو ممسك بحبله، تخرج الأم بطفلها وهو مربوط. هل فكر أحد يوماً كيف يكون شعور الطفل المربوط؟ هل فكر أحد يوماً في تأثير هذا الرباط على العلاقة بين الأم وطفلها؟

هذه كارثة إنسانية أخرى تبرمج عقل الطفل على التمرد على الأهل وعلى الهروب منهم. في العقل غير الواعي تتحول الأم إلى قيد ويكبر الطفل على كسر القيد!

كرسي الطعام

يجلس الطفل عاليًا مقيدًا بالأحزمة، ممنوعًا من الحركة، فاقداً القدرة على تقرير مصيره، وأمامه الطعام ليأكله أو ليؤكله له شخص بالغ. هذا الكرسي انتهاك صريح لحق الطفل في اختيار متى يأكل ومتى ينتهي من الأكل واختيار ما سيأكل. هذا الكرسي يمنع الطفل من المشاركة ومن الاستمتاع بالطعام ويتحول الكرسي إلى سجن ويتحول الطعام إلى صراع ويتعلم الطفل التعبير عن رفضه برمي الطعام والبكاء والصراخ.

الكرسي الهزاز

ولد «آدم» طفلاً باكيًا صارخًا متمردًا، وكنت دائمًا أحمله وأهزهزه وأسير به مثل أمهات عصور ما قبل الحضارة. أشفقت عليّ أمي من المشقة، واشترت لنا «كرسي هزاز» للأطفال. فكرة الكرسي الهزاز بكل بساطة: يجلس الطفل فيه، تربطه الأم بأحزمة الأمان حتى لا يهرب

ويهتز الكرسي برفق حتى يصمت الطفل أو ينام أو ييأس. حاولت أن أجرب الكرسي ورفضته غريزتي ورفضه «آدم». أين دفء جسدي؟ أين دقات قلبي؟ أين رائحتي؟ أين صوتي؟ كيف يعطي هذا الكرسي الطفل ما يحتاجه؟

الكارثة الأكبر أن هذا الكرسي يأتي ومعه تعليمات واضحة أنه ممنوع ترك الطفل في الكرسي أكثر من 15 دقيقة، وألا يترك الطفل فيه بدون إشراف شخص بالغ. هذا الكرسي قادر على إحداث أضرار بالعمود الفقري الصغير وقادر على قتل الطفل إذا ترك مربوطاً فيه بدون إشراف!

كرسي السيارة

كرسي السيارة مهم لسلامة الطفل ولا غنى عنه ولكن هل تعلمون أن جلوس الطفل في كرسي السيارة لفترات طويلة يعرضه لتشوهات العمود الفقري، ويقلل وصول الأكسجين لجسده بسبب الضغط على صدره وقد يسبب ارتجاج المريء.

هل تعلمون أن أقصى مدة للطفل بعمر عامين، في كرسي السيارة هي 30 دقيقة؟ هل تعلمون أن أطول رحلة للطفل بعد عامه الثاني لا يجب أن تتعدى ساعتين؟

الألعاب التي تغني

الهدف من الغناء للطفل هو تنمية مهاراته الاجتماعية واللغوية، ولهذا غنت الأمهات لأطفالهن لسنوات طويلة بلا كلل أو ملل. اليوم تلجأ الأمهات للأغاني المسجلة وللألعاب التي تغني للطفل لتقوم بهذا الدور بدلاً منها.

الخصائر: ضعف العلاقة بين الأم والطفل وعدم نمو الطفل اجتماعياً ولغوياً، لأن التسجيلات لا تعلم الطفل أي شيء، وتشتت وتضعف قدرته على التركيز، وتحوله إلى متلقٍ سلبي بدلاً من التفاعل المنشود في اللعبة الأصلية بين الأم والطفل.

في النهاية، أود أن أذكر كل أم أن شخصية الطفل ورؤيته للعالم من حوله وأساس علاقتك به تتكون في أول ثلاث سنوات من عمره. يتعلم الطفل في هذه الفترة من حياته من خلال «عقله الماص»، هذه الإسفنجة التي تمتص كل المعلومات الحسية من حوله، وتخزنها في مخه

ليبني عليها في أعوامه القادمة. في سنواته الثلاث الأولى يمتص الطفل التجارب التي يمر بها والأصوات والألوان والروائح والمذاق والتلامس والمشاعر والمشاهد، وهكذا تتسع مداركه وتنمو مهاراته وتتكون شخصيته. دوركم في هذه المرحلة هو توفير بيئة صديقة له يتحرك فيها بحرية وبدون قيود، بدلاً من منعه والتحول إلى عقبة في طريقه.

بما أننا تحدثنا عن الاختراعات، هيا بنا نتناول الخرافات الشائعة عن التربية!

الخرافة الأولى: ترك الرضيع يبكي يقوي رثيته.

ترك الرضيع يبكي يعلمه منذ ميلاده أنك لا ولن تسمعه. لا ولن تفهمه. لا ولن يعتمد عليك، لأنك خذلته في أيامه وشهوره وسنواته الأولى! ترك الرضيع يبكي يقلل من ذكائه في طفولته المبكرة ويزيد من تمرده ونقمته في مراهقته ويفقده القدرة على التحكم بانفعالاته في شبابه! ترك الرضيع يبكي جريمة في حق الأمومة! لا تتركي طفلك يبكي وحده!

الخرافة الثانية: ما دام الرضيع شبعاً ونظيفاً اتركيه يبكي.

قد لا يستطيع الرضيع التعبير عن نفسه بكلمات أو إشارات لكن هناك أسباباً كثيرة لبكاء الطفل غير الجوع والبلل! قد لا نعرف أبداً أسباب بكاء طفلك ولكن ما نعرفه أن طفلك يحتاج حضنك حتى وهو يبكي.

الخرافة الثالثة: لا تحمل الطفل حتى لا يفسد.

الإهمال يفسد الطفل! اللامبالاة تفسد الطفل! تجاهل الاحتياجات الفطرية الطبيعية المرئية يفسد الطفل! يحتاج الطفل الرضيع إلى الحضان دائماً حتى وهو نائم! يحتاج الطفل في عامه الأول أن يذهب معك في كل مكان وألا تضعيه أرضاً وتركيه لأنك محور عالمه كله! تركك لطفلك هكذا وتجاهل احتياجاته يجعل منه طفلاً زاناً باكياً حزيناً مدمراً. سوف تدفعين ثمن رفضك لتلبية احتياجات طفلك في أعوامه الثلاثة الأولى بقية عمره بدون مبالغة.

الخرافة الرابعة: يجب على الطفل أن ينام مستقلاً (منذ الميلاد/ بعد ستة أشهر).

ينام الطفل مثلما يحتاج! معظم الأطفال يحتاجون أن يناموا بجانب الأم لعدة أعوام حتى

ينتقلوا إلى حجرتهم الخاصة. هذا هو الطبيعي! لماذا؟ في البداية يحتاج الطفل إلى أن يرضع كثيرًا أثناء الليل ويشعر بالأمان والسكينة وهو يسمع نفس أمه ويشم رائحتها. بعد ذلك يبدأ الطفل في رهاب النوم! يبكي الطفل ويقاوم النوم والنعاس بكل الطرق والسبب هو الخوف! يخاف الطفل من النوم. يخاف لحظة أن تغمض عينه. يخاف لحظة استيقاظه من النوم. يخاف الطفل مما لا يفهمه ولا يدركه! مع الوقت والتكرار والشعور بالأمان قبل وأثناء النوم وعند الاستيقاظ، يذهب الخوف ويصبح نوم الطفل أمرًا طبيعيًا.

متى ينتقل الطفل إلى حجرته؟ عندما يكون مستعدًا! عندما يختار! عندما لا يبكي ولا يجبر ولا يقهر كل ليلة حتى ييأس وينام!

الخرافة الخامسة: يجب أن يذهب الطفل للحضانة (ليتعلم الكلام/ ليكون اجتماعيًا/ ليستعد للمدرسة).

يتعلم الطفل الكلام عندما يجد من يحدثه بحب واهتمام وبالتفاصيل. يتعلم الطفل الكلام من أهله ومن بيئته المحيطة! لا يتعلم الطفل الكلام في الحضانة إلا إذا كان لا يجد من يحدثه في المنزل.

أما بالنسبة للشق الاجتماعي، هذا أيضًا منبعه المنزل والبيئة المحيطة به. يتعلم الطفل الاجتماعيات والسلوكيات والمجاملات والواجبات والمشاعر في بيته، ومن خلال التفاعل مع عائلته وجيرانه والدوائر المحيطة به.

لقد تحدثت في مقالات سابقة عن النصب باسم التعليم ولن أكرر كلامي هنا، لكن من المهم أن تعرف كل أم أن بكاء الطفل في الحضانة ليس طبيعيًا، وأن سبب توقفه عن البكاء هو اليأس، لقد يئس الطفل منك!

متى يذهب الطفل إلى الحضانة. عندما يكون مستعدًا! في عمر عامين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، كلما حاولت فصله عنك قبل أوانه فقد ثقته بك وبنفسه!

الخرافة السادسة: يستخدم الطفل الـ«بوتي» عند (عام ونصف/ عامين).

يستخدم الطفل «البوتي» عندما تنضج مثانته وعضلاته ويستطيع أن يبقى بدون الاحتياج

للتبول ساعتين على الأقل. أي محاولة لفرض «البوتي» على الطفل هي انتهاك وسلسلة من الإهانات والاعتداءات!

الخرافة السابعة: أنت أدري من طفلك باحتياجاته.

طفلك إنسان مثلك وله احتياجات تشبه احتياجاتك ولكن هذا لا يعطيك الحق بافترض هذه الاحتياجات وادعاء المعرفة بها! ستعرفين احتياجات طفلك عندما تنظرين له وتراقبيه وتفهمي محاولاته للتواصل معك!

الخرافة الثامنة: إنتِ دائماً صح!

جميعنا نخطئ لكن المهم التعلم من الأخطاء وعدم المكابرة! للتقليل من حجم أخطائك، ضعي نفسك مكان طفلك وحاولي أن تري الموقف من خلاله... كوني عادلة ومحقة وحاولي أن تفهمي دوافع طفلك واحتياجاته.

الخرافة التاسعة: الأطفال متشابهون!

لا يوجد أطفال متشابهون! الخطوط العريضة قد تشابه ولكن التفاصيل مختلفة تماماً! لا يبدأ جميع الأطفال بالأكل في نفس الوقت ولا يجوبون نفس الأشياء ولا يأكلون بنفس الكميات. طبقوا هذه القاعدة على الرضاعة والفظام والنوم والاستقلال والاستعداد للحضانة والتعامل مع الغرباء والتعامل مع الأقارب والقدرات والمهارات!

الخرافة العاشرة: الطفل لما ينضرب يتعلم!

لا توجد ضربة خفيفة وضربة جامدة! الضربة الخفيفة مثلها مثل العلكة المميته. عندما تضرب طفلك فهو يرى ضعفك ويأسك وجهلك! يحتقرك بداخله ويشعر بالنفور منك ومما تحاول أن تعلمه إياه. إذا نظرت له جيداً وأنت تضربه سوف ترى مدى احتقاره لك!

نوبات الغضب

ماذا تفعلون عندما يرمي طفلكم نفسه على الأرض؟

طفلكم يريد شيئاً ما! أنتم غير موافقين! يبدأ الطفل في الصراخ ثم الدبذبة ثم يلقي بنفسه على الأرض باكيًا صارخًا هستيريًا! قد يفعل الطفل هذا في مكان عام أو في المنزل أو أثناء زيارتكم لشخص ما. هل تشعرون بالغضب؟ هل تشعرون بالحنين؟ هل تشعرون بالخجل؟ هل تضربون طفلكم ليتوقف؟ هل ترضخون له وتلبون طلبه ليتوقف؟ ماذا تفعلون ليتوقف طفلكم عن هذا السلوك؟

لقد كنت محظوظة للغاية! لم أواجه مشكلة نوبات الغضب بهذه الصورة أبدًا مع «آدم». لم يرم نفسه على الأرض أبدًا! لم يصرخ ويتدمر بهذا الشكل أبدًا! كان يطلب ويعترض ويصر، ولكن كان بيننا «عشم» و«رصيد» و«حزن» و«بزوز» ينهون أي صراع فورًا. ساعدتني كتب د. «ويليام سيرز» على مد جسور الثقة بيني وبين «آدم» منذ ميلاده. هذه هي المكافأة التي يحصل عليها الأهل والطفل عند اتباع أسس التربية بالترابط:

- الترابط بين الأم والطفل بعد الولادة مباشرة

- الرضاعة الطبيعية بدون جدول
- ارتداء الطفل في «بؤجة» كما الأفارقة لأطول وقت ممكن
- نوم الطفل بجوار الأم، أو بالقرب منها
- تعلم لغة الطفل، البكاء، وفهم احتياجاته التي يعبر عنها
- تجنب محاولات «تدريب الطفل» على النوم مستقلاً أو الرضاعة بجدول أو عدم حمله وقتما يريد
- تنام الأم وقتما ينام الطفل وتقديم الدعم لها والمساعدة في مسؤولياتها الأخرى

إلى اليوم، يتساءل الكثير من الناس عن سر العلاقة الخاصة التي تربطني بـ«آدم»، تلك العلاقة التي تظهر في نظراته له وكلامه معي وعني، وفي نظراته لي واحتوائه لاحتياجاته. سر هذه العلاقة هو التربية بالترابط التي اتبعت قواعدها منذ ميلاده. جسور الثقة بيننا تسمح لي بتربيته وتهذيبه وإرشاده وتوجيهه. جسور الثقة بيننا تجعله يحترم كلامي ويطيع أوامري. جسور الثقة بيننا تفتح أبواب النقاش والتفاوض بدون رفض أو غضب أو ثورة أو تمرد.

ما هي أسباب أغلب نوبات الغضب؟

السكر والمعلبات وكل ما هو مصنع!

للأسف كل ما تشترونه لطفلكم في علبة أو كيس به سم قاتل! السكر الأبيض بمختلف أشكاله وأسمائه والمواد الحافظة ومواد التصنيع والروائح ومكسبات الطعم، كل هذه سموم تغير كيمياء مخ الأطفال بشكل أو آخر وفقاً لاستعدادهم الوراثي والخلقي. تتسبب هذه المواد في تأخير قدرة الطفل على ضبط انفعالاته والسيطرة على رغباته والتعبير عن نفسه بنضج مناسب لعمره. تتسبب هذه الأطعمة أيضاً في تدمير المناعة، وهذا معناه كثرة تعرض الطفل للمرض وكثرة تناوله للأدوية والمضادات الحيوية وبالتالي تعرض جسده لسموم هو في غنى عنها.

التليفزيون!

ماذا يشاهد الطفل في التليفزيون سوى الصراخ؟ البرامج الحوارية والمسلسلات والأفلام

وحتى الكارتون لا يقدمون للطفل سوى الصراخ والصوت العالي وانفلات المشاعر بأشكال متعددة. كذلك سرعة الحركة والانتقال من صورة لأخرى وتحفيز المخ بصرياً وحركياً وصوتياً يُفقد الطفل قدرته على التواصل على أرض الواقع ويُضعف قدرته على التركيز والإنصات والتعاون.

القهر!

القهر يولد الثورة! راجعوا أنفسكم وراجعوا الممنوعات في حياة طفلكم. كم مرة تقولون له «لا» وكم مرة تمنعوه فيها من الاستكشاف والانطلاق. أود أن أذكركم بقاعدة باريتو: 80 - 20! وفقاً لهذه القاعدة لا يجب أن يزيد المنع والنهي عن 20%.

التسيب!

التسيب هو الوجه الأخر للقهر! يشعر الطفل بالرعب والفرع في غياب القواعد الواضحة في البيت. إذا كنتم تلبون جميع رغبات طفلكم، وإذا كنتم ترضخون لكل ضغوطه، وإذا كنتم تضعون القاعدة اليوم ولا تلتزموا بها باستمرار، سوف تتسببون في الرعب لطفلكم. الطفل المرعوب هو طفل متخبط ويعبر عن هذا التخبط والرعب من خلال نوبات الغضب.

الحل؟

على الأقل، أول ثلاث أو أربع سنوات، امنعوا السكريات والمعلبات وكل ما هو مصنع تماماً في البيت! إذا ذهبتم للسوبر ماركت، اشترُوا الفاكهة والخضراوات واللحوم الطازجة والخبر البلدي واطهوا كل شيء في المنزل دون استخدام أي شيء معد مسبقاً. العصائر والحلوى والوجبات السريعة والوجبات الخفيفة لا تقدم لطفلكم أي قيمة غذائية حقيقية وتضر بكييمياء مخه.

التليفزيون ممنوع تماماً_ حتى في الخلفية_ للأطفال أقل من عامين. للأطفال فوق عامين، الحد الأقصى هو ساعة متفرقة في اليوم وانتقوا المحتوى بعناية. تذكروا أن الطفل أقل من 6 سنوات لا يستطيع التمييز بين الواقع والخيال.

ضعوا قواعد ثابتة لإدارة المنزل، وتأكدوا أنكم تطبقون هذه القواعد على جميع من يعيشون

بالمنزل. التزموا بالقواعد وذكروا الطفل بها في كل مناسبة. القواعد تخص النظام والعناية بالنظافة الشخصية وأصول الحوار والممنوع والمسموح خارج المنزل. اشرحوا للطفل القاعدة وسببها وأهميتها والهدف منها.

عندما تنتاب طفلكم نوبة غضب توقفوا فوراً عما تفعلون وانظروا له، انزلوا إلى مستواه جسدياً بالجلوس على ركبتكم، ابتسموا ابتسامة خفيفة، تحدثوا بنبرة هادئة حاسمة وذكروا طفلكم بالقاعدة: «القاعدة تقول إننا مش بناكل زبالة من الشارع! أنا هروح أدفع الفلوس وأمشي وإن شوف عايز تعمل إيه!»

اتركوا الطفل ولا ترضخوا له، وإذا حاول شخص التدخل ردوا عليه بنفس النبرة الحاسمة الهادئة أن لديكم قواعد بالبيت وعلى الجميع احترامها.

هذا التصرف مقسم لعدة أجزاء لا يجب ترك أحدها:

- الانتباه للطفل.
- النزول لمستواه.
- النظر له.
- النبرة الهادئة الحاسمة.
- التذكير بالقاعدة.
- عدم الرضوخ.
- عدم الصراخ.
- عدم الضرب.
- عدم الشعور بالإحراج، إذا شعر طفلك أنك محرج سيعتمد إحراجك.
- ترك مساحة للطفل لاختيار الصواب، لا تحملوه عنوة ودعوه يختار أن يتوقف ويصاحبكم.

لا أريد أن ألعب

الطفل كائن أناني بطبعه، وخاصة في أول ثلاث سنوات، وهو يبدأ في إدراك الآخر ومشاعره بالتدريج ما بين ثلاث وست سنوات. لهذا قضيت أول ثلاث سنوات من عمر «آدم» وأنا ألعب معه. هذه ليست نكتة أو مبالغة. «آدم»، مثله مثل أغلب الأطفال في هذه المرحلة، لم يعرف كيف يلعب وحده. مهارات اللعب التخيلي أو الانهماك في نشاط ما، كالبناء بالمكعبات أو البازل، لا تبدأ قبل الرابعة. كنت أسمع صوتًا صارخًا بداخلي، لا يجرؤ على الصراخ الفعلي في وجه طفلي، يقول: «مش عاوزة أتنبيل ألعب!» لكنني كنت مضطرة أن «ألعب» حتى أرحم نفسي من الزن. بعد العام الثالث، بدأت أعرض على «آدم» أنشطة تمنحني بعض الوقت لتأمل السقف - هذا الاحتياج الأصيل عند الأمهات!

من أمثلة الأنشطة «المتجربة» لاختلاس ربع ساعة «بريك»:

* اختر حائطًا في حجرة ما، أو في بلكونة آمنة، واعرض على طفلك تلويينه والرسم عليه.

- * اختر كرسي أو منضدة خشبية قديمة واعرض على طفلك دهانها بالألوان - إذا لم يكن لديك اشترِ كرسي من كراسي القهاوي.
- * دع طفلك يصنع سوق ويعرض ملابسه وأحذيته وألعابه في السوق للبيع.
- * اطلب من طفلك دعك وتنظيف البانيو والحوض.
- * أعطِ لطفلك قطعة عجين وقطاعات ومنقاش كحك العيد ودعه يبدع.
- * أعطِ لطفلك مساطر مفرغة بأشكال مختلفة من الوجوه والأشجار والأشكال الهندسية وإسفنجة وألوان سائلة وورق ودعه يكون لوحة تعبيرية.
- * اشغل طفلك في إعداد الطعام، غسيل وتجهيز وتقطيع.
- * سلح نفسك بكتب تلوين ذات مواضيع شائعة.

أما إذا كان لكم مزاج للعب، وتريدون ألعاباً مفيدة، إليكم هذه الأفكار:

- * فك خمسين جنياً لجنيهاً معدنية وعلم طفلك كيف يعدها ويستخدمها في البيع والشراء.
- * علم طفلك لعبة السلم والثعبان.
- * علم طفلك الشطرنج.
- * علم طفلك الدومينو والكويتشينة.
- * أهدِ طفلك بازل جديدة.
- * العب مع طفلك «عروستي» بالكلمات لتنمية الحصيلة اللغوية.
- * العب مع طفلك لعبة المخبر، هو المخبر يبحث عن شيء تعطيه أنت أو صافه.

مهما كنتم «مخوقين»، لا تتركوا أطفالكم أمام التلفزيون أو في صحبة التابليت والموبايل، حتى لا يتعرضوا إلى محتوى غير لائق. أما الكارتون، فهناك منه الضار، وهناك منه غير اللائق. بالإضافة إلى تأثيره السيئ على قدرات طفلك العقلية واللغوية، ومهاراته اليدوية وسلوكه بشكل عام.

الخراب المستعجل

كنت حريصة في أول أربع سنوات من عمر «آدم» على توسيع دائرة معارفنا. كنت أريد أن أوفر له بيئة اجتماعية متنوعة وثرية، فكنت أعلن عن رحلاتنا على حسابي الشخصي على الفيسبوك، وأرحب بأي مجموعة تنضم إلينا. كنت أخرج مع أي شخص وأقابل من يريد أن نتقابل، وكنت أقدم لـ «آدم» مثالاً حياً في القدرة على التعرف على الآخر وتكوين الصداقات والاستمتاع في صحبة مجموعة. بمجرد أن تأكدت أن بذرة «العلاقات الاجتماعية» قد غرست بنجاح، عدت لأصلي - شخصية تفضل صحبة نفسها على صحبة مزعجة أو غير صحية.

في تلك الفترة، عندما كنا نخرج مع كل من هب ودب، رأيت أطفالاً مدمرة! لماذا يمسك طفل بالنجيلة ويتزعمها انتزاعاً بلا أي هدف أو سبب؟ لماذا يقذف طفل كلباً بطوبة بدون أدنى داع؟ لماذا يرى طفل زهرة جميلة، فيقطعها ويفرط بتلاتها ويرميها أرضاً ثم يدوس عليها؟ لماذا يرى طفل خنفسة تسير في أمان الله فيدهسها بقدمه ثم ينط فوقها؟ لماذا يقرر طفل أن يحفر الحائط بأداة ما؟ لماذا يخلع جزءاً من السور؟ لماذا يخرب منضدة أو كرسي؟

السؤال الأصعب كان: أين الأهل؟ لماذا يتركون هذه الكائنات المخربة هكذا؟

كان «آدم» طفلاً جميلاً! كنت أراقب عينيه تنظر إلى شيء ما، كنت أرى نظرة التركيز التي عشقتها منذ ميلاده، كان يمد يده في حرص وحذر تجاه ما أثار انتباهه، كنت أتدخل في لحظتها وأعلمه كيف يستكشفه. في يوم مشمس، كنا في النادي. كان «آدم» وقتها عمره سنتان. رأى خنفسة سوداء تسير على الرمال وجذبت انتباهه. لاحظت تلك النظرة على وجهه، فاقتربت وقلت له إنها خنفسة، ثم مددت أصابعي تجاهها وأمسكت بها برفق، ورفعتها أمامه ليرى تفاصيلها البديعة. أشرت إلى رأسها وصدرها وبطنها، ثم قمت بعد أرجلها. مديده. وضعت الخنفسة على الكف الصغير وقلت له أن يمسكها برفق لأنها تريد أن تعود لأطفالها.

ظل «آدم» يلعب مع الخنفسة حتى انتهى من استكشافه لها، ثم تركها حية ترزق لتعود إلى حياتها. هكذا تعلم «آدم» كل ما يخص التعامل مع النجيلة والأشجار والزهور والحيوانات والطيور وأي كائن حي. هكذا تعلم الرفق وعدم التخريب. لهذا كان ينهار صارخاً في فسحنا مع الآخرين ممن لديهم أطفال مخربون. كم مرة سمعت أن ابني ليس طبيعياً أو أن به شيئاً ما أو أنه بالقطع يعاني من سمات التوحد! أما أنا، فكنت أشعر بالبغض والاستياء تجاه هؤلاء الأهل الذين يتركون أطفالهم لغرائهم الحيوانية بدون أي توجيه أو تهذيب. كنت أنظر للأطفال، فلا أرى سوى مستقبل أسود!

ثم جاءت د. «ماريا مونتيسوري» لتضع النقاط فوق الحروف. عندما ترى طفلاً يقطف الزهور ثم يلقيها أرضاً ويمضي في طريقه، أو عندما ترى طفلاً يتسابق مع طفل آخر ليقتل حشرة ما تسير أمامهم، أو عندما ترى طفلاً يكسر جزءاً من حائط أو سور أو كرسي أو منضدة، علينا أن نعلم أن هؤلاء الأطفال لم يولدوا وبدخلهم نزعة للقتل أو التدمير أو الخراب!

لماذا إذاً «يخرب» الطفل؟

الطفل «يخرب» في بادئ الأمر من قبيل الاستكشاف، وفي هذه المرحلة واجبكم كباغين يقومون على رعاية هذا الطفل، أن تعلموه كيف يستكشف حقيقة ما بيده دون أن «يخربه».

مثلاً، رأيتم طفلاً عمره سنة، يقطف وردة، بدلاً من نهره أو تركه، عليكم بتشجيعه بأن تقولوا له: «الله! هذه وردة! ما أجملها! اقترب منها! انظر إلى لونها! لونها أبيض!» ثم اقتربوا أنتم من الوردة واستنشقوا رحيقها والمسوا برفق أوراقها والمسوا شوكتها واسحبوا يدكم سريعاً في ألم. أطفالكم يراقبونكم! في المرة القادمة لن يقطفوا الورود وسوف يقفون ليستكشفوها ويتعلموا خواصها!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» إنه بدون التركيز لن يتعلم الطفل كيف يستكشف الأشياء من حوله بدون تدميرها! لذلك عليكم أن تساعدوا أطفالكم على تنمية هذه المقدرة من خلال تكرار تدريبات التأمل؛ تأملوا معاً سرباً من النمل ينقل طعامه إلى جحره أو فراشة تطير فوق الزهور أو نحلة تمتص الرحيق. واشرحوا للأطفال ما ترون وماذا يحدث ولماذا يحدث. هكذا يدرك الطفل أن الزهور والحشرات كائنات حية لها روح ومنزل وحياة لا يجب أن يدمرها!

أما بالنسبة للأجهزة، إذا لم يفهم الطفل فيما يُستخدم جهاز ما، سوف يدمره في محاولة استكشافه! إذا أثار جهاز اللاب توب، مثلاً، فضول الطفل، وبدأ في اللعب على أزراره! لا تصرخوا فيه أو تمنعوه لأن فضوله أقوى من تعليماتكم أو تهديداتكم. ادعوه للجلوس أمام الشاشة وافتحوا صفحة جديدة، واضغطوا على الأزرار معه، وشاهدوا فرحته بالحروف الجديدة على الصفحة البيضاء. افتحوا له فيديو تعليمي وشاهدوه معاً. افتحوا له تطبيق الرسم ودعوه يستكشف الألوان وحركة الماوس. هناك ألعاب تناسب الأطفال في أعمار مختلفة على النت يمكنكم استكشافها معاً. هكذا يشبع الطفل فضوله بطريقة صحية، وهكذا يتعلم الطريقة الصحيحة لاستخدام الأشياء. نفس الشيء ينطبق على الريموت والشاحن وأي أجهزة أخرى.

هناك عامل آخر يجب وضعها في الاعتبار عند التعامل مع نزعات الطفل التدميرية، ما هي الأسباب الخفية للتدمير؟

الغضب والألم والملل من أهم محركات النزعات التدميرية في الأطفال. هنا نعود للحديث عن البيئة المعادية للطفل، تلك البيئة التي يشعر الطفل فيها أنه غير مرغوب فيه وأنه لا مكان

له. بيئة ممنوع فيها عليه لمس أي شيء، ولا يستطيع فيها الحركة بحرية، ولا يجد ما يشغل به يديه وفضول عقله للمعرفة. بيئة لا يتعامل فيها الكبار مع الطفل باحترام أو حب أو صبر! قبل معاقبة الطفل على تدميره للأشياء اسألوا أنفسكم عن دوركم في ميلاد ونمو هذه النزعة.

الحمد لله!

«الحمد لله على نعمة آدم» - جملة أقولها كثيرًا وأعنيها تمامًا. أحمد الله لأنه رزقني بطفل طيب حنون يملأ قلبه الحب والنقاء. البعض يقولون إنه تعلم من حبي له وحناني عليه، ولكنني مصرة على أن هذا رزق من الله. يكبر «آدم» أمامي وأرى فيه حب المسؤولية والمشاركة والتعاطف. أراه يساعد الكبير ويسأل عن عائلتنا ويودهم ويشجعني على مد جسور الحب دائمًا. إذا كان لي أي فضل، فسأحكي لكم ما فعلت معه خلال سنواته الست الأولى. تذكروا، أنا مقتنعة تمامًا أنه رزق!

يظن البعض أن نهج المونتيسوري يشجع على ترك الطفل بلا تهذيب وبلا توجيه، وقد يظن آخرون أن د. «ماريا مونتيسوري» اهتمت فقط بتحصيل الطفل ومهاراته دون الاهتمام بسلوكه وآداب التواصل. هذه الظنون بعيدة كل البعد عن الحقيقة، الطفل الذي يتم توجيهه بطريقة المونتيسوري يتعلم آداب اللقاء والضيافة والحوار والطعام منذ نعومة أظفاره، من خلال أساليب عديدة منها الاقتداء بالبالغين، وتمثيل الأدوار، والحكايات، والتوجيه المباشر، كل هذا بدون الإخلال بقواعد المونتيسوري الأساسية التي تحث على

احترام الطفل واحترام قدراته وفقاً لمرحلته العمرية واحتياجات شخصيته.
الذوق والكياسة يمثلان فصلاً كاملاً من فلسفة المونتيسوري، ويشمل:

- الحمد والشكر والرضا.
- استخدام: من فضلك، وأهلاً وسهلاً، ومع السلامة، وأشكرك، وآسف.
- آداب الحوار: الإنصات، وعدم المقاطعة، والتحدث بهدوء، والتعبير عن المشاعر باستخدام الكلمات بدلاً من الصراخ أو «لوي البوز».
- آداب الطعام: إعداد المائدة، وقدسية الغذاء، وعدم اللعب بالطعام، وإفراغ بقايا الطعام في السلة ووضع الطبق في الحوض.
- مراعاة مشاعر الآخرين في مواقف حياتية عديدة.

إذا نشأ الطفل وسط عائلة تنظر دائماً إلى نصف الكوب الفارغ، وليست لديهم القدرة على الاستمتاع بشيء أو الشعور بالرضا، وإذا لم يسمع سوى الشكوى والسلبيات والتذمر، وإذا لم يشعر بسعادة حقيقية تنبع من أهله، سوف يكبر هذا الطفل ساخطاً غاضباً ساخراً. المشكلة ليست في صفاته كشخص بالغ، المشكلة الحقيقية تكمن في تعامل هذا الطفل مع أهله من خلال هذا المنظور، أول من سيواجه غضب وسخط هذا الطفل هم الأهل وسوف يعانون من هذا الكائن «الجاحد» العبوس الذي يشكو من الطعام والشراب والخروج والفُسح واللعب، ولا يقدر أي من محاولات أهله لإسعاده وإدخال البهجة على قلبه. قبل أن تطلبوا من الطفل تقدير المتع التي توفرها له، يجب أن يراكم تقدرتون النعم والعطايا التي في حياتكم.

ماذا يرى الطفل عندما يستيقظ؟ وجوه عابسة أو وجوه باسمه ضاحكة؟ كيف تبدءون يومكم؟ بالتذمر والشكوى والزعيق؟ أم بالحمد والشكر واللعب والضحك؟ ماذا يسمع منكم في حواراتكم معاً ومع الأهل والأصدقاء؟ مشاكل وحناق و«قرف»؟ أم حوار وتواصل وود؟ ماذا يرى من لغة جسديكم تجاهه وتجاه الآخرين؟ ماذا يلمس من مشاعر وطاقة تحوطونه بها؟

أما بالنسبة لموضوع مثل الاستئذان، فمعظم الأهل يشجعون الطفل على استخدام «من

«فضلك» ويتعلم الطفل أن «من فضلك» كلمة سحرية تضمن له الحصول على مبتغاه. يجب على الأهل تذكير الطفل في كل مرة يستخدم فيها «من فضلك» أن الطرف الآخر حر، ومن حقه أن يقبل أو أن يرفض طلب الطفل. في تمثيل الأدوار، يستأذن الطفل مرة فيجيب طلبه، وفي مرة أخرى يرفض طلبه، أو قد يقبل طلبه بشرط الانتظار حتى وقت معين «ممكن تلعب بالقطار بعد أن ينتهي فلان من اللعب به. الآن يمكنك أن تلعب بالسيارات». من حق فلان هذا أن يتمسك بالقطار، ويصر أنه لا يريد لأحد أن يلعب به. يمكن هنا للأهل اقتراح لعبة جديدة يلعب بها الطفلان معاً ومن حق الأطفال رفض الاقتراح أو قبوله.

يتعلم الطفل التعامل مع الآخرين من خلال مراقبة أهله وأسلوب ترحيبهم بشخص يعرفونه جيداً، أو التعامل مع شخص غريب عليهم. يتعلم الطفل استخدامات «أشكرك» عندما يشكره أهله وعندما يسمع أهله يشكرون من قدم لهم خدمة. نفس الشيء ينطبق على الاعتذار، إذا أخطأتم في حق طفلكم لا تتكبروا واعتذروا اعتذاراً يليق بكم وبه - هكذا يتعلم الطفل كيف يستخدم «آسف» ويعنيها!

مراعاة مشاعر الناس من أهم أسس الذوق والكياسة في نهج المونتيسوري، يجب أن تشرحو لطفلكم بالتفصيل كيف يراعي وجود شخص مريض أو شخص نائم أو شخص يقرأ أو شخص يقود السيارة ويحتاج التركيز. يجب أن تشرحو لطفلكم مراراً وتكراراً عواقب أفعاله وحدود حرياته - هو حر يلعب لكن ليس من حقه إزعاج شخص يحاول النوم! هو حر في الاستكشاف ولكن ليس من حقه استكشاف ما ليس له دون استئذان!

لا تتركوا طفلكم بدون توجيه إذا أهمل شكر أحدهم أو تعمد عدم رد التحية، في نفس الوقت لا تجبروه على تقبيل شخص ما أو احتضانه. من حق الطفل رفض التلامس الجسدي ولكن ليس من حقه التعامل بصلافة وعدم احترام. إلقاء التحية، الشكر، الاعتذار، احترام المكان، احترام نفسه، كلها أساسيات في التربية وكرست د. «ماريا مونتيسوري» لها الكثير من الوقت والأنشطة.

الطعام يحصل على نصيب الأسد في الحياة اليومية في نهج المونتيسوري، لا يقتصر الطعام على فعل الأكل، بل يبدأ من اختيار المكونات الغذائية وشرح أهميتها ثم تحضير الوجبات

وإعداد المائدة وانتظار الجميع. خلال الأكل يكون التركيز على الغزف وتبادل الملح والفلفل والجن المشور وحوارات خفيفة مبهجة دون صخب أو انفعال. يتعلم الطفل أن يستمتع بمذاق الطعام وأن يحترم قدسية تناول الوجبات. عندما يشترك الطفل في الحوارات الصغيرة عن يومه أو يوم أفراد أسرته، أو عن مصادر الطعام وطرق زراعته أو نقله أو تحضيره، ينصرف ذهنه عن اللعب بالطعام أو الصراخ أو أي سلوكيات غير مرغوب فيها. المساعدة بعد الانتهاء من الأكل شيء يتعلمه الطفل بالمراقبة والتوجيه، والدرس هنا ليس الانصراف عن المائدة وترك مهمة التنظيف والترتيب للأم وحدها.

تعد هذه المهارات من أصعب ما يمكن أن يتعلمه الطفل ويبدأ استخدام النصائح التالية من سن سنتين إلى سبع سنوات حتى يصبح الذوق والكياسة من سمات شخصيته.

أحب أن أذكر بأهمية القدوة في تعليم الطفل أي شيء، إذا لم تنصت للطفل حق إنصات، وإذا قاطعته كلما حاول التعبير عن نفسه، وإذا تحدثت معه بعصبية وعجلة، واستخدمت نبرة صوت عالية أو مستفزة، وعبرت عن مشاعرك بالصراخ أو بالضرب، فتأكد أن طفلك سوف يتشرب منك هذه السلوكيات ولن ينجح نهج المونتيسوري في تربيته.

من أهم أدوات نهج المونتيسوري هي استخدام إشارات محددة عند التعامل مع الطفل:

- إشارة تعني الانتهاء أو البدء.
- إشارة تعني الرحيل أو الانتقال إلى نشاط آخر.
- إشارة تعني التوقف.

قد تكون الإشارة باستخدام التصفيق «مرة واحدة قد تعني الانتباه مثلاً».

يمكنكم الاتفاق مع الطفل على إشارة معينة للإنصات لما تقولون، وإشارة أخرى تعني أن هذا هو دوره في الحديث وأنكم سوف تسمعونه بدون مقاطعة، وإشارة إلى التحدث ببطء أو التحدث بنبرة منخفضة. إذا كنتم تتحدثون على الهاتف أو تتحدثون مع شخص بالغ ويصر طفلكم على المقاطعة، يمكنكم الاتفاق معه على إشارة تعني أنكم سوف تسمعون إليه بعد الانتهاء من حديثكم.

بالإضافة إلى الإشارات يشجع نهج المونتيسوري على إبرام الاتفاقيات البسيطة:

- الاتفاق على عدم مقاطعة شخص يتحدث على الهاتف.
- الاتفاق على عدم إزعاج شخص يعمل.
- الاتفاق على عدم الصراخ.

يتم تجديد هذه الاتفاقيات يومياً من قبيل التذكرة، ويتم تجديدها خلال الموقف كنوع من التأكيد، ويتم تجديدها بعد الانتهاء من الموقف لترسيخها.

كبالغين، عليكم إدراك واحترام قدرات الطفل في المراحل العمرية المختلفة، الطفل أقل من سنتين لا يستطيع التعبير عن نفسه باستخدام الكلمات، وليس لديه سوى الصراخ أو البكاء للتواصل معكم! لهذا عليكم استيعاب تلك المرحلة، وفي نفس الوقت ابدءوا في تعليمه بعض الكلمات والجمل للتعبير عن مشاعره. الطفل أقل من سبع سنوات قد تجرّفه مشاعره ويسبق بكأؤه أو صراخه لسانه، فلا يعبر عن مشاعره بصورة لائقة. عليكم تفهم ذلك واحتواؤه خلال الموقف ومساعدته على انتقاء الكلمات المناسبة لوصف احتياجاته.

في جميع الأوقات عليكم السيطرة على انفعالاتكم الشخصية لأنكم قدوة ولأنه طفل يحاول أن يكبر. عليكم بتجنب العنف الجسدي أو السخرية أو استفزاز الطفل، من خلال تجاهله أو قهره أو محاكاة بكائه أو صراخه أو «زنه». حاولوا أن تتعاطفوا معه وتذكروا أن الصبر والانتظار من أصعب القدرات التي يكتسبها الإنسان، وأن السيطرة على المشاعر رحلة لا تنتهي بالبلوغ، وأن كلنا هذا الطفل!

كيف يتعلم الطفل المشاركة؟

طفلي لا يلعب مع الأطفال! طفلي يتعارك مع الأطفال! طفلي لا يجب أن يلعب أحد بلعبه!
طفلي يضرب/ يعض الأطفال! طفلي عدواني مع الآخرين! طفلي خجول حول الآخرين!
طفلي أناني!

كلها عبارات ترددها الأمهات بعد أن يبلغ طفلها عامه الأول وتستمر الأحكام القاسية حتى يبلغ الثالثة وما بعدها! إحياطات الأم في التعامل مع طفلها سببها توقعات فرضها

المجتمع و رسمها القائمون على التربية، دون النظر لشخصية الطفل الفردية و تكوينه من حيث المزاج و الطباع. تلك التوقعات تجاهلت البيئة المحيطة بالطفل و تأثيرها عليه، و تغاضت عن تأثير تعامل الأهل معه، و بضمّتهم على تعامله مع الأطفال أو الكبار. بالإضافة إلى الضغوط من الأقارب و الأصدقاء التي غالباً ما تتمثل في تعليقات «سخيفة» أو أسئلة «متطفلة» كلها تشعر الأم و الأب بالذنب و بأن هناك شيئاً يجب «إصلاحه» بطفلها!

هل تعلمون أن أغلب الأطفال الذين يضربون أطفالاً آخرين يتعرضون هم أنفسهم للضرب في البيت؟ هل تعلمون أن أغلب الأطفال الذين يلجئون إلى العض، هم في الواقع، محبطون بسبب عدم قدرتهم على التواصل مع الآخرين، و يجب التعامل معهم بحب و هدوء. غالباً يكون مثل هذا الطفل لم يتمكن من التعبير عن احتياجاته بالكلام، فيعبر عن رفضه بالصراخ و عن غضبه بالعض أو الـ«زق»؟ إذا لاحظتم طفلاً «عضاض»، ابتعدوا بطفلكم عنه و اتركوا التوجيه لأهله.

هل تعلمون أن الطفل الذي يكرر كلمات مثل «بتاعتي» أو «ممنوع» أو «غير مسموح» تعلم هذا السلوك في المنزل؟ «ما تمسكش التليفون!» «ما تلمسش اللابتوب» «ما تفتحش الدولاب» «ما تدخلش الأوضة دي» و قائمة طويلة من الممنوعات التي تطرح على هذا الطفل كل يوم و في كل مكان.

هل تعلمون أن الطفل أقل من ثلاث سنوات غير قادر على اللعب مع أطفال آخرين بمفهوم اللعب لديكم؟ قبل ثلاث سنوات الطفل يلعب بجانب أطفال آخرين و ليس معهم! يدرك وجودهم و لا يتفاعل معهم! هل تعلمون أن في هذه المرحلة يجب أن يلعب كل طفل بلعبه؟ هل تعلمون أن من حق كل طفل في أي عمر أن يختار بضعة ألعاب لتكون «عزيزة عليه»؟ من حقه أن يصر ألا يلعب بها سواه. هل تعلمون أن من حق الطفل اختيار من يريد مشاركتهم اللعب؟ دوركم هو إتاحة الفرصة له للعب مع أطفال مختلفين، و من حقه تفضيل أحدهم على الآخر!

هل تعلمون أن الطفل يتعلم المشاركة أو الأنانية منكم؟ متى رآكم طفلكم تشاركون طعامكم أو كتبكم أو أجهزكم الإلكترونية أو سيارتكم أو أدواتكم المنزلية أو أيًا من

مقتنياتكم؟ هل تعلمون أن كل طفل يولد بطباع ومزاج محدد وأن عليكم احترام تكوينه وتفردته؟ هناك طفل خجول وطفل حريص وطفل يفضل صحبة نفسه على صحبة الآخرين، ولا شيء يعيب هؤلاء الأطفال! هل تعلمون أن طفلكم يتعلم مبادئ التواصل الاجتماعي منكم؟ كيف تستعدون لاستقبال ضيف في المنزل؟ كيف ترحبون بالضيف؟ كيف تتعاملون مع ضيف خلال تواجده في المنزل؟ هل ترحبون أصلاً بوجود ضيوف في المنزل؟ طفلكم لا يتعلم مما تقولون ولكنه يمتص نظراتكم ولغة جسدكم، التي يعرفها تمام المعرفة، فيدرك هل أنتم سعداء بوجود الأصدقاء أم أن الضيوف عبء عليكم.

يبقى سؤال كيف يصبح الطفل الخجول طفلاً اجتماعياً؟

الإجابة: لا يتحول الطفل الخجول إلى طفل اجتماعي!

طفلكم أقل من عام يعبر عن السمات التي ولد بها وليس من حقكم رفضها أو رفضه بسببها! طفلكم من بعد عامه الأول حتى عامه السادس يفتح مثل الزهرة التي تمتص غذاءها من التربة التي ترعرعت وسطها. ما هي البيئة التي نشأ الطفل فيها؟

كل محاولاتكم لـ «إجبار» الطفل أن يكون شخصاً غير نفسه لن تحوله إلى الطفل الذي تريده! الإصرار على «رمي» الطفل الخجول وسط الناس والأطفال حتى يجهم ويلعب معهم سوف تزيد من رفضه وخوفه وقلقه، وقد يتحول إلى شخص كاره للتجمعات بصورة مرضية بسبب إصراركم هذا.

حاولوا أن تنظروا لأنفسكم، هل أنتم شخصيات اجتماعية؟ هل تسيرون في الشارع مبتسمين في وجه الغرباء؟ هل تلقون التحية على البوابين والمزارعين والمارة؟ هل تعرفون على جيرانكم وتزورونهم ويزورونكم؟ هل تتجاذبون أطراف الحديث وتتبادلون أرقام التليفونات مع الأمهات في النادي والتدريب والحضانة؟ هل ترحبون بالأحضان والقبلات من كل دائرة معارفكم؟ هل أنتم «ولاد نكتة»؟ هل أنتم دائماً في حالة مزاجية للضحك والحديث والسمر؟

في هذه الحياة، لا يمكن أن نكون كلنا مهرجين أو متحدثين أو قادة! هذه السفينة، مثلها مثل كل السفن، تحتاج إلى القائد والفريق والمهراج والضاحكين والباكين والمستمعين

والكتاب والقراء والمدرسين والطلاب والمتحدثين والمنصتين!

طفلكم قد يفضل قلة قليلة من الأصدقاء الأوفياء وهذا جميل! قد يفضل أن يكون مراقبًا ومحللاً جيداً للأمر! قد يفضل أن يكون قارئاً مثقفاً! قد يفضل أن يكون حذرًا متأنياً في علاقاته!

توقفوا الآن، في التو واللحظة، عن محاولاتكم لتغيير طفلكم وطبيعته وفطرته! إذا كان هناك داع للتغيير، فغيروا من أنفسكم ومن علاقاتكم الاجتماعية ليتشرب طفلكم قواعد العلاقات الاجتماعية المقبولة والمتعارف عليها في نظركم.

لا تغضبوه!

لا تلموه!

لا تقارنوا بينه وبين أحد!

لا ترفضوه!

مخاطر لعب الأطفال معاً!

هل هناك خطر في ترك الأطفال يلعبون معاً؟ نعم! لا تتركوا الأطفال يلعبون وحدهم معاً! الكثير من الناس تأثروا بعقود متتالية من الإعلام الذي روج للطبيعة على أنها أم حنون، وروج للطفل على أنه كائن ملائكي، وروج للطفولة على أنها مرحلة براءة تامة ومطلقة! الحقيقة عكس ذلك تماماً!

الطبيعة قاسية وموحشة وصادمة في جوهرها! أتذكر بداية مشاهدي لوثائقيات ناشونال جيوغرافيك عن الحيوانات وكيف صدمت، وصدمة «آدم»، من مشاهد صيد الأسد للغزالة ومطاردة التمساح للحمار الوحشي والعراك بين الضفادع في مواسم التزاوج، وغيرها من لحظات توثيق الطبيعة بلا تزييف! هذه هي الطبيعة، الكل مفترس والكل معتدٍ والكل معتدٍ عليه وكلنا نؤكل في النهاية - كلنا!

أما بالنسبة للطفل، الطفل يولد على فطرته الحيوانية. بدون أي تهذيب أو توجيه أو تربية، يكبر هذا الطفل ليصير حيواناً في هيئة آدمية مثل طفل الغاب. طفلك لا يعرف شيئاً عن الذوق والأصول والآداب العامة والاستئذان والتعاطف ومراعاة مشاعر الآخرين والمشاركة، إلا

إذا علمتموه، ولا تتصوروا أنكم ستعلمونه بين ليلة وضحاها! سوف تبذلون مجهودًا خرافيًا أول ست سنوات من عمره لغرس هذه القيم والمبادئ، وسوف تقضون ست سنوات أخرى تؤكدون وتعززون القيم التي غرستموها في السنوات الست الأولى، ثم ستقضون ست سنوات أخرى في تطبيقات عملية لما زرعتهم. بعد ثمانية عشر عامًا من المجهود المضني... انتظروا موسم الحصاد!

ما سبب كلامي هذا؟

السبب هو رسائل الأمهات اللاتي يتعجبين من طفلة عمرها عام أو اثنان تضرب وتعض وتقرص الأطفال الذين يلعبون معها! أو من طفل عمره ثلاث سنوات يريد أن يطعم زميله، وطفل يجذب شعر زميلته، وطفلة تدفع وتزق الآخرين، وطفل يضرب بالقلم، وطفلة تريد الاستحواذ على ألعاب غيرها! تتعجب الأمهات من ردي «لماذا هم وحدهم؟ لماذا لا يوجد أحد البالغين معهم؟ لماذا تتركوهم وحدهم؟»

هل من المعقول ترك «وحوش ضارية» بدون أي ترويض أو تدريب وحدهم تحت مسمى أنهم أطفال يلعبون؟ هل من الطبيعي أن نتوقع من أكثر الكائنات أنانية التعامل معًا باحترام وحب؟ هذه هي طبيعة الأطفال خاصة في أول ثلاث سنوات! يتحسن الوضع قليلًا ما بين ثلاثة وستة أعوام ولكن رحلة التهذيب طويلة ومضنية!

لهذا السبب نجد فصول المونتيسوري الحقيقية للأطفال أقل من ثلاث سنوات بها مدرسة واحدة مسئولة عن طفلين أو ثلاثة على الأكثر. دورها هو تعليمهم كيف يلعبون معًا، وكيف يتواصلون، وكيف يستخدمون الكلمات بدلًا من الأيدي أو الصراخ، وكيف يتبادلون الأدوار، وكيف يفهم بعضهم مشاعر بعض.

الفصول من أربع إلى ست سنوات تتكون من 20 طفلًا في المتوسط، وبها ثلاث مدرسات يعلمون الأطفال الأنشطة المختلفة. يبدأ التعليم باللعب منفردين مستقلين ثم تقدم الألعاب الجماعية في أوقات محددة. إذا أراد أكثر من طفل استخدام نفس الأدوات، فعليهم جميعًا انتظار الطفل الذي بدأ بالنشاط قبلهم حتى ينتهي من عمله، وعليهم اختيار أنشطة أخرى يعملون عليها.

الخلاصة: لا تركوا مجموعة من الأطفال يلعبون وحدهم، وتتحيلون أنهم سيلعبون في سلام وأمان! يجب أن تكونوا متواجدين وفي قمة تركيزكم لأنكم ستنزلون معهم على الأرض، وتجلسون وسطهم، وتقدمون لهم أمثلة عديدة على كيفية اللعب والتواصل!

التعبير عن المشاعر

في البداية ظننت أن أهم علامات نمو الطفل اجتماعياً هي قدرته على مشاركة لعبه مع أطفال آخرين، أو قدرته على اللعب معهم، أو قدرته على الالتزام بأداب المائدة، أو غيرها من السلوكيات المطلوبة اجتماعياً! ظننت أن الطفل «المؤدب» هو طفل وصل لمرحلة متطورة من النضج الاجتماعي! لقد كنت مخطئة!

في الكتيبات التعليمية الخاصة بدراسة نهج المونتيسوري، وجدت العديد من التدريبات التي تركز على تنمية قدرة الطفل على التواصل والتعبير عن مشاعره! أغلب الكتب التي قرأتها عن الطفولة والتربية تركز على تعليم الطفل التعبير عن احتياجاته الجسدية باستخدام اللغة: «أريد أن أأكل، أريد أن أشرب، أريد أن أدخل الحمام، أريد أن أنام!» ولكن ما أهمية التعبير عن المشاعر؟

سألته في موجهتي في دراسة المونتيسوري: «هل قابلت أشخاصاً بالغين يجدون صعوبة في التعبير عن الحزن أو الغضب أو السعادة أو القبول أو الرفض؟»

قفزت إلى ذاكرتي وجوه عديدة مشكلتها الأساسية في الحياة هي وضع المشاعر في جمل وكلمات هدفها التواصل البناء! تذكرت مواقف عديدة تمنيت أنا شخصياً أن أقول شيئاً ما وعجزت عن التعبير عن نفسي. تذكرت أنني أعبر عن نفسي عن طريق الكتابة أفضل بمراحل من التعبير اللفظي!

أجابته موجهتي قائلة إن أغلب مشاكل البالغين في التواصل وفي التعبير نابعة من الطفولة، وأن القدرة على التعبير لا تنمو وحدها ولا تتطور تلقائياً مع التقدم في العمر. التواصل مهارة يجب أن يتدرب الطفل عليها مثلها مثل الكتابة والقراءة والحساب.

الطفل الذي يلجأ إلى الضرب أو العض أو قذف الأشياء أو الصراخ ليس طفلاً سيئاً يستحق العقاب! هذا طفل عجز عن التعبير عن ذاته وشعر بالعجز، فلجأ إلى العنف. قد يكون هذا الطفل صغيراً لم يتمكن من استخدام اللغة بعد، وقد يكون الطفل متأخراً عن أقرانه في الكلام، وقد يكون طفلاً لا يعرف أدوات للتعبير عن ذاته. دوركم في جميع الأحوال هو مساعدة الطفل على التعبير وتدريبه على استخدام الأدوات اللازمة لذلك.

كلنا نألف الحوار المعتاد الخاص بالمدرسة:

«عملت إيه في المدرسة النهاردة؟»

«الحمد لله»

«أخذت إيه؟»

«حاجات جديدة»

«حصل إيه في المدرسة»

«ولا حاجة»

«زمايلك قالوا إيه؟»

«ولا حاجة»

كذلك قد يلجأ الطفل إلى اختلاق القصص لإرضاء الأهل بدلاً من الواقع الأليم الذي لا يعرف، أو لا يريد، التعبير عنه!

كيف نساعد أطفالنا على التعبير عن أنفسهم؟

- ابدأ بنفسك! الطفل يجد سهولة في التعبير عن مشاعره إذا نشأ في أسرة تحيد التعبير عن المشاعر. «أحبك» «وحشتني» «إنت هدية ربنا» «يحيي أيامك» «أنا زعلانة» «أنا قلقانة» «أنا مبسوطة» «أنا خايفة» وهكذا!
- إذا كان طفلك أقل من عام، أحضر صوراً له، أو لأطفال آخرين، في حالات مختلفة، واجمعها في كتيب صغير وتصفحوها معاً - وجه طفل بيتسم ووجه آخر يضحك ووجه يبكي ووجه حزين ووجه متوجس ووجه مخضوض وغيرها من الوجوه المعبرة عن المشاعر المختلفة. احك له عن مواقف مفترضة تسببت في هذه المشاعر، وفي كل

- مرة أكد له أن هذه المشاعر طبيعية. عندما يكبر الطفل، دعه هو يحكي لك عن هذه المشاعر ومتى شعر بالقلق أو بالسعادة مثلاً.
- احفظ وجوه التعبير عن المشاعر المستخدمة على مواقع التواصل مثل الفيسبوك أو الماسينجر، وقم بتكبيرها وطباعتها وتغليفها وقصها إلى وجوه منفصلة، وعلم طفلك اختيار الوجه المناسب للتعبير عن مشاعره في المواقف المختلفة.
 - اقرأ له عن المشاعر! هناك كتاب جميل للكاتب Todd Parr اسمه The Feelings Book وهناك سلسلة من الكتب كل كتاب فيها يعبر عن شعور ما مثل الشجاعة أو القلق أو الحب للكاتبة Sarah Medina.
 - اسأل طفلك عن مشاعره تجاه أحداث معينة خلال يومه أو مشاعره تجاه أشخاص محددين.
 - اسأل طفلك إذا كان سعيداً، كل يوم.
 - اسأل طفلك بعد فُسحة ما عن التفاصيل: هل يجب أن يكرر الزيارة لهذا المكان، أكثر ما أعجبه، أكثر ما لم يعجبه. اسأل عن الأشخاص وهل يجب أن يخرج معهم مرة أخرى. اسأل عن أي اقتراحات أو إضافات أو تعديلات.
 - الطفل لن يتحدث عن مشاعره أو أفكاره إلا إذا شعر بالأمان! يجب أن يشعر أنه مهما كان رده، فلن تغضب ولن تنفعل!
 - الطفل لن يشكو إلا إذا شعر أن هناك جدوى من الشكوى!
 - احك لطفلك عن يومك وعن مشاعرك عندما تكون معه أو مشاعرك عندما تكون بعيداً عنه!

أول حزن

أتذكر أول حزن في حياتي كطفلة عندما توفي جدي والد أبي. كنت في الرابعة وكنت أحبه وأحب حضنه جداً. كان طيباً بشوشاً في وجهي. كنت أحياناً أبات عنده، في سريره وسرير جدي، وكان يستيقظ مبكراً جداً ويخرج ليقطف زهور الياسمين، ثم يعود مسرعاً ويخيطها عُقدًا لي. كنت أستيقظ في الصباح، وقد ذهب إلى عمله، على رائحة الياسمين. رائحة الياسمين أصبحت لغتنا المشفرة، يخبرني من خلالها أنه يحبني ويفكر بي ويتذكرني، حتى لو لم يكن موجودًا. حتى لو لم أكن أراه. حتى لو مات.

رأيت أبي يقاوم دموعه، رأيت أمي حزينة صامته. رأيت باب دولاب الطريقة يفتح ورأيت البدلة السوداء تخرج. شعرت أن هناك شيئاً ما، شعرت أن هناك ألماً ما، شعرت بالحزن، سألت أمي عما يحدث، فقالت لي: «جدو راح عند ربنا». لم أفهم معنى الجملة. لم يشجعني أحد على طرح الأسئلة. لم أتحدث عن مشاعري. فهمت على مر السنوات معنى رد أمي ولكنني فهمت قبل مرور السنوات معنى الفقد والحزن والألم.

أما «آدم»، فأول حزن كان عندما طار «تيتو». كان «تيتو» ببغاء أليفًا وكان يحبنا ويعيش

وسطنا خارج الففص. كان يأكل معنا ويغرد عند استيقاظنا ويحط على أكتافنا. كان «تيتو» مصدرًا للبهجة والدفء وكان أول طائر في قائمة حيواناتنا الأليفة. بدون الدخول في تفاصيل، طار «تيتو» ولم تتمكن من استعادته! حزنت وحزن «أدم»، ومن خلال حزن «أدم»، تواصلت مع حزني القديم عندما مات جدي.

أدركت الأخطاء العديدة التي يرتكبها الأهل في التعامل مع المواقف الأولى للحزن والفقْد في حياة الطفل!

أولاً الكذب: نصحني المقربون بأن أقول لـ«أدم» أن «تيتو» وجد ببعاء مثله، وأنه الآن يعيش في عشة جميلة وسوف يكون أسرة!

ثانياً الكبت: النصيحة الثانية كانت تشتيت انتباه «أدم» كلما سأل عن «تيتو» بلعبة أو نشاط أو نهره عندما يبكي متأثراً بحزنه!

ثالثاً الإبدال والإحلال: النصيحة الثالثة كانت أن أشتري ببعاء آخر مماثلاً لـ«تيتو» ونطلق عليه اسم «تيتو» وكأنه هو «تيتو» ليحل محل «تيتو»!

عندما نظرت إلى النصائح الثلاث أدركت أسباب أخطائي، وأخطاء البالغين مثلي، في حالات الانفصال أو الطلاق، أو الفقْد بصفة عامة! لقد تمت برمجتنا منذ الصغر على إنكار الحزن وكبته ومحاوله ملء الفراغ بأي شيء أو أي شخص! لقد أدمنا جميعاً المسكنات! لم نتعلم كيف نتعامل مع هذا النوع من المشاعر، مثلما يعاني الكثير منا في التعامل مع المديح أو الحب أو المجاملة!

أدركت أنني يجب أن أكسر هذا النمط وألا أكرر هذه الأخطاء مع «أدم»!

في البداية، بحثت أنا و«أدم» عن «تيتو» في كل مكان، وأبلغنا الجيران والعمارات المجاورة، وعندما باءت محاولتنا بالفشل، حان وقت تقبل الواقع! «تيتو» ضاع!

نظر «أدم» لي منتظراً إجابة حاسمة عن مصير «تيتو»، فقلت له الحقيقة. قلت له إنني لا أعرف! قد يكون حراً بين الأشجار، وقد يكون في منزل أحد الجيران، وقد يكون مريضاً، وقد يكون مات. لا أعلم ماذا حدث له ولكنني أتمنى أن يكون سعيداً وآمناً! سوف نضع الماء والطعام خارج شرفتنا عله يأتي!

شعر «آدم» برغبة في البكاء. تركته يبكي ولكني لم أستطع البكاء. أردت أن أبكي ولكني مبرجة على مقاومة الحزن والنفور منه!

سأل «آدم» عن قفصه وعن مرآته وعن ألعابه وملحقاته، فقلت له إننا سنتركها في الخارج عله يعود، وإذا لم يعد فسوف نفكر معاً فيما نفعل بها!

من وقت لآخر يقول «آدم» إنه يفقد «تيتو» وأنه يريد أن يبحث عنه! أحتضنه وأقول له إنني أفتقده أيضاً!

طلب مني «آدم» ببغاء آخر، فقلت له إن هذا ممكن ولكنه لن يكون «تيتو»، سوف يكون ببغاء آخر!

أما أنا فبدلت مجهوداً كبيراً لأقاوم رغبتني العاجلة الملحة في شراء ببغاء آخر لأسكن به ألم افتقاد تيتو، ووجدتني أتخبط كثيراً! أقرر شراء ببغاء واحد، ثم أقرر شراء ببغاوين، ثم أقرر شراء طيور زينة خضراء، ثم أقرر الذهاب إلى سوق الجمعة لأختار!

اليوم «آدم» أكثر استقراراً مني وأكثر تقبلاً لفقد «تيتو» مني! اشتريت «بيسو»، وظللت أقارن بينه وبين «تيتو» لفترة طويلة. لم أحب «بيسو» إلا عندما سمعت تغريده وشاهدت قصة حبه وزواجه من «خوخة». لم أحب «بيسو» إلا بعد أن باضت «خوخة» وشاهدته يحضن البيض بالتناوب معها، ثم شاهدته يطعم صغاره ويحنو عليهم. عندها أدركت أن «بيسو» ليس «تيتو» وأنني يمكنني أن أحبه بدون أن أشعر بالخيانة لذكرى «تيتو».

الحزن والفقْد مشاعر معقدة جداً وتعامل معها، كل منا، بطريقتنا الخاصة. أسوأ تعامل مع الحزن هو رفضه، في حالات الحزن والفقْد، لا تقعوا في الأخطاء السابقة! لا تبرمجوا طفلكم على تضليل أنفسهم وكبت مشاعرهم وإدمان مسكنات الألم المختلفة!

كنت أتمنى، بدلاً من أن أقضي طفولتي ومراهقتي كزهرة عباد الشمس، مائلة نحو قضبان شبك الفصل، باحثة عن الشمس وأشعتها، كنت أتمنى أن أقضي المزيد من الوقت مع جدودي. كنت أتمنى أن أعرفهم أكثر وأسمع قصصهم وخبراتهم وحكايات زمينهم. كنت أتمنى أن أستمع أكثر برائحة الياسمين والحب غير المشروط. لي إخفاقات وعثرات عديدة مع «آدم»،

لكني كنت حريصة على فرص الذكريات السعيدة. أتمنى أن تصبح واحدة من ذكرياته تلك في قوة و«غلاوة» رائحة الياسمين لدي. ما أروع الشعور بالحب والدفء والطمأنينة كلما جاء الربيع وأزهرت أشجار الياسمين. ما أروع الشعور بالراحة النفسية والسعادة كلما تفتحت في الروح براعم زهور البرتقال والليمون. أغمض عيني، أستنشق بعمق، ثم أراقب الفقاقيع البرتقالية تأخذ كل حزن وتطير.

كلمات مفقودة

كل من لديها طفل عمره ما بين عام ونصف وثلاثة أعوام تعرف مرحلة العض والضرب والصفع جيداً! فجأة وبدون مقدمات يصفع الطفل وجه أمه أو أبيه أو طفل آخر! فجأة يجذب الطفل الشعر! فجأة ينهال الطفل على شخص ما عضاً وقرصاً! فجأة تنهال عليه الأيدي الصغيرة بضربات مؤلمة للغاية! هذه مرحلة يمر بها جميع الأطفال ويشكو منها الأمهات. عادة تنتهي هذه المرحلة تدريجياً حتى تنتهي تماماً مع نهاية العام الثالث. هناك سببان أساسيان لهذه المرحلة، الأول هو الحاجة للاهتمام والثاني هو الرغبة في التعبير.

لأسباب مرتبطة بالبقاء، تُخلق الرضيع صارخاً باكياً ملجأً في طلباته، ويستمر في التعبير عن نفسه بكل وقاحة - كما يسميها الكبار - حتى يتمكن من حماية نفسه بالجري والاختباء، ومن البحث عن طعام له. لولا هذه الصفات لمات الرضيع بسبب السهو والإهمال. هكذا تعلمنا أن الطفل أقل من ثلاث سنوات كائن أناني من الدرجة الأولى، هو محور الكون والكل مسخر لخدمته وللترفيه عنه وللاستجابة إلى طلباته. في هذا السن لا يفهم الطفل أن فلاناً مرهق أو مشغول أو يعمل أو يرتاح أو حزين أو غيرها من المشاعر البشرية الطبيعية.

قد ينظر الطفل إلى أمه فيراها حزينة، سوف يدرك حزنها ولكنه لن يعرف كيف يتركها لحالها أو كيف يلعب بعيداً عنها أو كيف يراعي مشاعرها، لأنه بكل بساطة سوف يصر على حقه في الاهتمام واللعب والترفيه، سوف يصفعها حتى تنظر له!

أما بالنسبة لقدرة الطفل على التعبير في هذه المرحلة، فهي قدرة محدودة للغاية! معظم الأطفال لا يتحدثون في عمر عام ونصف ومن يتحدث قليلاً في عمر عامين لا يمكنه استخدام كلماته للتعبير عن نفسه.

كيف يقول طفل لأمه «انظري لي والعبي معي»؟ يضربها!
كيف يقول طفل لأبيه «من فضلك اترك هاتفك وتكلم معي»؟ يصفعه
كيف يقول طفل لجدّه «أنا سعيد جداً بزيارتك وهيا بنا نلعب»؟ يعضه
كيف يقول طفل لطفل آخر «هذه لعبتي، لا تأخذها»؟ يصفعه ويعضه
هكذا يعبر الطفل في مرحلة ما قبل الكلام عن نفسه.

السؤال الآن هو: ماذا تفعلون حتى تمر هذه المرحلة بسلام؟

أولاً: تفهموا دوافع الطفل وتجنبوا إثارتة! لا تتجاهلوه ولا تشغلوا بغيره، وإذا اضطرتهم للنظر إلى الهاتف مثلاً، استأذنوه واشرحوا له أسبابكم.

ثانياً: ساعدوا الطفل بالكلمات. قولوا له إنكم تفهمون أسباب غضبه، واسألوه: «إنت غاضب لأنني تركتك؟» أو «هل تشعر بالملل؟» أو «هل تريد أن نلعب معاً؟»

ثالثاً: الحقوا البلاء قبل وقوعه، الحقوا اليد الصغيرة قبل أن تصفع أو تضرب. أمسكوها بحسب وقولوا للطفل إن الضرب ممنوع ثم قبلوا يده.

رابعاً: لا تتركوا الأطفال يلعبون وحدهم بدون إشراف! إذا كان طفلكم يتحدث فسوف يضربه من لا يتحدث، وإذا كان طفلكم لا يتحدث فسوف يضرب الجميع.

خامساً: لا تضربوه! كيف تعلمونه ألا يضرب وأنتم مثله الأعلى في الضرب؟

سادساً: ملابس الموقف، الطفل الجائع أو المرهق أو النعسان أو المتألم أكثر عرضة لنوبات الضرب والصفع والعص.

سابعًا: امنعوا السكريات والحلويات وكل ما هو مليء بالمواد الحافظة! هذه المنتجات ومكوناتها تؤثر على كيمياء المخ بصورة مباشرة وتفقد الطفل القدرة على التحكم بنفسه.

ثامنًا: راجعوا ما يتلقاه الطفل من خلال الشاشات من حوله، الإعلانات والمسلسلات والبرامج الإخبارية غير مناسبة للأطفال.

تاسعًا: تذكروا أن الطفل أقل من سنتين لا يجب أن يتعرض للشاشات والحد الأقصى للطفل بعد عامين هو نصف ساعة متفرقة.

عاشرًا: تأكدوا أن طفلكم ليس ضحية عنف قبل أن تتهموه بالعنف.

أما أنا، فقد كانت تجربتي مختلفة! فلنتخيل معًا الراديو، لتسمعوا الإذاعة واضحة جلية، يجب أن تضبطوا الموجة. أنا و«آدم» كنا على نفس الموجة دائمًا وكأن الحبل السري لم ينقطع. كنت أشعر به قبل أن يجوع، فأرضعه. كنت أنظر لوجهه، فأعرف فيما يفكر وكنت أرى إلى ماذا تشير أصابعه، فأفهم كيف أشبع فضوله. كنا مضبوطين على موجة واحدة. بدأت مرحلة العض والضرب والصفع ولكنها انتهت سريعًا. بدأت كلعبة وانتهت حين شعر «آدم» أنني لا أحب لعبته تلك.

تنتهي هذه المرحلة، في حالة الطفل الذي ينمو نموًا طبيعيًا، بانتهاء العام الثالث. لكن في حالة الطفل المتأخر لغويًا، الطفل الذي يفهم كل شيء يقال له ويعبر عن نفسه بالإشارة وبلغه الجسد لأنه لا يعرف كيف يحرك لسانه وفكه ليخرج كلمات مفهومة، تبدأ هذه المرحلة من بعد الثالثة إذا لم يذهب إلى الحضانه مثل «آدم». كما حكيت لكم، لقد صعب عليّ «آدم» من المصير الذي سيواجه في الحضانات، فعزفت عن الفكرة، ولتوفير بيئة اجتماعية ثرية، كنا نذهب إلى النادي كثيرًا ونخرج مع العائلة والأصدقاء.

في البداية، كان «آدم» يخاف من الأطفال. كان يخاف من صوتهم المرتفع وحركتهم السريعة وتصرفاتهم المبالغية. كان يهرب منهم ويتجنبهم. لم أجبره. لقد كنت حقًا أرى الدنيا من منظوره، كيف لطفل بقدراته المحدودة حماية نفسه من مثل هذا الخطر إذا اضطر لمواجهة؟ فبدلاً من إجباره على التواصل معهم، كنت أفترش الرمل مثله وألعب معه بالجاروف والجرادل والماء. إذا مر طفل توسمت فيه حسن التربية، دعوته إلى اللعب معنا. كنت ألعب معهم وكأنني

طفلة أكبر قليلاً، أشرح لهم المشروع، أرسم الخطة، أوزع الأدوار، وأفرح بالإنجازات. هكذا علمت «آدم» كيفية التعارف على الأطفال وكيفية اللعب معهم.

لم يكن الأمر بهذه البساطة، بعمر ثلاث سنوات، كان «آدم» لا يقول سوى عدد بسيط جداً من الكلمات ولم يكن اسمه من بينها بعد. كان من الصعب عليه أن يطلب من طفل أن يلعب معه، فكان يجذبه ليجلس. قد يقع الطفل وقد يستاء وقد يشعر بالغربة. أغلب الأوقات كنت أنا أقوم بالكلام بدلاً منه. عندما أصبح «آدم» في الرابعة من عمره، تحسن كلامه وأصبح يقول جملاً، ولكن كلامه غير مفهوم على الإطلاق! في هذه المرحلة، لم يفهم كلام «آدم» سواي وبعض أفراد عائلتي. كنت أعمل مترجمة بدوام كامل.

استمر تحسن «آدم»، ولكن ظلت لغته غير مفهومة لمن لا يعرفه. أحياناً، كان ينفر منه الكبار وأحياناً كان ينفر منه الصغار، ودائماً كنت أنا صديقتة التي تفهمه وتتفاعل معه. لكن بسبب هذا التأخر اللغوي، تأثرت قدرات «آدم» الاجتماعية سلباً. كنت أرى نموذجاً مصغراً للإنسان الغاب، يرى ولداً، يريد أن يقول أهلاً، فيخبطه في صدره أو يدفعه بيديه. يريد أن يلفت نظر فتاة ما، يحمل كرسي من كراسي النادي فوق رأسه ويسير به وهو ينظر لها بفخر. يريد أن يقول لولد أن يتسلق معه الشجرة، يأخذ طوبة ويقذفه بها، ثم يشير إلى الشجرة ويبدأ في التسلق على أمل أن ينضم له الولد.

كنت أراقب ولا أتدخل إلا في حالات الخطر. كنت أحاول أن أعلم «آدم» الجمل التي يجب أن تستخدم في هذه المواقف، ولكن للأسف قدراته لم تسعفه. ثم بدأت مشكلة جديدة! مشكلة الصراخ! الصراخ أسهل من الكلام المحشور بين الفك واللسان! إذا كان «آدم» مثلاً، يحفر حفرة في الرمل، وانضم له ولد آخر وبدأ يحفر في اتجاه مختلف أو بدأ يردم الحفرة، يبدأ «آدم» في الصراخ! «آدم» يريد أن يقول إنه يعمل! يريد أن يقول إن للحفرة هدفاً! يريد أن يقول احفر معي ولا تفسد عملي! لكنه لا يقول! لا يسعفه لسانه!

في رحلتي مع «آدم»، عشت متعة لم أعشها من قبل، واختبرت ألماً لا أجد له وصفاً. في مكان ما، في معدتي وبين ضلوعي، يأتيني هذا الألم الذي لا هو وخزاً ولا هو مغصاً. إنه نوع من الألم الذي يشبه بقعة الخبر، يبدأ مركزاً في بؤرة ما، ثم ينتشر ويتوغل في كل الاتجاهات

في نفس الوقت _ حتى يصل إلى رأسي وذراعي ورحمي وساقِي_ فأشعر بالدوخة ويختل توازني ولكنني لا أسقط ولا أموت! أحياناً يتكثف الألم في أذني، فأسمع طنيناً، وأحياناً أخرى يتكثف في حلقي، فينغلق وأكاد أختنق بِرِيقِي.

لم يكن الألم هو الإحساس الوحيد الذي يتمكن مني في مثل هذه المواقف! الغضب، رفيقي القديم، يزأر في رأسي كثيراً. هذا الزئير المألوف الذي يقلق منامي ويعكر صحوي. هناك أيضاً الذنب. الشعور بالذنب كذئب جائع ينهش في قلبي ومقلتي فيترك الأول دامي والثانية باكية نادمة تائبة. زئير غضبي ليس موجهاً إلى أحد بالتحديد ولكنه يشمل الجميع، يزأر الغضب في وجه «آدم» وفي ظهر أبيه وفي مرآتي وتجاه السماء! أما ذئب الذنب، فينهشني وحدي في خلوتي حتى لا أجد من يغيثني أو يوقف نزيفي. يتركني الذنب فريسة سهلة للخوف، الخوف من الفقد، الخوف من زوال النعمة، الخوف من خواطري، أخاف أن يموت «آدم»!

ديسبراكسيا

اليوم يمكنني النظر للخلف، للبدايات، لأرى بوضوح علامات الديسبراكسيا. في البداية، دعوني أعرّفكم بالديسبراكسيا. هي صعوبات يواجهها الطفل في الحركة والتوافق. كل ما يتطلب أن يرسل المخ إشارات للعضلات أن تتحرك، به نوع من العطب. مثلها مثل أي مشكلة بالجهاز العصبي، الديسبراكسيا درجات، وكل واحد ونصيبه. أغلب الأوقات، لا تأتي الديسبراكسيا وحدها، أحياناً تصحبها الديسلكسيا والديسجرافيا وغيرها من الصعوبات.

بعد محنة الولادة وفترة «آدم» في الحضانة، أخذته إلى البيت بعد خمسة أيام من ميلاده. في أول زيارة لطبيب الأطفال، اليوم السادس أو السابع، رآه الطبيب وسأل عن سبب عدم حركته. الطفل في هذه المرحلة يحرك يديه وساقيه في الهواء بصورة لا إرادية. طلب مني أن أخفف من ملابسه وأن أحمله وطلب أن يراه بعد عدة أيام. عندما رآه للمرة الثانية، بدا عليه السرور وطمأنني. بعدها اخترت طبيبة أطفال أخرى بجوار منزلي حتى أتجنب القيادة لفترة طويلة بالرضيع. كشفت عليه وأكدت أن كل شيء على ما يرام.

في هذه الفترة، كنت أقرأ تطور نمو الطفل بالشهور في كتاب د. سيرز. لاحظت أن هناك

فجوة. كل ما كان مكتوبًا عن الطفل بعمر شهر، رأيتُه في «آدم» بعد شهرين. كل ما كان مكتوبًا بعمر شهرين رأيتُه بعمر ثلاثة أشهر. ثم بدأت الفجوة في الاتساع، كل ما كان مكتوبًا بعمر أربعة أشهر حدث بعد ستة أشهر وما كان مكتوبًا بعمر ستة أشهر حدث بعمر ثمانية أو تسعة أشهر. هكذا تأخر «آدم» في إمساك لعبة بيده وفي ترك لعبة من يده وفي الانقلاب من جنب إلى جنب وفي الجلوس مستقلًا. كلما سألت الطيبية، أو أمًا أكثر خبرة، كان الرد أن كل طفل ينمو بإيقاعه الخاص وفي وقته وأنه لا داعي للقلق.

تأخر «آدم» في الضحك بصوت عالٍ، وحتى بعد أن تعلم القهقهة، حتى يومنا هذا، يصاب بالزغطة بمجرد أن يضحك وكأن الحجاب الحاجز يختل كلما ضحك. كان يناغي ويصدر أصواتًا ولكن من الواضح أنها كانت أقل من الطفل «الطبيعي»، لدرجة أن أخي علق في مرة أنه لا يسمع صوت «آدم» إلا وهو وحده معي. لم ألاحظ أنني لم أر لسان «آدم» خارج فمه أبدًا، الأطفال بعمر ستة أشهر يخرجون لسانهم في محاولة لتقليد الكبار. تأخر «آدم» كذلك في الحبو والوقوف والمشي وباقي مهارات الحركة. ثم أصبح تأخر الكلام واضحًا ومن بعدها مشاكل الاتزان ومن بعدها صعوبات الإمساك بالقلم للعب أو التلوين ومن بعدها الكتابة.

لم يردد «آدم» أغاني الأطفال ولم يحفظ أيًا من الأناشيد ولم يلتقط أي كلمة من حلقات الكارتون التعليمية. هو يفهم كلامي جيدًا ولكن كلامه أشبه بلغة خاصة به، تعلمتها أنا من العشرة. كان من الطبيعي أن ينعكس تأخر الكلام على تأخر تعلم العد وأصوات الحروف، ومن بعدها القراءة. بعمر 5 سنوات، كان «آدم» يواجه صعوبة في العد وتذكر اسم الأرقام وشكلها. كان يواجه صعوبة في تذكر شكل الحروف. عندما بدأ يكتب، في وقت ما بين السادسة والسابعة، بدأ يعكس الحروف المتشابهة وبدأ يرتبك في القراءة. فبالإضافة للتلعثم، لديه نسبة من عسر القراءة. أما الكتابة، فلديه درجة من صعوبات الإمساك بالقلم والكتابة.

في البداية، كنت أعمل جاهدة على «علاجه» من الديسبراكسيا. أريدها أن تختفي! لا أريد أن أرى أيًا من أعراضها عليه! لا يوجد علاج دوائي لها. لا يمكن أن نتدخل بطريقة ما ونعالج الجين المسبب لهذه الأعطال المتكررة. لجأت للهوميوباثي ولم أر تأثيرًا. بدأت معه

تدريبات جيمز منفردًا وعمره ثلاث سنوات ونصف لأساعده على الاتزان والقفز والجري والسير بصورة شبه طبيعية.

ثم بدأت معه دروس البيانو وعمره خمس سنوات لأساعده على تقوية عضلات يديه وأصابعه وتحسين حركتها وقدرته على التحكم بها، كذلك لتحسين قدرته على الإنصات وقدرة عقله على فك شفرات الأصوات، وتحسين قدرته على القراءة من خلال قراءة النوتة الموسيقية، وأخيرًا تطوير التوافق العضلي البصري.

بعد البيانو، بدأت دروس الرسم لتطوير تحكمه بالقلم والخطوط، وبدأت تدريبات التنس الخاصة لتحسين التركيز وسرعة رد الفعل وتنشيط الجهاز العصبي والحركة في الملعب. ثم كانت كورسات الشطرنج لزيادة التركيز والثقة بالنفس والسباحة لتنظيم التنفس والتحكم بعضلات الساقين. هذا بخلاف عملي أنا معه بأنشطة المونتيسوري. فأنشطة المونتيسوري من بعد الثالثة أصبحت ممنهجة ومنظمة وتعتمد على أدوات متدرجة في الصعوبة لتعليم أنشطة الحياة العملية ولتنمية المهارات الحسية وفروع الثقافة والعلوم واللغة والرياضيات.

كنت أشعر أنني في سباق مع الزمن لعكس لعنة الديسبراكسيا وردها. كنت أحاول أن أحو أثرها وألا يلاحظ أحد أن طفلي «غريب» أو «معيوب». كنت محبطة! مهها جاهدت وحاوالت، كنت أفضل. للأسف نحن نعيش في مجتمع قاسٍ. كم مرة انتهكت سيدة غريبة خصوصيتي وسألتي عن «آدم» وما به وتبرعت بالنصائح والمعلومات؟ كم مرة سخر الأطفال من «آدم» بسبب طريقة كلامه؟ كم مرة سألتني أم على صفحتي عما به؟ كم مرة عاد لي طفلي باكيًا لأن الأطفال قالوا عنه إنه ضعيف أو أنه خواجه؟ كم مرة صرخت أنا فيه وقلت له إنه بطيء؟ كم مرة زار غضبي في وجهه وأمرته أن يعدل من لسانه وأن يتحكم بشفتيه؟ كم مرة نفذ صبري؟ كم مرة بكيت وصرخت؟

جذبني عنوان مقال عن أم عاجلت ابنها من سمات التوحد. شعرت بالألفة وأنتني أريد أن أتعلم منها. فوجئت أن كاتب المقال شاب ممن لديهم سمات التوحد، كان يهاجم هذه الأم وكل أم غيرها تحاول أن «تعالج» طفلها المختلف! قال في المقال إن هناك أطفالاً مختلفين عصبيًا وأن جهازهم العصبي يعمل بطريقة مختلفة وليس معطوبًا. قال إن هذه الأم،

التي تضغط على طفلها لإخفاء سمات التوحد، مثل الرفرفة بيديه، لا تعالجه. هي فقط تكبته وتقهره وتستنزف مجهوده الذهني للسيطرة على يديه بدلاً من أن يفهم ما يقال له، مثلاً. قال إن دورها ليس علاجه، وأن المطلوب منها أن تساعد أن يعيش في هذا المجتمع بقدراته ومواهبه الخاصة. دورها أيضًا أن تتقبله كما هو وتساعد المجتمع من حوله على تقبله واستيعابه وتوظيفه بصورة صحيحة.

انتشلتني هذا المقال من صراعي مع طواحين هواء الديسبراكسيا. أدركت أنني مهما فعلت، فلن تخفني الديسبراكسيا ولا الديسلكسيا ولا الديسجرافيا ولا أي شيء مما ولد به «آدم». ليس في وسعي سوى الاستمرار في التدريبات لتحسين قدرات «آدم» ومساعدته أن يكون أفضل ما يمكنه أن يكون. ليس في وسعي سوى الاحتفال بانتصاراتنا الصغيرة المتواصلة في التعليم. ليس في وسعي سوى تعليم «آدم» كيفية حماية نفسه من إيذاء الآخرين وأن أساعده على فهم حالته واختلافه.

في الأوقات التي يتوقف فيها زئير الغضب، ويتركني ذئب الذنب، وأتحرر من دوامة الألم والخوف، أحتضن «آدم» كل يوم وأقول له إنني أحبه. أذكره وأذكر نفسي أنه هدية ربنا. أقول له إنه دعوتي المستجابة وحببي الأعمق وأجمل ما بحياتي. أشكره على مجهوده الذي لا يبذله أي طفل في سنه_ وأشكره على محاولاته وأذكره أنه يستحق الحب، الحب غير المشروط. كم أنا محظوظة بهذا الطفل الجميل من الداخل والخارج، محظوظة بجمه وبحضنه وبإبتهامته. لقد جاء إليّ معلمًا ومعالجًا. الحمد لله على نعمة «آدم».

نعمة المونتيسوري

رفاقي في الرحلة، قارئات وقراء هذه القصة، مثلكم مثل الكثيرين، بالطبع تتساءلون لماذا لم أعرض «آدم» على الأطباء؟ هناك عدة أسباب، أول سبب أن التأخر ومشاكل الحركة لم تظهر وتتأكد قبل أن أتم «آدم» عامه الثالث. قبل هذا، كان مثله مثل أي طفل يصل متأخرًا لعتبات النمو المختلفة. السبب الثاني أن طبيبته، أثناء الزيارات الدورية في أول عام ونصف، كانت تؤكد أن عضلاته سليمة وهيئته مضبوطة ولا يوجد داع للقلق. السبب الثالث يعتبر رفاهية للكثيرين ولكنه أهم سبب بالنسبة لي، أردت أن أحافظ على ذكريات طفولة «آدم». لا أريده أن يكبر وأغلب ذكريات طفولته بين الجلسات والأطباء والبكاء ومشاعر الرفض وغيرها من معاناة الأطفال أمثاله في جلسات التخاطب والتأهيل المهني. أبدى «آدم» استعدادًا وترحيبًا بزيارة اختصاصية تخاطب وهو في السابعة من عمره. لم تكن تجربة مثمرة.

ساعدتني فلسفة المونتيسوري ونهجها في العمل مع «آدم» وتنمية مهاراته. اعتمدت بصورة أساسية على «الفترات الحساسة». ماهي «الفترات الحساسة»؟ من خلال عملها مع

الأطفال، لاحظت د. «ماريا مونتيسوري» حالة من الهوس بشيء أو آخر تتاب الأطفال في فترات متلاحقة. كما لاحظت أن هذا الهوس يظهر فجأة ويختفي فجأة وبدون مقدمات. أطلقت «ماريا مونتيسوري» على هذه الموجات اسم «فترة حساسة» وهذه هي مواصفاتها:

- تشعر أن الطفل ازداد وعياً بطريقة أو أخرى وكأنه نضح فجأة.
- تشعر كما لو أن هناك قوة خفية توجه اهتمام الطفل بعنصر معين في بيئته.
- تشعر أن الطفل وضع كل تركيزه في هذا العنصر واستبعد كل شيء آخر حوله.
- تشعر أن هناك شغفاً والتزاماً تجاه هذا العنصر.
- تشعر أن هناك شيئاً ما في لا وعي الطفل يحركه تجاه هذا العنصر ويلهمه طرق استكشافه والتفاعل معه - لا يمكنك منعه مهما حاولت!
- تجد أن الطفل يكتف نشاطه كله في التفاعل مع هذا العنصر لفترات طويلة بلا ملل أو تعب وكأنه يستمد طاقته من بهجة هذا التفاعل، لا تقاطعه!
- المرحلة الحساسة مرحلة انتقالية يتعلم الطفل من خلالها أشياءً محددة، وبمجرد انتهائها لا يمكن استعادتها مرة أخرى.

قد تجد طفلاً دون الثانية من عمره لا يمل ولا يكل ولا يفهم السلم ودرجاته صعوداً وهبوطاً وزحفاً وتسليقاً. قد تجد طفلاً يضع كل ما يصادفه على أنفه ليشم رائحته. قد تجد طفلاً آخر مهووساً بمقبض الباب، كل باب! لا يكل ولا يمل من فتح وغلق الأبواب باستخدام المقبض. هناك فترة حساسة خاصة باللغة واكتساب مفرداتها، وفترة حساسة أخرى لمحاولة معرفة الحروف وأصواتها والأرقام ومعنى رموزها. هناك فترات حساسة للموسيقا والفن والمهارات الفنية!

كل الأطفال يمرون بنفس المراحل الحساسة ولكنهم يختلفون قليلاً في التوقيت! كان دوري هو مراقبة «أدم»، واستغلال الفترة الحساسة التي يمر بها لمساعدته على إتقان المهارة التي تستحوذ على اهتمامه، بتوفير العديد من الفرص - أنشطة وألعاب - للتدريب على هذه المهارة!

كيف تراقب طفلك على طريقة المونتيسوري؟

س: متى تراقب طفلك وهو يلعب؟

ج: طوال الوقت

س: لماذا تراقب طفلك وهو يلعب؟

ج: لأن لعب الطفل هو عمله! لمعرفة الفترات الحساسة واهتمامات الطفل الفردية وقدراته ونموه، يجب عليك أن تراقبه يعمل.

س: كيف تراقب الطفل وهو يلعب؟

ج: في بيئة صديقة للطفل، سوف يكون متاحًا أمامه العديد من الأنشطة ليختار بينها. قد يختار الطفل تصفح كتاب، أو تشغيل أسطوانة موسيقا، أو ري الزرع، أو إطعام القط، أو تكوين أشكال بمكعبات الليجو، أو تنظيف الطاولة، أو غسيل الأطباق، أو الرسم، أو اللعب بالحروف الممغنطة، وغيرها من الأنشطة المتاحة أمامه في بيئة تساعده على الاستكشاف والنمو والتطور.

عليك كشخص بالغ الانتباه للعب طفلك! لا تنتهز فرصة انشغال الطفل بنشاط ما للقيام بأعمال خاصة بك، اترك له مساحة للعب المستقل وراقبه من بعد! راقب اختياره للأنشطة - هل يفضل الكتب؟ الرسم؟ الموسيقا؟ النظافة؟ لعب الكرة؟ تصميم الأشكال الهندسية؟ اكتب ملاحظتك في ورقة لتتابع تغير اهتمامات طفلك من يوم لآخر ومن أسبوع للتالي ومن شهر لشهر!

راقب المدة التي يقضيها الطفل في كل نشاط! هل طفلك يبدأ نشاطًا ثم يمله سريعًا؟ هل طفلك يبدأ نشاطًا ويستطيع التركيز حتى ينتهي منه؟ هل طفلك يكرر نفس النشاط؟ هل طفلك سعيد أم محبط خلال قيامه بهذا النشاط؟ كل هذه أسئلة تساعدك على تدارك أي خطأ في البيئة المحيطة بالطفل أو انحراف في شخصية الطفل، سأحكي لكم بالتفصيل عن انحرافات سلوكيات الأطفال فيما بعد.

عند مراقبة طفلك راقب نمو قدراته الحركية: الجلوس، الحبو، الوقوف، المشي، الجري،

النط، الرقص، والتوازن. كما راقب قدرته على استخدام يديه وأصابعه والتحكم في عضلاته الدقيقة: إمساك اللعب، وضع الأشياء في فمه، إمساك الأشياء بإصبعين فقط، إمساك الأشياء الصغيرة، فتح وغلق العلب والأدراج وأغطية الزجاجات الفارغة، استخدام المقص والإمساك بالقلم وغيرها من علامات النمو الصحي.

راقب أيضًا قدراته الحسية مثل رؤية الألوان وتمييزها، الإحساس بالأسطح والملمس والحرارة والبرودة والمذاق والأصوات المختلفة والروائح. مراقبة لعب الطفل تتيح لك فرصة لمعرفة قدراته العقلية ونمو إدراكه للأحجام والأوزان والخطر والمساحات والأطوال والأبعاد. كما تراقب ذاكرته وقدرته على الفهم وربط الأمور ببعضها.

تطور اللغة أيضًا تتم مراقبته من خلال اللعب: نطق حروف جديدة، محاولات الحديث الأولى، استخدام الكلمات وبداية تكوين جمل من كلمتين وثلاث. اللعب فرصة عظيمة لتنمية المهارات الاجتماعية من خلال المحاكاة والتمثيل وتبادل الأدوار وتنظيم فرص لقاءات لعب الأطفال. مراقبة لعب الطفل تتيح لك متابعة قدرته على التواصل مع من هم في مثل عمره وقدرته على المشاركة والاندماج.

مراقبة لعب الطفل مهمة للتعرف على جوانب مهمة من شخصيته، ينفر من ملمس الرمال، ينفر من ملمس العجين، ينفر من ملمس الورق، ينفر من ملمس الصمغ، يبكي عند ارتطام شيء بالأرض، يضحك عند فرقة البالونات، وغيرها من الصفات الخاصة بكل طفل. معرفة هذه الأشياء سوف تساعدك في اختيار أنشطة تناسب ميول طفلك وتبتعد عما يؤلمه أو يزعجه.

هكذا كنت أراقب «أدم» ولهذا استطعت أن أسخر أنشطة المونتيسوري لمساعدته. لم تكن لدي خطة محددة ولم أعرف ماذا سأقدم له بعد يوم أو أسبوع أو شهر. كنت حريصة كل الحرص على تقديم تجارب حياتية غنية له من خلال زيارات المزرعة والنادي، ومن بعدها المتاحف والمعارض وأسواق الحرف، ومن بعدها المعالم السياحية وزيارة المحافظات.

لقد تميزت د. «ماريا مونتيسوري» عن غيرها، كما تميزت أنا عن غيري، بأنها كانت دائمًا تضع نفسها مكان الطفل، وكانت دائمًا تطلب من الطفل أن يعلمها ويوجهها. لهذا نجد

أن نهجها يحترم الطفل وقدراته وتوجهاته، كما أن خطوات تقديم أي نشاط من أنشطة المونتيسوري تقدم ببطء، ويقسم أي عمل إلى خطوات صغيرة يتدرب الطفل عليها واحدة تلو الأخرى. أثناء عمله، يستخدم الطفل أدوات حقيقية ولكنها مناسبة لحجم جسده وقوته وطول يديه وأصابعه. هذا هو سبب حبي الشديد لنهج المونتيسوري وسبب إضرابي عن الكلام عندما كنت في الثامنة من عمري.

كنت في الصف الثالث الابتدائي عندما تمنيت أن تنتهي حياتي أو أن تنتهي المدرسة أو أن يحدث أي شيء ينهي دوامة البؤس والشقاء، حياتي. أستيقظ في السادسة والنصف صباحاً، حتى أنزل من البيت في السابعة وربع، وأكون في المدرسة في السابعة والنصف، لأبدأ معاناة تستمر حتى الثالثة عصراً، كل خمس وأربعين دقيقة تدخل معلمة مختلفة ويتناوبن في التلقين وطرح الأسئلة والتسميع، ونجلس نحن الأطفال في صفوفنا ننقل ونكتب ونتصعب عرقاً.

كنت أكره حقيبتتي السوداء الجلدية المنتفخة بالكتب والكراريس، تسببت هذه الحقيبة في اعوجاج عمودي الفقري وأصبحت كشجرة مائلة لليمين. كنت أكره كتبتي جميعها لأنها لا تمثل أي أهمية بالنسبة لي، كله حفظ. كرهت كذلك كراساتني وخطي القبيح والعلامات الحمراء على الصفحات. اشتقت إلى أشعة الشمس والخضرة واللعب والانطلاق. في هذا العام، اخترت لأول مرة شعور موت جزء من الروح.

كنت تعيسة إلى حد التزوير! لقد زورت قطع الإملاء المنزلي، بدلاً من أن أجلس لكتابة قطعة يملئها عليّ أبي أو أمي، قررت تأليف قطعة وأسميتها «الهروب». لم أستخدم أي كلمات لا أعرفها وأعطيت لنفسي الدرجة النهائية، ثم زورت إمضاء أمي عليها! انكشف أمرني وتمت معاقبتي دون النظر إلى محتوى أول عمل أدبي لي ودون محاولة فهم دوافعي. ماذا يدفع طفلة هادئة مثلي للتزوير؟ ثم كررت فعلتي مرة أخرى عندما زورت درجة اللغة العربية ودرجة الرياضيات في شهادة الشهر وفي شهر آخر زورت إمضاء أبي على الشهادة.

كنت أقضي أمسياتي كلها في المنزل على مكنتي. على يميني تل الكراسات والكتب المطلوب مني استذكارها، وعلى يساري بقعة فارغة لأضع ما انتهيت منه من واجبات ثقيلة، وأمامي

الواجب المزعج المبهم القبيح! لم يعد هناك وقت للعب أو للنادي أو لأي نشاط من أي نوع! التهمت المدرسة حياتي كطفلة ولم أجد مخرج سوى الإضراب عن الكلام! قررت مقاطعة حياتي بمن فيها بهذا القرار اليأس تعبيرًا عن اعتراضى واستيائى!

لم ينتبه لي أحد! ما دمت أذهب إلى المدرسة وأجلس إلى واجباتى ولا يشكو من أخلاقى أحد فلاصمت دهرًا - إن شئت! ما بين النهر والزعيق والتهديد مضت أشهر صمتى. فجأة وجدت أُمى تزيل السجاجيد عن الأرض وتبرمها وتضعها في ركن، وتحلى الدواليب من محتوياتها وتفرش الملايات على الكراسى والأرائك. لم أفهم ولم أقطع إضرابى، ولكنى بدأت أسترى السمع وأراقب جيدًا ما يحدث حولى. سمعت كلامًا عن مدرسة أخرى وعن بلد آخر وعن ركوب طائرة! خفت، ولكنى استمررت في إضرابى الذى لم ينتبه له أحد.

في يوم من الأيام استيقظنا جميعًا، وارتدينا ملابسنا الشتوية وتركنا المنزل، ولم نعد إليه إلا بعد تسعة أشهر! تسعة أشهر سعيدة جميلة في ولاية فلوريدا بأمريكا. أتذكر بكائى بشدة عندما أرادت أُمى أن أرتدى زي مدرستى في مصر وأنا ذاهبة إلى مدرستى الجديدة أول يوم. قالت لي «لن يعرف أحد!»

التحقت بالصف الثالث الابتدائى تمامًا مثلما كنت في مصر ولكن شتان الفرق بين المدرستين شكلاً وموضوعًا! لا يوجد حفظ مباشر لأي شيء! جدول الضرب مثلاً وباقي العمليات الحسابية كنا نتعلمها في شكل ألعاب وأنشطة ومسابقات. كان يوجد في الفصل «كائتين» وهمى وكنا نمثل دور البائع والمشتري أغلب مدة حصص الرياضيات. أما العلوم، فكانت كلها تجارب حقيقية ورحلات ميدانية لجمع عينات من أوراق الأشجار والتربة والحشرات. المواد الاجتماعية كانت تقدم لنا على شكل قصص وأفلام وثائقية ومناقشات مفتوحة.

أتذكر عند عودتى أول يوم من المدرسة وكلى حيوية ونشاط وحماس، ولون بشرتى أحمر متوهج من الجري واللعب والحركة، سألتنى أُمى عن الواجب فقلت لها إننا لم نأخذ واجبًا. لم تصدقنى! لم تصدق أننى لم آخذ واجب طوال مدة دراستى بالصف الثالث والصف الرابع. سألتنى عن الكتب والكراريس فقلت لها إننا لم نأخذ شيئًا. لم تصدق أننا نترك كل شيء في الفصل وسوف نعود لنجده في اليوم الثانى والثالث وكل يوم. ثم كانت المفاجأة،

لا يوجد امتحانات، يوجد تقييم ومهيات ولكن لا يوجد رهبة وهيلمان ليلة الامتحان!
أسوأ ما في هذه المرحلة الجميلة من حياتي كان كتب المناهج المصرية التي أخذها والداي
معنا حتى أستذكرها بجانب دراستي هناك! كان الفرق واضحًا وللأسف لم ترجح كفة
المدرسة المصرية بمنهجها بنظامها بمدرسيها! لا أعرف مصري إذا كان استمر إضرابي عن
الكلام ولا أعرف كيف كنت سأواجه بؤس حياتي كطفلة في الصف الثالث الابتدائي في
مصر!

انظروا إلى أطفالكم وضعوا أنفسكم مكانهم وقوموا بتقييم جودة حياتهم بكل حيادية ثم
قوموا بالتغيرات اللازمة. بالتأكيد هناك ما هو أكثر وأفضل وأهم من المدرسة والواجبات
والامتحانات!

الفشل/النجاح

كيف يعد نهج المونتيسوري الطفل للنجاح ويحميه من الفشل؟

من خلال دراستها وخبرتها في التعامل مع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، ومن بعدها، عندما تعاملت مع الأطفال «الطبيين» في أول بيت للطفل، تعلمت د. «ماريا مونتيسوري» أن الشعور بالفشل هو أول وأهم عائق يمنع الطفل من النجاح والازدهار والنمو السليم. تكرار الشعور بالفشل يرسخ شعور الدونية لدى الطفل! يشعر أنه لن يعرف ولا يمكنه مهما حاول فيمتنع عن المحاولة! الطفل الذي اقتنع أنه «فاشل» لن يبذل الجهد المطلوب للنجاح لأنه يعلم أنه لن ينجح!

لذلك نجد أن هناك عدة قواعد حرصت عليها د. «مونتيسوري» لتحمي الأطفال من المشاعر السلبية المصاحبة للفشل:

أولاً: جميع فصول المونتيسوري تجمع أطفالاً ما بين ثلاث سنوات: 0 - 3 أو 3 - 6 أو 6 - 9 أو 9 - 12 وهكذا. السبب أن الطفل الذي يحتاج إلى المزيد من الوقت لإتقان مهارة ما

لن يشعر بالغبرة في فصله، والطفل الذي يتفوق في إتقان المهارات سوف يصبح مرشدًا وموجهًا وعاونًا لباقي الأطفال. هكذا تتخلص المنافسة وتنمو روح التعاون في بيئة المونتيسوري.

ثانيًا: لا توجد اختبارات من أي نوع! لا اختبارات ولا درجات! كل ما يوجد هو سجلات فردية لكل طفل يتم تسجيل فيها نموه وتطور مهاراته وملاحظات عن يومه في الفصل. تستخدم هذه السجلات لمتابعة الطفل وتوثيق دراسته ليس إلا!

ثالثًا: اهتمت «ماريا مونتيسوري» بالجودة وفضلتها على الكمية! لا يهم كم المعلومات التي لقتها للطفل وحفظها، المهم حقًا هو المعلومات التي هضمها الطفل واستفاد منها. لا يهم إذا كان الطفل قادرًا على «تلاوة» الأرقام والأبجدية، لكن المهم هو قدرة الطفل حقًا على العد وربط الرمز الرقمي بالعدد، واستخدام معرفته في المعاملات اليومية! لا يهم حفظ الأبجدية، ولكن المهم معرفة أصوات الحروف في بداية ونهاية ومنتصف الكلمات حتى يستطيع الطفل القراءة.

رابعًا: بناء قاعدة صلبة للعلم! يقضي الطفل وقته في العديد من الأنشطة التي ترسخ لنفس الفكرة حتى تثبت الفكرة ويتعلم الطفل تطبيقها في ظروف مختلفة! يتعلم الطفل العد من خلال «عصيان الأرقام» و«الأرقام على ورق الصنفرة» و«العدادات» وغيرها من الأدوات التي تساعد على تثبيت الأساسيات.

خامسًا: التدرج من السهل إلى الأصعب، ومن الملموس إلى المجرد، ومن العملي إلى النظري.

سادسًا: كل دروس المونتيسوري تقدم من خلال «درس الثلاث فقرات»، وهو درس من ثلاثة أجزاء. الجزء الأول من الدرس تقدم له ثلاثة أسماء أو ثلاثة أصوات أو ثلاثة أرقام، وفي الجزء الثاني تطلب من الطفل الإشارة إلى اسم أو صوت أو رقم من الثلاثة، وفي الجزء الثالث تطلب من الطفل ذكر الاسم أو الصوت أو الرقم الذي تشير إليه.

سابعًا: التكرار! تكرار الدروس وتكرار الأنشطة وتكرار القصص وتكرار الرحلات الميدانية!

ثامناً: المراجعة! راجع الدرس السابق قبل البدء في الدرس الجديد، وإذا لاحظت أن الطفل لا يتذكر أو لا يعرف أو التبس عليه الأمر، اشرح الدرس السابق فقط.

تاسعاً: لا تقارن! في بيئة المونتيسوري لا توجد مقارنة بين الأطفال وكل طفل له مساحة من الحرية في اختيار الأنشطة والمهارات التي يود أن يعمل عليها! هذا لا يعني إهمال مهارة ما! هذا فقط يعني تأجيلها حتى تبدأ المرحلة الحساسة الخاصة بها!

عاشراً: شجع الطفل على الفخر بأعماله سواء كان رقمًا تعلمه أو كلمة كتبها أو مهارة أتقنها!

كيف تتعامل مع الطفل المحبب؟

من الطبيعي أن يجبط الطفل بسرعة إذا حاول تنفيذ نشاط ما ولم ينجح، ومن الطبيعي أن يسعى الطفل فقط للأنشطة التي يعلم أنه يعرفها ويتقنها! لا أحد يحب شعور الفشل أو العجز، حتى الأطفال! للتعامل مع إحباط الطفل:

• النزول لمستواه بجسدك

هذه الخطوة هامة جداً! لا تكلم الطفل من أقصى الغرفة أو من على الكرسي أو من بعيد. اترك ما تفعل، واجلس بجانب الطفل لتصبح في مستوى بصره. انظر له في عينيه وربت على كتفه وابتسم وأنت تخاطبه بصوت منخفض.

• الطمأنة

قل له إن النشاط بالفعل معقد ويحتاج صبراً. قل له إنك عندما كنت في مثل عمره لم تكن لتعرف كيف تجمع هذه البازل أو تبني هذا البرج مثلاً. قل له إنك تشعر به واسأله إن كان يريد مساعدتك. لا تقحم نفسك عليه وتبدأ بمساعدته بدون استئذان.

• المحاولة

إذا وافق الطفل أن تساعدته، لا تمد يدك وبسرعة تتم العمل أو تنجز النشاط! الهدف الأساسي من أي نشاط هو إتقان الخطوات وتنمية التفكير المنطقي. اجعل هذا هدفك! ساعد طفلك أن يتعلم كيف يحاول وفيه يحاول. ساعد طفلك أن يقارن ويطبق ويصنف

ويتذكر. فكر بصوت عالٍ حتى يسمع ويتعلم كيف يفكر.

• تجنب السخرية

لا تسخر منه شخصياً ولا تقلل من شأنه. تذكر أنه إنسان لم يكتمل نموه بعد! تذكر أنه إنسان يحاول أن يتعلم! تذكر أنه لجأ إليك في وقت حاجة! لا للتعنيف ولا للسخرية ولا لضيق الخلق!

• لا تشعره بالغباء

قد يبدو لك طفلك غيبياً، وقد تكون هذه حقيقة، ولكن تأكيدك لهذا الواقع لن يساعده على تعلم شيء أو إتقان شيء. ستزيد من إحباطه وستبني حاجزاً نفسياً بينه وبين العلم والمعرفة والمحاولة.

• كرر النشاط معه وأمامه

يتعلم الطفل من خلال المشاهدة والمراقبة أكثر مما يتعلم من خلال التوجيه المباشر. دع الطفل يشاهدك تقوم بالنشاط ببطء وبالتفصيل أكثر من مرة حتى يطلب هو المحاولة. يتعلم الطفل كذلك من خلال التكرار. ادعُ الطفل لتكرار النشاط، ومع كل مرة ستزداد ثقته بنفسه وسيدرك الهدف من النشاط من تلقاء نفسه.

المنافسة

لقد أهدرت طاقة هائلة في منافسة طواحين الهواء حينما كنت طفلة صغيرة وحتى أصبحت شابة ثلاثينية. في منتصف الثلاثينيات، وكان هناك لمبة أضواء في عقلي، قررت التوقف عن المنافسة. غصت في أعماقي لأقتفي أثرها وأعرف كيف بدأت لأعرف كيف أقضي عليها. بدأت في سنوات الدراسة الأولى! في البداية كنت راضية عن نفسي، قانعة بحالي، غير مبالية بغيري وما يفعلون. ثم بدأت الدراسة تأخذ منعطفًا جادًا، وبدأنا نتعرض لمحنة الاختبارات الشهرية، وبدأنا نتلقى الدرجات في شهادات أمام الفصل، وبدأت أسطوانات التفوق تتداول في منزلنا.

مهما فعلت، لم أكن «جيدة بما يكفي». تأتي شهادة الشهر ويظهر فيها المواد الدراسية المحببة إلى قلبي وتفوقي فيها، ويظهر كذلك المواد الدراسية التي «أفنعوني» أنني فاشلة فيها. كان التركيز كله على «الفشل» و«الخيبة» و«نقاط الضعف». كأنني في مؤامرة كونية على مهاراتي ومواهبى الفطرية، تم إهمال قدرتي على تعلم وإتقان اللغات، وتم التغاضي عن قدرتي على التعبير عن نفسي كتابيًا، وتم التغاضي عن شعفي بجسد الإنسان وأسراره،

وتم التركيز على ما أطلقوا عليه «ضعفي» في الأرقام والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية! تمر السنوات، سنوات كثيرة جداً، وأدرس المونتيسوري لأعلم «آدم» كما يجب أن يكون التعليم. كانت المفاجأة مرعبة، كل ما قالوا عنه «ضعف» عندي، هو في الواقع من نقاط قوتي الحالية! ما الدرجات الشهرية إلا مقارنة مستترة بيني وبين باقي زميلات وزملاء الفصل؟ ما الامتحانات إلا ناقوس خطر يدق ليعلن، على غير حق، فوات الفرصة للتعلم؟ لماذا يتعرض طفل دون التاسعة لمثل هذه الأحكام القاسية على نفسه؟ لماذا تزرع بداخله بذرة الشك في قدراته والكفر بطفولته؟ كانت هذه جذور المنافسة البغيضة التي أهدرت طاقتي لسنوات عديدة قبل أن أبتريها بترًا!

اليوم، أشعر أنني في قمة أدائي العملي والعلمي، ولا أتنافس مع أحد! السؤال الوحيد الذي أسأله لنفسي هو: هل هذا أفضل ما عندك؟ إذا كانت الإجابة «نعم»، أتقبلها بحب وشكر وحمد. إذا كانت الإجابة «لا»، أقول لنفسي مازحة: «أنا عاوزة أشوف الأحسن دا هنا دلوقتي!». نعم! لقد وصلت إلى مرحلة من «اللطافة» تسمح لي بالمزاح مع نفسي والضحك على نكاتي الخاصة! لا يهم ماذا تفعل فلانة ولا ماذا أنجز إعلان. لا يهم حتى رأي الناس فيما أعمل! لا أدع المدح أو الذم يصل إلى قلبي أو عقلي! المهم هو إجابة سؤالي: هل هذا أفضل ما عندك؟

كبر «آدم» في حضني، وتربى في بيتي، ولم يتعرض لأي مقارنات أو منافسة في أي صورة من صورها! بدأنا نختلط بالناس وبدأت «السخافة المجتمعية» في صورة ألعاب ثقيلة مثل: من سينتهي من طعامه أولاً؟ من سيصل للباب أولاً؟ من سيفوز بالسباق؟ من سيكسب الجائزة الأولى؟ من رسمته الأجل؟ من تلوينه الأحلى؟ من سيحفظ أسرع؟

هذه الجمل، وغيرها من الجمل، تقال للأطفال لتشجيعهم وتحفيزهم عند الاستذكار أو اللعب أو حتى أثناء تناول الطعام. كل هذه الجمل تقال بحسن نية، وللأسف تأثيرها من أسوأ ما يكون على الطفل! بدلاً من تربية طفل راضٍ قانع يحركه الحماس الداخلي ويدفعه فضوله وشغفه وتقوية عزيمته وإرادته، نربي طفلاً كسولاً لا يحرك ساكنًا في أي اتجاه إلا في وجود منافس!

تخيلوا هذا الطفل وقد كبر وأصبح شخصًا بالغًا، وحاولوا أن تتخيلوا سمات شخصيته؟ ستجدونه شخصًا تحركه الغيرة وسيطر عليه التنافس ويستحوذ على تفكيره مبدأ «الفوز لي والخسارة للآخرين»! متعته كلها هي التفوق على الآخر وسحق المنافس و«النفسة» على كل من هو ناجح! هل تريدون هذا المصير لطفلكم؟

أدرت د. «ماريا مونتيسوري» أننا نأكل لتغذي لننمو لنكون أصحاء، نتعلم لتتفتح مداركنا لنبدع ونبكر ونتقن ما نفعل، نريض لتنشيط الدورة الدموية من أجل عقل أنشط وجسد أقوى وصحة أفضل. هذه القواعد البسيطة جعلت نهج المونتيسوري بعيدًا كل البعد عن المنافسة، وفي أحد الكتيبات التعليمية التي درستها، كان هناك مثال لعودة الأطفال لداخل الفصل بعد انتهاء نشاط في الحديقة. في المثال، لا تكافئ موجهة المونتيسوري الأسرع في العودة ولا الأول داخل الفصل. تكافئ من تأخر لأنه، مثلًا، كان حريصًا على إعادة الأدوات مكانها، أو لأنه حرص على مساعدة زميل أو زميلة. تشكر الموجهة من تذكر خلع حذائه ووضعها مكانه. تربت على كتف من غسل يديه جيدًا ولا أثر للطين بين أصابعه.

ما هي المكافأة؟ ابتسامه رضاء! شكر! تربيت الكتف! غمزة عين ذات مغزى! كلمة «أحسنت» هامة في أذن الشخص المعني. لا توجد حوافز خارجية من أي نوع ولا توجد احتفاليات هدفها شكر شخص ما وإحراج آخر. لا توجد وعود بالحلوى أو بالخروج! وسأتحدث لاحقًا عن الثواب والعقاب بالتفصيل.

كيف يتم تحفيز الطفل إذاً؟

* يفهم الطفل ويدرك أهمية المطلوب منه! أهمية الغذاء الصحي وأهمية الرياضة وأهمية تعلم القراءة وأهمية الحساب!

* الحب غير المشروط والتقبل المطلق للطفل وقدراته الفردية واحتياجاته الخاصة! كل طفل مختلف وعلينا احتواؤه والانتباه للمراحل الحساسة التي يمر بها.

* عدم المقارنة جهراً أو سراً!

* تقييم الطفل لا يتم من أجل إحراجه أو وضعه تحت ضغط. التقييم يتم من أجل التقييم - لمعرفة ماذا حصل وكيف يتعلم وجوانب شخصيته. يتم التقييم من خلال

الملاحظة وتدوين هذه الملاحظات - لا وجود للاختبارات!
* بث روح التعاون بدلاً من المنافسة. في نفس الكتيب الذي ذكرته سابقاً كان هناك مثال آخر، وضعت الموجهة هدفاً واحداً لمجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسادسة. كان الهدف هو نقل جذع شجرة من مكان ما، سقط بعد قطعه، إلى مكان آخر بالمعب. شرحت المعلمة للأطفال أن الجذع في مكانه الحالي يعيق لعبهم وأن مكانه الجديد بجانب ورشة النجارة لتعليم استخدام الشاكوش والمسار.

التف الأطفال حول الجذع وحاولوا زقه جميعاً فلم يتحرك. أحضر أحدهم جاروفاً وبدأ يحفر تحته وتبعه بعض الأطفال يقلدونه ويساعدونه، ثم بدأ الأطفال الأكبر سنّاً والأطول بدفع الجزع في الخندق الذي حفره الأطفال الأصغر حتى تحرك الجذع.

إذا حقاً أردتم لطفلكم أن يكون أفضل ما يمكن أن يكونه، عليكم بتشجيع مواهبه أول ما تظهر، تنمية مهاراته أول ما تبدأ فترة حساسة، استغلال نقاط قوته أفضل استغلال، وتعويض نقاط ضعفه بأفضل طريقة ممكنة. هكذا، عندما يكبر، سيصبح أفضل ما يمكن أن يكون والأكثر صبراً ومثابرة والأول في تقديم العون! أما «أدم»، فكلما بدا عليه التأثير بالروح التنافسية الشائعة في مجتمعنا، سلِّباً أو إيجاباً، أقول له نفس الرد دائماً: مش مهم! خليك في حالك!

أما عن الموهبة، كل منا يولد وبداخله مجموعة من الهدايا والعطايا مغلفة بعناية وتنتظر المناسبة المناسبة لتقدم نفسها لنا. بعض هذه الهدايا تخلع عنها غلافها في أعوام الطفل الأولى والبعض الآخر يظهر في سنوات المراهقة، وهناك أيضاً مواهب لا يكتشفها الإنسان إلا في العشرينيات أو الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمره.

إذا فرضت موهبة طفلكم نفسها في السنوات الأولى، مثل قدرة الطفل على الغناء أو الرسم أو بناء أشكال هندسية دقيقة باستخدام المكعبات أو الرمال أو أي خامة متاحة له، في هذه الحالة دوركم هو:

- * تشجيع الطفل من خلال الاستماع له واللعب معه والإطراء على محاولاته.
- * الإطراء دائماً يكون على المجهود والتفاني والمحاولة وليس على الموهبة نفسها.

- * توافر أكبر قدر من الفرص للطفل لممارسة هذه الموهبة وينميتها.
 - * تنمية الموهبة من خلال الدراسة.
 - * لا تحولوا دراسة الموهبة لواجب مرهق يعاني منه الطفل حتى لا يزهّد في الموهبة وينفر منها.
 - * تنمية الموهبة لا يجب أن تتحول إلى منافسة مع موهوبين آخرين، ولا إلى صراع وحالة استنفار في المنزل.
- أما بالنسبة للأطفال ذوي المواهب الدينة، نحن لا نعلم متى ستكشف الموهبة عن نفسها ولكن لنا دور مهم في تمهيد الطريق لها:
- * توفير بيئة خصبة للطفل للاستكشاف والتجربة.
 - * التجارب الحياتية الغنية تساعد الطفل على صقل الموهبة حتى قبل اكتشافها.
 - * تفتيح مدارك الطفل في المجالات المختلفة لتنوع اهتماماته ومعلوماته.
 - * شغف الأهل أنفسهم بالعلم والمعرفة والتجربة أفضل قدوة للطفل تشجعه على اكتشاف نفسه في مراحل لاحقة من عمره.
 - * القراءة للطفل ومعه في مجالات متنوعة.
 - * عدم إهمال أسئلة الطفل مهما بدت غريبة أو مضحكة أو هامشية.
 - * يتشكل ذكاء الطفل في أول أربعة أعوام من عمره - اهتموا بعقله ومهاراته في هذه المرحلة ولا تتركوه فريسة للملل والبكاء والزن.
 - * تشكل أول سبع سنوات من عمر الطفل القاعدة الأساسية التي تنطلق منها المواهب والمهارات الخاصة.
 - * تظهر بعض المواهب في الأعوام الأولى، ولكن المواهب الأكثر تعقيداً مثل الكتابة أو الطبخ أو الفلك أو الهندسة أو التجارة أو التجارب الكيميائية، أو مواهب التواصل الاجتماعي، تظهر بعد عمر العاشرة.
 - * لا تظهر كل المهارات في الطفولة أو المراهقة، لكن هناك الكثير من الهدايا تظل مهملة منسية بسبب عدم توفر بيئة خصبة لها.
- يتساءل الكثير من الأهل عن جدوى اهتمام المونتيسوري بمواد مثل الجغرافيا وثقافات

البلاد المختلفة والتاريخ وعلم الحيوان وعلم النبات والزراعة والفلك والتجارب العملية والمطبخ للأطفال أقل من 6 سنوات والإجابة هي: البيئة الخصبية! هذه هي البيئة الخصبية التي تساعد كل طفل على إظهار مواهبه والتعرف على أنواع الذكاء المختلف لديه.

لا تطلبوا من طفلكم الاختفاء لأنكم بهذا تخفون موهبته، ولا تطلبوا منه الصمت لأنكم هكذا تخرسون موهبته، ولا تطلبوا منه عدم الحركة لأنكم هكذا تشلون موهبته. من خلال مراقبة أطفالنا واللعب معهم، نتعرف على قدراتهم ونقاط قوتهم ونستطيع أن ندعمها ونشجعهم. أهم ما يمكن أن نمنحه لأطفالنا هو الوقت والاهتمام الحقيقي الذي يترجم إلى حسن الإنصات والحوار المتبادل وتشجيعهم على طرح الأسئلة والبحث معاً عن الإجابات.

انحسار الحب

أجلس على شاطئ مهجور على الحدود بين الحياة والموت لأراقب تقلبات قلبي . أرى صخور القاع وقد انحسر عنها الحب وتعرت مشاعر الاستياء والغضب والألم والرفض . أراني متحجرة متخشبة وقد جفت ينبوع الأمومة بداخلي . أنظر لطفلي فأتمنى أن يختفي ، أو أن أختفي أنا! أنظر له وللعداوة التي بينه وبين الكلمات ، يسمعها فيصعب عليه تذكرها ، يفهمها فيصعب عليه نطقها ، ينطقها فيصعب عليه تفكيك أصواتها ، يتعثر في قراءتها وكتابتها ، يعكس مواضع حروفها ، يرى حروفاً غير موجودة ، يتعثر ، يتعثر ، أهجم عليه صارخة غاضبة رافضة ، تنحسر الأمومة ، تتعري الصخور ، يقول أحبك وكأنه يشعر بتراجع حبي ، أنظر له وكأنني تعثرت على الحدود بين الواقع والخيال .

أراني أغرق كصخرة ضخمة وقعت من سماء الأمومة في محيط الحزن والذنب والندم . لا أقاوم . لا أصارع . أستسلم للغرق والاختناق على دموع تحرق حلقي . ينظر إليّ وقد تخطى ألم هجمتي الأخيرة عليه ، يبتسم ، فأنظر له في يأس . أعد نفسي ألا أنتهك طفولته مرة أخرى . أعتذر له . أعلم أنني لن أفي بوعدتي . أجلس على الشاطئ في انتظار المد والمدد . أراقب المياه

المنحسرة تعود رويدًا رويدًا. تعود أمومتي وتفيض فتغطي صخوري التي يرتطم بها صغيري. احتضنه وأشم رأسه ويديه. أقبل قدميه وأنظر بداخل زرقة عينيه، فأجدني وأجد حبه لي وتعلقه بي. يناديني محيط الحزن والذنب والندم كل ليلة حتى وإن لم أهجم على «آدم».

ما أجمل الشعارات والمثالية! شعارات تقبل الآخر المختلف ودمج ذوي الاحتياجات الخاصة! لقد كنت أردد هذه الشعارات وأشعر بالحب تجاه نفسي، كم أنا عظيمة! أعرف الكثيرات، من الأمهات، تلمن عليّ سقطاتي وانحسار أمومتي. الحقيقة التي ينكرها الجميع أن لا أحد يريد إنجاب طفل متعثر أو معاق أو مختلف. الحقيقة أننا نحب أصدقاءنا «المختلفين» ونحتضنهم ونحتويهم - وقد نتر وجههم - لكننا جميعًا نصدم ونتألم إذا أنجبنا طفلًا «مختلفًا». مهما ادعيت تقبل الآخر، أنا أعرف جيدًا أن بداخلي رادارًا يلتقط «مخارج الألفاظ» و«اللكنة» ونطق وتكوين جمل اللغة الإنجليزية. بدون قصد، أصنف الناس إلى متعلم تعليم «ضيف»، متعلم «بالفهولة»، مجتهد، ومتعلم تعليم «عادي». دارت الدوائر وأنجبت طفلًا سيظل «يطجن» في الكلام وينطق نطقًا خاطئًا مهما علمت فيه ومهما وفرت له من دروس وكورسات - سيظل «خواجة» في أي لغة يتكلمها!

المعانة مع طفل متأخر حركيًا ولغويًا أهون من المعانة مع طفل متأخر عقليًا أو معاق جسمانيًا، لكنها معاناة! أنا أعاني كل يوم مئات المرات! أصبر نفسي بالانتصارات الصغيرة والأحضان الدافئة ورائحة رأس صغيري، لكنني أعاني! «آدم» يعاني أيضًا! أين أصب غضبي؟ على من أشير لائمة؟ أين أنفث عن إحباطاتي؟ أصعب ما في الأمر هو أنني أتخيل نفسي وقد أصبت بجلطة وفقدت قدرتي على الكلام أو الحركة بسلاسة، أنظر حولي، فأجد طفلي يجبني ويتقبلني كما أنا. قد أكون واهمة، تمامًا مثلما كنت واهمة في أمر حب الأم غير المشروط لأطفالها. الحب غير المشروط ليس غريزيًا ولا فطريًا، في الواقع الحب غير المشروط ضد الغريزة والفطرة - الغريزة انتقائية جدًا ولا مكان فيها للأضعف. البقاء للأقوى والأصلح - هكذا تختار القطة أو المعزة أيًا من أولادها ترضع وهكذا تختار أنثى الطير أيًا من طيورها تتطعم!

في قاع المحيط ينتظرنني الخوف من الفقد! فقدت جدي لأبي إذ فجأة وأنا في الرابعة من عمري. كانت أول مرة أختبر فيها فقد عزيز. هكذا تعرفت على الموت، فقد حضن ما، بسمة ما، ضحكة ما، دفء ما، وجه ما، إلى الأبد. يطارديني الخوف من الفقد في كل علاقاتي

ولكن في قاع هذا المحيط تحديداً، يرقد وحش الخوف من فقد ابني، ابني الذي أتخيل حياتي أحياناً بدونه، ابني الذي تمتيت في وقت ما ألا أكون قد أنجبته. الأمومة مثل الموت، لا يمكن ردها أو العودة منها! عكس الربط الفك وعكس التسخين التبريد وفي نهاية الحياة ينتظرنا الموت. لكن ماذا يحدث لي إذا فقدت ابني؟

قد أتخفف من مسؤولياتي وقد أوفر الكثير من المصروفات الشهرية وقد أرتاح من التفكير والخوف القلق. لكن هل هذا يعيد بي الزمن إلى ما قبل الحمل والولادة وما بعدهما؟ ثدياي يحملان بصمة الرضاعة وإلى الآن، كلما تذكرت فترة الرضاعة، أشعر بما يشبه دفق اللبن في عروقي. على صدري، وفي حضني تحطى صغيري آلام الطفولة وتغيراتها، ألم الجوع والعطش والتسنين والغازات والمغص والوقعات والخبطات، حتى خلافاتنا حسمناها في حضني وعلى صدري! رقبتي هذه تحمل بصمة أنفاس طفلي عليها. حضني هذا شاهد على الحب والألم والأيام، هناك كبر طفلي. رحمي هذا لا يمكن أن أنفي عنه الأمومة، لقد تغير جداره وعنقه وحجمه لأصبح أمًا. لا يوجد فعل يزيل بصمة الأمومة عن الروح والجسد، حتى لو فني الطفل أو فنيت الأم.

أقرأ عن أمهات فقدن أطفالهن، تعددت الأسباب والفقد واحد. لن تعود أي منهن إلى سابق عهدها. تغير الأمومة كيمياء المخ إلى الأبد. تترك التجربة بصماتها على العينين والوجه والقلب والجسد - يحمل فرجي ندبة لن تزول إلا عندما أتحلل وأصبح ترابًا. لقد خلق الله لي حضناً ليعيش فيه «آدم» ويكبر. لقد أقنعتني «آدم» أن قبلتي سحرية تخفف الألم وأن ابتسامتي مسحورة تبعث الطمأنينة في قلبه. لقد أقنعتني أن لي قدرات خارقة لأنني أعرف ما يجول بعقله بدون أن يتحدث وأعرف ماذا فعل في غيابي. أنا لذي عصفورة تخبرني بكل شيء عنه - حتى عن حاجته للتبول - لقد صدق هذا عني. أنا في عينيه امرأة خارقة! متى سيعرف أنني لا حول لي ولا قوة؟

ينظر إليّ، فيخترق صمتي، ويسأل: «أنت بخير؟»

قعر الحلة

تتخلل رحلتي مع «آدم» زيارات يومية عديدة لطفولتي ولرحلتي مع التعليم، وخلال هذه الزيارات الكثيرة للماضي تعرفت على أسباب الحواجز النفسية الصلبة التي منعتني من التفوق في الرياضيات بمختلف فروعها والفيزياء واللغة العربية ومواد أخرى! اكتشفت أن جميع صعوبات التعلم التي واجهتها كانت بسبب الصدام المستمر بين أسلوب التعليم التقليدي المعتمد على التلقين والحفظ، وبين احتياجي للتعليم الحسي من خلال اللمس والحركة.

أتذكر نفسي كطفلة ذات السنوات السبع أحاول أن أستوعب معنى جدول الضرب! أحاول أن أفهم المطلوب مني بالتحديد! أحاول أن أجد منطقاً يساعدني على حل الطلاسم! أتذكر سؤالاً لأمي عن معنى اثنين في اثنين، وأتذكر محاولتها لتفسير المعضلة باستخدام مثل البرتقال! رأيت بعيني الكلام يتحول إلى حروف مفككة تطير في الهواء بعيداً عن أذني ورأيتني أحاول أن أجمع الحروف التائهة بعيني بينما يتباعد صوت أمي في الخلفية، فشلت! طلبت من أمي الإعادة فكررت نفس الكلام وتفككت الحروف وطارت مرة أخرى!

لم أجرؤ على طلب الإعادة وحسنت أمني الموضوع بجملتها «هي كده! احفظيها كده!»
لقد ورث عني «أدم» هذا الاحتياج الأساسي للتعلم من خلال حواسه وورث كذلك قدرته على تكوين العلاقات بين الأشياء من خلال اللمس والحركة والوزن والحجم وغيرها من الخواص التي _لحسن الحظ_ يعتمد عليها نهج المونتيسوري. كان كتيب الرياضيات هو آخر كتيب في شهادتي «مونتيسوري لمرحلة الطفولة المبكرة من 3 - 6» ووجدت فيه المعجزات التي انتظرتها سنوات!

يعتمد تدريس منهج الرياضيات على أنشطة ومواد صممتها د. «ماريا مونتيسوري» خصوصاً لمساعدة الأطفال على إدراك كل ما هو نظري ومجرد ومبهم من خلال الحواس! إذا كان طفلك يستطيع العد من واحد إلى تسعة، سوف يستطيع جمع 4367 و2432 وسوف يطرح 650 من 5764 وسوف يضرب 2432 في 3 وسوف يقسم 7895 على أربعة ويعطيك الباقي! من خلال أنشطة «الخرز الذهبي» يتعلم الطفل الأحاد والعشرات والمئات والآلاف بطريقة ملموسة مرئية.

بخلاف صعوبات التعلم التي ورثها «أدم» عن والده، وبخلاف احتياجه لتحويل كل مجرد إلى ملموس محسوس، الذي ورثه عني، ورث عني أيضاً ضعف الاستيعاب السماعي. في فترة ما، كنت أكتب مقالات منتظمة لموقع تم حجبها، تطوع أحد الشباب بتسجيل مقالاتي صوتياً، ورفعها على موقع ساوند كلاود ليستفيد بها ضعاف البصر والمكفوفون. قام إبراهيم بتسجيل أول مقال وأرسل لي الرابط للاستماع إليه.

صوت إبراهيم متميز وقراءته عظيمة ولكني لم أفهم شيئاً! المقال مقالتي والكلام كلامي والتسجيل مضبوط ولكني لم أفهم شيئاً! عقلي لم يستوعب الكلام. أسمع الكلمات وأدركها لأن سمعي سليم، ولكن عقلي لم يفك شفرات الكلمات ولم يحولها إلى معلومات أو أفكار! شكرت إبراهيم على مجهوده وطلبت منه الاستمرار، وبعد فترة أرسل إليّ ملفاً جديداً وحدثت نفس الشيء! أنا لا أفهم شيئاً مما أسمع!

عدت بذاكرتي للوراء قليلاً، في محاولة مني لتتبع بداية هذه المشكلة في إدراكي، فتذكرت حادثة الكتب المسجلة! منذ حوالي 15 سنة، اشترت كتب دكتور «جون جراي» المسجلة

جميعها! تتناول هذه الكتب العلاقات العاطفية من زوايا مختلفة، وبعد أن قرأت الكتب الورقية، أردت أن أستمع إلى النسخة المسجلة! رغم لغتي الإنجليزية الجيدة، لم أستوعب شيئاً مما أسمع، ومعظم الشرائط في مكتبي حتى الآن في علبتها لم تفتح! ثم تذكرت مراهقتي وعلاقتي بالأغاني! لا أحفظ شيئاً ولا أتذكر شيئاً ولا أردد شيئاً! تذكرت كذلك أنني حينما أردت أن أجازي زميلاتي في المدرسة في حفظ وترديد الأغاني، قمت بسماع جملة بجملة وكتابتها كلمة كلمة ثم الاستماع للأغنية كاملة وأنا أنظر لما كتبت!

أنا و«آدم»، وهناك غيرنا، نعاني من نفس المشكلة بدرجات متفاوتة. المشكلة أننا لا نستوعب سماعياً وذاكراًنا ليس سمعياً، ولكن نظام التعليم في المدارس والدروس الخصوصية يخاطب من لهم حظ أوفر من نسبة الذكاء السمعي! لا نفهم في المحاضرات ولا الرحلات الميدانية مع مرشد أو موجه أو مدرس! لا نفهم في فصل مكتظ بالطلبة وصوت مصدره رجل أو امرأة في مواجهتنا يردد عبارات غير مفهومة بصورة متواصلة لمدة 45 دقيقة!

أنظر إلى «آدم» وقد ورث عني نفس النمط التعليمي! كيف يتعلم أمثالنا؟ نتعلم من خلال التجارب العملية واللمس والكتابة وصناعة شيء ما بأيدينا! نتعلم عندما نكون جزءاً من العملية التعليمية بدلاً من أن نكون متلقين سلبيين لما يقال. نتعلم من خلال الحركة ومن خلال تطبيق خطوات محددة ومن خلال الصور والرسومات التوضيحية. يدرك عقلنا من خلال الفعل واللمس والبصر! إذا أردت أن تعلمني الجغرافيا، قدم لي بازل أو خريطة جذابة، أو خذني في رحلة إلى حديقة الحيوان لأشاهد الحيوانات من مختلف القارات والمناخ المناسب لهم وطعامهم وتفاصيل حياتهم. دعني ألمس العالم بحواسي بدلاً من أن تلقني درساً عن المناخ والتضاريس!

كم أحببت دراسة التاريخ والجغرافيا أثناء دراستي للمونتيسوري. لقد أزلت عني «ماريا مونتيسوري» وصمة التلميذ الخائب!

لعنة الوراثة

أثناء حملي، كان الحب يجري في عروقي ويغذي جنيني، وتمنيت أن يولد «آدم» وقد ورث عن أبيه طيبة القلب والحنان واتساع الأفق والقدرة على الحب غير المشروط، وغيرها من صفاته الحميدة الفريدة. في عقلي، تخيلتني وأنا أمسك بالكر وموسومات وأنسخها وأقسمها وأوزع الجينات وأخلق الذي إن إيه. كان لي ما تمنيت! ولد «آدم» طيباً حنوناً رقيقاً حساساً ذكياً جميلاً - شكلاً وموضوعاً. ورث أيضاً الديسجرافيا والديسلكسيا والديسبراكسيا. كلما كبر قليلاً، مثل البرعم المتفتح، ظهرت صفاته الجميلة المبهجة ومعها مشكلات الجهاز العصبي وصعوبات الحركة واللغة.

لماذا لا ينفخ الفقاعات؟ لماذا لا يشفط السوائل بالشفاطة؟ لماذا لا يقلد الأصوات؟ لماذا يقع كثيراً؟ لماذا لا يجري؟ لماذا لا يقفز؟ لماذا لا يتكلم؟ لماذا يتكلم بلغة لا يفهمها سواي؟ لماذا لحديثه إيقاع غريب؟ لماذا يجد صعوبة بالغة في تذكر شكل الأرقام؟ لماذا لا يمكنه ربط شكل الرقم ومدلوله؟ لماذا لا يمسك بالقلم بطريقة مضبوطة؟ لماذا لا يتتبع الخطوط؟ لماذا يختلط عليه شكل الحروف؟ لماذا يتعثر في القراءة؟ لماذا يتلعثم في الكلام؟ لماذا يكتب

بصعوبة وبطء؟ لماذا هذا العداء الشديد بينه وبين اللغة؟ الكثير من الأسئلة عرفت إجاباتها خلال الرحلة.

عندما قررت تعليم «آدم» منزلياً، لم أكن أعرف أي شيء عما ستفعله بنا الكروموسومات والجينات. عندما بدأت دراسة المونتيسوري، لم أكن أعرف أن هذه الفلسفة، وتلك الأدوات والأنشطة، ستكون أسلحتي في مواجهة عوامل الوراثة. باستخدام أدوات المونتيسوري للطفولة المبكرة، يمكن أن نساعد طفلاً يعاني من عسر القراءة أو الكتابة. المهم أن نعرف الطفل حق المعرفة لتمكين من مساعدته، لهذا لم أتمكن من مساعدة أي طفل آخر سوى «آدم».

عادت بي سلسلة مقالاتي عن «التلميذ الخائب» إلى سنوات دراستي، وبدأت أسترجع ذكريات خيبيتي الشخصية ووجوه زملائي وزميلاتي من الخائبين والخائبات، هكذا كانوا يطلقون عليهم!

أتذكر الآن وجه «ن» في حصة اللغة الإنجليزية في الصف الخامس الابتدائي، كنا نجلس في فصل مكتظ نستنشق روائح أجسادنا، وذرات الطباشير والرذاذ المتطاير من فم المدرسة الصارخ، حتى نسمعها ونفهم كلامها! في هذه الحصة كنا نقرأ بالدور. كلنا نمسك نفس الكتاب ونقرأ واحد تلو الآخر سطرًا أو سطرين بصوت عالٍ. جاء الدور على «ن» وسمعت صوتها المتقطع وهي تحاول أن تقرأ وسط غضب المعلمة، قرأت «ن» وكأنها لا ترى الحروف وكأنها لا تدري معنى ما تقرأ فجاءت كلماتها كالطلاسم المبهمة التي أغضبت المدرسة وأضحكتنا جميعاً.

لم تكن «ن» الوحيدة في فصلي التي كانت تتعثر في القراءة، بالعربية أو الإنجليزية ولم تكن «ن» الوحيدة الخائبة في الإملاء ولم تكن «ن» الوحيدة التي لا تفهم القواعد النحوية ولم تكن «ن» الوحيدة التي تعكس الحروف في بعض كلماتها المنطوقة. في نهاية سنوات دراستنا الثانوية، أتمت «ن» دراستها معنا والتحققت بالجامعة وتخرجت ولكن رحلتها في التعليم كانت معاناة وعذاباً نفسي وبدنياً وعقلياً!

اليوم أعرف أن «ن» لم تكن خائبة أو غبية أو محدودة القدرات! «ن» كانت تعاني من

إحدى صعوبات التعلم ولم تحظ بالاهتمام الكافي أو بالمساعدة المطلوبة لمساعدتها في التعايش مع مشكلتها! مشكلة «ن» لها اسم، اسمها ديسلكسيا Dyslexia وهي من ضمن إعاقات التعلم! الشخص المصاب بالديسلوكسيا يبدو لك كشخص طبيعي في كل شيء، وذكائه طبيعي أو فوق العادي أحياناً، ولكنه لا يحصل مثلما يحصل زملاؤه ولا يحقق النتائج المتوقعة من شخص في مثل ذكائه أو من شخص يستذكر كل هذا الوقت! في أغلب الأحيان يتم التعرف على من يعاني من الديسلوكسيا بعد دخول المدرسة، وفي أول المرحلة الابتدائية نراه مثل «ن» غير قادر على القراءة، أو يقرأ بصعوبة بالغة، وغير قادر على تذكر نطق أو هجاء الكلمات، ويعاني معاناة شديدة في تعلم اللغات.

الطفل المصاب بالديسكالكوليا Dyscalculia تراه أيضاً طفلاً طبيعياً في كافة النواحي! هو طفل ذكي ونشيط وليس لديه أي مشاكل في الإدراك، ولكنه يعاني معاناة بالغة مع الأرقام! قد تلاحظ أن طفلك غير قادر على العد! لا يتذكر الأرقام وترتيبها أو أسماءها مهما كررتها! لا يمكنه الربط بين الرقم وشكله ولا يمكنه التعرف على الأرقام وإدراكها على نتيجة شهرية أو صفحة كتاب أو يافطة إعلانية. غير قادر على ترتيب الأحداث واتباع الخطوات وفهم المسائل الكلامية. تجد طفلك قد بدأ عامه الأول الابتدائي وهو متخبط ويجد صعوبة بالغة في تمييز علامات الجمع والطرح والضرب والقسمة وغير قادر على مواكبة أقرانه في العمليات الحسابية البسيطة.

أما الديسجرافيا Dysgraphia، في مشكلة، مثلها مثل الديسلوكسيا والديسكالكوليا، قد تكون بسبب عوامل جينية ووراثية تؤثر على المخ وقدرته على التعامل مع الكلمات والأرقام والورقة والقلم بصورة طبيعية. معنى كلمة «ديسجرافيا» هو صعوبة بالغة في استخدام القلم وكتابة الحروف والتعبير عن الذات كتابياً. الطفل المصاب بالديسجرافيا قد يبدو كسولاً وقد تظنه مهملاً ولكنه في واقع الأمر لديه مشكلة! في أغلب الأوقات يعاني الطفل من أكثر من صعوبة من صعوبات التعلم.

هذه بعض النقاط التي تشير إلى أن الطفل مصاب بالديسجرافيا:

- يجلس بطريقة «عجيبة» عندما يكتب.

- يمسك القلم بطريقة «غريبة» عندما يكتب.
- يكتب ببطء شديد ومع ذلك خطه سيء.
- يجد صعوبة في كتابة الحروف وتذكر شكلها وتذكر شكل الكلمات التي يحاول كتابتها.
- قد تلاحظ أنه لا يستطيع الالتزام بالسطر وقد تلاحظ أنه لا يترك مسافات بين الكلمات أو يترك مسافات غير متساوية أو غير مقبولة.
- يتعب بسرعة من فعل الكتابة ويكره الواجبات الكتابية.
- خطه غير مقروء أو مائل للخلف أو مائل للأمام.
- مهما تدرّب على الكتابة لا يتقنها.
- لديه صعوبات في الرسم وفي استخدام المقص وأحياناً في ربط رباط حذائه.

أثناء دراستي لدبلومات المونتيسوري المختلفة، درست صعوبات التعلم بصورة مبسطة. مع ذلك، استطعت الربط بين نهج المونتيسوري وكيفية التغلب _ قدر المستطاع _ على الإعاقات المختلفة. للأسف لا يوجد علاج لصعوبات التعلم ولكن بالمساندة واستخدام أدوات بديلة لأدوات التعليم التقليدي، تمكنت من مساعدة ابني.

يساعد نهج المونتيسوري هؤلاء الأطفال من خلال:

- تقديم التجربة التعليمية الحسية، أيًا كان ما يحاول الطفل تعلمه، لا يعتمد فقط على الكتاب المقروء! يستخدم الطفل جميع حواسه للتعلم، يلمس ويسمع ويرى ويشم ويتذوق ويتذكر ويقارن ويطابق ويدرك الخواص من زوايا مختلفة.
- أدوات المونتيسوري كلها مصنوعة من الخشب ولكل أداة ألوانها وأهدافها التعليمية.
- هناك أدوات وأنشطة كثيرة لتساعد الطفل في تذكر شكل الحروف والأرقام، وهناك أدوات أخرى مخصصة لتقوية عضلات يديه وأصابعه وقدرته على التحكم بالقلم.
- التدرج من السهل إلى الأصعب فالأكثر صعوبة، ويتم هذا التدرج بناءً على سرعة استيعاب الطفل واستجابته.
- التدرج من الملموس المحسوس إلى الرمزي أو المجرد والمبهم - مثل الحروف المصنوعة من ورق الصنفرة ثم الانتقال إلى الحروف المتحركة ثم الانتقال إلى الحروف المكتوبة.

- استخدام «درس الثلاث فقرات» في الدرس الواحد - هذا كذا. أين كذا؟ ما هذا؟
- مراجعة الدروس الماضية أو الخطوات السابقة قبل الانتقال إلى الدرس الجديد.
- تقسيم كل شيء إلى أجزاء وخطوات صغيرة يسهل على الطفل استيعابها.
- أغلب دروس المونتيسوري وأنشطته تقدم للأطفال كل على حدة وبعضها في مجموعات صغيرة.

• يهتم نهج المونتيسوري بتقوية ذاكرة الطفل من خلال تدريبات الذاكرة. في أغلب الأنشطة، يطلب من الطفل الذهاب إلى طاولة ما وإحضار_مثلا_ حيوان يبدأ بصوت ب. النوع الثاني من تدريبات الذاكرة هو أن يطلب من الطفل النظر حوله في الفصل وإحضار حيوان يبدأ بصوت ب.

- يهتم كذلك بتقوية التوافق العصبي بين العين واليد من خلال أنشطة كثيرة مثل اللضم والحياكة واستخدام المقص واستخدام السكين والصلصال والعجين واستخدام الإسفنج لنقل الماء بين الأوعية.

إذا لم تنجح كل هذه التدريبات والأنشطة في تحسين قدرة طفلك على القراءة والحساب والكتابة، يجب أن تستخدم البدائل مثل استخدام ملفات الورد والمصحح اللغوي وغيرها من التكنولوجيا التي تعتبر أدوات تعويضية للطفل. هناك أيضًا استخدام المسجلات بدلاً من الكتابة خلف المعلم، استخدام الملازم المطبوعة بدلاً من الاعتماد على كراس الفصل، والتفاوض مع المدرسة والمدرسين في تقليل حجم الكتابة المطلوب من الطفل سواء في الواجبات أو الامتحانات. في بعض الحالات قد يسمح للطفل بأداء الامتحانات شفهيًا بدلاً من الكتابة. لا يوجد تلميذ خائب في المطلق ولكن يوجد أهل ومعلمون لا يدركون أن هذا طفل مختلف ويحتاج مساعدة ليحقق ذاته وينمي قدراته ويتعايش مع مشكلته!

كروت التسمية

«كروت التسمية» من الأدوات العظيمة المستخدمة في نهج المونتيسوري لتعليم الطفل من بعد ثلاث سنوات الكلمات الجديدة. استخدمت د. «ماريا مونتيسوري» في فصولها ما يعرف باسم nomenclature cards وهي كروت لتسمية الأشياء. عند تصنيع «كروت التسمية» يدويًا، قوموا بتصميم مجموعتين، المجموعة الأولى هي «كروت التحكم»، وهي تتكون من صور وتحتها الاسم. المجموعة الثانية هي «كروت العمل»، وهي صور بدون أسماء وتقدم الأسماء للطفل على «كروت منفصلة»! على الطفل مطابقة صور «مجموعة العمل» مع الصور الموجودة في «مجموعة التحكم» ثم مطابقة «كروت الأسماء المنفصلة» بالأسماء الموجودة على «مجموعة التحكم».

مثلاً، في عمر ثلاث سنوات تريدون تعليم طفلكم أسماء أجزاء وجهه!

كيف تصنع «مجموعة التحكم»؟

- تحضروا صورة واضحة ملونة وحقيقية لوجه طفل وتكتبوا تحتها بحروف نسخ سليمة «وجه».

- تأخذوا نفس الصورة وتتركوا شعر الطفل ملون وباقي الصورة أبيض وأسود وتكتبوا تحتها بحروف نسخ سليمة «شعر».
- تأخذوا نفس الصورة وتتركوا عين الطفل ملونة وباقي الصورة أبيض وأسود وتكتبوا تحتها بحروف نسخ سليمة «عين».
- تأخذوا نفس الصورة وتتركوا أنف الطفل ملون وباقي الصورة أبيض وأسود وتكتبوا تحتها بحروف نسخ سليمة «أنف».
- تستمروا في نسخ الصورة والتركيز على سمة واحدة فقط من سمات الوجه وتكتبوا الاسم تحت الصورة.

كيف تصنع «مجموعة العمل»؟

- اطبعوا نسخة أخرى من «مجموعة التحكم»
- قوموا بقص الاسم.
- سوف يصبح لديكم مجموعة من الصور ومجموعة من «كروت الأسماء».

كيف يستخدم الطفل «كروت التسمية»؟

- يضع الطفل صورة من «مجموعة التحكم» على اليمين، ثم يبحث عن الصورة المطابقة لها من «مجموعة العمل» ثم يضعها على يسارها.
- يبحث الطفل وسط كروت الأسماء عن شكل الحروف المطابقة للاسم الموجود في صورة «مجموعة العمل»، ويضع «كارت الاسم» تحت الصورة.
- ينظر الطفل للصورة ويقول بصوت عالٍ الاسم، مثلاً سوف ينظر لصورة الفم ويقول «فم».

امتداد النشاط

- عندما يتمكن الطفل أكثر من النشاط، يبدأ في وضع الأسماء تحت الصور بدون النظر إلى «كروت التحكم»!
- بعد الانتهاء من صور وأسماء جميع أجزاء الوجه ينظر الطفل إلى «كروت التحكم» للتأكد من الصواب والتعلم من الخطأ.

- مع الوقت والتكرار سوف يعرف الطفل الحروف والهجاء ويبدأ في ملاحظة الكلمات التي تعلمها في أماكن أخرى مثل القصص واللوحات الإعلانية.

المرحلة الحساسة لاستخدام «كروت التسمية» هي من سن ثلاث إلى ست سنوات، وتستخدم في تعليم أسماء كل شيء يدرسه الطفل، مثل الألوان والأشكال والصفات وأجزاء الجسد وحجرات المنزل وأنواع الزهور وفصول السنة وأعلام البلاد وأسماء القارات! كل ما يحظر على بالك يمكن تحويله إلى «كروت تسمية». يستمر استخدام هذه الكروت في المرحلة الابتدائية ولكن يزيد عليها «كروت التعريفات». من الاسم، واضح لنا أن الطفل يطابق الصور بالصور والأسماء بالأسماء، ثم يطابق الصور والأسماء بالتعريفات.

التحكم بالخطأ

هناك الكثير من قواعد المونتيسوري محببة إلى قلبي، أقربها «فصل الخواص» و«التحكم بالخطأ». «فصل الخواص» هو التركيز على شيء واحد فقط أثناء النشاط. مثلاً، أريد الطفل أن يتعلم اللون الأحمر. أجهز له كتيباً صغيراً من خمس ورقات، قابل للزيادة مع الوقت، وأتأكد أن الغلاف والصفحات نفس المقاس ونفس اللون (الأحمر) ونفس الخامة. كذلك الصور المختارة للصق على الصفحات، كلها على خلفية بيضاء، نفس المقاس، وبها شيء واحد أحمر (تفاحة واضحة وصريحة). كل أنشطة المونتيسوري تقريباً تعتمد على «فصل الخواص» لتساعد الطفل على التركيز في الدرس المطلوب منه استيعابه.

في بداية دراستي لنهج المونتيسوري، قالت لي معلمتي ومرشدتي خلال فترة دراستي أن أفرح حينما يكسر «آدم» كوباً أو طبقاً، وطلبت مني أن أستغل هذه الفرصة لتعليمه خواص الزجاج والأطباق الصيني! قالت لي أن أشير بهدوء للكوب المكسور وأقول له: «الزجاج ينكسر» وأن أشير للطبق المكسور وأقول: «الطبق الصيني ينكسر». قالت لي إن أهم شيء هو أن أحمل ابني بعيداً عن الزجاج والصيني المكسور، وأن أشرح له هذا الدرس بتلك

الجملة البسيطة. ثم قالت لي إنه فيما بعد، كلما أمسك «آدم» بكوب زجاجي أو طبق أو فآزة أو أي شيء قابل للكسر، أن أكرر عليه نفس الجملة بنفس النبرة الهادئة وأن أطمئن لأنه لن يكسر شيئاً آخر!

مع مرور الوقت وجدت عبارة CONTROL OF ERROR تتكرر في كتب ومذكرات د. «ماريا مونتيسوري».

الترجمة الحرفية لتلك الجملة هي: «التحكم بالخطأ»! قد يتصور البعض أن التحكم بالخطأ يعني منع حدوث الخطأ أو السيطرة على الخسائر، ولكن «ماريا مونتيسوري» كانت تعني شيئاً آخر، من خلال تعاملها مع الأطفال، اكتشفت د. «مونتيسوري» أن الطفل إذا وجد في بيئة صديقة وفي وجود الأدوات المناسبة، يمكنه إدراك الصواب والخطأ، ويمكنه الاعتماد على نفسه لتصحيح الخطأ، وسوف يكرر نفس النشاط مرات عديدة حتى يتقنه. قالت أيضاً إن الطفل الذي يخطئ ويصحح أخطائه بنفسه، يتعلم منطق الأشياء بكفاءة أعلى من الطفل الذي يضطر للاعتماد على البالغين لتصحيح الخطأ.

يتبنى نهج المونتيسوري فكرة أن كل حدث فرصة للتعلم ولا يتم استثناء الخطأ من تلك المقولة. الطفل الذي لا يخطئ لا يتعلم والطفل الذي يرتبط لديه الخطأ بالعقاب يتعلم فنون إخفاء الخطأ. انتهزت د. «ماريا مونتيسوري» أخطاء الأطفال الطبيعية لتطوير أنشطة يستطيع الطفل من خلالها إصلاح أخطائه بنفسه لأن ذلك يكسبه ثقة في نفسه وفي قدرته على اتخاذ القرارات. تعتبر د. «مونتيسوري» فرصة إصلاح الخطأ تدريباً جيداً على التحكم بالحركات الدقيقة للأصابع واليدين والعضلات المتحكممة في الحركة. وكما ذكرنا سابقاً أهمية الممارسة والتكرار في تطور ونمو الطفل.

«التحكم بالخطأ» في نهج المونتيسوري يعني تحرير الطفل من الاحتياج الدائم لتدخل البالغين وإعطائه الفرصة والمساحة للمحاولة لتصحيح الخطأ بنفسه. بدلاً من استخدام كراسي ثابتة في الأرض، أو ثقيلة يصعب على الطفل تحريكها، استخدموا كراسي صغيرة خفيفة، إذا تعامل معها الطفل بشكل خاطئ تحركت بعيداً أو سقطت على الأرض، ومع الوقت سوف يتعلم الطفل المشي بحذر والتحكم بحركته. كذلك الأدوات المصنوعة من

البلاستيك تتناقى مع مبدأ «التحكم بالخطأ»، البلاستيك يعطي الطفل شعورًا زائفًا بالأمان ويصيب حواسه بالتبلد.

إذا أردتم شراء لعبًا لطفلكم أكثر من الألعاب الخشبية أو المصنعة من الورق المقوى والكرتون التي لا تحتاج تدخلك ليتعلم الطفل هدف اللعبة. اختاروا اللعب حسب عمر واهتمامات طفلكم وقدراته الفردية وأعطوا للطفل حرية استكشاف محتويات الأدراج والدواليب وحرية لمس الأسطح المختلفة. اسمحوا لطفلكم بقراءة كتبًا ورقية ليتعلم الحفاظ عليها، واسمحوا له بحمل الأشياء الثقيلة وعلموه رفعها ببطء ووضعها بحرص.

انحرافات الشخصية

في كتابها The Secret of Childhood قسمت د. «ماريا مونتيسوري» نمو الطفل إلى نمو روحي ونمو من خلال الحركة، فمن خلال الأنشطة التي يستخدم الطفل فيها يديه وحواسه وقدرته على الحركة والجري والتسلق، تتسق روحه مع جسده وينمو بصورة طبيعية. لكن عندما ينشأ الطفل في بيئة «محاصرة» بالأوامر والنواهي والحواجز، حيث لا مجال له للاستكشاف والتعرف على العالم من خلال تجارب ثرية، يهرب الطفل من واقع بيئته إلى الخيالات.

في مدرستي كنت أنا هذه الطفلة الهاربة من واقعها إلى عالم من الخيال. كنت أحب أن أجلس بجوار الشباك مائلة تجاه القضبان الحديدية، كزهرة عباد الشمس، في اتجاه الأشعة الدافئة. كنت أنظر إلى العمارة المجاورة وأتبع شبابيكها وأشم رائحة طيبخ الشقق. من حبل الغسيل أتخيل شكل السكان وعددهم وأعمارهم، من فرش السرير المتدلي أحنن أذواقهم وألوانهم المفضلة. أحياناً كنت ألمح أحد السكان أو إحدى الساكنات، فأصحح خيالي وأنسج المزيد من القصص.

هذا هو أول انحراف للشخصية تحدثت عنه د. «ماريا مونتيسوري»: الهروب من الواقع!

أعراض هذا الانحراف هو طفل متململ يمشي بلا هدف، لا يشارك في أي شيء، لا يتحمل أي مسؤولية، لا ينهمك في أي نشاط ولا يكمل أي شيء من البداية إلى النهاية. في زمننا هذا، يتابع الأهل ألعاباً كثيرة وسرعان ما يصاب الطفل بالملل من تلك الألعاب. يستاء الأهل، أو يفرحون، بخيالات هذا الطفل، ويعتبرونه موهوباً ومبدعاً، حين يتخيل حيوانات طائرة أو حين يشير إلى الأشياء بأسماء غير أسمائها وصفات غير صفاتها. يعيش الطفل في أو هام يشجعه عليها الأهل وفي واقع الأمر طاقته تذهب هباءً!

تعالج «ماريا مونتيسوري» هذا الانحراف من خلال غمر الطفل في بيئة تشجع على حب المعرفة والتعليم الحقيقي، عوضاً عن فضول بلا هدف يحسبه الأهل ذكاءً أو شغفاً. مثلاً، بدلاً من كتب الأساطير والصور الخيالية، يقدم نهج المونتيسوري كتباً عن أشخاص حقيقيين وصور حيوانات وأشياء حقيقية. يشجع الطفل على استكشاف الطبيعة باستخدام عدسة مكبرة ونظارات معظمة ومتر حقيقي لقياس الأطوال وتدوين الملاحظات. فلتتذكر دائماً أن حرية الحركة من الأعمدة الأساسية في نهج المونتيسوري.

الانحراف الثاني الذي ذكرته د. «ماريا مونتيسوري» هو وجود حاجز نفسي / عقلي بين الطفل والتعليم! أعراض هذا الانحراف هو طفل ذكي جداً لكنه لا يستوعب أي شيء ولا يحتفظ بأي معلومة، أو طفل يبدو أقل ذكاءً كما لو أن عقله قد أظلم.

سبب هذا الانحراف هو هروب الطفل من الواقع للخيال كما ذكرنا، أو إحباط وكبت مستمر أدى إلى انطواء الطفل داخل نفسه وخلق حواجز بينه وبين بيئته. بدلاً من احتواء هذا الطفل «الرافض للتعليم»، يتم السخرية منه وإهانته وممارسة العنف اللفظي والجسدي تجاهه! ومن هنا ينشأ الحاجز النفسي ويكره الطفل مادة بعينها أو الاستذكار ككل، كما ينفر من الدراسة والمدرسة والمدرسين. كلنا نعرف هذا الشخص البالغ الذي يكره الرياضيات أو اللغة العربية أو اللغة الإنجليزية أو التاريخ أو غيرها من العلوم، هذا الشخص هو نتاج اصطدام التعليم التقليدي بعقله الشارد في الصغر.

عالجت «ماريا مونتيسوري» هذا الانحراف بالصبر والحب والجمال! فقالت إن العقل المحروم من الجمال والروح المحرومة من الحب تخلق تلك الحواجز. إذا أردت أن تعلم الطفل

مبادئ الحساب يجب أن تضعه منذ نعومة أظافره في بيئة تتعامل بالأرقام، يرى الأرقام في نتيجة التأريخ اليومي بالمنزل، يراها في المال والمعاملات المالية اليومية، يراها في استخدام الهاتف وميزان الفاكهة ودفع الحساب والصراف والطهو والخببز! الأرقام مكانها في لغتنا اليومية، نتحدث عن الكم والعدد والوزن والطول كما نتحدث عن اللون والرائحة. لكن الطفل المحاصر في سريره أو حجرته المغلقة، كيف له أن يرى ويحب ويستوعب ويشتاق إلى تعلم الأرقام وقيمتها؟

نفس الشيء ينطبق على الموسيقى واللغات والرسم وعلوم الأحياء والكيمياء والفيزياء والتاريخ والجغرافيا. منذ نعومة أظافره يجب أن يرى ويلمس الطفل كل هذه الأشياء في بيئته، بدلاً من ملصقات شخصيات الكارتون، فلنعلق خرائط العالم ولوحات الكواكب والمجرات وصور جسم الإنسان. لنستخدم ألفاظاً مثل «تجربة علمية»، «كوكب الأرض»، «القمر»، «حشرات»، «زواحف»، «ثدييات»، «طيور»، «كيلو»، «ليتر»، «كوب»، «نصف»، «ربع»، وغيرها من المصطلحات العلمية الحقيقية الواقعية حتى يتولد لدى الطفل الفضول الحقيقي لتعلم تلك الأشياء المبهرة بدلاً من الاصطدام بـ «تلاسم» عند بدء الدراسة.

شجعت «ماريا مونتيسوري» الأهل على إزالة حواجزهم الخاصة لمعالجة حواجز الطفل، كم منا بينه وبين الطبيعة والشمس والنهار والحيوانات حواجز أو نفور؟ كم منا يسخر من الشعوب المختلفة بألوانها وألستتها؟ كم منا لا يحب القراءة؟ كم منا قد أغلق روحه وقلبه وعقله أمام تعلم شيء جديد؟ كم منا خلق حواجز بينه وبين أفراد أسرته وجيرانه والعاملين على خدمته؟

في النهاية أكدت «ماريا مونتيسوري» على أهمية التكرار في نمو الطفل وقدرته على الإدراك وقالت إن تكرار زيارة نفس الأماكن يساعد الطفل على استيعاب قدر أكبر من المعلومات، وأن الطبيعة أكبر معلم للطفل، بشرط الاحتكاك بها والتفاعل معها لا الانفصال عنها والاختباء منها.

رغم إخفاقاتي العديدة في رحلتي مع «آدم»، فإنني، باتباع فلسفة المونتيسوري، استطعت أن أحميه من العديد من انحرافات الشخصية. «آدم» لديه خيال خصب لكنه ليس منفصلاً

عن الواقع ولا تائهاً في عالم الخرافات. كما أنه منفتح على العلم والمعرفة وليس بينه وبين أي فرع من فروع المعرفة حواجز نفسية. ليس لديه تعلق مرضي بالأشخاص، أو تعلق بالأشياء، أو رغبة في السيطرة، أو شعور بالنقص والدونية، أو الخوف، أو الكذب، كل هذه الانحرافات سببها خلل ما في العلاقة بين الطفل والبالغين من حوله، بالذات الأم والأب والمعلم.

فلندرس معاً بعض المواقف اليومية المتكررة حتى نرى كيف تعمل تلك الانحرافات:

الموقف الأول: المعلم يختار طفلاً من الفصل ويطلب منه مسح السبورة ومراقبة زملائه وكتابة أسماء من يتحدث خلال الشرح.

ستولد نتيجة هذا الموقف عدة انحرافات، سوف يتعلق الطفل تعلقاً مرضياً بالمدرس وسيجد سعادة بالغة في تنفيذ أوامره، ومع الوقت سيفقد الطفل الاهتمام بأنشطته ويستبدل بها قضاء المهام من أجل هذا المدرس. سيجد المتعة في إحضار له ما لذ وطاب من المنزل ومطالبة أهله بشراء الهدايا الرمزية له وسيسمح السبورة ويراقب زملاءه بكل فخر وحب. مع الوقت سيتولد انحراف آخر، وهو استخدام هذا المدرس من أجل الحماية والسيطرة والقوة. بدلاً من مواجهة مشاكله بنفسه، سيختبئ الطفل وراء معلمه الأثير، وبدلاً من روح التعاون والحب بينه وبين زملائه، ستولد منافسة بغيضة ويتعلم الوشاية والتملق والولاء للسلطة. التعلق المرضي بالأشخاص واستخدام البالغين للحصول على السيطرة والتميز قد تحدث مع الأم والأب والمعلم والجد والجددة.

الموقف الثاني: الطفل يحاول حمل فائزة من الصيني ونقلها إلى غرفة أخرى. الأم تنهره وتقول إنه سوف يكسرها وإنها ثمينة وإنه لا يستطيع حملها وغير مسموح له بلمسها.

نتيجة الموقف الثاني هو طفل يشعر بالنقص والدونية، وشخص بالغ فيما بعد لا يريد بذل الجهد في أي شيء لاقتناعه بأنه سوف يفشل. يرى الطفل أمه نفسها التي نهرته تطمئن صديقتها التي كسرت الفائزة بالخطأ وتقول إنها مجرد فائزة حقيرة وفداها ألف فائزة. يرى الأم هادئة تماماً إذا حملت الفائزة مدبرة المنزل أو الطباخة. يشعر الطفل أنه عاجز وفاشل وأن الفائزة الحقيرة أعلى منه، إنه أقل من الجارة والصديقة والخدمة والطباخة وسائر البشر

ويكبر لديه احساس بالعجز وقلة القيمة.

الموقف الثالث: الطفل على البحر يملأ الدلو ببعض الأصداف والرمال ويقرر الأب أنه حان وقت الانصراف فيحمل الطفل والدلو للسيارة.

الموقف الرابع: الطفل يلعب في غرفته ويأتي ضيف. تأمر الأم الطفل بترك اللعب وإلقاء التحية على الضيف.

الرسالة التي يتعلمها الطفل من الموقفين الثالث والرابع أنه غير مهم وأن «عمله» لا يعني شيئاً. يكبر هذا الطفل ولديه شعور أن كلامه لن يؤثر وأفعاله لن تغير فينزوي ويترك كل قضايا المجتمع و«يمشي جنب الحيط».

الموقف الخامس: يذهب الطفل إلى أبيه ويطلب منه أن يغسل له يديه فيستجيب، ثم يطلب منه أن يحميه فيستجيب، ثم يطلب منه أن يلعب معه فيستجيب، ثم يطلب منه أن يحضر له شوكولاتة، فيستجيب ثم يطلب منه أن ينهر زميله الذي أخذ لعبته فيستجيب، ثم يطلب منه، فيستجيب.

الموقف الخامس يؤدي إلى انفجار الأب لأنه يشعر بالسخره، واعتماد الطفل على الأب لتحقيق كل رغباته. يتحول الأب من إنسان إلى مصباح علاء الدين ومع الوقت يكبر الطفل ليتعامل مع كل توضيحات الأب على أنها واجب وأنها أشياء مسلم بها. نكران الجميل والإساءة تكون من نصيب الأب والتواكل والكسل يصبحان سمات أساسية في شخصية الطفل.

الموقف السادس: الطفل في المدرسة يتحدث عن والده الذي ضرب فلاناً لأنه ضايقه، وضرب علاناً لأنه أخذ حقييته، وأمه التي نهرت المدرسة لأنها لا تشرح جيداً، وحكايات أخرى عن بطولات الأب والأم والجد والجدة والحال والعم.

الموقف السادس من أمثلة الكذب، والكذب من انحرافات الشخصية في الأطفال الذين يهربون من الواقع إلى خيالهم. كل طفل يريد «ساحرة طيبة» مثل التي في قصة سندريلا لتحول اليقطين إلى عربة والفأر إلى حصان والملابس البالية إلى ملابس الملوك! نرى في هذا الموقف أيضاً حب السيطرة من خلال استغلال البالغين وقوتهم.

الموقف السابع: الطفل يمتلك صندوقاً يضع بداخله «كنز»، وجد ريشة على الأرض فوضعها في الصندوق. وجد قطعة خشب، وجد حجراً، وجد جزءاً من لعبة مكسورة، وجد وردة، أو وجد ورقة، كل ما يجده ويعجبه يأخذه ويضعه في الصندوق.

الموقف الثامن: يلعب طفلان في الحديقة ووجد أحدهما كوباً فارغاً. بدلاً من اللعب معاً بالكوب الفارغ قررا التعارك على من سيمتلك الكوب. في النهاية تم تدمير الكوب.

الموقف السابع يمثل انحراف «حب التملك»، الطفل لا يفعل أي شيء بمحتويات صندوقه! لا هو حولها إلى عمل فني ولا هو درس خواصها ولا هو صنفها حسب نوعها أو لونها. هو يجب الاقتناء فقط! الموقف الثامن يعكس أيضاً حب التملك والاقتناء ولكن تصحبه نزعة تدمير ما يقتنيه حتى لا يأخذه غيره.

الموقف التاسع: طفل في الحديقة يلعب ثم يبدأ بالصراخ والبكاء والجري عندما يرى كلباً.

الموقف العاشر: الأم والأب يستعدان للرحيل. الطفل يريد الذهاب معها. الأب يقول للطفل إنهما سيذهبان للطبيب.

الموقفان التاسع والعاشر لهما علاقة بالخوف كانحراف للشخصية. الخوف من الأشياء أو الأشخاص أو الحيوانات أو المواقف، لأن الأهل زرعوا هذا الخوف غير المبرر، والآن يعاني منه الطفل. الموقف العاشر هو استغلال الأهل لخوف الطفل من زيارة الطبيب وهو أسلوب تربية خاطئ ويؤدي إلى دمج الخوف والكذب كانحرافات في شخصية الطفل.

هناك العديد من المنتجات في محلات لعب الأطفال، أو في التلفزيون، تساهم في تكوين وتنمية العديد من انحرافات الشخصية لدى الأطفال. عند شراء أي لعبة للطفل يجب على الأهل دراستها من حيث الهدف والرسالة والاستخدام.

هناك ألعاب وأفلام وفيديوهات لتشجيع على العنف أو السخرية من أي شخص مختلف أو التهكم على الزملاء. كذلك هناك ألعاب وأفلام تشجع الأطفال على الإيثار بالسحر والجنيات والقدرات الخارقة، فنجد الطفل يريد أن يضع لصديقه الخلطة السحرية ليحول

إلى قرد، ونجد الطفلة تحلم بالجنية التي ستمنحها الجمال والمهبة والتفوق، ونجد العديد من الأطفال يعيشون في عوالم من صنع خيالهم تعوقهم عن تنمية مهاراتهم اليدوية وقدراتهم العقلية.

نهج المونتيسوري يفضل الطبيعة على الخيال وتنصح د. «ماريا مونتيسوري» بالإكثار من جولات الطبيعة «Nature Walks»، ودراسة الحيوانات والطيور والزواحف والأشجار والأزهار والحشرات خلال تلك الزيارات. من خلال استخدام حواسه يدرك الطفل العديد من الحقائق عن العالم من حوله ويفتح عقله بالأسئلة وشغف المعرفة. كما تؤكد على أهمية استخدام صور واقعية في بيئة الطفل، إذا أردت تعليق صورة كلب على الحائط لا تستخدم كلب كارتوني أو كلب مرسوم أو كلب خيالي بل ضع صورة لكلب حقيقي. وإذا لاحظت اهتمام الطفل بالكلاب، أشبع شغفه بكتب حقيقية عن فصائل الكلاب المختلفة وأنواعها ومعلومات عن صفاتها وخواصها. هكذا يستمتع الطفل بالواقع ولا يغرق في الخيالات وهكذا لا ينشأ حاجز بين الطفل والمعرفة.

أما عن التعلق المرضي بالأشياء، يتعلق الطفل بالأشياء حينما يهجره الأهل مبكرًا، وإذا لم يجد في البشر من حوله الإشباع العاطفي الذي يحتاجه، يبدأ في اقتناء الأشياء والتعلق بها. الكثير من الصفات الكريهة في تعامل الأطفال مع العالم من حولهم سببها «قسوة» الأهل، تلك القسوة التي تكون بدافع الحفاظ على مصلحة الطفل.

في عالمنا الكئيب يقرر الأهل مواعيد استيقاظ الطفل ونومه حسب جدولهم، ويقرر الأهل مواعيد رضاعة الطفل وأكله حسب احتياجاتهم، لا حسب احتياجاته. يولد الطفل في منزل يحشاه، ويشعر سكان هذا المنزل بالتهديد من وجوده، يتخيل الأهل أن بكاء الطفل تلاعب بهم، واحتياجه لوجودهم محاولة منه للسيطرة عليهم. يتبدل الحب والعطاء والحنان بصراع وهمي بين قوى غير متعادلة. العنف النفسي ضد الطفل ومحاولات ترويضه وتدريبه المستمرة ليخضع لرغبات وتوقعات الأهل، تصنع طفلاً غاضباً عنيفاً، أو طفلاً غاضباً متقوقعاً على ذاته - طفل «مطفي». هذا الطفل يكذب ويضرب ويتلاعب بزملائه من أجل

الحصول على غايته، داخله شعور بالدونية والنقص يخفيه وراء قصص من صنع خياله عن أم وأب لا وجود لهما في الواقع.

تنصح «ماريا مونتيسوري» الأهل بالحب المطلق، أحب طفلك كما هو! هذه نصيحة بسيطة ولكن تطبيقها من أصعب ما يكون. للأسف تعثرت كثيرًا في تطبيق هذه النصيحة، خاصة بعد أن أتم «آدم» عامه الرابع وأصبح من المستحيل غض البصر عن «اختلافه» عن نمط النمو الطبيعي للأطفال.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

أعلم جيدًا أنه حتى أستطيع أن أحب طفلي كما هو، يجب أن أهجر كل توقعاتي لهذا الطفل وأن أتعامل معه يوميًا بيوم، وأن أقرأ رسائله وشفراته ومحاولاته للتواصل معي. يجب أن أتواضع! أنا لم أصنعه ولا أملكه! لا يجب أن أنسب لنفسي أي أفضال، وألا أعاقبه على عدم تحقيق أحلامي وطموحاتي. عليّ أن أتقبل طفلي كما هو وأن أستمع بمراحل حياته المختلفة. الحب المطلق يحتم عليّ مساعدته على فتح الأبواب التي يطردها بدلاً من أن أدفعه في طرق لم يخترها.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

أقرأ، وأعيد قراءة، كلمات د. «مونتيسوري» وهي تحذرنني من استخدام الصفات السلبية، لا يجب أن أكرر على مسامع طفلي أنه غبي أو أنه «حمار» أو أنه لن يفلح أو أن فلانًا أفضل منه أو أنه خيب أملي أو أنه لا يستحق حبي وغيرها من الإهانات المستترة خلف ستار التربية. هذا الأسلوب في «التربية» يصنع حواجز بين الطفل وأهله ومدرسته وزملائه والعلم! الطفل المتهم بالغباء يصاب فعليًا بالغباء، كما أن الطفل المتوقع منه كسر الكوب سيكسره، وسينكسر معه.

أعلم! أحاول! أجاهد نفسي!

احترام الطفل يبدأ باحترام احتياجاته في مراحل عمره المختلفة واحترام قدراته، قدرته على الابتعاد عن أمه والانفصال عنها، وقدرته على التعامل مع الغرباء، وقدرته على مشاركة لعبه، وقدرته على التحكم في انفعالاته، وقدرته على فهم الطلبات والتوجيهات، كل هذه

القدرات تختلف من طفل إلى آخر وتجاهلها يؤدي إلى صدمات تؤذي العلاقة المستقبلية بين الطفل والأهل.

إذا أردت أن تعرف إذا كنت تحترم الطفل بالقدر الكافي، تخيل أنك فقدت قدرتك على الحركة، وفقدت قدرتك على الكلام، وفقدت قدرتك على التعبير عن احتياجاتك، وأصبحت في رعاية شخص ما. كيف تريد أن يتعامل هذا الشخص معك؟ هل تريده أن يتركك تبكي وتصيح وتنادي؟ هل تريده أن يغلق عليك الباب ويذهب إلى حال سبيله؟ هل تريده أن يجلسك في المنزل ليل نهار؟ هل تريده أن يتدمر من خدمتك؟ هل تريده أن يهمل تسليتك؟ هل تريده أن يضربك إذا بكيت أو تأملت أو أسقطت شيئاً؟ هل تقبل أن يعاملك هذا الشخص كما تعامل طفلك اليوم؟

انحرافات الشخصية تبدأ في المنزل وعلاجها لا يتم إلا إذا تغير ما يحدث بالمنزل! الكذب والخوف والعنف والتلاعب بمشاعر الآخرين كلها آفات تولد بين أحضان الأهل ومباركتهم!

لعب الولاد ولعب البنات

كيف تختارون لعب طفلكم؟ عند اختيار الألعاب تجنب البلاستيك قدر الإمكان، البلاستيك لا يعلم الطفل أي شيء!

اختروا لعبًا من خامات طبيعية مثل الخشب، الورق، الورق المقوى، البامبو، الأقمشة بمختلف خاماتها، المعادن، الصيني، الزجاج، الصدف، الرمل، الطين والصلصال، وغيرها من الخامات التي تساعد على تحفيز حواس الطفل.

البلاستيك ليس له رائحة ولا ملمس مميز ولا ينكسر إذا وقع ولا يصدر صوتًا مميزًا عند التعامل معه. الخامات الطبيعية السابق ذكرها تعلم الطفل الحذر والحرص، كما تساعد على إدراك خواص الخامات من حوله.

تجنبوا كذلك الألعاب التي تتحدث إلى طفلكم، اختاروا ألعابًا تشجعكم أنتم شخصيًا على التحدث مع الطفل وتشجع الطفل على التواصل معكم. كما يفضل اختيار الألعاب ذات النهايات المفتوحة لتشجيعه على الابتكار والخيال. تعودوا أن تقرأوا لطفلكم كل يوم

منذ يومه الأول، واختاروا كتبًا متنوعة ما بين قصص وقصص مصورة وأغانٍ وكتب حركية حسية.

الحياة هي لعبة الطفل الحقيقية، لا تحرمه متعة العمل واللعب! أشركوا طفلكم في الأنشطة المنزلية اليومية من ترتيب لتنظيف لغسيل لطهي لزراعة وحتى أعمال الصيانة الروتينية في المنزل. تجنبوا التلفزيون قدر المستطاع لأن مشاهدة التلفزيون تقتل الفترات الحساسة وتقلل من فرص تفاعلهم مع الطفل. تجنبوا حتى فتح التلفزيون في الخلفية لأنه يقلل من تركيز الطفل.

دعوا طفلكم يعمل في صمت وشغف، لعب الطفل هو عمله وعمل الطفل هو لعبه كما قالت د. «ماريا مونتيسوري».

أما بالنسبة للألعاب المناسبة للأولاد وغير المناسبة للبنات، أو العكس، فهذا كلام ضد المونتيسوري تمامًا! في نهج المونتيسوري، من الطبيعي أن يكون لدى الولد، مثله مثل البنت، دمية وبيت وملابس لها. من الطبيعي أيضًا أن يتعلم الولد التلميع والمسح والكنس والتطبيق والترتيب والطبخ وتحضير السفرة والخياطة والتطريز وأشغال الإبرة وغيرها من الأشياء المحرمة اجتماعيًا على البنين. من الطبيعي أيضًا، أن تتعلم الفتاة، مثلها مثل الولد، النجارة والزراعة والإلكترونيات والماكينات.

لماذا؟ لأن هذا الولد سيكبر، سوف يصبح إنسانًا مستقلًا يعيش في منزل وحده أو بلدة بعيدة. قد يتزوج وسوف يكون مطالبًا بمساعدة شريكه حياته في كل أعمال المنزل. قد ينجب وسوف يكون عليه رعاية الأطفال مثله مثل أمهم. أما الفتاة، فسوف تكبر وتستقل بنفسها. سوف تكون قادرة على رعاية حديقته أو إصلاح ما يتلف من الأجهزة. سوف تتمكن من تغيير اللمبات ببراعة وسوف تكون فرص العمل في كل المجالات متاحة أمامها.

جزء من قلبي

أجلس فوق قمة عالية في انتظار المد والمدد بعد انحسار بحر الحب وتعري صخور القاع. أغوص في أعماقي باحثاً عن الحب والحنان التائه. أغوص وأعطس وأسبح ثم أبتسم، رائحة رأس وليدي، أشمها! كتفه الأيسر الذي يظهر من بين طيات ملابس العناية المركزة، رأيتة وقبلته في أول يوم سمحوا لي أن أحمله وأرضعه! الرضعة الأولى وخدرها ومتعتها، أشعر بدفق اللبن! أشعر بالحب السائل! اليد الصغيرة التي تمسك على بقايا من الـ«التفافة» واللبن والوبر، أقبلها ثم أفتحها وأستنشق رحيقها!

أنظر أمامي، فأراه وكأنني أراه لأول مرة. رأسه الجميل على رقبة الصغيرة، يسير أمامي بنفس النظرة التي يذوب لها قلبي وجليده، ذراعه تتحركان في ببطء، ساقاه الصغيرتان، كم أنا أحبك! ذراعه كجناحي الدجاجة، أنده عليه «أزأز»، «قروموشة»، «بطاطسية»، «قلب ماما»، أهجم عليه وأقبله. أقول له إنني أحبه! أشعر بالمد وكأنه الفيضان، لكنني أعلم أن البحار لا تفيض. ليتني نهراً جارياً! ليتني شلالاً متدفقاً! أحتضنه! يضحك لي وعليّ! أقبل رأسه ويديه وأشمه وكأنني أشحن بطارية الحب وطاقة العطاء!

جزء من قلبي يسير أمامي! جزء من قلبي يجلس بجانبني! جزء من قلبي يدفع حضيي! أحكي له عن حبي الذي بدأ قبل أن أراه وسيدوم معها حدث. أقول له إنه «هدية ربنا» وأعنيها بكل جوارحي. أقول له إنني لم أكن أصلح أمًا لأي طفل آخر. أقول له إن ربنا أعطاني فيه وبه كل ما تمنيت. يسألني عن مدى حبي له، أقول:

«بحبك قد الحاجات إلي نعرفها والحاجات إلي ما نعرفهاش، قد الحاجات إلي شفناها وإلي ما شفناهاش، قد الحاجات إلي أكلناها وإلي ما أكلناهاش».

يضحك، يقاطعي ويقول: بحبك قد اللمة المحروقة!

نضحك معًا، هذا «سيم» بيني وبينه!

يسألني كثيرًا عن حياتي قبله وعن طفولتي، يعرف الكثير من أسراري وقصصي. أحكي له بصدق عن هزائمي وانتكاساتي، عن صداقتي وخبراتي، عن بؤسي الذي لم أدركه إلا بعد أن أصبحت أمه وخبرت لأول مرة الحب غير المشروط والأمان والعطاء. في الغربة التامة عن عالمي الذي بنيت وألفته لسنوات عديدة، وجدت الوطن الحقيقي. كان علي أن أتخلى عن كل شيء لأجد كل شيء.

يأتي لي بقصة أقرؤها له، أبتسم موافقة، يشترط عليّ: «بس إوعي تزعقي!»

أتمنى أن يدوم المد ويغمره الحب قبل أن تنحسر المشاعر وتتعري الصخور!

يحتضنني فجأة ويقول إنه يحبني حتى إنفينيتي، اللانهاية!

هل شعرت د. «ماريا مونتيسوري» بالحب «حتى الإنفينيتي»؟ هل عانت مثلي من الجزر والمد؟ هل واجهت وحش الفقد القابع في أعماق محيط الحزن والذنب والندم؟ هل تحبب د. «سيرز» مثلي؟ هل جاهد نفسه كل يوم ليتقبل أولاده كما هم؟ الحب المشروط للأبناء هذا يجب أن يدرج في قائمة أمراض المناعة، كيف لنفسك أن تهاجم وترفض وتفترس «جزء منك»؟

أخاف زمهرير الشتاء وقيظ الصيف، فيهما تزداد انحسار المشاعر وتعري صخور القاع أكثر من الربيع والخريف. أراقب نفسي جيدًا. مع بداية الشتاء أمرض وأصاب بالكسل

والفتور ويلتهمني اليأس. تتكاثر الأفكار السوداء في رأسي وأحاربها بشم رائحة رأس طفلي. أتناكل في الشتاء، أزداد شيباً، أطعم وحش الألم النفسي طعاماً كثيراً عله يشبع ويبتعد، أزداد وزناً، أتفوق أكثر وأكثر، أعطي مرآتي، أعطي ظهري للحياة. أقلب صفحات النتيجة في انتظار منتصف أمشير. مثل سلحفاة الصغيرة، أبدأ في الخروج من البيات الشتوي ببطء وهدوء. أنظر للسماء وأدرك أنني لم أمت بعد. يبدأ الدفء يدب في أوصالي وأبتسم في وهن لأشعة الشمس. أستعيد نشاطي وأبدأ في استعدادات التصالح مع مرآتي. تظهر نباتات خضراء صغيرة على أشجاري وأعلم أنها ستورق وتزهو قريباً. أفرد ظهري المحني قليلاً كلما تحففت من طبقة من طبقات الملابس الثقيلة. يأتي الربيع وأزهر وأزدهر. يأتي معه عيد ميلاد «آدم» فنحتفل بفرصة جديدة للحب والأمومة والحياة.

لا أتنفس جيداً في الرطوبة. يقل نشاطي مرة أخرى في الحر. تختبئ في غرفتنا المكيفة في انتظار مرور موجات الحر والرطوبة. أفقد أعصابي كثيراً في الصيف وأتجنب الجدال والنقاش قدر المستطاع. يتحول لون الربيع الأخضر إلى درجة من درجات الأحمر الجهمني، ويثور بركان الغضب الكامن في قاع المحيط مرة أخرى، قد ظننته خمل وانطفأ. تمر الموجات الحارة وتمهب علينا نسات الخريف البرتقالية. يأتي عيد ميلاد جديد لي وتأتي معه فرصة جديدة للوعي والارتقاء والتصالح مع النفس. أجدد وعودي لنفسي ولـ«آدم» ونحتفل بفترة نشاط أخرى، حتى يأتي الشتاء مرة أخرى وتسقط أوراق الحياة معها.

بالطبع هذه ليست طريقة تعليم الأطفال فصول العام في نهج المونتيسوري. لكن، في بيتنا، هذه هي قصة تعاقب الفصول التي أعرفها، ويعرفها «آدم»، جيداً.

الكون

تقول د. «ماريا مونتيسوري»: «

دعونا نمنح الطفل رؤية للكون كله، ففي تأمل الكون سوف يجد الطفل الإجابة على جميع أسئلته، جميع الأشياء تمثل جزءاً من الكون وترتبط بعضها مع البعض لتشكيل وحدة كاملة. هكذا يتوقف ذهن الطفل عن السعي بلا هدف تجاه المعرفة».

خلال دراستي لنهج المونتيسوري استوقفتني كلمات «ماريا مونتيسوري» تلك!

كيف يمكن لعقل طفل أن يستوعب الكون؟ كيف يمكن لهذا الطفل فهم ما درسته أنا شخصياً في المرحلة الإعدادية، ولم أستوعبه؟ في البداية، عندما كان «آدم» صغيراً، كنت أظن أن دوري كأُم تتبع نهج المونتيسوري هو التركيز على الأبجدية والأرقام والمهارات الحياتية. ظلت كلمات «ماريا مونتيسوري» عن الكون تتردد في ذهني، وراقبت ابني عن قرب في انتظار أي إشارة منه لبدء مرحلة حساسة جديدة تتملكه فيها الرغبة في المعرفة.

جاءت الإشارة الأولى فجأة!

كنا نجلس معًا في البلكونة ليلاً لأنه أراد أن يرى النجوم، وكانت السماء صافية والنجوم متناثرة متلائية. كسر «آدم» الصمت حينها قال إنه يريد أن يمسك نجمة. قلت له إن النجوم بعيدة وأنه صغير فكان رده التلقائي أن أذهب أنا وأحضر النجمة. ثم أدركت أن هذه هي اللحظة التي أشارت لها «ماريا مونتيسوري»، بداية مرحلة حساسة جديدة يهتم فيها الطفل بالكون من حوله. أحضرت أدواتي ومعداتي وبدأت في الشرح وأنا أراقب هذا الوجه الصغير يزداد شغفًا!

شبهت كوكب الأرض بالبالون وقلت له إن منزلنا فوق بالون كبير اسمه كوكب الأرض. سأل عن منزل جده وعمتي وجميع أصدقائنا، وأكدت له أن كلنا نحيا على سطح هذا البالون. ثم أحضرت مجسمًا وصورة لرائد فضاء وتأملنا ملابسه معًا، وقلت له إن هذا الشخص وزملاءه يستطيعون اختراق البالون ورؤية النجوم في الفضاء. ثم أحضرت صورة أخرى لمركبة فضاء فأدرك أن هذه هي «سيارة» رجل الفضاء. ثم أحضرت خريطة للمجموعة الشمسية وتركتها في يد «آدم» بدون شرح. وجد عليها رجل فضاء ومركبة فضائية والكثير من النجوم ثم سأل عن القرص الأصفر الكبير، فأجبته: إنها الشمس ثم سأل أين القمر فأشرت إليه، وأشرت إلى كوكب الأرض فطلب أن يرى بيتنا!

وضعت خريطة الكواكب جانبًا وأحضرت مجسم الكرة الأرضية وتركت «آدم» يحركه بحثًا عن بيتنا. أشرت إلى مصر وقلت له إننا نعيش في هذا البلد. أشار إلى بلد آخر فقلت له اسمه وقلت له أن جده كان يعيش هناك. أشرت له إلى بلد آخر وقلت له إنني زرته وأشرت إلى بلد آخر وقلت له إن والده زاره. ثم أحضرت خريطة مصر وأشرت له إلى محافظتنا ومدينتنا.

أصبحت هذه لعبتنا اليومية! السماء، النجوم، الشمس، القمر، السحاب، التنبؤ بالمطر، الكرة الأرضية والخروج منها إلى الفضاء الواسع أو اللعب بقاراتها والبلاد المختلفة.

شروط اللعبة:

- الطفل هو الذي يبدأ اللعب دائمًا! عليكم بمراقبة طفلكم وتتبع أسئلته لفهم اهتماماته ومراحله الحساسة.

- لا تسهبوا في الشرح والحكي حتى لا يشعر الطفل بالإرهاق.
- اعتمدوا على التنوع في الوسائل التوضيحية.
- لا تستخدموا صورًا كارتونية ورسومات تعبيرية؛ اختاروا صورًا حقيقية ورسومات واقعية.
- اللعبة تنتهي عندما يفقد الطفل اهتمامه، لا تضغطوا عليه ولا تجبروه على استكمال اللعب.

تثق «ماريا مونتيسوري» في الطفل ثقة كاملة، وتوجه كلامها كله للأهل أو القائمين على رعاية الطفل فتقول إن عقل الطفل مصمم ليسأل ويجرّكه فضول وشغف للمعرفة، ولكن على المحيطين به تهيئة البيئة المناسبة للطفل ليستكشف! لن يسأل الطفل عن المحاصيل أو الزرع أو الفراشات وهو يقضي معظم يومه في الداخل. لن يسأل الطفل عن الحيوانات إذا لم يرها ويتفاعل معها! لن يسأل عن الموسيقى إذا لم يسمعها ولم تعزفها له! لن يسأل عن الفن إذا لم يستكشف جوانبه! كذلك، الطفل لن يفهم ويمتص العلم إذا لم يسأل عنه ويطلبه!

في يوم ما فتحت النافذة ووقف «آدم» مذهولاً! أين الجيران؟ لقد اختفى كل شيء. أين يداي الممدودتان أمامي؟ إنها شبورة!

في يوم آخر، لمس لعبة في البلكونة ووجدها مبللة، فسأل إن كانت الدنيا قد أمطرت، فقلت له إنها قطرات الندى!

مثلما فتح «آدم» نفسي على الحياة، فتح نفسي على العلم. لقد درست وما زلت أدرس وأتعلم لأستمتع معه بالمعرفة والاستكشاف. ما أجمل الكون من منظور طفل يجرّكه الشغف والفضول!

الشغف

اعرف طفلك حتى نستطيع تعليمه! هذه هي إحدى قواعد نهج المونتيسوري الراسخة! أرسلت لي أم جادة سؤالاً يخص طفلها فقالت إن طفلها لديه هوس بالسيارات وأنه لا يلعب بأي ألعاب أخرى، وأنه في عمر ثلاث سنوات ونصف يعرف إشارات المرور وأنواع السيارات وماركات السيارات. تقول الأم إنها مدركة أن هذه فرصة كبيرة ولكنها لا تعرف كيف تستغلها!

كيف تستخدم هذه الأم شغف ابنها في تعليمه الأبجدية العربية والأبجدية الإنجليزية؟

- يمكنك صناعة «الفلاش كاردز» الخاصة بكم، هي كروت عبارة عن صورة في الأمام وفي الخلف كلمة. مثلاً: صورة سيارة وفي الخلف حرف «س» وتحت الحرف كلمة سيارة. تكوين الأبجدية من السيارات ووسائل المواصلات سوف يتطلب بعض الإبداع ولكن النتيجة سوف تكون مبهرة! أوتوموبيل، باخرة، تليفريك، ثقيل (نقل ثقيل) وهكذا.

- بعد أن يتعلم الطفل اسم كل صورة يمكنك تطوير النشاط لتعليمه الأصوات. اشترِ علبة حروف أبجدية وعلى الطفل مطابقة الحرف والصورة وفقاً لصوت الحرف. مثلاً، سوف يضع حرف «ط» فوق صورة الطائرة لأنها كلمة تبدأ بصوت «ط».
- للتنوع يمكنك صناعة كروت خاصة بالماركات، سيارات، فيات، بولونيز، وهكذا!
- يمكنك صناعة كروت لأجزاء السيارات، محرك، عجل، إطارات، كرسي السائق، كرسي الراكب الأمامي، وهكذا.
- يمكنك صنع هذه الكروت للأبجدية العربية والأبجدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية.

كيف تستخدم هذه الأم شغف ابنها في تعليمه الأرقام؟

- ابدئي بطباعة كروت عليها الرقم ونقطة تمثل الرقم، مثلاً، 3 وتحتها ثلاث نقاط سوداء كبيرة. على ابنك وضع عدد السيارات المناسب فوق كل كارت.
- يمكنك فيما بعد أن تلعب معه لعبة الجراج وتطليبي منه إدخال ثلاث سيارات داخل الجراج وعلى الباقي الانتظار على البوابة!
- يمكنك أن تصنعا لوحات معدنية لكل سيارة من رقمين!
- يمكنك أن تضعاً أرقاماً على الأماكن المخصصة للركن وأرقاماً ماثلة على كل سيارة والمطلوب أن تركز كل سيارة في الحارة الخاصة بها. مثلاً السيارة رقم 4 تركز في الحانة رقم 4.

كيف تستخدم هذه الأم شغف ابنها في تعليمه الجغرافيا؟

- استغلي تعدد بلدان المنشأ لمختلف السيارات لتكوين عدة أنشطة لتعليم الجغرافيا!
- مثلاً: كروت لأعلام الدول وتحت كل علم اسم الدولة ويتعلم الطفل أن هذه السيارة جاءت من هذا البلد.
- نشاط آخر: ابحث عن البلد على الخريطة!

- نشاط آخر: ضع الماركات أمام البلد؛ السيارات الألمانية، السيارات اليابانية، السيارات الروسية وهكذا.
- نشاط آخر: تعلم القارات! أين تقع بلد كل سيارة؟ أوروبا؟ آسيا؟ شال أمريكا؟

كيف تستخدم هذه الأم شغف ابنها في تعليمه التاريخ؟

- الجغرافيا سوف تفتح لك مجال التحدث عن أهم الأحداث التاريخية لكل بلد ويمكنك دائماً البدء بتاريخ المدينة التي تصنع السيارة.
- في مرحلة لاحقة يمكنك توسيع الموضوع للحديث عن تاريخ الحروب العالمية والتقسيم السياسي لكل منطقة.
- يمكنك إضافة قطع الغيار للنشاط لأن هناك دولاً متخصصة في تصنيع قطع غيار السيارات.

استغلال شغف الطفل مسئولية كل أم وأب وكل معلمة ومشرفة! هناك أطفال لديهم شغف بالحشرات أو الديناصورات أو الحرف أو الأعمال المهنية، وعليك ابتكار طرق لتعليم الطفل يكون شغفه هو محورها ونقطة البداية!

كم استمتعت أنا و«آدم» بالطبيعة واستغلّيت شغفه بها في العديد من الدروس التي تبدو صعبة. وجودنا وسط الحقول والمزارع وزياراتنا المتكرر للمتاحف والأماكن الأثرية ترك بصمته الذهبية على عقلينا، عقلي وعقله.

الطبيعة

في عام 1906 أعطت الحكومة الإيطالية د. «ماريا مونتيسوري» قطعة أرض صغيرة جرداء عليها مبنى قبيح، وطلب منها المسئولون أن تحبس أطفال شوارع الحي بداخلها طوال النهار حتى يعود أهلهم من العمل - بدلاً من تدمير شوارع وحيطان وكباري ومباني الحي. قامت «ماريا مونتيسوري» بزراعة الحديقة الصغيرة المحيطة بالمبنى، ووضعت أحواض الزرع على جميع النوافذ. امتلأت كتب «ماريا مونتيسوري» ومذكراتها بالأنشطة القائمة على الزرع والزراعة ومراقبة الطبيعة في كل أشكالها لأنها آمنت إيماناً شديداً بأن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة، وأن من يجب الطبيعة لن يدمر أو يقتل أو يسرق لأن أساس الطبيعة هو البناء والنمو والسلام.

ابتداءً من عمر ثلاثة أشهر يبدأ عقل الطفل «الماص» في تخزين صور ذهنية عن الطبيعة من حوله، صور للسما والحدائق والأشجار والنخيل والورود والجبال والبحر! عليكم استغلال هذه المرحلة الحساسة والخروج به إلى المتنزهات. لن يفهم الطفل أسماء الأشياء لكنه سوف يلتقط مشاعر من معه! سوف يرصد الطفل مشاعر الراحة والسعادة والسلام الداخلي وترتبط تلك الجولات لديه بالحب والسعادة.

في عمر ستة أشهر ابدءوا بتعريف طفلكم على ما يرى؛ شجرة! زهرة! نخلة! سماء! بحر! جبل! لا تحكي ولا تستفيض! فقط كرر الأسماء أمامه كل يوم - يجب أن يتعرض الطفل للهواء الطلق يوميًا!

في عمر تسعة أشهر ابدءوا بسؤال طفلكم عن أماكن الأشياء، أين الشجرة؟ أين الزهرة؟ أين النخلة؟ أين السماء؟ وهكذا! في هذه المرحلة لن يتمكن الطفل من الإجابة إلا باستخدام إصبعه للإشارة وهذا هو غرض هذا النشاط!

في عمر عام ابدءوا في تقديم الألوان، شجرة خضراء! زهرة حمراء! سماء زرقاء! من الأفضل أن تركزوا في كل جولة على لون واحد فقط ليتعلم الطفل الألوان. في نفس الجولة ابدءوا أسئلة عن أماكن الأشياء وشجعوه على الإشارة للأشياء والألوان.

في عمر عام ونصف راقبوا معًا الفراشات والنحل والغراب والهدهد والعصافير والبيام والحمام! اشرحوا لطفلكم ما يرى! الهدهد يأكل الدودة من الأرض! النحلة تمتص الرحيق! الغراب يستحم في حوض الماء! هكذا تبني اهتمام الطفل بالطبيعة! لا مانع من الصمت والتأمل!

في عمر عامين حدثوا لطفلكم عن الزراعة وقوموا معه بتجربة زراعة الفول. دعوه يقوم بكل الخطوات باتباع توجيهاتكم! كرروا التجربة مع البطاطا والبصل والطماطم! في هذه المرحلة شجعوا طفلكم على تسمية الأشياء! اسألوه: ما هذه؟ بدلًا من «أين الشجرة»؟ ليحييكم «شجرة».

في عمر ثلاث سنوات تحدثوا معه عن المواسم وعن النخل والبلح والصناعات القائمة على النخيل! استمتعوا بأسئلته ونهمة للمعرفة! سوف يسأل عن كل ما أثار فضوله وسوف يسترجع كل الصور الذهنية التي خزنها «عقله الماص»، وسوف تفاجئوا من معلوماته وملاحظاته وأسئلته. سوف تتحول جولاتكم وتنزهاتكم في الطبيعة إلى دروس عن صناعة العسل والطيران والوعوم والتلقيح وأنواع الأشجار المثمرة ودورة حياة الحشرات، وغيرها من الحوارات الشائقة التي توطن العلاقة بينكم وبين الصغير الذي يكبر.

لا تنسوا الكتب في جميع المراحل السابقة! كتب عن الطبيعة والطيور والحشرات والورود

والمطر والمواسم وغيرها من الكتب التي توسع مدارك الطفل وترسخ ما رأى خلال جولاته معكم! كذلك لا تهملوا الفن وصناعة الأعمال الفنية من الودع وفروع الشجر الجافة والأغصان المتساقطة والزهور بعد تجفيفها!

لقد صدقت «ماريا مونتيسوري»! كيف لطفل انشغلت يده واشتعل عقله أن يدمر أو يخرب أو يشعر بالملل أو الفراغ؟ أول أربعة أعوام ونصف من حياة «آدم» قضيناها هكذا، في الطبيعة وبين المزارع والحقول. لو زعمت أن لي رصيلاً لديه اليوم، فأنا مديونة لهذه الفترة الممتعة من علاقتنا.

المزرعة

يتعجب الكثيرون من تكرار زياراتي أنا و«آدم» إلى نفس المزرعة بصورة دورية منذ أن كان عمره عامين إلا عدة أشهر. أول خطأ يقع فيه الأهل_ وخاصة في المدينة_ هو افتراض أن الطفل يتعلم من خلال مطالعة الكتب المصورة عن المزرعة وحيواناتها، وأن اللعب بالحيوانات المجسمة كافٍ لتعليمه كل ما يحتاج! الخطأ الثاني هو التعامل مع زيارة المزرعة أو الحديقة أو الحقل أو حديقة الحيوان بمبدأ زيارة واحدة تكفي!

لو أردت أن أخص لكم كيفية تعلم الأطفال، لقلت إن الطفل يتذكر 10% مما يقرأ، و20% مما يسمع، و30% مما يرى، و50% مما يرى ويسمع في نفس الوقت، و70% مما يقول من إجابات وما يكتب، و90% مما يفعل ويلمس بيده! لهذا، زيارة المزارع والحقول أمر لا غنى عنه، وفي كل مرة يزور الطفل فيها نفس المكان، يتعلم شيئاً جديداً ويرسخ معلوماته التي جمعها في الزيارة الأولى.

حواس الطفل في نهج المونتيسوري هي إدراك الأشياء من خلال النظر إليها، والتعرف على الصوت الذي تصدره، والرائحة التي تميزها، ولمسها الخاص، ومذاقها وشكل

حركتها وحرارتها ووزنها، والتعرف على الأشياء من خلال حجمها وملمسها بدون رؤيتها (حاسة الكفيف). إذا كان الطفل أقل من ثلاث سنوات، كل زيارة للمزرعة هي فرصة هائلة «لعقله الماص» لتخزين صور عديدة عن الحيوانات والنباتات وحياة المزارع والفلاح! في هذه الفترة كل دورك هو ذكر اسم ما يرى من كائنات والإجابة على أسئلته، إن وجد.

بعد ثلاث سنوات يبدأ التصنيف، الطيور، الثدييات، الزواحف، الحشرات، الأسماك، البرمائيات! يبدأ الطفل في تعلم الأسماء الصحيحة لأجزاء جسد ما يرى مثل المنقار والحوافر والقرون والريش والفراء والصوف والشعر والجلد والأصابع والذيل والزعانف وغيرها من المصطلحات.

يمكن للطفل تصنيف الطيور وفقاً لشكل ريشها وحجمها ورقبتها وشكل أرجلها ومنقارها! يمكن للطفل معرفة خيرات كل طائر أو حيوان على البشرية من لحم وبيض ولبن ومنتجات الألبان وغيرها من المنتجات التي يستخدم فيها الريش والجلد والفراء.

في المزرعة يتعلم الطفل مواسم الزراعة ودور الحيوانات في التسميد والحرث والبذر والري ونقل المحاصيل، ويدرك الطفل شكل شجر الموز والمانجو والموايح المختلفة ويعرف الهدهد والغراب وأبو قردان.

الطبيعة هي أفضل معلم والمعلومات التي يدركها الطفل من خلال حواسه تشكل وجدانه، وتبني شخصيته، وتساعد عقله على التساؤل والاستنتاج والتحليل وربط الأحداث وحل المشكلات! يمكنكم تعزيز زيارات المزرعة بكتب عن تربية الدواجن أو المواشي أو الزراعة أو النخل أو النحل ويمكنكم البحث عن فيديوهات وأفلام وثائقية حتى يعقد الطفل مقارنات بين ما اختزن في عقله من صور ومعلومات، وما يراه على الشاشة.

عندما كان «آدم» رضيعاً، خلال جولتنا اليومية في الحدائق المحيطة، كنت أشير له إلى الزهور وأقول له «وردة» وكنت أشير إلى كل ما هو أخضر وأقول له «زرعة» وكنت أشير إلى كل ما يطير وأقول له «طائر». تعلمت فيما بعد أن هذا خطأ.

لم تتعامل د. «ماريا مونتيسوري» مع الطفل في أي مرحلة من مراحل عمره على أنه كائن محدود «مش فاهم حاجة». دعت «ماريا مونتيسوري» القائمين على رعاية الطفل إلى تسمية

الأشياء بأسمائها الحقيقية بدون تبسيط أو اختصار، وقالت إن الطفل سوف يسمع الكلمة وسوف يخرزها «عقله الماص» وسوف ينطقها حينما تنضح قدرته على الكلام مثلما ينطق أي كلمة أخرى.

بدأنا دراسة الطيور بالتعرف على الطيور الحية التي يراها «آدم» في بيئته مثل العصفور والغراب والحمامة واليهامة والهدهد. كلما صادف ورأينا أحد هذه الطيور، أشرت إليها وذكرنا اسمها. الخطوة التالية كانت صنع كتيب صغير يحتوي على صور الطيور التي نراها يوميًا ويعرفها «آدم». يجب أن تكون صور الطيور حقيقية وليست كارتونية، وإذا كانت مرسومة يكون الرسم مطابقًا للطائر في الواقع. في الصفحة المقابلة للصورة كتبت اسم الطائر بخط واضح وحروف كبيرة. لن يقرأ الطفل ما تكتب لكن عقله سوف يخرز صورة الهجاء الصحيح لكل كلمة ومع الوقت سوف يتعلم الطفل الحروف ويقرأ بنفسه كتابه المفضل منذ الطفولة.

في زيارات المزرعة، كنت أخصص وقتًا للتركيز على الطيور المستأنسة مثل الفراخ والديوك والبط والوز وأبراج الحمام والديك الرومي وأبو قردان. كنت ألتقط الكثير من الصور لهذه الطيور في بيئتها وأصنع كتابًا جديدًا لـ «آدم». هدف هذا الكتاب هو تعريفه بأسماء وأشكال الطيور وصغارها وطعامها وشكل بيضها وريشها. بعد زيارات المزرعة، كنا نتردد بصورة أسبوعية على حديقة الحيوان حتى يرى «آدم» النعامة والفلامينجو والبجع والبيغاء وطيور الزينة. عندما كبر «آدم» وبدأنا نزور المحافظات، تعرفنا على طائر النورس والطيور المهاجرة.

لا تتوقعوا أن يعرف الطفل كل الطيور وأنواعها من أول مرة، ولا تتوقعوا أن يتذكر الطفل كل ما رأى في رحلاتكم، لذلك تنصح «ماريا مونتيسوري» بتكرار الزيارات لنفس الأماكن مرات عديدة على فترات متقاربة لأن في كل مرة سوف يلتقط ذهن الطفل صورًا جديدة تضيف إلى معلوماته.

كلما كبر «آدم»، كنت أضيف المزيد من المعلومات إلى أسماء الطيور مثل حقيقة أن جميعهم يكسوهم الريش، واختلاف حجم بيضهم، ومدة رقود الإناث على البيض قبل التفريخ، واختلاف حجم وشكل أرجلهم للتأقلم على بيئتهم، واختلاف شكل المنقار باختلاف أنواع

الطعام ومصادره، والفرق بين الطائر الذي يطير في السماء والطائر الذي يسير على الأرض والطائر الذي يسبح على الأسطح المائية. كنت أوجه «آدم» وأثير فضوله من خلال طرح الأسئلة مثل: لماذا لا يغرق البط وهو يسبح؟ ما الفرق بين البط والوز؟ كيف تعرف الذكر والأنثى؟ لماذا تطير الطيور في سرب؟ كيف تصنع الطيور العشوش؟ كيف تتعلم الطيور الطيران؟

من بعد عامه السادس، بدأت أربط أنواع الطيور بالجغرافيا والخرائط ودراسة المناخ والبلاد والقارات، وتقدير فكرة هجرة الطيور وأسبابها. هذه الأنشطة ليست مجرد أنشطة تعليمية بالنسبة لي، هكذا أطفو فوق سطح الأمومة وأقاوم جاذبية قاع المحيط!

لا تتخيلوا أن الطفل لن يستوعب كل هذه المعلومات! العائق الوحيد بين الطفل والمعرفة هو قتل الفضول والشغف! وكما قالت «ماريا مونتيسوري»: «هدف التعليم قبل المدرسي (أقل من ست سنوات) هو تحفيز رغبة الطفل الطبيعية في المعرفة والعلم».

أنا لست عقبة في طريق «آدم»

أنا أخطئ أحياناً! أترك جرحاً في قلب صغيري أحياناً! أرى ألمه فأعتذر وأغرق في قاع المحيط. ينتشلني «آدم» كثيراً بيديه الصغيرتين ويأخذني إلى عالمه المبهر، كل شيء مبهر بالنسبة له. أدخل معه عالمه وأفتح له أبواب المعرفة وحب التجربة. أتمنى ألا أقف في يوم من الأيام عقبة في طريقه.

آمنت «ماريا مونتيسوري» بأن كل طفل يولد وبداخله عالم صغير، ومن خلال ملاحظتها للأطفال، وجدت أن الطفل الذي لم يتم عامه الأول، ويصر على رمي كل شيء على الأرض، ليس إلا عالم صغير منبهر بالجاذبية الأرضية. اكتشفت أن الطفل في عامه الثاني يُجري العديد من التجارب المشابهة ليتعلم خواص الأشياء، فهو يكرر نفس الأفعال ليرى إذا كان سيحصل على نفس النتيجة أو لا! لكن للأسف العديد من الأمهات والآباء يقفون في طريق العالم الصغير ويمنعوه من إجراء تجاربه حتى لا تنكسر أشياءهم الثمينة!

يعتمد نهج المونتيسوري على تشجيع استكشافات الطفل في بيئة آمنة ومعدة خصوصاً له! تقدم له الأنشطة وفقاً لفراته الحساسة واهتماماته وميوله، ويستخدم أدوات حقيقية

تمامًا ولكنها أصغر حجمًا وأقل وزنًا من أدوات البالغين.

فمثلاً في المثال الأول للطفل الذي يستمتع بإلقاء الأشياء على الأرض، جهزوا له عدة أشياء مصنعة من خامات مختلفة ليرى كيف تسقط، كرة مطاطية، فنجان من البلاستيك، مكعب خشب، فوطة صغيرة، وهكذا! بالنسبة للزجاج والصيني، سوف يكسر الطفل على الأقل كوبًا أو طبقًا واحدًا حتى يعرف ويتعلم قابلية الزجاج للكسر، وأهم شيء في هذه الحالة هو رفع الطفل بعيدًا عن الشظايا!

الطفل الذي يستمتع بسكب الأشياء جهزوا له عدة محاليل وسوائل مختلفة ليسكبها من كوب إلى كوب في الحوض أو على سطح ما! ساعدوه في سكب الماء والمياه الفوارة وزيت الزيتون وسائل تنظيف المواعين وسائل شراب السكر وغيرها! طفلكم يتعلم ويستكشف! في عام الطفل الثالث يمكنكم إعطاؤه ريموت قديم ليتعلم فتحه وإغلاقه وكيفية وضع البطاريات فيه! يمكنكم إعطاؤه مصباحًا يدويًا بطارية_ وعلموه كيف يتعرف على السالب والموجب حتى يضيء المصباح.

في مرحلة الطفولة المبكرة، يشجع نهج المونتيسوري على تعريف الطفل بمبادئ التفاعلات الكيميائية مثل التفاعل بين الخل والبيكربونات والليمون والبيكربونات والماء والسكر والنار! قدموا لطفلكم مبادئ الفيزياء مثل الطفو والكثافة والكتلة والتبخر والمغناطيس والحامض والقلوي والضوء وألوانه!

جزء كبير من التجارب في نهج المونتيسوري يعتمد على الملاحظة قبل الاستنتاج! تستخدم هذه التجارب للفرقة بين الكائنات الحية والكائنات غير الحية، الطفل لا ينظر للكروسي ويقرر أنه غير حي. الطفل لديه قائمة للتمييز بين الكائنات ويراجعها في كل مرة يريد أن يعرف ماهية الكائن، هل يأكل؟ هل يشرب؟ هل يتنفس الهواء؟ هل يتكاثر؟ هل يتحرك؟ هل يخرج فضلات؟ هل يتأثر بالبيئة المحيطة به؟ هل ينمو؟ هكذا يفرق الطفل بين الكائنات والأشياء وهذه هي بذرة التفكير العلمي وكيفية الاستنتاج!

بنفس الطريقة يفرق الطفل بين الحيوان والنبات ويفرق الطفل بين الفقاريات

واللافتاريات وبين فصائل كل منهم! يعتمد نهج المونتيسوري في هذه التجارب على الإدراك من خلال الحواس! لا يعتمد على الحفظ أو التلقين أو التكرار، يعتمد على المشاهدة والملاحظة واللمس وربط الأحداث ويستخدم الرحلات الميدانية والصور والمجسمات لمساعدة الطفل على الاستمتاع بالتعلم.

تصليني الكثير من الرسائل لأمهات يشتكين من فضول أطفالهن، وللأسف يلصقن بكل محاولاتهن للتعلم صفة التخريب، ويقفن حائلاً بين عبقرية العالم الصغير والبيئة المحيطة به! إذا رأيتم طفلكم يستكشف بطريقة قد تؤذيه، ساعدوه على استكشاف نفس الشيء في بيئة صديقة وآمنة! شغف الطفل وفضوله هو طوق نجاته من الجهل واللامبالاة، شجعوه ولا تحبطوه!

الفضول

يياغتنني «آدم» أحيانًا بأسئلة مشروعة تمامًا، أسرح وأفكر، لماذا لم أسأل أنا هذا السؤال من قبل؟ لماذا لم أنظر يومًا إلى السماء وأسأل، مثل «آدم»، عن اسم نجمة ما؟ لماذا لم أسأل عن سبب ظهور القمر في النهار؟ لماذا لم أسأل عن تغير شكل القمر خلال الشهر؟ لماذا لم أسأل عن معنى أيام الأسبوع والأشهر بالإنجليزية؟ لماذا لم أسأل أي أسئلة على الإطلاق؟ هل وُلدت «مطفية»؟

هل تعرفون أهم صفة في طفلكم في أول سبع سنوات من عمره؟ هل تعلمون أن طفلكم يولد وبداخله ما يشبه الشعلة المتوهجة؟ هل تعلمون أن معظم الأطفال يفقدون توهجهم هذا بعد عام أو عامين من عمر السابعة؟ هل تعرفون كيف تحافظون على التوهج هذا؟ هل تعرفون كيفية تغذيته؟ هل تعرفون اسمه؟ إنه الفضول. أهم صفة في أول سبع سنوات من عمر طفلكم هي الفضول!

متى يولد الفضول؟

يولد الفضول مع الطفل! تروونه في البداية في عينيه المتبعتين لكل ما هو متحرك وكل

ما هو ناطق وكل ما هو داكن. يكبر فضول الطفل معه ليشمل مذاق الأطعمة والتلامس والروائح ثم يتشعب الفضول ويصل إلى الأدراج والأرفف والأقفال وفيش الكهرباء والأدوات الكهربائية. هكذا يولد الفضول وهكذا يكبر. بدون أي تدخل منكم. يولد وبدون أي تدخل منكم، يكبر.

كيف يموت الفضول؟

لا يموت الفضول بسهولة! الفضول هو المحرك الأساسي لغريزة البقاء ولهذا يصعب قتله! لتقتلوه وتحمدوا جذوته تحتاجون إلى سنوات من العمل المستمر! يبدأ الفضول في طريق موته البطيء مع أول ضربة على يد الطفل عندما يمسك شيئاً يخصكم، أو عندما يضع شيئاً في فمه، أو عندما يحاول فتح أو غلق درج. كل مرة تنهوه فيها عن المحاولة، كل مرة تعنفوه فيها على المحاولة، كل مرة تحولون بينه وبين المحاولة، كل مرة تعاقبوه فيها على المحاولة، كل مرة من هذه المرات يموت جزء من فضوله، جزء صغير لن تشعروا به في وقتها!

ما هي أهمية هذا الفضول؟

بدون الفضول لن يزدهر طفلكم عقلياً أو حركياً أو حسياً أو اجتماعياً أو لغوياً أو نفسياً، وسوف تضيق عليه فرص كثيرة للنمو والتطور والذكاء بمختلف أنواعه.

الفضول هو أساس اكتشاف الطفل للأطوال والأوزان والأحجام والمقارنة بينها، وهو أول درس في الفيزياء والميكانيكا والكهرباء وهندسة الطرق. الفضول هو ما يعد طفلكم ليصبح مبدعاً أو مبتكراً أو مخترعاً أو مكتشفاً. فضول الطفل هو دافعه للسؤال عن الأرقام والحروف والأشكال والكلمات ومعانيها.

هل رأيتم طفلاً شاردًا لا مبالياً غير مكترث بما يدور حوله؟ هل نظرتم داخل عينيه ورأيتم فراغ روحه؟ هذا طفل فقد فضوله!

كيف تغذون الفضول؟

* تشجيع الطفل على الاستكشاف والتجربة والخطأ والتعلم من الدروس المستفادة.

- * تعليم الطفل كيف يقدر المخاطر ويقيم المزايا والعيوب.
- * القراءة للطفل في مجالات متعددة حتى تثيروا فضوله وتفتحوا مداركه.
- * طرح الأسئلة على الطفل والبحث معه عن الإجابات.
- * تشجيع الطفل على السؤال وعلى التعبير عما يجول بخاطره.
- * يتغذى الفضول على التجارب الحياتية الغنية، كونوا مبتكرين متنوعين مجددين!
- * لا تأمروا طفلكم بالسكوت أو السكون لأن الفضول يحتاج الحركة والحوار.
- * لا تتعاملوا مع طفلكم في أي مرحلة من حياته على أنه «عيل مش هيفهم حاجة».

هناك فرق بين الفضول الحقيقي وادعاء الفضول ليحصل الطفل على انتباهكم. قالت د. «مونيسوري» إن الكثير من الآباء يفرحون بتطلع أطفالهم إلى السماء وإطالة النظر للقمر والنجوم ظناً منهم أن أطفالهم شعراء مبدعون متأملون، بينما هم في الواقع شاردون تائهون هاربون من واقعهم! حذرت أيضاً من الطفل الذي يسأل من أجل السؤال ولا تعنيه الإجابة في شيء. يسأل ليقبلكم معه. يسأل ليحصل على الاهتمام. يسأل ليكون محور الاهتمام، ولو للحظات. التأمل والإبداع الحقيقي يأتي بالأسئلة ويفتح باب العلم والرغبة في المعرفة!

نستيقظ مبكراً، أنا و«آدم»، لنشاهد شروق الشمس! مشاهدة الشروق مع «آدم» تجربة ممتعة تجعلني أرى الشروق وكأنه حدث فريد أو معجزة أترقبها! نتحين الفرص كذلك لمشاهدة الغروب ومراقبة القمر وأطواره ومراقبة الكواكب والنجوم. مع الوقت بدأ «آدم» يطرح الأسئلة ويقدم استنتاجاته. لجأت إلى كتيباتي التعليمية من أجل التجارب الحسية لشرح الظواهر الكونية تلك! باستخدام مجسم الكرة الأرضية والمصباح، بدأت أفسر لـ«آدم» تعاقب الليل والنهار والمواسم وأطوار القمر. قدمت له تجارب تفسر قوس قزح والسحاب والندى والبخار والمطر ودورة حياة المياه. أكرر التجارب وفي كل مرة أحصل على نفس رد الفعل، من خلال عينيه، أرى جزءاً من عقله يضيء.

من أين يبدأ التاريخ؟

من أكثر القصص المحببة إلى قلب «آدم» هي قصة معرفتي بخبر حملي فيه وصور السونار وهو يكبر داخل رحمي وكيف أعددت المنزل لاستقباله وكيف أعددت نفسي وحياتي للترحيب به. يجب «آدم» قصة سبوعه وطقوس السبوع ويقول للجميع إنه كبر في حضني. من هنا يبدأ التاريخ! يبدأ من الطفل وتكوينه وميلاده. يبدأ من أسرة الطفل وعائلته. يبدأ من العلاقة بين الأم والأب والأخوات والخالات والعمات والجدود والجذات. في شجرة عائلتنا هناك أماكن لحيواناتنا الأليفة. الأحياء منهم والأموات.

لم تهتم «ماريا مونتيسوري» بكبر الشجرة أو كثرة أوراقها، ولكنها اهتمت بتوضيح العلاقات بين الأفراد من خلال أوراق وفروع الشجرة! يجب «آدم» أن يسألني عن أم أمي وأم أبي وكيف أن أم أبي وأم عمتي وأم عمي هي نفس الشخص. يجب أن يعرف الكثير عن حياتهم وقصصهم ومغامراتهم. الطفل بطبيعته يجب أن يفهم العلاقات ويجد راحة في الترتيب والنظام.

بعد ميلاده وشجرة عائلته، يتعلم الطفل تعاقب الأيام من خلال توثيق يومه لمدة أسبوع

كامل ليرى أن يومه يبدأ في نفس التوقيت بنفس الطقوس وينتهي في نفس التوقيت وبنفس الطقوس. هناك أشياء تتكرر كل يوم مثل الوجبات وأنشطة محددة وهناك أشياء تتكرر مرة كل أسبوع وهناك أشياء تتكرر مرتين في الأسبوع وهكذا. تستمر دروس التاريخ لدراسة الفصول وتعاقبها وكيف تدور الأرض حول الشمس وكيف يتعاقب الليل والنهار وأطوار القمر.

تتسع دائرة التاريخ لتشمل تعريف الطفل بتاريخ مشاهير ممن يهتم بهم! في فصول المونتيسوري أول شخص يتعرف الطفل على تاريخه هو «ماريا مونتيسوري»! في بيتنا توجد صور ومقتطفات عن مشاهير الموسيقى الكلاسيكية ومشاهير الرسامين. إذا كان الطفل شغوفاً بكرة القدم، فلنبدأ بتقديم مشاهير كرة القدم، وإذا كان شغوفاً بالكهرباء فلنبدأ بأشهر المخترعين وهكذا! عندما تناولت «ماريا مونتيسوري» المشاهير، ذكرت بعض المعلومات عن طفولتهم والكثير من المعلومات عن إنجازاتهم وركزت على تأثير تلك الإنجازات على عالمنا اليوم.

الهدف الأساسي من دراسة التاريخ هو أن يكبر الطفل وهو مدرك أن الماضي هو حجر أساس الحاضر، وأنه بأفعاله سوف يؤثر في مستقبل البشرية على كوكب الأرض. يتعلم الطفل أن له بصمة وأن بإمكانه التأثير في أجيال كثيرة قادمة! الأمثلة التي تضررها للطفل كثيرة، منها استهلاك المياه والتلوث والمخلفات واستخدام المبيدات وغيرها من الأشياء التي تؤثر على توازن الكوكب وموارده.

أما المستقبل، فيتعلمه الطفل من خلال التدريب على ترقب الأحداث المستقبلية! ترقب حدث مهم سيحضره الطفل أو رحلة سيقوم بها. ترقب مسرحية سوف تعرض أو سياسي مهم سوف يزور المدينة أو شخص مؤثر سوف يزورنا. في فصول المونتيسوري، توجد لوحة كبيرة يقوم الطفل والمدرسة بلصق أوراق من الجرائد والمجلات المحلية التي تعلن عن الأحداث المهمة التي تتكرر سنوياً أو مرة كل شهر أو نادراً! تشمل الأحداث الظواهر الكونية والفلكية المهمة وبداية الفصول وبداية كل شهر وأعياد ميلاد العائلة والأصدقاء في كل شهر.

من خلال دراستها للأطفال، تعلمت «ماريا مونتيسوري» أن الطفل قبل 6 سنوات

من أين يبدأ التاريخ؟

يعتقد أنه محور الكون، وهذا سبب تصرفاته التي يفسرها البالغون بالأثانية والنرجسية! يظن الطفل أن العالم يدور حوله وأن طلباته واحتياجاته كلها مهمة وعاجلة وملحة! يصعب على الطفل في هذه السن المبكرة الانتظار أو الصبر أو تقدير الوقت! وكلما صغر سنه كلما صعب على عقله تصنيف الأحداث زمنيًا، يتداخل الحاضر والماضي والمستقبل وتلبس الأيام والشهور والمواسم، ويشير إلى الأمس وكأنه اليوم ويشير إلى أحداث الصباح وكأنها أحداث الأمس، ويصعب عليه تخيل الغد أو الأسبوع المقبل أو أي شيء في المستقبل.

الطفل في أول عام لا يدرك أن أمه كائن منفصل ويظن أنها امتداد له أو جزء منه، ويحتاج إلى عام آخر من التدريب لتستطيع ذاكرته استحضار صورتها في غيابها، ويحتاج إلى أعوام كثيرة من النمو العقلي والاجتماعي ليدرك أن هناك أشخاصًا غيره في العالم، وأن تصرفاته تؤثر فيمن حوله، وأن تصرفات من حوله تؤثر فيه! لهذا لم تبدأ «ماريا مونتيسوري» منهج التاريخ كما يبدأ في كتب التعليم التقليدي! بدأت من حيث يقف الطفل وتحدثت من منظوره وخاطبت اهتماماته! هكذا تشعل ذكاء الطفل وشغفه لدراسة التاريخ.

مبادئ دراسة التاريخ في نهج المونتيسوري هي معرفة تاريخ اليوم وأيام الأسبوع وأسماء الشهور والعام الحالي. يبدأ تعليم الطفل التاريخ بداية من تاريخ ميلاده! قبل عيد ميلاد الطفل بيوم واحد، قولوا لطفلكم أن الغد هو عيد ميلاده الرابع، مثلًا! وأحضروا فرحًا من ورق الكارتون الأصفر أو الأبيض وصممًا وصورًا كثيرة للطفل خلال الأربع سنوات الماضية. رتبوا الصور زمنيًا بكتابة رقم على ظهر كل صورة ثم اعرضوا الصور على الطفل بداية من صور عامه الأول، أول صورة له وهو حديث الولادة، أول صورة له وهو عمره شهر، أول صورة له يستحم، ويرضع، ويجلس مستندًا إلى الوسادات، ويجلس بدون الاستناد إلى شيء، ويأكل شيئًا في يده، ويمسك مكعبات، ويجبو، ويقف، ويأخذ أولى خطواته. بعد لصق الصور تحدثوا عن كل صورة باستخدام الفعل الماضي وادعوا الطفل لملاحظة شكله والاختلاف في قدراته ومهاراته ونوع ملابسه.

اشرحوا للطفل كيف يمر العام بفصوله الأربعة، أول شتاء، أول ربيع، أول صيف، أول خريف.

ثم قوموا برص الصف الثاني من الصور، وقولوا لطفلكم: «هذه مجموعة صور لك في عامك الثاني. لقد مر عام آخر» وكرروا المواسم وتعاقبها ليعرف الطفل كيف مر عامه الثاني.

يتكرر نفس الشرح في العام الثالث والرابع. ثم ذكروه أن عيد ميلاده غداً، وأن هذا هو بداية عامه الخامس، وسوف يمر كما مرت الأعوام السابقة، وسوف يزداد طوله ويزداد وزنه وتزداد مهاراته، وسوف تتعاقب المواسم.

يوم عيد الميلاد نفسه أحضروا مجسمًا لكوكب الأرض وأحضروا شكل شمس كبيرة مستديرة مشعة وأحضروا شمعة صغيرة في كوب زجاجي صغير. يمكنكم تقسيم المنضدة إلى الفصول الأربعة ويمكنكم كتابة اسم شهر كل فصل. سوف يمسك الطفل بمجسم كوكب الأرض، وسوف توضع الشمس في وسط المنضدة، وسوف تضاء الشمعة في كوبها الزجاجي، وتوضع فوق الشمس في المنتصف. اشرحوا للطفل أن ضوء الشمعة هو ضوء الشمس، وأن مجسم كوكب الأرض هو رمز لحياتنا على الكوكب. سوف يبدأ الطفل الممسك بالمجسم باللف ببطء حول المنضدة وسوف يرى كيف يتغير ضوء الشمس على الكوكب الذي يحمله وكيف تمر الشهور وتتعاقب الفصول. عندما يكمل اللفة ويعود إلى نقطة البداية قل له إن عامًا قد مضى. يمكن للطفل أن يكرر اللف حسب عدد سنوات عمره، ويمكنك سرد أحداث العام الماضي ببطء وبإيجاز ليربط الطفل بين تاريخه الشخصي ومرور الوقت والشهور والمواسم المختلفة.

يمكنكم بعد ذلك تهنتته وإطفاء الشمعة، وفتح حديث حول أمنياته للسنة القادمة. يجب أن يكون الحديث مبسطاً ومحددًا ويمكنكم اتباع الصور في السنوات الماضية الملصقة على فرخ الكارتون لمساعدته في تكوين أفكاره عن المستقبل.

الحكايات

يحب «آدم» الحكايات وأنا أحب أن أحكي له حكايات من طفولتي ومراهقتي، بالإضافة إلى القصص والحكايات التي أشتريها له. أحب أن أنظر له وأنا أحكي وأستمع بمشاهدة وجهه وعينه وكأنه يرسم في عقله المشاهد التي أحكيها له. أحتضنه وأمتلىء بالحب والدفء، فتنغطي صخور القاع وأطفو على سطح الأمومة في سعادة بالغة. هناك على السطح، وأنا أطفو، لا أشعر بثقل الذنب ولا يجذبني الندم إلى قاع المحيط. أشعر بأشعة الشمس على وجهي وأستمع بخفة قلبي وجسدي.

أحكي له قصة «الأميرة المغرورة» من ذاكرتي وأضع لمساتي المختلفة في كل مرة أحكيها له، أشكل ذاكرته وذاكراته، وأحتل مكاناً خاصاً لم يسبقني أحد إليه، أنا الراوي والحكاه. أحكي له لعلني بصوتي الدافئ وحضني الوثير، أطمس صوتي العالي وكلامي الجرح في هجماتي عليه. بالحكي والقصص أحاول أن أخلق مساحة آمنة يهرب إليها «آدم» من هجمات الحياة عليه في المستقبل، مساحة كتلك التي خلقتها جدتي في وجداني.

تقول د. «ماريا مونتييسوري» إن كل حدث هو فرصة للتعلم، وتؤكد على أهمية

«العقل الماص» للطفل بعد ثلاث سنوات، لأن في سنوات الطفولة المبكرة يمتص الطفل المعلومات بوعي ويسهل عليه ربط الأحداث والاستنتاج والتخيل. كل هذه القدرات يجب استغلالها في تعليم الطفل وفي تحفيز ذكائه وفضوله.

أجلس مع «آدم» في المطبخ لأعلمه كيف يفرد الجبن الأبيض على كسرة خبز شهية! أرى فرصة تعليمية عظيمة لتوجيه عقله نحو التاريخ والجغرافيا والزراعة وعلم الحيوان وعلم النبات والمهرم الغذائي! لا أريد أن أثقل عليه بالمعلومات فأسير معه بخطوات صغيرة.

أسأل «آدم»: هل تعلم مما يصنع الخبز؟

قد يعرف وقد لا يعرف! في كلتا الحالتين الإجابة هي حبة القمح.

سوف أحكي لك قصة حبة القمح.

كان يا مكان، منذ آلاف السنوات، وعلى جدران المعابد، أرخت الرسومات لبدء زراعة حبة القمح! في البداية اكتشف الإنسان حشائش طويلة، أثمرت سنابل خضراء جميلة الشكل، ثم تحولت السنابل إلى اللون الذهبي! نفص عنها قشرتها وتذوقها ثم طحنها ثم خبزها! هكذا بدأ الإنسان أولى تجاربه العلمية حتى اكتشف كيف يأكل القمح مخبوزاً أو مسلوفاً أو منبثاً أو مشوياً! أشرت إلى الخريطة ليرى «آدم» موقع مصر ونهر النيل كأولى الحضارات التي قامت حول زراعة القمح.

قادت حبة القمح الفلاح إلى البحث عن فلاحين آخرين حوله عندهم نفس الحشائش، وكانت هذه بداية التجمعات السكانية، وأول شكل للقريبة، ومجموعة القرى كونت المحافظة، وهكذا قام النموذج الأول للدولة والحكم والقانون والقضاء! على حبة القمح قامت التجارة بين البلاد التي تزرع القمح والتي لا تزرع القمح! تألق الجنس البشري في التجارب العلمية المبنية على حبة القمح وكانت نتيجة هذه التجارب هي الوجبات اللذيذة التي نأكلها اليوم مثل الكيك والبيتزا والفطائر والمعجنات والخبز بجميع أنواعه وأشكاله.

تعلم الفلاح أنه لا يأكل وحده حبة القمح! الفئران تأكل القمح وكذلك السوس الأسود والدواجن والطيور والماعز والخراف! تعلم الفلاح أن الفأر يأكل محصول القمح، وأن

القطط تأكل الفئران! الدواجن تأكل القمح، والشعالب تأكل الدواجن! الماعز والخراف يأكلون القمح، وهو وعائلته يأكلون الماعز والخراف! تعلم كيف يصنع خيال المائة «الفزاعة» حتى تخاف الطيور وتبتعد عن القمح الثمين! تعلم كيف يربي القطط لتأكل الفئران ويحمي المحصول! تعلم كيف يخزن القمح في صوامع، وكانت الصوامع هي البناء الهندسي الذي ابتكره الفلاح حتى يحفظ القمح من الرطوبة والمطر والآفات! يضع الفلاح القمح الطازج من فتحة في السقف ويأخذ احتياجاته اليومية من باب في أسفل الصومعة!

هكذا، ومن خلال قصة حبة القمح، يمكن لأي طفل الربط بين اللحظة الحالية وتاريخ البشرية! هذه القصة ليست الإجابة على أسئلة الطفل؛ هذه القصة هي مجرد البداية لسيل من الأسئلة التي سوف يطرحها عقل الطفل الشغوف بالمعرفة! إذا سأل الطفل سؤالاً لم تعرف إجابته، لا تحجل! قل له إنك سوف تبحث معه عن إجابة سؤاله! علمه كيف يبحث على النت وفي المكتبات وفي الموسوعات!

للحكي أصول! كيف نحكي لأطفالنا «حدوتة»؟

حسب عمر الطفل وميوله اختاروا القصة! قد تختارون قصة مصورة بدون أي كلمات، أو قصة بها الكثير من الصور والقليل من الكلمات، أو قصة بها قدر من الكلمات والصور.

- انظروا معاً إلى الغلاف واقراءوا عنوان القصة واسم مؤلفها.
- ابدءوا بشرح من هو المؤلف وتحدثوا قليلاً عن موهبة الكتابة.
- اسألوا طفلكم عن المواهب الأخرى موجهين انتباهه إلى تأليف الموسيقى والتلحين والعزف والغناء والرسم والنحت والتصوير وغيرها من المواهب.
- انظروا إلى الصورة المرسومة على الغلاف واسألوا طفلكم: «تفتكر القصة دي عن إيه؟»

- تحدثوا عن توقعاتكم من خلال النظر إلى الشخصيات المرسومة على الغلاف.
- أول قراءة للقصة لن تكون بقراءة الكلمات أو الأسطر. ابدءوا بمحاولة فك أحداث القصة من خلال النظر إلى الرسومات وتخيل ما يحدث.
- ابدءوا بالقراءة وأثناء القراءة اسألوا الطفل أسئلة مثل: «تفتكر فلان حاسس بإيه؟» أو

«تفكر فلان هيعمل إيه؟» أو «إيه رأيك في إيلي قاله فلان؟» أو «هو إيلي في الصورة ده شكله شرير ولا طيب؟»

- يمكنكم إضافة أجزاء للقصة لتأكيد المعلومة.
- يمكنكم أن تسألوا الطفل أسئلة تساعده على ربط معلوماته العامة بأحداث القصة. مثلاً إذا كانت القصة عن مزرعة ما، يمكنكم أن تسألوا الطفل عما يعيش في المزرعة من حيوانات وطيور.
- يمكنكم أن تسألوا طفلكم عما كان سيغيره لو كان هو مؤلف القصة.
- عند الحكي، يفضل أن تغيروا من نبرة صوتكم حسب أحداث وأبطال القصة. يمكنكم أن تدخلوا مؤثرات صوتية مثل صوت طرق على الباب أو أصوات الحيوانات.
- يمكنكم اختيار الجزء المفضل لدى طفلكم وتمثلونه معاً.
- يمكنكم البحث عن أفلام وثائقية تساعده على فهم أعمق للقصة. مثلاً، فيلم عن كيف يخرج الكتكوت من البيضة.
- تجنبوا تحويل الحدوتة إلى موعظة ودرس مباشر.
- اقرءوا لطفلكم وهو في حضنكم!

السؤال الطبيعي التالي هو: كيف يجب طفلي القراءة؟

كيف تنشئوا قارئاً نهماً؟ كيف تحببوا طفلكم في القراءة؟ كيف تختارون كتباً له؟ متى تقرأون له؟ ما أهمية القراءة للطفل؟

خصصت د. «ماريا مونتيسوري» ركناً للقراءة في بيت الأطفال – Casa Dei Bambini – والذي كان أول فصل مونتيسوري تم إنشاؤه في 1906 لاحتواء أولاد الفقراء وأطفال الشوارع، وأصبح ركن القراءة من أهم سمات فصل المونتيسوري حتى يومنا هذا.

مواصفات ركن القراءة:

- ركن هادئ بعيد عن باقي أنشطة المونتيسوري، وبعيد عن ركن الموسيقى والرسم والطعام.

- توضع الكتب على أرفف في متناول يد الطفل حتى يستطيع اختيار الكتاب الذي يريد أن يقرأه.
 - تقسم الكتب حسب نوعها: قصص، تاريخ، سير ذاتية، رسومات، علم الحيوان، علم النبات، وهكذا.
 - يوجد في هذا الركن بعض القصص المسموعة، وجهاز خاص لتشغيلها، وساعات للطفل حتى يستمع في صمت دون أن يزعج الآخرين.
 - لا يوجد ما يشتت انتباه الطفل من نقوش أو رسومات على الحائط أو السجادة.
- مواصفات الكتب:

- يجب أن تناسب الكتب عمر الطفل، هناك كتب مخصوصة للأطفال أقل من عام تتميز بالصلابة ومصنوعة من الورق المقوى.
- هناك كتب أخرى للقراءة أثناء الاستحمام واللعب في المياه.
- هناك كتب تصدر أصواتاً، وكتب أخرى تعتمد على تعليم الطفل من خلال الملمس، كتكوت أصفر ويكون اللون الأصفر مصنوع من مادة تشبه زغب الكتكوت.
- هناك كتب أخرى تشجع الطفل على التفاعل من خلال تحريك بعض أجزاء الكتاب أو طيات الورق.
- هناك كتب خالية تماماً من الكلمات وتعتمد على الصور والرسومات لتشجع الطفل على الخيال والسرود.
- بالإضافة إلى الكتب المسموعة.
- نفرت «ماريا مونيسوري» من الكتب الخيالية التي تتحدث عن الساحرات والجنيات والكائنات الخرافية والأحداث غير الواقعية، لأن من شأنها إرباك الطفل وتوجيه خياله من الإبداع إلى الأوهام.

أهمية ركن القراءة في كل بيت وحضانة وفصل:

- الكتاب هو المصدر الأساسي للمعرفة ويعتاد الطفل القارئ على استشارة الكتاب للإجابة على أسئلته.
- القراءة تساعد الطفل على الكلام واستخدام اللغة وتنمية المفردات.

- القراءة تساعد الطفل على التخيل وعلى إدراك المواقف.
- الكتاب يساعد الطفل على التعبير عن نفسه ومشاعره واحتياجاته.
- هناك كتب عديدة تؤهل الطفل لمواقف بعينها مثل ركوب الطائرة أو الذهاب إلى المدرسة أو استخدام التواليت بدلاً من الحفاضة.
- الكتب تساعد الطفل على القراءة بصوت عالٍ وعلى تركيب أصوات الحروف.

متى وكيف تقرأ للطفل؟

- على كل من يرعى الطفل القراءة له منذ الميلاد! القراءة كل يوم قبل النوم أو القراءة كل يوم في منتصف النهار أو القراءة كل يوم في أي وقت تختاره وتثبته.
- عليك أن تقرأ لطفلك قبل أن يفهم ويدرك لأنك في هذه المرحلة توطن علاقه بالكتاب.
- عليك أن تقرأ لطفلك كل يوم مثلما يأكل كل يوم.
- عليك أن تقرأ لطفلك حتى يتعلم اللغة الصحيحة ومفرداتها وتركيب الجمل.
- في عمر عامين يمكنك أن تقرأ لطفلك كتباً بها مقاطع قصيرة يمكن للطفل ترديد بعض كلماتها وخاصة الكتب التي تتحدث عن أصوات الحيوانات.
- اقرأ لطفلك مواضيع تثير اهتمامه، رحلة مكوكية للقمر إذا كان مهتماً بالفضاء مثلاً.
- اقرأ وطفلك في حضنك حتى ترتبط القراءة بالحب.
- اقرأ حتى لو لم يتابع الطفل أصابعك على الكتاب.
- اقرأ حتى لو بدأ طفلك لعبة أخرى أو بدا وكأنه لا ينصت لك.
- اقرأ كلما أحضر لك الطفل كتاباً.
- يجب أن يراك الطفل تقرأ ويجب أن يدرك أهمية الكتب عندك!
- اقرأ لطفلك بحب وشغف حتى ينتقل له شعور حب القراءة.
- اقرأ بصوت عالٍ وواضح وحاول أن تعبر عما تقرأ بصوتك، عبر عن الدهشة والفرحة والحزن والقلق بصوتك!
- اذهب إلى المكتبة مع طفلك ودعه يكون شريكاً في اختيار الكتب!

كيف تشترون كتبًا لطفلكم؟

أولاً: ضعوا أنفسكم مكان الطفل

كلما أمسكتم كتابًا وفكرتم في شرائه، انظروا للكتاب بعيون طفلكم وفكروا بعقله وتحيلوا أنفسكم مكانه. هل ستجذبه الصور؟ هل يناسبه الخط؟ هل الموضوع شائق؟ هل سيتمكن الطفل من الإمساك بالكتاب دون مساعدة؟ هل يمكنه تصفحه بحرية؟

ثانياً: الثلاثة أعوام الأولى واختيار الكتب

إذا كان طفلكم أقل من ثلاثة أعوام اختاروا كتبًا سميكة الغلاف والورق، وهي معروفة باسم Board Books، ويمكنكم البحث عنها في محرك البحث والنظر لصورها.

يفضل أيضًا أن تكون الكتب تفاعلية، حيث يحرك الطفل أجزاء من كل صفحة ويتفاعل مع القصة بالرفع أو الضغط.

الكتب الحسية مهمة جدًا في هذه المرحلة، كتب تقدم للطفل ملامس مختلفة وأصواتًا وروائح وصورًا متنوعة.

ثالثاً: كتب مرحلة الطفولة المبكرة

الطفل ما بين ثلاثة وستة أعوام يسأل لماذا وكيف! انظروا للكتب وتصفحوها، هل تجيب على هذين السؤالين؟

اهتموا بالمعلومات العامة والثقافة وخاصة الكتب التي تتحدث عن جسد الإنسان، فصائل الحيوانات، الظواهر الطبيعية، كوكب الأرض، الفضاء، الثقافات الأخرى، والأطفال في بلاد العالم المختلفة.

قد تكون الكتب على شكل موسوعات مصورة أو سلسلة أو كتيبات.

رابعاً: الكتب التربوية

لا تهملوا شراء الكتب التي تتحدث عن علاقة الطفل بجسده وعلاقة الطفل بأهله والقيم الهامة مثل الصداقة والصدق والأمانة والمثابرة وغيرها.

خامساً: الكتب الأكاديمية

كتب تعليم اللغة والتدريب على الكتابة وتطبيق الرياضيات. راجعوا أهدافكم التعليمية للعام المقبل لتساعدكم على اختيار الكتب المناسبة للمرحلة.

سادساً: أدوات تنمية المهارات

لا تشتروا أداة قبل أن تجربوها ويفضل أن تجربوها في وجود طفلكم. تأكدوا أن الأدوات مصنوعة من خامات مناسبة للأطفال وتأكدوا من جودتها. تأكدوا أنه لا توجد أخطاء إملائية في الطباعة وخاصة في الفلاش كاردز، وتأكدوا أن قطع البازل تتركب بسهولة، وتأكدوا أنه لا توجد أجزاء حادة أو صغيرة تؤذي الطفل.

القواعد العامة عند اختيار الكتب

- * تجنبوا الصور الكارتونية والصور الرمزية واختاروا الكتب التي تقدم صور حقيقية واقعية ملونة كبيرة واضحة.
- * تجنبوا الكتب الخيالية للأطفال أقل من ست سنوات لأن الطفل لا يميز الخيال عن الواقع في هذه المرحلة.
- * تجنبوا الكتب المزدحمة صفحاتها بالصور والكلمات.
- * الأولوية للكتب التي سيحتاجها طفلكم خلال هذا العام، ولكن من المهم الاستثمار في كتب للأعوام القادمة وخاصة الموسوعات والأطلس بمختلف أنواعه.
- * الطفل فوق ست سنوات يسأل دائماً عن التفاصيل وأصل الأشياء وتاريخها. اختاروا كتباً تجيب عن أسئلة الطفل حول الاختراعات والبدايات في كل شيء.
- * يفضل أن تصحبوا طفلكم معكم عند شراء الكتب ليعتاد المكتبات ويجب الكتب ويختار معكم كتبه.
- * في زيارات معرض الكتاب، خذوا معكم شنطة سفر بعجل لتضعوا بها مشترياتكم.
- * حددوا أهدافكم من زيارة معرض الكتاب، ماذا سيتعلم طفلكم خلال العام القادم؟ أي مواضيع ستركزون عليها؟ أي مهارات تريدون تنميتها؟ أين يقف طفلكم من القراءة؟ كيف تساعدوه على النمو والتطور؟ ماذا ينقص مكتبته؟ كيف يتعلم

طفلكم؟ ما هي المواضيع الشائعة بالنسبة له؟ كيف يتفاعل الطفل مع الكتاب؟ هذه أسئلة يجب أن تسألوها لأنفسكم قبل أن تختاروا أي كتاب.

صوت جديد

في يوم من الأيام كنت كاتبة وفي يوم آخر أصبحت أحمل جنيناً في رحمي، توالى الأيام وأصبحت الكتابة عبئاً، ثم مرت أيام كثيرة حتى ولد طفلي. دفعت صوتي وقلمي ثمناً للأمومة وكأني تبرعت بخلايا عقلي لجنيني وحل محلها الضباب. كانت هناك أوقات افتقدت فيها الشهرة وكانت هناك أوقات أخرى اشتقت فيها لدفعة الأدرنالين في دمي مع كل لقاء تليفزيوني وكل مقال جديد. اشتقت إلى تعليقات المتابعات والمتابعين و«خناقات» اختلاف الرأي وصراعات القوى.

كنت أتذكر ما مضى وأبتسم ابتسامة رضاء لأنني حقاً كنت راضية مرضية بمشاعر الأمومة. كنت مشغولة باستكشاف مناطق جديدة للمتعة ومخابئ جديدة للخوف. كنت أكتب كثيراً في رأسي وكانت الكلمات تتطاير أمامي كلما حاولت الإمساك بها وسطرها على الورق، أو اللابتوب. الأمهات من حولي، الكاتبات، يكتبن وينشرن ويبدعن وينجحن وأنا عاجزة بلا صوت. استمر الحال حتى أتم «آدم» عامه الثالث وبدأت أكتب لموقع، تم حجه فيما بعد، عن المونتيسوري، ولموقع يتناول الحب والزواج والجنس والصحة الإنجابية. بدأت أكتب باللغة العربية الفصحى لأول مرة.

في البداية كنت أشعر بغربة ورهبة مثل تلك التي شعرتها مع رضيعي بعد ميلاده، ومثل تلك التي أشعر بها تجاه جسدي حتى اليوم. كنت أشعر أنني امرأة مسنة وأن اللغة العربية هي مفاصلي المتيسة وعظامي الهشة. بدأت أكتب وأذكر نفسي بمقولة جدتي لأمي: «لأ الضبة تفتح». مرت سنوات عديدة وأنا أكتب في رأسي فقط. أريد أن أكتب عن تفاصيل رحلتي مع «آدم»، عن مشاعري وتقلباتها، وعن انتصاراتي الصغيرة وإحباطاتي. أريد أن أكتب خطابات، كما كنت أفعل وأنا صغيرة، تحمل اللوم والغضب والحب والاشتياق إلى أصحابها.

مرت السنوات حتى اقترب «آدم» من إتمام عامه الثامن، كذكر الكناري الذي يختبر التصغير لأول مرة، بدأت أتذوق اللغة العربية وأستمتع بها. بدلاً من ترجمة أفكار من اللغة الإنجليزية، بدأت أفكر بالعربية، وبدأت أعبر عن نفسي عن طريق الكتابة بها. لأول مرة، بدلاً من شراء القصص والروايات الممتعة بالإنجليزية، أستمتع بقراءة قصص وروايات بالعربية. لا تزال الإنجليزية هي لغة التعلم المفضلة بالنسبة لي، ولكن اليوم أصبح لي صوت باللغة العربية.

أعتبر هذا الصوت الجديد هدية أخرى من هدايا «آدم» لي!

الثقة

يظن الكثيرون أن الطفل يثق بأهله بمجرد أن هذه أمه وهذا أبوه، ويستغرب الآباء أن طفلهم ذا الثلاثة أعوام لا يثق بكلامهم، أو أن طفلهم في عمر المدرسة لا يحكي لهم عن يومه أو مشاكله، أو أن ابنهم الشاب لا يلجأ لهم للمشورة ولا يأتمنهم على سره.

تقول د. ماريا مونتيسوري: إن «الطفل يبني أركان شخصيته من الانطباعات الراسخة التي يتلقاها» وأن «النمو ليس مجرد زيادة متناغمة في الحجم، ولكنه تحول مستمر وانتقال من مرحلة إلى مرحلة» كما أكدت أن «عظمة شخصية الإنسان تبدأ في ساعة الولادة» وأن «طريقة تعاملنا مع الطفل سوف تؤتي ثمارها ليس فقط في الوقت الراهن، لكن في تكوين شخصياتهم في المستقبل حينما يصيرون كبارًا بالغين». أما في تفسيرها لعلاقة الحب بين الطفل وأمه فقالت: «عند التقاء غريزة الأمومة بالفترات الحساسة لدى الطفل حديث الولادة تنشأ علاقة حب واعٍ بين الأم والطفل».

معنى هذا الكلام:

- انطباعات الطفل عن أهله تحدد مستقبل تعامله معهم.

- نمو الطفل لا يحدث في خطوط مستقيمة ولكنه انتقال من مرحلة إلى مرحلة.
- الطفل حديث الولادة يشعر ويدرك.
- أن الحب والثقة ورباط الأبوة والبنوة أشياء تتكون مع الوقت والمواقف وتعامل الأهل مع مراحل الطفل الحساسة يحدد شكل العلاقة الحالية والمستقبلية بينهم.

كيف نطبق هذه النظريات فعليًا؟

أولاً، منذ ميلاد الطفل يجب أن يتعود الأهل على الإصغاء لطفلهم. هذا الكائن الصغير الباكي لا يعرف سبباً آخر للتواصل! يبكي حينما يحتاج أن يرضع أو ينام أو يغير حفاظته. يبكي ليعبر عن الألم أو الضيق أو الزهق! إنه يتواصل مع أهله فماذا هم فاعلون به؟ إجابة هذا السؤال تعد بمثابة حجر الأساس في علاقة الثقة بين الطفل والأهل.

هل سيستجيب الأهل لنداء طفلهم؟ هل سيجد الحزن والحنان والأمان؟ هل سيشعر بيد حانية تطمئنه؟ أم هل سترك يبكي حتى ييأس؟ هل سترك وحده حتى يفقد الثقة في الكبار العاملين على رعايته وخدمته؟ هل سيقابل بكأوه بصراخ وعصبية وعدم تحمل من قبل الأهل؟ ما هي الرسالة التي ترسلها لطفلك؟ «أنا هنا من أجلك، ويمكنك أن تعتمد على وجودي بجوارك دائماً» أو «حل مشاكلك بعيداً عني؟»

ثانياً، يمر الطفل في أول ثلاثة أعوام بمراحل عديدة تمثل نموه العقلي والعاطفي والجسدي. دور الأهل هنا هو مساعدة الطفل في العبور بسلام من مرحلة إلى أخرى بدون تدخل، بدون إبطائه أو استعجاله! نجد مثلاً أن الرضيع يعاني _يعاني كل من حوله_ لينام! هو يريد أن ينام والأهل يريدونه أن ينام لكنه لا يعرف كيف ينام! تبدأ رحلة المحاولات، تركه يبكي في سريره حتى ينام، إرضاعه أعشاباً طبية حتى ينام، تدليك جسده، حمام دافئ، غناء أغاني تساعد على النوم، الهزهزة، حمله والسير به، النوم أثناء الرضاعة على ثدي الأم، وغيرها من طرق مساعدة الطفل على النوم.

ليس لي أول «ماريا مونتيسوري» أو للأهل اختيار الطريقة، عليكم بالإصغاء إلى الرضيع، كيف يرتاح؟ ما هي الطريقة التي يفضلها؟ لا يهم هنا كم نحن مرهقون أو كم المهام التي يجب علينا إنجازها، المهم هو الطفل واحتياجاته.

ثالثاً، لا تتعجلوا في الانتقال بالطفل من مرحلة إلى مرحلة، بداية الطعام، الانتهاء من الرضاعة (الطعام)، استخدام المرحاض، النوم في غرفة مستقلة، النوم بدون مساعدة، والجلوس والوقوف والمشي، واللعب مع أطفال آخرين ومشاركة لعبه، كلها أشياء لن يتعلمها الطفل بالغضب أو القهر! عليكم بتقبل طفلكم كما هو واحترام قدراته واحتياجاته الفردية.

الانتقال من مرحلة إلى مرحلة يحتاج من الطفل نمواً جسدياً وعقلياً وعاطفياً وهذا النمو لا يستطيع الأهل التدخل فيه أو التعجيل به. دور الأهل لمساندة هذه المستويات من النمو هو توفير البيئة الصديقة التي تساعد الطفل على تحقيق ذاته. لا يهم أن ابن فلان أو بنت علان «سبق/ت» طفلكم في مرحلة من المراحل. لا تقعوا في فخ المقارنات!

رابعاً وأخيراً، لا تنتهزوا كل فرصة لتقديم محاضرة للطفل! الطفل لا يتعلم بالكلام، الطفل يمتص أفعالكم ويكررها! لا تقولوا له: «انظري وأنا أكل الخضراوات» بل دعوه يراكم تتناولون الخضراوات بشكل مستمر! تلك النبذة الواعظة سوف يتعود عليها الطفل، ومع الوقت سيغلق أذنيه كلما سمعها! لا تكذبوا على طفلكم ولا تخلفوا وعودكم له. لا تضنوا على طفلكم بالحضن أو القبلة كلما طلب، ولا تتعودوا على تجاهل بكائه أو احتياجاته. لكي تحظوا بثقة طفلكم اليوم وفي المستقبل، عليكم بالعمل على تغيير تصرفاتكم وألوياتكم واحتياجاتكم وأسلوب حياتكم كله، بدلاً من الوقوع في خطأ الكثيرين ممن عملوا على تغيير تصرفات وألويات واحتياجات طفلهم، فدخلوا في دائرة عدم الثقة وتبعاتها.

الاستقلال والانفصال

تشبث الطفل بأهله_ في أغلب الأوقات بأمه_ هو مرحلة طبيعية يمر بها الطفل أثناء نموه العاطفي والاجتماعي. تبدأ المرحلة الأولى من رهبة الانفصال تقريباً في عمر سبعة أشهر، بحسب شخصية الطفل المتفردة، وتنتهي بعد العامين. يشعر الطفل في هذه الفترة أن أمه هجرته، وأنها لن تعود وأنه لن يراها مجددًا، والسبب في ذلك هو أنه لا يستطيع أن يسترجع صورتها من الذاكرة، ومن الناحية العقلية هو غير قادر على فهم أن الشخص لا «يتتهي» بمجرد اختفائه.

في هذه المرحلة يتعلم الطفل الجلوس والحبو والمشي والجري ويجب أن يستكشف العالم من حوله بعيداً عن أمه، ولكنه يحتاج أن يراها دائماً وأن يعود إلى حضنها وقتما شاء. إذا لم تستجب الأم لهذا الاحتياج الدائم، وتركت طفلها يعاني مشاعر الرفض والهجر، فسوف يفقد الطفل الثقة فيها وفي البالغين عموماً وسوف تعرقل رحلته نحو الاستقلال النفسي. كذلك ستتأثر شخصيته سلباً وسوف يعاني من آلام نفسية شديدة بعدما يبلغ وتبدأ رحلته الخاصة في الحب والعلاقات.

إذا كان يجب على الأم أن تعمل، فعليها بتوفير «أم بديلة» لطفلها في هذه المرحلة، ليشعر الطفل بالألفة والثقة والأمان والحضن. على الأم تجنب الاختفاء المفاجيء، فلا يستيقظ الطفل ليجدها قد ذهبت إلى العمل ولا يلتفت وسط لعبه ليجدها قد اختفت. الوداع اللائق بالطفل يجب أن يكون مباشرًا ودافئًا وقصيرًا.

هناك نوع آخر من ال Separation Anxiety وهو رفض الطفل الانفصال عن أمه وقت النوم. ينصح دكتور «وليام سيرز» الأم بالصبر وباحترام احتياجات الطفل النفسية وعدم تركه يبكي في حجرته حتى ينام. يذكرنا دكتور «سيرز» أن هذه مجرد مرحلة، وأن الاستقلال فطرة واحتياج بشري وأنه، عاجلاً أو آجلاً، سوف يرغب الطفل في النوم وحده. ينصحها كذلك بالاستمتاع بهذه المشاعر من الحب الصادق والدفء والأمومة.

المرحلة التالية من التشبث بالأهل تبدأ في عمر سنتين إلى أربع سنوات ويشعر الطفل بالقلق الشديد والرغبة من أن يترك وحده في مكان لا يألفه مع أشخاص لا يعرفهم، مثل الحضانة. تنصح «ماريا مونتيسوري» الأم بعدم ترك الطفل فجأة، وبأن يتم دخوله الحضانة بشكل تدريجي حتى يعتاد الطفل على المكان والأشخاص. في أول أسبوع تذهب الأم معه كل يوم لمدة ساعتين، ثم تأخذه وينصرفوا، حتى يعرف المكان جيداً وحتى يتعرف على مدرسته ويثق بها. في الأسبوع الثاني، تذهب معه لمدة ساعتين ثم تتركه لمدة ساعة أو ساعتين. تنتظر هي في مكان ما لتراقبه بدون أن يراها حتى تطمئن أنه تأقلم. تدريجياً تبدأ ساعات وجود الطفل في الحضانة تطول، وساعات تواجد الأم تقصر حتى يتم الانتقال بسلام.

تعود رهبة الانفصال لتهاجم الطفل عند دخول المدرسة، وسهولة التغلب عليها تعتمد كلياً على كيفية التعامل مع رهبة الانفصال في المراحل السابقة. الرواسب السلبية والمشاعر المزعجة سوف تعود لتزعج الطفل في مرحلة المدرسة، والمشاعر الإيجابية والتجارب المطمئنة سوف تساعد الطفل على التغلب على رهبة دخول المدرسة. في هذه السن يستطيع الطفل أن يستوعب تمامًا أن أمه سوف تعود، وأن المدرسة سوف تعتني به، وأن هذا الوقت سوف يكون ممتعاً ممتلئاً بالأنشطة. كلما كبر الطفل وتوسعت مداركه، كلما سهل عليه التعامل مع هذه الرهبة، وكلما استطاع استرجاع مشاعر الأمان والذكريات السعيدة.

في أي مرحلة، لا تنكروا على طفلكم حقه في هذا الشعور، ولا تسخروا من مخاوفه، ولا تقارنوه بإخوته وأقرانه. عليكم أن تطمئنوه أن الخوف من التغيير شعور طبيعي، وأنكم سوف تكونون في انتظاره لتسمعوا منه كل أحداث يومه. عليكم كذلك بتعويض الطفل عن فترة غيابكم عنه بالكثير من الوقت الخاص بينكما بدون تلفاز أو موبايل أو أي عامل من عوامل التشتيت. اجعلوا هدفكم هو تنمية رصيد الطفل من الذكريات السعيدة ومشاعر الأمان والبهجة، لأن هذا هو الرصيد الذي سوف يعتمد الطفل عليه في مواجهة رهبة الانفصال والتغيير.

كيف تودع طفلك خير وداع؟ كيف تودع الطفل باحترام؟ احترام مخاوفه واحترام احتياجاته واحترام المرحلة العمرية التي يمر بها.

قالت أم إنها تخرج إلى عملها وطفلها نائم لتتجنب تشبته بها!

قالت أم أخرى إنها «تلهي» طفلها في أي شيء وتختفي دون أن يلاحظ!

قالت أم ثالثة إنها تتركه يبكي وسيتوقف عن البكاء عندما ينساها!

قالت الأستاذة «إيمان فكري»، معلمة «آدم»، وهي تشرح له الهيكل العظمي، أن لولا وجود العمود الفقري لتحول الجسد إلى هلام، ومثلت أمام الأطفال شكل انهيار الجسد وتقوضه على الأرض.

هل تعرفون من الناحية النفسية ما هو مرادف العمود الفقري؟ ما هو الشيء الذي يمنعنا من الانهيار ومن الغرق في دوامات المشاكل النفسية؟ ما الذي يبقينا أسوياء متزنين متماسكين؟

ليس الحب! ليست السعادة! ليس الذكاء! ليست المعرفة!

الإجابة هي: الأمان!

الشعور بالأمان هو العمود الفقري الذي لا نراه ولا نلمسه ولكننا بدوننا نتحول إلى هلام! كبالغين نشعر بالأمان في وجود الإيوان واليقين، في وجود مأوى وطعام وشراب وكسوة، في وجود دخل ثابت، في وجود الأهل والأقارب والأصدقاء، في وجود الحب!

أما الطفل فيشعر بالأمان فقط في وجودكم! أنتم _ الأم والأب _ أنتم الإيمان واليقين
والمأوى والطعام والشراب والكسوة والأهل والأصدقاء والحب! أنتم كل شيء!

عزيزتي الأم، ضعي نفسك مكان طفلك وهو يستيقظ من النوم ليجدك قد هجرته،
ويتكرر الهجر كل مرة تتركه نائم وتخرجي! كم مرة تعرض لهذا الزلزال النفسي؟ كيف
ستشعرين إذا استيقظت ولم تجدي سيارتك، وبعد ثماني ساعات أعادها شخص ما؟ كيف
تشعرين إذا ضاعت منك مفاتيح سيارتك فجأة؟ كيف ستشعرين إذا ضاعت محافظتك
فجأة؟ كيف ستشعرين إذا ضاعت مفاتيح منزلك؟ كيف ستشعرين إذا فقدت أوراقك
الرسمية كلها؟ هذه مقارنات مبسطة إلى أقصى درجات البساطة، علك تشعرين بما يشعر
به طفلك!

ضعي نفسك مكان طفلك الذي يلتفت حوله فجأة فلا يجده! لقد برحمت طفلك على
ترقب الفقد وتوقعه، ترقب وتوقع فقد الحب، ترقب وتوقع الحزن في عز الفرح، ترقب
وتوقع فقد الأهل والسند في أي وقت وسيلازمه هذا الشعور طوال حياته!

أكثر ما يؤلم الإنسان في الفقد هو افتقاد الفرصة الأخيرة للوداع، الفرصة الأخيرة للتعبير
عن الحب، النظرة الأخيرة، الكلمة الأخيرة، الذكرى الأخيرة! لهذا عزيزتي الأم، من فضلك،
احترمي طفلك واحتياجه للأمان! تفهمي أن طفلك قبل عامين غير قادر على استرجاعك
من الذاكرة ليطمئن نفسه. تفهمي أن كل طفل مختلف، وإذا رأيت طفلك متشبهاً بك فلا
تدفعيه دفعاً في متاهات الأمراض النفسية المستقبلية، احتويه واحتضنيه واصبري حتى تمر
الأعوام الأولى بسلام. سيكبر وسيستقل عنك وسيكون لك مطلق الحرية عندها للخروج
والعمل والدراسة.

إذا اضطرت للخروج، لا تخرجي فجأة! يجب أن يعلم طفلك قبلها بيوم على الأقل
أنك ستخرجين، ويجب أن يعرف أين ستذهبين، وعليك أن تتأكدي أنه يدرك معنى ما
تقولين! إذا قلت أنك ذاهبة إلى العمل، فيجب أن يدرك معنى كلامك، وما هو «العمل».
يجب أن يعرف متى ستعودين، ويجب أن يعرف كيف يتصل بك إذا افتقدك، ويجب أن
تجيبه إذا اتصل. إذا كان طفلك ذاهباً إلى المدرسة، فلا تلقي به على الباب كمن تتخلص من

قطة ثقيلة على قلبها! ادخلي معه واجلسي معه واحضري معه يوماً أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر،
حتى يعتاد المكان ويطمئن ويشعر بالأمان!
انظري له وابتسمي وقبليه وودعيه ودعيه يودعك، لا تحتفي فجأة!

الفظام

أثناء حملي، كنت قد نويت أن أرضع «آدم» رضاعة طبيعية. قرأت عن الرضاعة الطبيعية وعن فوائدها له ولي. قرأت عن الصعوبات وكيفية التغلب عليها. لم أشتري أي أدوات لرضاعة «آدم» لأنني لن أحتاج سوى ثديي. وُلِدَ «آدم»، وتم حجزه في حضانة الرعاية المركزة. لم أتمكن من إرضاعه أو احتضانه أو شم رأسه! بعد ليلتين معه في المستشفى، علمت أنني لن أعود به إلى المنزل. عدت إلى بيتنا وحدي برحم فارغ وحضن فارغ وقلب ثقيل.

أحضرت لي صديقتي أداة خاصة لشفط اللبن حتى لا يجف في ثديي، وطلبت مني طبيبة الرعاية أن أشفط لبناً وأحضره لـ«آدم» في اليوم التالي. بكيت كما لم أبك في حياتي! لم تكن هذه صورة الرضاعة في مخيلتي! لم أكن مستعدة! ساعدتني عمتي كثيراً في هذه الليلة العصبية! هاتفنتني وشدت من أزري! قالت لي أن أحضر فوطة مبللة بهاء دافئ وأضعها فوق صدرتي. قالت لي أن أطفئ النور وأن أغمض عيني وأتحيل «آدم» في حضني. ساعدتني في تحيل رائحته وملمسه ونظرة عينيه وشكل يديه. أغمضت عيني وأمسكت بشفاط اللبن وجهزت له أول رضعة طبيعية! كانت عمتي توقظني في الليل كل ساعتين، وكأنني أقوم لأرضع طفلي، لأشفط المزيد من اللبن.

أخذت أُمِّي اللبن إلى «آدم» في المستشفى وفرحت به الطيبة. طلبوا المزيد في المساء. قضيت صباحي أشرب الماء وأكل اللوز وأشفظ اللبن. أتت أُمِّي مرة أخرى لتأخذ اللبن إلى رضيعي الذي لم أحتضنه بعد. في اليوم التالي، طلبت مني الطيبة أن أتي لأرضع «آدم» تحت ملاحظتهم. نزلت السلم متعثرة متألمة. ركبت سيارة أُمِّي متألمة باكية. دخلت المستشفى بألم في فرجي وألم في شرجي وألم في صدري وقلبي. جلست حيث طلبوا مني وانتظرت.

دخلت عليَّ الممرضة تحمل حبيبي ملفوفاً في رداء أخضر فضفاض، نظرت له ومددت يدي لأحمله لأول مرة. انهمرت الدموع من عيني، كما تنهمر الآن وأنا أكتب هذه السطور، وشعرت باللبن يتدفق في صدري. لم أدرِ إلا وأنا أخلع عني قميصي وأحتضن رضيعي وأضعه على صدري. دثرتني الممرضة بملاءة وأغلقت الباب وتركتنا معاً. رأيت جزءاً من كتفه العاري، فقبلته. تأملت وجهه الجميل ويده الصغيرة وحركة فمه وهو يرضع. انتهى من الرضاعة ونام. اقتربت من رأسه وتركت أنفي لتشمه وتستشق رحيقه وامتلاً قلبي بالحب.

أخذوه مني ولكنهم طلبوا مني أن أترك لهم المزيد من اللبن وأن أعود لأرضعه في الصباح الباكر. شفطت لهم لبناً غزيراً وخرجت مع أُمِّي وصديقتي. اختفى الألم. ليست هذه نفس الأم التي دخلت المستشفى منذ ساعات. لقد اخترت لأول مرة خدر هرمونات السعادة بفعل الرضاعة. فهمت لماذا يوصف لبن الأم بأنه الحب السائل. عدت لـ«آدم» بالمزيد من الحب السائل حتى سمحوا لي في اليوم الخامس من ولادته بأخذه. في بيتنا، أغلقت علينا بابنا، وبدأت مرحلة جديدة في علاقتنا.

بعد عدة أيام، استيقظت من نومي في عمق الليل لأذهب إلى الحمام. وقتها كنت أقضي حاجتي واقفة في البانيو لأتجنب الألم. وقفت وانتهيت، وفجأة شعرت ببرودة في جسدي وبدأت أرتعش وأتفض. لم أعد قادرة على الوقوف فجثوت على ركبتني. فتحت الماء الساخن علني أشعر بالدفء. شعرت وكأن روعي ستخرج. فكرت في رضيعي النائم. استسلمت لمصيري ثم توقفت الرعشة فجأة كما بدأت فجأة. خرجت من البانيو وجففت نفسي وارتديت ملابسي وعدت إلى سريري حيث ينام رضيعي.

في الصباح حكيت لعمتي ما حدث لي، فباركت لي وقالت إن اللبن قد نزل على صدري. تكرر الأمر أكثر من مرة خلال الشهر الأول من ولادة «آدم»، وفي كل مرة تقول لي عمتي إنه رزق «آدم». في الصباح، كان «آدم» يرضع كل ربع ساعة، وفي المساء، كان «آدم» يرضع كل ساعتين. كنت مجهدة ومرهقة ولكنني كنت مستمتعة بالرضاعة. مرت الأشهر الأولى وتوطدت علاقتي بـ«آدم» وعلاقة «آدم» بالرضاعة. مع الوقت، أصبح حضني وثديي هما إجابة أي سؤال وحل أي مشكلة ومسكن أي ألم. حلت الرضاعة مشاكل النوم وصعوباته، وألم التسنين، والمغص، والملل، والخوف.

مرت السنوات، واقترب «آدم» من إتمام عامه الثاني. كنت مرهقة ومستنزفة. كنت مستعدة لفظامه لكنه لم يكن مستعداً. كان يرضع مرات عديدة في اليوم ومرات عديدة أثناء النوم. سألت عمتي عن الفظام، فقالت إنني من الممكن أن أدهن ثديي بهادة مرة المذاق أو بلون داكن، لينفر «آدم» من الرضاعة. الخيار الثاني هو أن أتركه بضعة أيام معها أو مع أمي حتى ينسى. لم أتخيل أن تكون هذه النهاية المأساوية هي النهاية المثلى لعلاقة الرضاعة الناجحة جداً الخاصة جداً الجميلة جداً بيننا.

لجأت إلى د. «سيرز»، واكتشفت أنني لست مطالبة بوضع نهاية للرضاعة الآن! اكتشفت أنه من الممكن والطبيعي أن أترك «آدم» لينفصل عن الرضاعة بميقاته الخاص. اكتشفت أن السن الطبيعي للطفل أن يفطم نفسه يبدأ من عام ونصف وقد يستمر حتى ستة أعوام. قرأت أن فظام الطفل قبل أن يستعد مضر له وقد يتسبب في نوبات من الغضب والإحباط والمشاعر السلبية. قررت أن أنتظر. كنت أستمتع أنا و«آدم» بالرضاعة ولم أمانع من إعطائه المزيد من الوقت. أسوأ ما في هذه المرحلة كان كلام الناس. واجهت ضغوطاً من الجميع لأفطم «آدم». الحمد لله على العند والصلابة! لم أرضخ!

مر عام آخر، وأصبح «آدم» يرضع عند استيقاظه وقبل نومه فقط - إلا إذا كان مريضاً أو متألماً. في يوم من الأيام، قبل إتمامه عامه الثالث، قبل النوم، استدار «آدم» ونام! هكذا! في الصباح، استيقظ وقال إنه يريد أن يأكل. هكذا! في المساء، قبل النوم احتضنته وقلت له إننا سنقول الوداع «للبزوز». شعرت أنه متخوف من الحرمان من الحظن. أكدت له أن حضني سيظل متاحاً له في أي وقت، حتى بعد وداع «البزوز». نفخت له بالون وأعطيته الخيط،

ثم وقفنا في البلكونة، وأطلقنا سراح «البزوز». شاهدنا البالونة تطير وبكينا انتهاء المرحلة. بعد الفطام، مر عليّ أسبوع أسود من الألم النفسي والحزن والاكتئاب. بالإضافة إلى الشجن، كان هناك الألم الجسدي ونوبات الحرارة والانتفاخ. مر الأسبوع بسلام ومر الفطام بسلام. يحكى لي «آدم» كثيرًا عن مشاعره أثناء الرضاعة وعن مذاق اللبن ويشكرني على صبري وحببي. أحكي له عن الحنين والشوق للحب السائل، فيحتضنني. أشاهده يكبر أمامي في توازن تام بين الاستقلال والانفصال. ما بيننا اسمه ترابط!

الحفاضات

هناك فصل كامل في الكتيب التعليمي الخاص بنهج المونتيسوري اسمه Toileting وهذا الفصل يتناول بالتفصيل متى وكيف يستغني الطفل عن الحفاضات. في مقدمة هذا الفصل ترفض الكاتبة استخدام تعبير Toilet Training أو التدريب على استخدام التواليت، وتنصح بالإشارة إلى هذه المرحلة المهمة في نمو الطفل باسم Toileting أو العناية الشخصية في كل ما يتعلق باستخدام الحمام.

السبب في رفض «التدريب على استخدام التواليت» هو أن الطفل ليس كلبًا سوف يتم تدريبه على قضاء حاجته خارج المنزل. لا يمكن تدريب الطفل على استخدام التواليت! يقول الكتيب أن د. «ماريا مونتيسوري» قد استنتجت أن الشخص البالغ لا يمكن أن «يجعل» الطفل يفعل شيئًا هو ليس مستعدًا له أو لا يرغبه وضربت مثل المشي، لا يمكنك «غصب» طفل على المشي إذا لم تكن عظامه وعضلاته وجهازه العصبي مستعدين لذلك! كل ما يمكنك أن تفعله هو إعداد بيئة صديقة للطفل لتساعده على اتخاذ هذه الخطوة حينما يكون مستعدًا. قياسًا على هذا المثال، يمكن أن نقول إن الأطفال مختلفون في قدراتهم وفي نموهم،

وأن «إرغام» الطفل على التخلي عن الحفاضة والجلوس على التواليت، سوف يسبب مشاكل عديدة منها توتر العلاقة بين الأهل والطفل، وإصابة الطفل بإمساك مزمن لأسباب نفسية، وإصابته برغبة في التبول كلما تعرض لضغط نفسي. الكثير من الأهل يقررون أن الطفل يجب أن يقضي حاجته في التواليت عند عامين على الأكثر، وتبدأ رحلة العذاب بالعنف الجسدي واللفظي لمدة عدة أشهر حتى يتخلى الطفل عن الحفاضة. نتيجة هذا الأسلوب تكون العديد من الانتكاسات في الصباح وضعف شديد في السيطرة على المثانة أثناء النوم.

نهج المونتيسوري ينص على احترام الطفل، وللأسف الأسلوب التقليدي المتبع في هذه الخطوة المهمة ينتهك حق الطفل في الاحترام! بعض الأطفال يمكنهم التخلي عن الحفاضة في عمر عامين، والبعض الآخر قد لا يستطيع القيام بهذه الخطوة قبل أربعة أعوام، وهناك حالات تتأخر حتى ست سنوات - كل طفل وفقاً لقدراته! هناك إشارات عديدة تساعد الأم على معرفة استعداد طفلها لهذه الخطوة:

- هل تبقى الحفاضة جافة على الأقل لمدة ساعتين؟ هذا معناه أن مثانة الطفل قادرة على الاحتفاظ بالبول لمدة ساعتين كبدائية.
- هل يوجد وقت محدد للتبرز؟ عادة التبرز مرة واحدة في اليوم في الصباح هي إشارة جيدة على أن الطفل مستعد.
- عندما ينام الطفل في الظهيرة أو في المساء، هل تبقى الحفاضة جافة؟ إذا كانت الإجابة لا فهذا معناه أن المثانة لم تنم بالشكل المطلوب.
- هل الطفل متحمس للفكرة؟ إذا كانت الإجابة بكاء شديداً وكثيراً، فعليكم بتأجيل هذه الخطوة.
- هل يستطيع الطفل خلع ملابسه وحده؟ هل يستطيع رفعها وحده؟ هذا النوع من الاستقلال يساعد الطفل في التخلي عن الحفاضة.
- هل يفهم الطفل المطلوب؟ أحياناً لا يفهم الطفل المهمة المطلوبة منه، لذلك يجب عليكم شرح المطلوب للطفل ومساعدته على فهمه والتأكد من فهمه قبل أن تتوقعوا التنفيذ.

يشمل تعبير Toileting خلع الملابس وارتدائها ووجوب التطهر بالماء واستخدام المناديل

الورق في التشيف وغسل اليدين بعد الانتهاء. في البداية سوف يحتاج الطفل المساعدة في العديد من هذه المراحل، ولكنها جزء مهم من تعليم الطفل كيفية العناية بنظافته الشخصية. سوف يحتاج الطفل بعض الوقت للاعتياد على مشاعر الرغبة في قضاء الحاجة وسوف تحدث حوادث. عليكم بالصبر والتشجيع والتنقل بالعديد من أطقم الغيارات.

أتذكر الآن لوم الكثير من الناس لي لأنني أخرجت خطوة خلع الحفاضة! أتذكر أيضًا محاولتي الفاشلة عندما كان «آدم» أكبر قليلاً من عامين. أتذكر نفس اللوم والعتاب الذي واجهته بقلب أسد لأنني تركت «آدم» يرضع رضاعة طبيعية حتى بلغ ثلاث سنوات. اليوم، بعد مرور سنوات عديدة على هاتين الواقعتين، أشعر بالرضاء التام عن تجاهلي لكلام الناس! اليوم كبر «آدم» وأصبح وعيه وإدراكه للأمور أكثر وأعمق. يرى الأمهات من حولنا، يرى رضيع هنا ورضيعة هناك، يرى من تم فطامهم قهراً ومن تم إرسالهم إلى الحضانات قبل أوانهم ومن ثم تعنيفهم بشدة قد تصل إلى اللسع لأنهم «عملوها على أنفسهم».

يحمد «آدم» الله لأنه جعلني أمه وجعله ابني، ولا يعرف كم أنا محظوظة به وممتنة لوجوده في حياتي. على الرغم من أخطائي في حقه، فالحب والصبر الذي قدمته في أول ثلاث سنوات من عمره، قد جعل الغفران أسهل عليه والتخطي أسهل عليّ. مثلما فعلت في الرضاعة، انتظرت حتى أصبح «آدم» مستعداً. بعد أن أتم عامه الثالث بشهرين، قررنا معاً التخلي عن الحفاضة، كنت خائفة ومتوترة لأنني أعلم جيداً تأثير هذه المرحلة على شخصيته وحياته كلها عندما يكبر. هل تعلمون أن الكثير من الاضطرابات النفسية سببها العنف أو القهر في مرحلة فطام الطفل عن الرضاعة ومرحلة التخلي عن الحفاضات؟

* صراعات الأكل *

«طفلي لا يريد أن يأكل!»

«طفلي لا يحب الفاكهة!»

«طفلي ينفر من الخضراوات!»

«طفلي «مدمن» الحلوى!»

«طفلي متعب في أكله!»

«طفلي يأكل بشرهة!»

هذه هي الصراعات الأكثر شيوعاً بين الأم والطفل على المائدة! يلجأ الكثير من الأمهات والآباء إلى القوة لإجبار الطفل على الأكل أو إلى «الرشوة» بالحلوى في محاولة إقناعه بالأكل، ويتحول وقت الطعام إلى تجربة سلبية متكررة ينفر منها الطفل والأهل على السواء!

د. «ماريا مونتيسوري» أدركت تلك المشكلات ونقلت قواعد وأساسيات نهج المونتيسوري إلى المائدة، احترام الطفل وقدراته الفردية:

احترمت د. «ماريا مونتيسوري» قدرات الطفل على الاستيعاب والإدراك، كما احترمت تطور مهاراته في مراحل نموه المختلفة. الطعام قدرة ومهارة لا تختلف عن الحبو والمشي والكلام واستخدام القلم والمقص! لذلك تنصح د. «مونتيسوري» الأهل منذ بداية تقديم الطعام للطفل (الشهر السادس من عمره) باحترام رغبة الطفل!

- لا يجب على الأهل إطعام الطفل إلا إذا كان جائعاً والطفل الجائع يظهر ذلك بالتلملم أو البكاء أو النظر/ الإشارة للطعام.
- إذا عرضت الطعام على الطفل وأعرض عنك ضع الطعام في الثلاجة بهدوء ولا تظهر للطفل استياءك.
- لا تجبر الطفل على أكل أو شرب شيء لا يستسيغه! فم الطفل حساس جداً، وبعض الأطفال لا تتقبل الأطعمة اللزجة الملمس مثل الكوسة أو القرع. بعض الأطفال تعاني من بلع قشر التفاح، والبعض يأخذ وقتاً للتعود على الأرز. كل طفل مختلف!
- إذا رفض الطفل طعاماً ما استبدل به بطعاماً آخر. العناصر الغذائية التي يحتاجها الإنسان بصفة عامة موجودة بوفرة في العديد من الفاكهة والخضراوات والمنتجات الحيوانية لذلك من السهل وجود العديد من الأطعمة التي يحبها الطفل وتمده بالغذاء الذي يحتاجه!
- عند إطعام الطفل، لا تدخل الملعقة في فم الطفل عنوة واقتحاماً، ضع الملعقة أمام

فمه ولا تدخلها إلا إذا فتح فمه واقترب منك برأسه.

الهدف من الطعام هو الغذاء والنمو

- اشرح لطفلك فوائد ما يأكل وأهميته بلغة بسيطة يفهمها!
- سواء كان طفلك عمره ستة أشهر أو ستة أعوام تحدث معه عن أنواع الطعام والفيتامينات والمعادن وأهمية كل منها لنمو جسده وعقله.
- مع الوقت سيمتص الطفل تلك المعلومات وسوف يختار بوعي كامل ما بين الكيوي أو البرتقال أو الليمون أو الجواقة للحصول على ما يحتاجه جسده من فيتامين سي.
- استخدم النت مع طفلك عند الاطلاع على معلومات غذائية وقرأ له المكتوب تحت صور الأطعمة التي يأكلها.
- علم طفلك من البداية الفرق بين الغذاء الصحي والأطعمة المؤذية.
- ثقف نفسك أولاً!

كل موقف هو فرصة للتعلم

- إعداد الطعام فرصة هائلة لتنمية مهارات الطفل العقلية والحركية واللغوية والاجتماعية والحياتية!
- لا تحول الطفل لمتلقي سلبي لما تطهو واجعله مشاركاً فعالاً في عملية إعداد الطعام.
- بحسب عمر طفلك وقدرته يمكنه المشاركة في إعداد الطعام، ضغط زر الخلاط، رش التوابل، غسل الخضراوات والفاكهة، التقليب، التقطيع.
- إعداد الطعام فرصة هائلة لتعلم الأسماء والألوان والأعداد والصفات.

لعب الطفل هو عمله وعمل الطفل هو لعبه

- لا تستاء من لعب الطفل بالطعام أثناء إعدادة فهذه هي طريقة الطفل لفهم وإدراك الأشياء.
- لا تستاء من تكرار محاولات الطفل لضغط زر الخلاط أو القطاعة لأن الطفل يتعلم من خلال التكرار.

- لا تستاء من لعب الطفل بالملاعق وأدوات الطعام لأنها بدايات الاستقلال وإطعام نفسه.
 - لا تستاء من وجود الطفل في المطبخ لأنه يتعلم ويكبر ويدرك.
 - وجود الطفل في المطبخ ومشاركته في إعداد الطعام يجعله أكثر إقبالاً على الأكل.
- «العقل الماص» مع أو ضد الغذاء الصحي

- يمتص عقل الطفل كل ما هو حوله من الميلاد وحتى ستة أعوام.
- اختيارات الطفل في الأكل وشعوره تجاه الطعام يتحكم فيها مخزون عقله من صور وكلمات.
- مثلاً إذا تعود الطفل أن يرى أهله يأكلون البرجر والبيتزا ويستخدمون خدمة توصيل الطعام، طبيعي أن يرفض الطعام المعد خصوصاً له، الغذاء بالنسبة له هو ما يأكله الأهل.
- نفس الشيء ينطبق على الحلوى والشوكولاتة والأيس كريم والسكريات والمشروبات الغازية! طفلك سوف يأكل ما تأكله وسوف يرفض ما ترفضه حتى لو تظاهرت بعكس ذلك!
- صدر لطفلك صوراً سعيدة عن الغذاء الصحي! دعه يراك تطهو وتستمع بالطهو، تأكل الخضراوات والفاكهة يومياً وباستمرار، تشرب الماء، تختار العصير الطازج، تنفر من junk food والبطاطس المقلية والحلوى وبقية الأطعمة المضرة.
- تذكر أن حجم معدة طفلك صغير جداً وإذا امتلأت هذه المساحة بالبسكويت فلن يوجد مكان للبيض والجبنة!
- يمتص طفلك كذلك شعورك تجاه الأكل، إذا رأى الطفل أمه تنفر من الطعام وتعاقب نفسها بالامتناع عن الأكل لإنقاص الوزن فسوف يمتص الطفل هذا الشعور وينفر هو الآخر من الأكل.
- إذا رآك الطفل تهمل الإفطار سيفعل بالمثل.
- إذا رآك الطفل تأكل كميات قليلة وبدون شهية فسوف ينتقل له هذا الشعور وينفر من الطعام.

- احترم جسدك واختيارات أكلك لتتجنب مشاكل عديدة مع طفلك.

النظام والجمال

- الطفل ينجذب لكل ما هو منظم ومرتب وجميل!
- اجعل مكان تناول الطعام نظيفاً مرتباً.
- اهتم بوجود الورد على المائدة ومفرش جميل.
- اهتم بإعداد المائدة ووضع أطباق وأكواب وأدوات طعام للجميع!
- لا تعتاد الأكل أمام التلفاز حتى لا يمتص الطفل تلك العادة.

الروتين والتعود

- ضع روتيناً محدداً للطعام حتى يعتاد الطفل عليه ويتوقعه، ذلك يقلل من نسبة الصراعات.
- مثلاً عندما يراك الطفل تعد المائدة سوف يتوقع أن موعد الغداء قد أتى ويستعد نفسياً.
- حدد مواعيد الوجبات والتزم بها. إذا تعود الطفل أن كل يوم سوف تعد له الإفطار مباشرة بعد الروتين الحمام فلن توجد صراعات.
- مع الوقت سيطلب الطفل الطعام في تلك المواعيد وسوف يعتاد جسده على الشعور بالشبع بعد الجوع وليس الامتلاء حتى الغثيان.

آداب الطعام

- لا تجعل الطفل يأكل وحده، حتى وإن كان عمره عدة أشهر ولا يأكل، دعه يجلس مع الكبار على المائدة.
- لا تشعر الطفل أن الطعام حرمان له من اللعب، اترك فرصة 15 دقيقة للطفل قبل الطعام للانتهاء من لعبه.
- لا تشعر الطفل أنه معاقب، لذلك لا يأكل مما تأكله أنت.
- لا تنتهي من الأكل قبل الطفل وتترك المائدة لأن ذلك سيجعله يترك طعامه هو الآخر.
- استغل وقت الطعام للحواريات الهادئة البسيطة مع الطفل ولا تخلق جواً من التوتر أو الصمت المقلق.

- تناول الطعام مع العائلة سوف يعلم الطفل كل ما يحتاج أن يعرفه عن آداب الطعام والمضغ والحوار، كن حذرًا!
- كن قدوة!

بالإضافة إلى كل ما سبق، أضاف د. ويليام سيرز نقطة هامة. ممنوع ملاحظة الطفل بالطعام. حتى سن سنتين، طعام الطفل الأساسي هو الرضاعة. عند بدء تقديم الطعام للطفل، بعد أن يتم ستة أشهر، يكون الهدف هو استكشاف الطعام وليس الاعتماد على الأكل بدلاً من الرضاعة.

في أول عامين، سيمر الطفل بفترات تسنين وفترات أخرى تسمى «فترات النمو» أو «قفزات النمو»، في هذه الفترات ستقل شهية الطفل تمامًا ولا يجب غضبه أو إجباره على الطعام، الرضاعة تكفي. يمكنني أن أعتبر علاقة «آدم» بالطعام من انتصاراتي الصغيرة!

ماذا تفعلون عندما يلهو طفلكم بالطعام؟

بين الاستكشاف والعبث شعرة، وبين الحرية والتسيب شعرة، وبين الحسم والقهر شعرة، هذه الشعرات تفصل بين البيئة الصديقة والبيئة المعادية للطفل، وبين التربية والعنف النفسي، وبين الطفل السعيد والطفل التعيس. سنتعرف عن قرب على هذه الشعرة من خلال مثال لهُو الطفل بالطعام.

كما ذكرت أعلاه، تحث د. «ماريا مونتيسوري» القائمين على رعاية الطفل بتشجيعه على إطعام نفسه منذ الشهر السادس أو السابع وفقًا لقدراته. كيف؟ من خلال إتاحة الفرصة للطفل ليمد يده الصغيرة الجميلة في طبق الطعام، وأن يحاول أن يقبض بيده على ما يستطيع، وأن يحاول أن يصل بهذه اليد الممسكة على الطعام إلى فمه ليأكل.

في أوقات كثيرة سيقع جزء من الطعام خارج الطبق، وسيقع الكثير من الطعام في الطريق إلى فم الطفل، وسيقع المزيد من الطعام عندما يفتح الطفل يده ليطعم فمه.

في أوقات أخرى سينسى الطفل إطعام نفسه، وسيفقد الاهتمام بالأكل بسبب الفضول والشغف لاستكشاف الطعام حسيًا! سيعجبه ملمس الطعام في يديه وسيبدأ في تفحصه

بالعجن والضغط والصب وغيرها من الطرق العبقريّة لاكتشاف خواص الأشياء.

هل تشجع د. «ماريا مونتيسوري» الطفل على اللهو بالطعام؟ لا! للطعام قدسيته!

ماذا تريد د. «مونتيسوري» إذاً؟

تريد د. «مونتيسوري» منكم أن تتركوا للطفل الفرصة ليتعلم الآتي:

- * أين فمه؟ حقاً، أن تصل يد الطفل إلى فمه مهارة تحتاج إلى الوقت والتدريب.
- * كيف يمسك بالطعام بقبضته كاملة.
- * كيف يلتقط الطعام بالإبهام والسبابة.
- * كيف يمسك الملعقة ويغرف ويصل إلى فمه.
- * كيف يستخدم السكين في التقطيع.
- * كيف يستخدم الشوكة في التقاط القطع.

جميع هذه المهارات تنمي التوافق العضلي العصبي بين العين واليد، وتنمي التركيز البصري، وتنمي إدراك المساحات، وتنمي قوة القبضة، وتنمي التحكم في الإبهام والسبابة، وتنمي عضلات الحركة الدقيقة، هذه هي المهارات التي يحتاجها الطفل ليمسك بالقلم ويتتبع النقاط ويلون ويكتب ويرسم. لهذا لا أنصح أحداً باستخدام كرسي الطعام لأنه سيمنع الطفل من تنمية كل هذه المهارات.

هناك الكثير من الأنشطة التي تقوم حول الطعام وإطعام الطفل لنفسه:

- استكشاف ملامس الطعام (من ستة أشهر فما فوق).
- استخدام القبضة كاملة في أكل الأرز والقمح والمكرونة والإمسك بالقسماط والبسكوت والخيار والموز (سنة إلى تسعة أشهر).
- استخدام الإبهام والسبابة لالتقاط مكعبات البطاطس أو الكوسة أو الجزر أو البطاطا (طهو على البخار أو مسلوق) (تسعة أشهر فما فوق).
- استخدام الإبهام والسبابة لالتقاط وحدات المكرونة المطهوه أو قطع الخبز أو قطع الفاكهة (تسعة أشهر فما فوق).

- صب الأشياء الناشفة كالحبوب والبقوليات وحتى المكعبات الخشبية والخرز (من عشر أشهر ويتطور النشاط مع تطور قدرات الطفل).
- صب الماء (من عام ونصف ويتطور مع قدرات الطفل).
- استخدام الملعقة (عام فما فوق).
- استخدام السكين (سكين الزبد) لتقطيع الفاكهة والخضراوات (عامان فما فوق).
- استخدام الشوكة لالتقاط الطعام (عامان فما فوق).

إذا وجدتم أن الطفل يترك الطعام وينشغل باستكشافه فهذه إشارة إلى بدء المرحلة الحساسة لتنقيح حاسة اللمس، وأفضل طريقة لإرضاء هذا الشغف هو تنميته من خلال الصناديق الحسية sensory box /tub.

ببساطة تحتاجون وعاء كبيراً، وضعوا به مزيجاً من الأرز والعدس والفاول والحبوب الأخرى، واركوا الطفل يلهو بيديه. مع الوقت يمكنكم إضافة الملاعق والمغارف وأكواب المكاييل وبعض السيارات ومجسمات الحيوانات واركوا الطفل يبدع.

إذا لاحظتم اهتمام الطفل بالأطعمة السائلة، يمكنكم استبدال الماء بالبقوليات والنشا واركوا الطفل يستكشف التفاعل العجيب بينهما.

إذا كان اهتمام طفلكم بعجن الأطعمة المهروسة، يمكنكم تقديم وعاء به عجين أو رمل وماء أو طين أو طمي أو رمل القمر moon sand.

تذكرة لنا جميعاً، عزيزتي الأم، إذا كان طفلك يلهو بالطعام وطفل أختك وجارتك كذلك وجميع الأطفال منذ بدء الخليقة مثلهم تماماً، فهذا معناه أن استكشاف الملامس فطرة وأن هذه الاستكشافات تنمي الحواس وتنمي القدرات العقلية وتفتح الباب أمام الطفل ليكون مبتكراً مبدعاً! لا تكوني عقبية في طريق طفلك!

النظام

شكت لي أم أن طفلها غير منظم! «لعبه وملابسه وأقلامه وأوراقه وكتبه في كل مكان! يرفض أن يعيد أي شيء إلى مكانه بعد أن ينتهي من اللعب.» قرأت رسالة هذه الأم وتذكرت كلمات د. «ماريا مونتيسوري» عن حب الطفل الفطري للنظام والجمال والترتيب. من خلال عملها مع الأطفال أقل من ست سنوات، لاحظت د. «مونتيسوري» قدرتهم المبهرة على الملاحظة، الطفل يلاحظ إذا تغير مكان شيء ما بالمنزل، أو إذا كانت هناك أتربة على رف ما، أو إذا كان الطبق متسخًا. إذاً ماذا يحدث؟ كيف يتحول الطفل من كائن يحب النظام والنظافة والترتيب إلى كائن لعبه وملابسه في حالة فوضى تامة؟

البداية تكمن في ماذا اعتاد الطفل أن يرى؟ هل اعتاد أن يرى والديه يسوون فراشهم في الصباح؟ هل اعتاد أن يراهم يضعون الأكواب المتسخة في الحوض أولاً بأول؟ هل اعتاد أن يرى عملية إزالة الأتربة اليومية من على الأسطح؟ هل اعتاد أن يرى والديه يعلقان ملابسهما؟ إذا نشأ الطفل منذ ميلاده وبداية إدراكه، في عمر ثلاثة أشهر، في منزل نظيف ومرتب طوال الوقت فسوف يعتاد ذلك ويحبه ويشعر بالسلام الداخلي في الأماكن المنظمة.

أما إذا نشأ الطفل في منزل يرى أن هناك شخصًا آخر يقوم بالترتيب والنظام والنظافة فإنه يعتاد فكرة أن النظام والنظافة ليست من مسؤولياته الشخصية.

عقل الطفل يمتص جميع الصور والتجارب التي يمر بها خلال الثلاثة أعوام الأولى من عمره ويبدأ في التعبير عنها بالفعل والقول فيما بعد. إليكم بعض النصائح التي تساعدك على إعادة النظام إلى منزلكم:

- لا تأمروا الطفل أن يضع لعبة ما مكانها لأن هذا سوف يأتي بنتيجة عكسية - حتى إن أطاعكم في لحظتها فسوف يكون «النظام» مصطنعًا وليس نابعًا من داخله.
- ابدءوا بأنفسكم، ودعوا الطفل يلاحظ ويراقب ويمتص هذا النوع من الانضباط. ابدءوا بترتيب سريركم وحجرتكم وملابسكم كل يوم عند الاستيقاظ وعند العودة من الخارج. ابدءوا بغسل الأكواب والأطباق المتسخة في لحظتها ثم تحفيها وإعادةها مكانها. ابدءوا بضبط أنفسكم أولًا!
- سوف يعتاد طفلك على الروتين الجديد خلال بضعة أشهر. سوف يثق أن التغيير الجديد حقيقي ومستمر. سوف يراقبكم كثيرًا قبل أن تروا منه أي تغير في سلوكه. خلال هذه الفترة لا تجربوه على النظام، ادعوه لمساعدتكم في إعادة لعبه إلى مكانها ولكن لا تفرضوا عليه شيئًا لم يمتصه عقله بعد.
- عند اللعب، لا تخرجوا أكثر من لعبة في نفس الوقت لأن هذا مضر جدًا لقدرة الطفل على التركيز والاستيعاب، وفي الوقت نفسه يجعل النظام والترتيب أمرًا شاقًا! عند الانتهاء من نشاط ما، إذا كان طفلكم راضيًا، احملوا الطفل معكم كل مرة تحضروا فيها لعبة وكل مرة تعيدوها فيها. إذا كان طفلكم يستطيع السير، دعوه يساعدكم في إعداد النشاط ودعوه يساعد في الترتيب بعد الانتهاء من النشاط. هكذا تنشئون من البداية طفلًا منظمًا ومرتبًا.
- إذا كان طفلكم اعتاد عدم النظام، بعد أن تبدءوا بأنفسكم، اتفقوا معه على الروتين الجديد في وضع كل لعبة مكانها عند الانتهاء منها. إذا سأل عن السبب، اشرحو له أن الغرفة شكلها أحلى وأجمل وهي مرتبة.
- كرروا أمام الطفل كثيرًا في كل مناسبة أن بيتكم جميل ومرتب! بيتكم جميل ومنظم!

بيتكم رائحته ذكية! هذه العبارات سوف ترسخ ارتباط الجمال بالنظام والنظافة.

- يجد الأطفال صعوبة في إعادة لعب كثيرة لأماكنها في نفس الوقت - لا تخرجوا جميع اللعب في نفس الوقت ولا تعيدوها إلى مكانها وحدكم في نهاية اليوم بعد أن ينام الطفل.

- يجد الأطفال كذلك صعوبة في وضع الأشياء في أماكنها إذا كانت في غير متناول يديهم. ساعد الطفل على النظام بوضع رفوف وأدراج يمكن للطفل أن يتعامل معها وحده، وضعوا في الغرفة سلمًا صغيرًا من درجة أو درجتين يستطيع الطفل الوقوف عليه والاعتماد على نفسه.

- لا تضعوا جميع اللعب في صندوق واحد! إذا أراد الطفل لعبة ما فعليه أن يقلب الصندوق كله!

- لا تكافئوا الطفل على النظام! النظام أمر بديهي وفطري ولا يجب أن يتم التعامل معه كشيء خارق يستحق المكافأة.

أعتبر حب «آدم» للنظام والنظافة من انتصاراتي الصغيرة أيضًا. ليس مثاليًا. ليس منظمًا فوق العادة. ليس مهووسًا. هو فقط يعرف كيف يعيد الأنشطة إلى أماكنها وكيف ينظم حجرة ألعابه بعد الانتهاء من اللعب، هذا يكفيني!

ما هي أهم سمات الطفل في أعوامه الثلاثة الأولى؟

على الرغم من اهتمام نهج المونتيسوري بمهارات الطفل الفردية ونموه وفقًا لقدراته الشخصية، وجدت د. «ماريا مونتيسوري» صفات مشتركة بين جميع الأطفال في أول ثلاثة أعوام من عمرهم. الهدف من كتابة هذه السمات هنا هو مساعدة الأهل على توقع سلوك أطفالهم وتقبل قدراتهم واحتياجاتهم العمرية.

أول سمة: الفضول

كما قلنا يولد الفضول مع الطفل! تبدأ تراه في عينيه المتتبعه لكل ما هو متحرك وكل ما هو ناطق وكل ما هو داكن. يكبر فضول الطفل معه ليشمل مذاق الأطعمة والملابس والروائح ثم يتشعب الفضول ويصل إلى الأدراج والأرفف والأقفال وفيش الكهرباء والأدوات

الكهربائية. هكذا يولد الفضول وهكذا يكبر، بدون أي تدخل منك يولد وبدون أي تدخل منك يكبر.

ثاني سمة: نمو القدرة على التركيز

ما بين 8 و15 شهرًا يسهل تشتيت انتباه الطفل ولا يمكنه اللعب بلعبة واحدة أكثر من دقيقة وما بين 16 و19 شهرًا تكثر حركة الطفل لكنه يستطيع إتمام نشاط لا يستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاث على الأكثر! وما بين 20 و24 شهرًا يسهل على الطفل التركيز في نشاط معين ما بين ثلاث وست دقائق – الأصوات تشتت انتباهه في هذه المرحلة! ما بين 25 و36 شهرًا تزداد قدرة الطفل على التركيز لتصل إلى خمس أو ثماني دقائق ويمكنه قطع اللعب للاستماع إلى حوار أو مراقبة ما يحدث حوله ثم العودة بسلاسة لاستكمال لعبه! ما بين 3 و4 سنوات يستطيع الطفل التركيز في نشاط ما لمدة عشر دقائق!

ثالث سمة: الرغبة في الاستقلال

تقول د. «ماريا مونتيسوري» في كتابها *The Absorbent Mind* إن هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تعلمها للطفل مثل الجلوس والمشي والكلام وإطعام نفسه وخلع وارتداء ملابسه والاستقلال! كل ما يمكنك أن تقدمه للطفل هو بيئة صديقة تساعد على هذه الخطوات عندما يكون مستعدًا لها جسديًا وعصبيًا ونفسيًا. لا يمكنك أن تجعل طفلًا يسير قبل أوانه وإلا نتج عن محاولتك العديد من الإحباطات والشروخ النفسية وتقوس في عظام الساقين! كذلك لا يمكنك تعليم الطفل الاستقلال من خلال إرغامه على الابتعاد عنك وحرمانه من الشعور بالأمان ونكران حقه في الحضان والحب والاستجابة لندائه. مثل هذه النصائح تؤدي إلى النفور والعديد من المشاكل النفسية.

رابع سمة: التفاوض

بدءًا من عامه الثاني، يبدأ الطفل في تحدي الأوامر ومحاولة كسر القواعد والتفاوض على كل شيء من الأكل للملابس للخروج للعب. يتفاوض الطفل ليرى رد فعلك، هل ستخضع له أم ستصمد على موقفك؟ عندما يبدأ الطفل في التفاوض والتمرّد لا تقهره باستخدام العنف اللفظي أو الجسدي. التزم بالهدوء والحسم وكرر طلبك. لا تخضع للبكاء

أو للصراخ أو للإحراج المتعمد أمام الناس وإلا سيتعلم طفلك أن هذه هي الطريقة المثلى للتعامل معك.

خامس سمة: الإحباط السريع

تجد طفلك يحاول وضع المكعب فوق الآخر أو يحاول إدخال لعبة ما في صندوق أو يحاول وضع قطعة بازل، تجده يفشل فيحبط فيغضب فيبكي. هذا طبيعي.

دورك هنا هو التدخل قبل أن يصل الطفل لمرحلة الغضب والبكاء. تدخل واعررض المساعدة. لا تنتجج مباشرة، علم طفلك كيف يحاول وكيف يفكر وكيف يجرب بطرق مختلفة ليصل إلى الحل.

سادس سمة: الأنانية

طفلك غير قادر على تنظيم انفعالاته أو السيطرة على رغباته أو التعاطف معك. طفلك يريد كل شيء الآن ولا يعرف كيف ينتظر أو يصبر. شعاره هو «أنا ثم أنا ثم أنا الآن».

دورك هو كسب ثقته من خلال الاستجابة لاحتياجاته الأساسية مثل الرضاعة أو الطعام أو النوم أو الحضان. لا تتجاهل طفلك ولا تدعي عدم الفهم أو المعرفة. حتى وإن كنت مشغولاً، يجب أن يعلم طفلك أنك سمعته وفهمته وسوف تلبى احتياجاته.

سابع سمة: الاحتياج لروتين

الفوضى أكبر عدو لطفلك في هذه المرحلة لأن الطفل يخاف من المجهول، وفي هذه السنوات المبكرة كل شيء مجهول بالنسبة للطفل. اجعل هناك وقتاً محدداً للنوم والاستيقاظ والطعام والحمام والخروج والعودة. اجعل هناك طقوساً متكررة لكل فعل من الأفعال السابقة. الروتين يساعد الطفل على الاسترخاء والنمو بصورة صحية.

ثامن سمة: عدم تقبل التغيير

التغيير في أي من العادات والطقوس اليومية يزعج الطفل في هذه المرحلة وخاصة من عمر عام. هذه بداية المرحلة الحساسة للنظام. يظن البعض أن هذه سمة من سمات التوحد ولكنها في الواقع مرحلة طبيعية يمر بها الطفل.

تاسع سمة: التشبث بالأهل

وكما قلنا أيضًا تشبث الطفل بأهله - في أغلب الأوقات بأمه - هو مرحلة طبيعية يمر بها الطفل أثناء نموه العاطفي والاجتماعي. تبدأ المرحلة الأولى من رهبة الانفصال تقريبًا في عمر سبعة أشهر، بحسب شخصية الطفل الفردية، وتنتهي بعد العامين. يشعر الطفل في هذه الفترة أن أمه هجرته وأنها لن تعود وأنه لن يراها مجددًا، والسبب في ذلك هو أنه لا يستطيع أن يسترجع صورها من الذاكرة، ومن الناحية العقلية هو غير قادر على فهم أن الشخص لا «ينتهي» بمجرد اختفائه. في هذه المرحلة يتعلم الطفل الجلوس والحبو والمشي والجري ويجب أن يستكشف العالم من حوله بعيدًا عن أمه ولكنه يحتاج أن يراها دائمًا وأن يعود إلى حضنها وقتما شاء. إذا لم تستجب الأم لهذا الاحتياج الدائم وتركت طفلها يعاني مشاعر الرفض والهجر فسوف يفقد الطفل الثقة فيها وفي البالغين عمومًا وسوف تعرقل رحلته نحو الاستقلال النفسي.

الموت

ها أنا أطفو فوق سطح المحيط مع ذكريات الرضاعة وبدايات رحلة الأمومة. أطفو مبتسمة مستكينة آمنة، ثم أسمع صوت «آدم» المتعثر في القراءة، المتلثم في الكلام، يأتيني من بعيد وكأنه يعيدني إلى الواقع الذي لا مفر منه. تأتيني معه ومضات من خطه المرتعش وحروره المرتبكة وجمله التي تفتقد المسافات. أصرخ! أصرخ فيه وفي نفسي! يهتز جسدي فأغرق في محيط الحزن والذنب والندم! أغمض عيني وأحاول أن أتنفس الماء! لماذا لا أغرق وينتهي كل شيء؟ لماذا لا أموت وأتحرر من هذا الألم؟

أجفف نفسي وأرتدي شرائط حريرية. أطلق العنان لشعري وأفرد ذراعي استعدادًا للطيران! أقف على الحافة وأراقب الدنيا تسير، ستسير بي أو بدوني، الحياة لا تتوقف عندي! لا أنظر خلفي ولا فوقي. أخذ آخر نفس عميق وأطير، أطير من فوق الحافة لأغرق في قاع المحيط. ينتظرنني وحش الخوف من الفقد وقد خلع عنه تنكره وأصبح الفقد نفسه. أنا في أحضان الفقد الآن مع حمادة ومجدي.

مات مجدي في الأربعين من عمره، عندما التهم اليأس رغبته في الحياة، تاركًا خلفه

خالتي وابتتها في مهب الريح. تأتيها رياح الحزن والحنين فتثقل قلوبها، ثم تأتيها نسيمات الرحمة لتبرد نار الفراق. تتغير عليها المواسم ولا يوجد شيء، أو أحد، يمكنه سد الثقب الأسود الذي خلقه الفراق في قلوبها.

أما حمادة، مثله مثل مجدي، جاءه ما يشبه دور البرد، وقضى عليه في ثلاثة أيام. كان حمادة في منتصف عامه الأول في الجامعة، وكانت عمتي قد بدأت تجني ثمار شجرتها الطيبة. اقتلع القدر شجرتها الطيبة وغير الحزن ملامح وجهها. في كل عام، من بعده، تختم له القرآن وتدعو له. تمر عليها سنويته ثقيلة كثيبة، يمر عليها عيد ميلاده حزينا وحيدا، ويمر عليها عيد الأم كالعاصفة التي لا يسمع صوت صفيها سوى الموتى والشكالي. صارت عمتي كالشجرة ذات الجذع المخروم، لا هي حية تنمو ولا هي ميتة سالمة. تمر الرياح من وسط جذعها فتصدر أنينا خافتا أو صريرا رقيقا، يصلني في قاع المحيط.

سألت عمتي وأنا حامل عن الفقد، كان وحش الفقد يناديني من قاع المحيط وكنت أخافه وأخاف صوته، قلت لها إنني أخاف أن يموت «آدم». أخاف أن أفقده كما فقدت هي حمادة. قلت لها إنني لم أعرف هذا النوع من الخوف من قبل وليست لدي مهارات التعايش معه. قالت لي إنها ليست حزينة. قالت إنها تفتقده. قالت إنها تشكر ربنا لأنه أعطها الفرصة لتستمع به وبوجوده لمدة 17 سنة. نصحتني ألا أنصت لصوت الوحش القابع في أعماق المحيط. نصحتني أن أستمع بحملي وبطفلي بعد ميلاده.

جعلت الذكريات السعيدة هدفاً لي، أكاد أن أنجح، إلى أن أسمع صوت «آدم» المتعثر في القراءة، المتلعثم في الكلام، يأتيني من بعيد وكأنه يعيدني إلى الواقع الذي لا مفر منه. تأتيني معه ومضات من خطه المرتعش وحرورف المرتبكة وجمله التي تفتقد المسافات. أصرخ! أصرخ فيه وفي نفسي! يهتز جسدي فأغرق في محيط الحزن والذنب والندم! أغمض عيني وأحاول أن أتنفس الماء! لماذا لا أغرق ويتتهي كل شيء؟ لماذا لا أموت وأتحرر من هذا الألم؟

أبي

هذا الفصل لم يكن جزءاً من المسودة الأصلية التي أرسلتها إلى دار النشر. بابا مات! هكذا، فجأة، بكل بساطة، أصبحت يتيمة. التهم الموت أبي وفارقته الحياة في الصباح التالي ليوم عيد ميلاد «آدم». اعتدت أن أحتفل بعيد ميلاد «آدم» في أول سبت بعد عيد ميلاده الأصلي ليتمكن أكبر عدد من أفراد العائلة والمقربين من الحضور.

السبت 20 إبريل 2019 الساعة 10:30 صباحاً في فجنون.

هكذا كانت الدعوة المرسلة للإيميل، وكان أبي، كعادته، أول المجيبين والمهئين. كان الجو جميلاً وكان «آدم» سعيداً. أما أنا، فأتردد في أمر السعادة دائماً. كمصرية أصيلة، أخاف أن أفرح ودائماً أقول «خير اللهم اجعله خير» إذا غلبني الفرح. بدأت اليوم وبين وبين الفرحة حاجز رقيق يسمح لأشعتها بالمرور حتى أراها ولكن لا يسمح لها بدخول قلبي حتى لا أشعر بها. بدأ الأحباب في الوصول وبدأت أفرح.

فرحت بوصول أصدقاء «آدم» من الأطفال والكبار الذين دعاهم، وفرحت بوصول أبي وزوجته وأبناء أخيها. فرحت بوصول عمتي وبنات خالتي ومن استطاع الحضور من

الأبناء. فرحت بالأمهات اللواتي لبين دعوة «آدم» وحضرن بأطفالهن للاحتفال معنا بعيد ميلاده. فرحت بأميرة صديقتي وأختي وزوجها وابنتها. فرحت بخالد الذي أتى من دهشور وإيناس التي جاءت من الإسكندرية وحنان التي كانت على سفر وجاءت في الرابعة مساءً فقط لتفي بوعدها لـ «آدم» بالحضور.

جريت على أبي وأخذت صورة جميلة في حضنه. صورته وهو يقطف التوت. ناكفته وشاكرته على الطعام كعادتي. سرت معه إلى سيارته في نهاية اليوم وحضنته. هاتفته كعادتي في المساء بعد أن عدت إلى بيتي ليطمئن عليّ. شكرني على اليوم الجميل وعلى لم الشمّل وجمع العائلة. شكرته على حضوره ونوره ودعوت له بطول العمر ووافر الصحة مثلما أدعو له دائمًا. نمت سعيدة.

استيقظت كعادتي في الصباح الباكر وأرسلت رسائل الشكر لمن احتفلوا معنا بالأمس. بدأت أرفع صور عيد الميلاد وأضحك وأنا أستعيد اللحظات السعيدة والمشاعر الدافئة. رن هاتفي ورأيت اسم أخي. أجبته بكل حماسة كعادتي فجاء صوته صارخًا: «بطلي الصور الزفت إلي بترفعيها دي! بابا تعيشي إنت!». من بعد هذه اللحظة تغير كل شيء! دارت بي الأرض ولم تستقر حتى لحظة كتابة هذه السطور!

رأيته حبيبي مغمض العينين ممددًا على الأرض حيث نقلوه مؤقتًا حتى يأتي المزيد من الرجال ليدخلوه الغرفة. جلست على الأرض بجانبه وأمسكت بيده الجميلة القوية الكبيرة وبكيت. قبلت رأسه وخده ويده وحضنته. حضنته كثيرًا هذا اليوم! حضنته على الأرض وعلى السرير وفي الكفن. ركبت معه سيارة دفن الموتى إلى المسجد وكررت على مسامعه كلمات الحب والقرب. ركبت معه من المسجد إلى المدفن ووقفت على قبره. لمست الكفن للمرة الأخيرة وودعته. كان أبي يقول إنني بمئة رجل وفي هذا اليوم وقفت معه تمامًا كما يقف الرجال. بكيت، بكيت كثيرًا، ما زلت أبكي. عقلي يرفض أن يصدق أن الحياة فارقتة! نعم! هو لم يفارق الحياة! الحياة هي التي فارقتة! مات أبي بعد أن رأنا جميعًا وحضننا جميعًا وودعنا جميعًا! مات بدون ألم أو مرض! مات في هدوء، فجأة! كان يحب المفاجآت، الله يرحمه!

«الله يرحمه»، كنت دائمًا ألحق بذكر اسمه «ربنا يخليه» أو «ربنا يطول في عمره» أو «حسه

في الدنيا». «الله يرحمه» ثقيلة على قلبي ولساني! «كان»، من الآن ستسبق «كان» اسمه، من الآن سيصبح في الماضي!

أحبني أبي حباً غير مشروط! دعمني وسندني ولملم الشظايا كلما كسرت قاعدة من القواعد الاجتماعية! في صمت وبكل حب كان يللم الشظايا ويدعمني! مهما كان العرض الذي أقدمه كان دائماً في أول صف وأكبر المشجعين، هو وعمتي وأمي! بوفاة أبي، تضخم وحش الخوف من الفقد القابع في أعماق المحيط! أسمع الآن يزار ويلزل أماناً وهدوءاً، تُرى الدور على مَنْ؟ يزار الوحش فأرتجف خوفاً! لا أريد أن أفقد أحداً، الفقد مؤلم فوق احتمالي. قلبي يعتصره الألم وانحنى ظهري.

ها هي تيمة الفرحة الناقصة تعود لتلاحقني! لقد وأد الموت فرحتي وقضم قطعة من قلبي! أما «آدم»، فهو أفضل حالاً مني! أفضل بكثير! لقد بكى كثيراً في أول يوم ثم بدأ ينعي جده ويجتر ذكرياته السعيدة الكثيرة معه. لقد ترك له أبي ثروة من الذكريات والمواقف واللحظات الخاصة بهما. لقد أحبه قبل أن يراه وعبر له عن هذا الحب قولاً وفعلاً خلال السنوات الثماني الماضية.

سألني «آدم» عن التفاصيل، شكل جده وهو ميت، شكل سيارة الدفن وما بها، ملابس الدفن، المقابر، وحتى عن مفتاح المدفن. استوعب «آدم» الموت وتعايش مع الفراق بصورة أفضل مني. الحمد لله، لقد عاش أبي آخر سنواته سعيداً مغموراً بالحب والدفء. مات أبي وهو يعلم أنني سأفتقده كثيراً لكنه راضٍ عني.

أما أنا، فقد صرت يتيمة!

الخيـط الرفيع

مثل كل الأمهات، عندما بدأ «آدم» عامه الرابع ولم يبدِ أي اهتمام بالرسم أو الكتابة أو القلم، بدأت أقلق! راسلت موجهتي في دراسة المونتيسوري وشاركتها مخاوفي! ردت في سرعتها المعهودة وقالت لي أن أثق بطفلي وأن أثق بنهج المونتيسوري! لقد تدرب «آدم» على استخدام الإبهام والسبابة معاً في أنشطة كثيرة، وتدرب على استخدام الملعقة والسكين، وبدأ يستخدم المقص ورسم بأصابعه وبفرش الألوان، ويشارك في أعمال المنزل جميعها من تلميع وتنظيف وغسل مواعين ومسح وعصر ونشر!

مر العام الرابع بالكامل ولم يبدِ «آدم» أي اهتمام بالكتابة! يمل السبورة والطباشير واللوحة البيضاء والأقلام القابلة للمسح والورقة والقلم وكتب التلوين! راسلت موجهتي مرة أخرى وأنا في غاية القلق! سألتني عن وقته وكيف يقضيه! قلت لها إنه يدق المسامير في ألواح الخشب، ويركب البازل، ويبنى أشكالا بالمكعبات والخشب، ويدير حوارات وهمية مع أفراد العائلة على الهاتف، ويتسلق الأشجار، ويركب دراجته، ونقرأ معاً الكتب العلمية والقصص، ونقوم بالعديد من التجارب العلمية في المنزل، وأنه مهتم بالظواهر الكونية والطبيعة! ردت قائلة إنه سوف يكتب قريباً وسوف يفاجئني!

في منتصف عامه الخامس شارك «أدم» والده في تلوين صفحة من كتاب تلوين للكبار، وأخيراً تحققت النبوءة! بعدها بدأت أعرض عليه رسومات ليتبعها ومتاهات وورق وألوان وأقلام واستمر في إبهاري! هو ليس متفوقاً عن من مثل عمره، ولكن سبب انبهاري هو كيف وصل إلى هذه النتيجة رغم كل مخاوفي! بدأت أفكر في الأطفال الذين يجبرون على استخدام القلم قبل أوانهم، والمدارس التي تتباهى وتتفاخر بالأعباء المنزلية التي تثقل بها كاهل الطفل! راجعت بريدي ووجدت رسائل من أمهات عديدات يشتكين من نفس المشكلة، طفل في الرابعة أو الخامسة يرفض الواجب ويكره المدرسة ويهرب من الأم! رسائل معبأة بالتوتر والنفور والغضب والعنف وشكوى متكررة!

اكتشفت أن الطفل يظل حتى 6 سنوات في مراحل تجارب مختلفة على مسكة القلم، وتتطور مسكة القلم مع نموه الجسدي والعضلي والعقلي! فيبدأ الطفل بالإمساك بالقلم بكامل قبضته، ثم تتطور المسكة ليمسك بالقلم بعرض قبضته، ثم يمسك القلم بأصابعه الخمس، وأخيراً يكتشف الإمساك بالقلم باستخدام السبابة والإبهام والوسطى. المفاجأة الأكبر هي أن الطفل لا يكتب بتمكن وأريحية قبل ست سنوات، وأن قبل هذا كل محاولات غضب الطفل على الإمساك بالقلم بطريقة «صحيحة» أو التلوين بطريقة «صحيحة» أو الكتابة بطريقة «صحيحة» سوف ينتج عنها طفل سيئ الخط وكاره للدراسة والمدرسة والواجب وكل ما يخص التعليم!

كنت أظن أيضاً أن الطفل يكتب عندما تكون عضلات أصابعه قوية، وعندما يوجد توافق عضلي عصبى بين العين واليد! هذا جزء ضئيل من الحقيقة! يحتاج الطفل عضلات قوية في ظهره وأكتافه وذراعيه! يحتاج توازناً عاماً في حركته! يحتاج أن يركز لمدة عشر أو 15 دقيقة! يحتاج أن يدرك أهمية الحروف وأن يكون شغوفاً بالقراءة والكتب!

تابعت خطوط «أدم» وقدراته فوجدت أنه يمسك القلم بطريقة خاطئة وأنه ضعيف جداً في تتبع الخطوط والكلمات وأنه لا يتحكم بالقلم جيداً. هل ترون المشكلة؟ هل ترون الخيط الرفيع بين نمو الطفل الطبيعي وعسر الكتابة بسبب مشكلة ما في الجهاز العصبي؟ للأسف، يعاني «أدم»، وأعاني معه، من الדיسبراكسيا التي تؤثر على الرسائل بين المخ والعضلات، تؤثر على الحركة والتوازن والتوافق والكلام والكتابة. أحياناً كثيرة أتمنى

ألا أكون مضطرة إلى تعليمه. بعيداً عن القراءة والكتابة، «آدم» طفل جميل ولا توجد أي أسباب أخرى للشقاق بيننا. لا أرى صعوباته تلك إلا في التعليم. نبذل معاً مجهوداً مضاعفاً عدة أضعاف بالمقارنة بطفل آخر ينمو طبيعياً.

الرسم

عندما أتم «آدم» عامه السادس ولم تتحسن قدرته على الكتابة والإمساك بالقلم، أدخلته أكاديمية لتعليم الرسم. كان أهم شيء بالنسبة لي أن تكون المعلمات والمشرفات متقبلات لاختلاف «آدم» في النطق والتحكم في عضلات يديه. الرسم أيضًا من أساسيات منهج المونتيسوري في المرحلة الابتدائية، وقررت أن أترك هذا الفرع من فروع العلم للمتخصصات.

تبنت «ماريا مونتيسوري» مفهوم الرسم من «أوسع أبوابه» كما يقال بالعامية، الرسم في نهج المونتيسوري لا يتوقف عند كتب التلوين والتلوين داخل الخطوط المرسومة، أو رسم أشخاص أو حيوانات أو مشاهد تعبيرية. الرسم في نهج المونتيسوري تعبير عن الفن، والفن ليس له حدود أو شروط، ولا يجب أن يكون له قيود باسم الواقعية أو التربية أو الصواب والخطأ.

الشيء الوحيد الذي نفرت منه «ماريا مونتيسوري» هو الـ «لا هدف»، هذا الطفل الذي يرسم بعض الخطوط على ورقة ثم يمل عمله ويترك الورقة والألوان للبحث عن شيء آخر، أو هذا الطفل الذي يعمل بلا تركيز أو استغراق. لا يهم أن يعرف الطفل إجابة سؤالك له «بترسم إيه؟» ولكن من الضروري أن ترى الطفل مندمج في فنه وسعيد به.

دور الأهل أو القائمين على رعاية الطفل هو تقديم عالم الفن والورق والألوان للطفل منذ نعومة أظفاره، وليس تعليمه الرسم بالمفهوم التقليدي، لأن هذا يجد من قدرته على الاستكشاف وفيما بعد قدرته على الإبداع الحقيقي. عاش «آدم» أول ستة أعوام محاطاً بالأوراق والفرش والألوان والأدوات المختلفة لتنمية حسه الفني.

بعد انتظامه في أكاديمية تعليم الرسم، ازدادت ثقته بنفسه وتطورت مهاراته وقدراته، انعكس تطوره على الإمساك بالقلم والكتابة. زينت رسوماته حوائط منزلنا وأصبحت ألوانه المبهجة كوجبة خفيفة صحية تصبرني وتعطيني الأمل في «بكرة».

إليكم بعض النصائح لتشجيع طفلكم على الرسم والفن والإبداع:

- لا تذكروا أمامه أنكم لا تستطيعون الرسم، أو أنكم لا تحبون الفن، أو أنكم غير موهوبين، لأن الطفل الصغير يدرك نفسه ويعرفها من خلالكم، ومن خلال رؤيتكم لنفسكم، وتذكروا أن الفن حولنا في كل مكان وأن طفلكم سوف يدرك الفن عندما يراه من خلالكم.
- ابدءوا من عمر عام بجولات الطبيعة، المشي في الحدائق والمتنزهات فرصة لجمع أوراق الشجر المتساقطة والزهور التي جفت على الأرض وبعض الأحجار والأغصان. ضعوها في سلة، واشرحوا لطفلكم ما جمعتم. تحدثوا بحب وشغف. بعد الانتهاء من جولتكم، في المنزل وعلى منضدة الفن، ابدءوا بلمس محتويات السلة، ثم استخدموا ألوان الماء لشر بضعة نقاط خضراء وزرقاء وبرتقالية لتكونوا لوحة تمثل فصل الربيع مثلاً. اكتبوا التاريخ وعلقوا اللوحة في مكان يراه الطفل.
- يمكنكم الرسم على فوارغ بكر ورق التواليت أو تحويلها إلى زهرية أو أرنب أو فراشة أو أي شيء يستهويكم.
- يمكنكم فرد فرخ كبير من الورق على الأرض ووضع أمام الطفل العديد من الفرش وأكواب الألوان وادعوه ليمزجها. إذا استخدم أصابعه للرسم والمزج لا بأس، وإذا سكب أحد الألوان على الفرخ ساعده في سكب باقي الألوان، واستكشفوا معه سحر مزج الألوان.

- يمكنكم عمل لوحات عديدة أو براويز للصور باستخدام الأزرار القديمة أو قصاصات القماش أو قشر الفستق وعين الجمل أو الودع والأصداف.
- شجعوا طفلكم على تجربة الخامات المختلفة مثل الصلصال والفخار وأطباق الطعام الورقية والورق المقوى وورق التواليت وورق الزبدة والجلاد الملون وورق تغليف الهدايا والعجين الملون والعجين ذي الروائح المختلفة المصنوع في المنزل.
- لا تعزلوا طفلكم عن متعة الإعداد للفن والنظافة بعد الانتهاء من المشروع الفني. دعوه يساعدكم وشاهدوا حماسه وفخره الذي يكبر ويتزايد مع الأيام كلما صنع شيئاً جديداً.
- لا تصححوا ما تظنوه خطأ بالعمل الفني ولا تقحموا أنفسكم في المشروع، إلا إذا دعاكم الطفل، ولا تسخروا من قدراته أو من النتيجة النهائية لمحاولاته الفنية.
- تصفحوا النت للحصول على الأفكار والأمثلة ويمكنكم الدخول على المدونات لمشاهدة بعض المشاريع البسيطة.

الناس

تعلمت منذ سنوات عديدة أن أتجاهل الناس وكلامهم ورأيهم. تعلمت أنني في فرحهم منسية وفي حزنهم مدعوة. تعلمت أنهم لن يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب. تعلمت أنهم عبء والكثير منهم مجرد طفيليات بشرية. لم أهتم برأي الناس في حملي أو إنجابي أو تربيته لابني. لم أهتم بتعليقاتهم على طول فترة الرضاعة أو طول فترة ارتداء الحفاضات. لم أهتم برأيهم في تشاركنا الفراش أو في الحظن أو في أي شيء آخر. صدرت لهم وودن من طين وودن من عجين!

عندما كان عمر «آدم» تسعة أشهر، اشتركت لنا في مكان يقدم أنشطة للأم والطفل معاً، كالغناء واستكشاف صندوق الكنز. في هذا المكان أيضاً فرص للطفل للحركة الآمنة مثل التزحلق أو التسلق أو السير في نفق. كنا مجموعة من الأمهات والأطفال في كل حصة وكانت المجموعات مقسمة وفقاً لأعمار الأطفال. في البداية كنت مستمتعة. أما «آدم» فقد كره المكان من أول يوم. كره إضاءة لمبات النيون وكثرة الأطفال (5 أو 6) وكثرة الأمهات - أو هكذا استنتجت. نصحتني مديرة المكان بالاستمرار عدة أشهر لأعطيه فرصة للتعرف أكثر على الأنشطة، على أمل أن يتوقف عن البكاء ورفض التفاعل.

كنا نذهب معًا للعب ولأتيح لـ «أدم» فرصة للتفاعل مع الأطفال _ كرههم «أدم» تمامًا_ وبدأت أعتاد وجود الأمهات وأصبحت بعض الوجوه مألوفة. مع الألفة، بدأ يتكرر سؤال مؤلم مغرض: هو عنده قد إيه؟ كان «أدم» وقتها تسعة أشهر، بدون أي أسنان، ولا يفعل شيئًا سوى الجلوس ومد يده اليسرى بحرص، وكأنه يخاف أن يختل توازنه. كم كرهت هذا السؤال! كان يتلوه المزيد من الأسئلة الغبية: هو ما طلعتش أسنان؟ هو مش بيحبي؟ هو مش بيقف؟ هو مش بيلاغي؟ هو على طول بيعيط؟

كبر «أدم» وأصبح عمره عامًا! لا يمشي ولا يقف وبلا أسنان! أول سنة بدأت تشق اللثة بعد عيد ميلاده الأول بأسبوع! بعد التعارف الوجيز، تسأل الأم الحشرية باستنكار: هو عنده قد إيه؟

بدأت أكذب!

بدلاً من عام، أقول تسعة أشهر. بدلاً من عامين، أقول عام. بدلاً من ثلاثة أعوام أقول عامين!

أصبح عمر «أدم» الحقيقي ثلاث سنوات، لا يتكلم، كلمات قليلة مبهمه، لا توجد جمل نهائياً، لا يفهمه أحد سواي وبعض المقربين!

استمر الكذب!

أصبح عمر «أدم» أربع سنوات وتغير شكل السؤال السخيف: هو عنده إيه؟

كبر «أدم» وما زال الأغبياء السخفاء يطرحون نفس السؤال!

في قاع المحيط يرقد بركان الغضب! يثور وتتناثر الحمم على قلبي تحرقه! أتخيل نفسي أظعنهم بسكين! أتخيلني أقطع ألسنتهم! أتخيلني أصب لعنة التأخر على أولادهم، لقد كرهتهم جميعاً، كرهت نظراتهم، تعبيرات وجوههم، نصائحهم الغبية، تعليقاتهم الوقحة على صفحتي وعلى فيديوهات «أدم». أتمنى أن يصيبهم ما أصابني! أتمنى أن يولد جميع أطفالهم بشتى الأمراض والإعاقات! أتمنى أن تفسد نظرات الشفقة والأسئلة المقتحمة كل فرحة لهم، تمامًا مثلما يفعلون بي وبابني!

ربنا يخليهولك
ربنا يبارك في مجهودك معاه
ربنا يؤجرك عليه
ربنا يشفيه

يثور البركان ويفور، لم يعد يحرق قلبي وحده! أصبحت أسير كقنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي لحظة، في أي مكان، في وجه أي أحد! لقد تعبت! ما إن يفتح «آدم» فمه حتى أرى المفاجأة على الوجوه، وسواء سألوا أم لم يسألوا، يثور البركان!

في يوم من الأيام، باقتراب «آدم» من إتمام عامه الثامن، كنا في إحدى زيارتنا لقريبة ما. كعادتنا، نجلس مع أصحاب المنزل ونأكل معهم ونحدث معهم لنعرف المزيد عنهم وعن حياتهم. في ذلك اليوم، جاءت سيدة الدار لتقدم لنا طعام الغداء. كانت رائحته شهية وكنا في قمة الجوع والحماس. تذوق «آدم» الطعام أولاً وشكرها قائلاً «تسلم إيدك الأكل روعة». فما كان منها إلا أن نظرت لي بكل عفوية وقالت «هو ماله؟ مال كلامه ولا لسانه؟ هو فيه إيه؟ هو مش بيعرف يتكلم ولا إيه؟»

شعرت ببداية ثورة البركان، تخيلت «آدم» وكيف يشعر، نظرت لها بكل برود وقلت «خلقة ربنا!» وكأن سكيناً طعنني، سمعت صوت «آدم» يقول: «آسف يا ماما». قلت له إنه لا داعي للأسف وانصرفت الحيزبون الجاهلة. ظل الموقف ووقعه الثقيل على قلبي حتى اقتربنا من المنزل. نظرت لـ «آدم» وقلت له «أتعرف أنني أحبك من قبل أن أراك؟» فأجاب بالإيجاب. أضفت «أحببتك أكثر بعد ميلادك وبعد أن شممت رائحتك وبعد أن أرضعتك وبعد أن رأيتك تكبر». ابتسم ابتسامته الجميلة. استطردت: «حتى عندما ظهرت مشاكل تأخر المشي والكلام وغيرها، ظللت أحبك، بل زاد حبك في قلبي. أنا أحبك كما أنت. أنا محظوظة بك. لا داعي للاعتذار. لا تعتذر عن نفسك».

قال إنها تذكره بزوجة بكر والفلاح إياه وعدد بعض الشخصيات الذين رددوا على مسامعه كلامهم القبيح. قلت له: «إنت خلقة ربنا وأنا أحبك كما أنت». سألني إن كان سيتحسن مع الوقت. قلت له ربما نعم وربما لا ولكن لا يفرق ولا يهم، في كل الأحوال هو رائع!
في يوم آخر، كنت أشرب الشاي في كافيه بالإسكندرية. كانت أول مرة نذهب هناك

وكان «آدم»، كعادته، يخلق حولي كطائر حنون. أحضرت النادلّة الشاي وبابتسامة لطيفة قالت لـ«آدم»: «إنت أكيد مش مصري». رد «آدم» مؤكداً أنه مصري. فقالت له: «دا إنت مابتعرفش تقول كلمتين عربي على بعض». قبل أن أنقض عليها، كما وعدت نفسي، رد «آدم» بكل هدوء وثقة: «طبيعتي كده». رأيت الحرج والمفاجأة على وجهها. رأيت الكلمات تتخبط بين شفيتها وهي تقول إن طبيعته جميلة وأن اسمه جميل وأخذت في توجيه المديح له في محاولة لحفظ ماء وجهها.

أتذكر طفولتي وأسرح في رد فعلي لو كنت أنا مكان «آدم» وفي نفس عمره. كنت سأبكي، كنت سأنهار، كنت سأعتزل الحياة، كنت سأعتكف في المنزل، ما كنت سأكون أبداً في قوته وشجاعته وثقته بنفسه.

الإجابة «آدم»، دائماً الإجابة «آدم»! أيّاً كان السؤال أو الموقف أو الاختيار، الإجابة «آدم»!

عشر نصائح لكل بالغ يتعامل مع أي طفل

الكثير من البالغين في حياة الطفل يقترفون أخطاءً جسيمة تترك آثاراً سيئة على نفسية الطفل. هذه الأخطاء ترتكب بحسن نية وبحكم العادة، والكثير منها متوارث عبر الأجيال.

يا كلب!

ابنك أو حفيدك أو ابن الجيران ليس كلباً أو «كلبوبة» أو «كلبوبة»! انظر له جيداً! هذا إنسان مثله مثلك ولكنه صغير في الحجم وما زال ينمو! سب الطفل على سبيل المزاح عادة سيئة! من فضلك توقف عن هذا الهزار السخيف.

إنت وحش!

الطفل حتى سن ست سنوات يصدق كل ما تقول ويأخذ كلامك حرفياً وعلى محمل الجد! عندما تقول لطفل إنه وحش سيصدقك وسوف يشعر بالجرح والإهانة والذنب وسوف تهتز ثقته بنفسه!

تعالى هنا هات بوسة!

أعرف أنك تحب الطفل وأعرف أنك تود أن تحضنه وتقبله، ولكن تذكر أن للطفل دائمًا حق الرفض! جسد الطفل ليس مستباحًا، وكونك بالغًا لا يعطيك الحق أن تجذب الطفل عنوة وتقبله غصب عنه! أنت تعلمه أنه مستباح وتصرفك هذا سيجعله عاجزًا عن رفض محاولات أي شخص بالغ للتحرش به! لقد هزمت روح الطفل الفطرية للدفاع عن نفسه! أعطِ الفرصة للطفل أن يراقبك ويحبك ويعبر لك عن مشاعره بطريقته وفي الوقت الذي يختاره.

أخوك أحسن منك!

المقارنة جريمة! مقارنة الأطفال بعضهم ببعض لا ينتج عنها سوى الغيرة والحقد والمنافسة البغيضة! هل هذا هو هدفك؟ هل تريد أن تسمم نقاء طفلك بهذه الطريقة الممزقة؟ مقارنتك للطفل بطفل آخر لن ينتج عنها أي نتائج إيجابية! هل تحب أن يقارنك أحد بزميلك أو جارك أو ابن عمك أو أخوك؟ هل ستشعر بالرضا عن نفسك؟ هل ستحب هذا الشخص الذي جرحك بعقد المقارنة؟ توقف الآن!

هات بوسة وأنا أحبك!

من حق كل طفل أن يشعر بالحب في كل الأوقات! لا تربط الحب بأي شيء! لا تقل هذه الجملة: «هات بوسة وأنا أحبك» «خلص أكلك وأنا أحبك» «اعمل الواجب وأنا أحبك» «نام وأنا أحبك»

أنت تعلم الطفل أن للحب ثمنًا وأنه لن يحصل على الحب إلا إذا دفع الثمن! أنت تعلم الطفل أن يبيع نفسه وطاعته ورغباته في مقابل الحصول على الحب! هذه جريمة!

الرشوة

كلما ترى الطفل تعطيه حلوى! كلما ترى الطفل تعطيه شوكولاتة! كلما ترى الطفل تعطيه هدية! كلما ترى الطفل تشتري له شيئًا! هذا ليس حبًا! أولاً أنت تعلم الطفل أن يجبك لأسباب مادية وسوف يكبر هذا الطفل ويربط الحب بالمادة! هذه رشوة، أنت ترشي الطفل من أجل الحصول على حب أو حضن أو قبلة!

ما إنك طالع لأمك/ أبوك!

قد تكره أم الطفل! قد تبغض والد الطفل! أنت تعلم أنك غير قادر على مواجهة الأم أو الأب بمشاعرك السلبية تجاههم، ولا يمكنك تغيير حقيقة أن هذا الرجل أبوه وهذه السيدة أمه! تلجأ لأسلوب قبيح في الهجوم! تهاجم الطفل! سب أهل الطفل أو التحقير من شأن أحدهما أو انتقاد أي طرف فيهما من خلال تعليقات لاذعة موجهة للطفل لن يحقق هدفك! أنت فقط أهنت الطفل وجرحته وأشعرت به بأن هناك ما يعيب أهله. أنت تسببت في إرباك الطفل!

إيه الوحاشة دي!

البالغون هم مرآة الطفل! من خلال نظراتهم له وتعليقاتهم عنه يدرك نفسه! يدرك الطفل أن ثمة ما يعيب بشرته أو شعره أو أنفه أو طوله أو وزنه من خلال تعليقاتك! عزيزي البالغ، كيف ستشعر إذا نظر لك أحد وقال عن أنفك إنه كبير أو قال عن شعرك أنه خشن أو قال عن عينيك أنها ضيقتان؟ لا تعلق على الطفل إلا بالإيجاب واعتبرها صدقة!

شكلك غبي/ يا غبي!

وصف الطفل بالغباء شكلاً أو موضوعاً سوف يجعله يصدق أنه غبي وسوف يتسبب في غبائه بالفعل! إذا كان طفلك يعاني من أي من صعوبات التعلم، وجب عليك مساعدته وليس سبه. إذا كان طفلك مطفي، فهذا خطأك لأنك قتلت شغفه وفضوله؟ إذا كان الطفل يخطئ القول أو الفعل، دورك هو توجيهه، لأنه طفل!

أنا مش بحبك!

إذا كنت والد هذا الطفل أو والدته أو من البالغين المقربين من الطفل، أنت مصدر الحب في حياة هذا الطفل حتى يبدأ مرحلة المراهقة! إذا أردت أن تعاتب الطفل عاتبه بموضوعية! قل له أنا تضايقت عندما ضربت فلان وعلل سبب الضيق. قل له أنا حزين لأنك أتلفت موبایل فلان ووضح له أسباب حزنك. لكن لا تسحب حق طفلك في الحب المطلق غير المشروط! إذا شعر طفلك أنك لا تحبه، وإذا سمعك تقول إنك لا تحبه، لن يجب نفسه والإنسان الذي لا يجب نفسه يصبح مداساً عندما يكبر!

الكذب

كنت طفلة كذابة! ظللت أكذب بسبب وبدون سبب حتى صرت في أولى إعدادي. فجأة قررت أن أتوقف! قررت ألا أكذب مرة أخرى وليحدث ما يحدث! الخوف هو أول أسباب الكذب وأكثرهم شيوعاً، الخوف من العقاب أو الخوف من الإهانة. يكذب الطفل في هذه الحالة في محاولة لحفظ ماء وجهه.

إذا كنتم تعرفون أن طفلكم يكذب لأنه خائف، فاعلموا أنكم اقترتم خطأ جسيماً في حقه! لقد أصبح طفلكم يخافكم وفقد ثقته بكم وبقدرتكم على مساعدته أو احتوائه.

الحل: توقفوا تماماً عن الضرب وامنعوا العقاب النفسي بكل أشكاله، سواء كان الحرمان أو العزل أو التأنيب. توقفوا عن الإهانة وابدءوا صفحة جديدة مع طفلكم. عندما يكذب الطفل المرة القادمة بدافع الخوف اثبتوا له أن مخاوفه لا مبرر لها وأن في الصدق نجاة وأنكم موجودون كسند ودعم له مهما اقترف من أخطاء.

التفاخر سبب آخر من أسباب الكذب، يريد الطفل أن يثير الاهتمام وأن يصبح له

شأن وأن يعجب به أقرانه أو أن ينال رضا أهله. يكذب الطفل في هذه الحالة من قبيل الاستعراض والتباهي.

الحل: قولوا للطفل إنكم تعرفون أنه لم يضرب فلاناً أو أنه لم يسبق علاناً، وأنكم تحبونه كما هو. من المهم أن يعرف الطفل أنه مقبول كما هو وأنه ليس مطالباً بالتحول إلى شخص آخر لينال الرضا والقبول.

ذكروا الطفل بمزاياه الحقيقية وساعدهو أن يثق بنفسه وقدراته. لا تسخروا منه ولا تحطوا من شأنه ولا تسفهوا من آرائه، هكذا يتعلم ألا يكون سوى نفسه.

لا تتعجبوا! هناك من يكذب بلا سبب! الكذب من أجل الكذب! للأسف هذا الطفل نشأ في بيت كل من فيه يكذبون بأريحية، وكل من حولهم يتقبلون الكذب بصدر رحب. أحياناً تقول الأم لطفلها إن من يكذب يضع الله نقطة سوداء على لسانه! كذبت الأم حتى تعلم طفلها ألا يكذب! أحياناً يقول الأب لطفله أن ينكر وجوده هرباً من شخص غير مرغوب فيه، وفي أحيان أخرى يستمع الطفل للأم والأب يروون أشياء لم تحدث، ويجرفون في الحقائق، ويتعمدون إنكار الخروج أو السفر أو الرزق بحجة الحسد أو الخصوصية.

الحل: توقفوا فوراً عن الكذب لأنكم تربون كاذباً جديداً في بيتكم، وأول شخص سيكذب عليه هو أنتم!

هناك أيضاً الكذب من قبيل الخيال، بعض الأطفال لا يتعمدون الكذب ولا يريدون الكذب، ولكن خيالهم يدفعهم لنسج قصص لم تحدث، ويحكونها وكأنها واقع. دوركم هنا هو تشجيع الخيال وتوجيهه للعمل الخلاق، الرسم أو الكتابة أو التأليف أو التمثيل.

في هذه الحالة، يفرغ الطفل طاقته الإبداعية وهو يعرف أن ما يقوله خيال، وأن ما يصفق له الكبار خيال، وأن هذا النوع من الخيال مستحب ومقبول بشرط أن يعترف الجميع أنه خيال.

السرقه

كان عمري ثمانى سنوات، وكنا فى أمريكا مع والدى فى بعثته، كان كل شىء مبهرًا بالنسبة لى. لم يكن فى مصر وقتها سوبر ماركت ولا مول ولا مطاعم الوجبات السريعة ولا كاتشب ولا مسطرده ولا توابل السلطات، لم يكن هناك أى شىء مما رأيت هناك! كان أهلى من متوسطى الدخل ولم يكن من أولوياتهم الصرف على العرائس والملابس وغيرها من الأشياء التى اشتتها نفسى. فى المول الكبير، كان مسموحًا للأهل أن يتركوا أطفالهم فى قسم الألعاب وحدهم فى أمان تام حتى ينتهوا من شراء احتياجاتهم.

كانت العروسة باربى هى أحدث صيحة، ورفض أهلى رفضًا قاطعًا أن يشتروا لى ولو عروسة باربى واحدة. شعرت بالغضب ولم أدر بنفسى إلا وأنا أخرب كل عروسة باربى ألعب بها فى قسم الألعاب فى المول. مرة أقطع فستانها ومرة ألبك شعرها ومرة أشوه وجهها بالألوان. لم أكن أعلم أن المكان مراقب بالكاميرات. فى مرة، دخلت أنا وأخى المكان كعادتنا، واتجهت أنا إلى ركن عرائس الباربى فوجدت ضابطة أمن فى انتظارى. لم تقل شيئًا. لم أقل شيئًا. لكننى عرفت أن سلوكى غير مرغوب فيه. لعبت فى هدوء. لم أدخل هذا الركن مرة أخرى.

في مرة أخرى، كنت مع أبي في سوبر ماركت قريب من بيتنا في أمريكا، وكنت أفف معه في طابور دفع الحساب حين رأيت إصبع زبدة كاكاو مرسوم عليه فاكهة الكريز الحمراء. شعرت برغبة عارمة في أن أشمه وأذوقه. شعرت أنني أريد أن أقتنيه! أريده لي! لم أطلب من أبي لأنني أعرف أنه سيرفض! كنت متأكدة أنه سيرفض! مددت يدي نحو العلبة وتركتها هناك وكأنني أستند عليها. في هدوء، سحبت إصبع واحد وخبأته في يدي. انتظرت حتى تأكدت أن لا أحد يراني. سحبت يدي القابضة على الإصبع الشهي ووضعتها في جيبتي حتى عدت للمنزل.

لم أسرق أو أخرب مرة أخرى. مع الوقت أصبحت قدرتي على التحكم بنزعاتي أقوى، وأصبحت بوصلتي الأخلاقية أكثر دقة. أفكر كثيرًا في هاتين الواقعتين! ماذا كان سيحدث لي إن عاقبتني ضابطة الأمن في المول؟ ماذا كان سيحدث لي إذا اكتشف أحدهم سرقتي للإصبع الشهي؟ كيف كانوا سيتعاملون معي؟ هل كنت سأوصم بالسرقة؟ هل كانوا سيقطعون يدي؟ ماذا يفعلون عندما تكتشفون أن طفلكم سارق؟

هل يمكن لطفل أقل من أربعة أعوام أن يميز بكل وضوح الفرق بين ما هو «ملكي» وما هو «ملكك»؟ نظريًا يعرف الطفل ما هو ملكه وما هو ملك غيره، ولكن فعليًا، منطلق الطفل يقول إنها «إذا وصلت لها يدي فهي ملكي وإذا كانت معي في ملكي وإذا كانت في جيبتي فهي ملكي».

هل يمكن لطفل أقل من ست سنوات السيطرة على رغباته ونزعاته؟

الإجابة أيضًا لا! الطفل أقل من 3 سنوات غير قادر نهائيًا على كبح جماح نفسه على أي مستوى. إذا أراد شيئًا، فهو يريد الآن وفورًا بغض النظر عن حسابات الكبار مثل التوقيت أو الملكية أو المشاعر أو الآداب العامة. أما الطفل ما بين ثلاثة وستة أعوام، فهو دائمًا في حالة جهاد مع النفس وأحيانًا ينجح وأحيانًا يفشل، وهذا طبيعي بحكم سنه وقدراته.

هل الطفل بعد السابعة يفهم السرقة؟

الطفل يبدأ في فهم الصواب والخطأ ويفهم الملكية وقواعدها ما بين الخامسة والسابعة ولكن هذا الفهم لا يعني التطبيق. يخلط الطفل بين السرقة والاستعارة مثلًا. قد يعجب الطفل

بلعبة ما ويأخذها وعندما تسأله عن صاحب اللعبة وتتهمه بالسرقه يقول إنه استعارها!
رغم تطور قدرة الطفل على التحكم بنزعاته ورغباته، فإنه لم يتمكن من السيطرة الكاملة
على نفسه أمام المغريات!

لا ترتكب هذه الجرائم بحق طفلك «السارق»

- * لا تضربه! لا تنهره! لا تصفه بالسارق!
- * لا تجبره على إرجاع ما سرق (البديل في القائمة التالية).
- * لا تجبره على الاعتذار (الأسباب سيتم شرحها).
- * لا تفضحه أمام باقي العائلة أو أصدقائه.

ماذا تفعل؟

* اسأل الطفل ما هذا؟

هدف السؤال هو لفت انتباهه للشيء نفسه لأن الكثير من الأطفال يأخذون الأشياء
بدون وعي منهم.

* اسأل طفلك أين وجدته؟

هدف السؤال هو فهم منطق الطفل. الكثير من الأطفال يعتقدون أن ما وجدوه على
الأرض مكسب لهم ويمكنهم أخذه أو أن ما وجدوه بدون حارس أو صاحب مباشر لا
صاحب له.

* اسأل طفلك عمن يظن يملك هذا الشيء؟

الهدف من هذا السؤال هو تبسيط مفهوم الملكية. هل مالكة طفل آخر؟ هل مالكة
شخص بالغ؟ هل مالكة المدرسة؟ هل هو ملك البقال؟

إذا تعذر على الطفل الإجابة أو إذا قال إنه ملكه اسأله السؤال التالي

* اسأل طفلك عمن يظنه دفع ثمن هذا الشيء؟

وساعده على تخمين الاحتمالات.

* اسأل طفلك: كيف يشعر فلان الآن وهو بدون كذا أو مفتقد كذا أو يبحث عن كذا؟

الهدف أن يشعر الطفل بتأثير تصرفه على المالك الأصلي لهذا الشيء. يشعر الطفل بما تسبب فيه من ألم أو حزن أو بكاء لشخص آخر.

هذه هي مشاعر الندم الحقيقية وليست الاعتذار بالغضب الذي لا يعنيه الطفل ولا يتعلم منه شيئاً سوى أنك تريد إذلاله.

* اسأل طفلك: كيف يمكن أن نساعد فلاناً (صاحب الشيء) حتى لا يحزن؟

يجب أن تكون فكرة إرجاع الشيء المسروق لصاحبه فكرة الطفل ونابعة من فهمه للموقف وشعوره بالندم الحقيقي. يجب أن يفكر الطفل في كيفية إصلاح ما أفسده.

طمئن طفلك أن فلاناً سيفرح بعودة ما فقد وأكد لطفلك أنه طفل محترم ومهذب وأمين.

لا تكرر كلمة سارق أو سرقة ولكن فهم طفلك المزيد عن قيم الأمانة والصدق.

* اعرض على طفلك الدعم المعنوي

هل تود أن آتي معك؟ هل تحتاجني معك؟ لا تخف، سأكون معك. لا تخف، أنت تفعل الصواب.

بصورة عامة، يسرق الطفل لأنه لم يدرك بعد حدود الملكية، أو لأنه بطبعه متهور متسرع، أو لأنه غير قادر على السيطرة على رغباته، أو لأنه غاضب، أو لأنه يشعر بالدونية، أو لأنه لا يشعر بالحب والدفء والأمان، أو بسبب القسوة، أو لأنه رأى تأخذ ما ليس لك بكل أريحية. يسرق الطفل لكل هذه الأسباب أو بعضها - في جميع الأحوال تذكر أن كسر طفلك لن يعلمه ألا يسرق!

الاعتذار

تنتهي رسائل كثيرة من رسائل الأمهات بجملة «ورفض طفلي الاعتذار» أو «فقلت له أن يقول آسف» أو «طفلي لا يقول آسف أبداً».

ظاهرياً هذه مشكلة بسيطة وقد تبدو مضحكة للبعض، لكن، في واقع الأمر، هي مشكلة كبيرة سيعاني منها الطفل وكل من يتعامل معه عندما يكبر ويتخطى عذر الطفولة.

جميعنا نعرف تلك السيدة التي تخطئ وتتأدى بالخطأ ثم ترفض الاعتراف بخطئها وتمتنع عن الاعتذار. كلنا نعرف هذا الرجل الذي يعلق جميع أخطائه على شاعة الظروف أو وجود زوجة أو عدم وجودها أو المال أو الجيران، ويرفض تحمل عواقب تصرفاته. في حياة كل منا شخص نعتبر اعتذاره بمثابة إهانة جديدة، لأنه لا يعني الاعتذار ولا يشعر بالأسف ويتعامل مع أننا على أنه فرط حساسية من ناحيتنا، ويقدم الاعتذار لينهي الموقف «وخلاص».

السبب في هذه الشخصيات ومعاناتنا معها هو التربية. لقد كانت هذه السيدة يوماً طفلة ولقد كان هذا الرجل طفلاً وكان لهم أم وأب ومعلمة ومعلم كرهوهم في الاعتذار!

عندما يخطئ طفلكم لا تقعوا في هذه الأخطاء:

لا تقولوا له «قل آسف»

لا تقولوا له «لن أعطيك هذا أو ذاك حتى تعتذر»

الخطأ الأول هو غضب الطفل على الاعتذار، وهذا الخطأ يجعل منه شخصاً عنيداً مكابراً لا يشعر بنتيجة تصرفاته أو تأثيرها على الغير. الاعتذار بالنسبة له سيرتبط بالإهانة وكسر الأنف والذل. من يغضب على الاعتذار في طفولته، لا يعني الاعتذار الذي يقدمه وسيجنبه قدر المستطاع.

الخطأ الثاني يعلم طفلكم شيئاً واحداً فقط، اعتذر وتخلص من حرج الموقف! اعتذر لتنال غرضك! اعتذر إنها مجرد كلمة.

كيف يتعلم طفلك الاعتذار؟

الطفل يتعلم الاعتذار منكم أنتم! كلنا نخطئ ويجب أن يراكم طفلكم تعتذرون كلما أخطأتم. اعتذروا بصدق له أو لغيره إذا أخطأتم، ليفهم الطفل أن الاعتذار واجب وأنه لا مهانة في الاعتذار. اعتذروا واطلبوا السماح وتأكدوا أن الطرف الآخر غير غاضب منكم. ماذا تفعلون عندما يخطئ طفلكم؟

اسأله عن أسبابه وكونوا صادقين في محاولة معرفة حقيقة تصرفه، لماذا فعلت كذا؟

اسأله إذا كان راضياً عن النتيجة، هل أنت سعيد الآن أن فلاناً يبيكي أو أن اللعبة انكسرت؟

اسأله عن كيف يصحح خطأه، ماذا ستفعل لتصلح اللعبة؟ ماذا ستفعل لتتصلح مع صديقك؟

اعطوه الفرصة ليشرح بالأسف وتولد لديه الرغبة الصادقة في الاعتذار، ثم اسأله إذا كان يريد أن يعتذر وكيف سيعتذر.

أخيراً اسأله عما تعلم مما حدث وخذوا منه وعداً بعدم تكرار الخطأ. بالطبع الخطأ سيتكرر وفي كل مرة ذكره بالدرس المستفاد وبوعده وبأسفه.

البلاغة

أجلس على صخرة عالية، بعد الجزر وانحسار المياه، أتأمل سحب اليأس تحركها رياح الألم، فتنفخ فيها الروح كلما ظننت أنها انقشعت إلى الأبد. أرى محيط الحزن والذنب والندم يثور وأتمنى أن يتلع جسدي لترقد روحي في قاعه في سلام. أرى دوامة تتكون أمامي وكأنها إعصارًا شديدًا. لا أهرب. لا أرمي طفلي في وسطه. أراني أفتح محفظتي وأبدأ في تقديم كل ما أملك من مال كقربان لعلنا ننجو. تبتل الأوراق النقدية وتسقط في القاع. يهضمها وحش الخوف من الفقد بسرعة ونهم.

أحيانًا أسأل نفسي، عن سبب كل هذا المجهود وصرف كل هذه النقود. لماذا لا أقدم «العادي» وأتركه لنصيبه. لماذا كل هذه الأنشطة والتدريبات واللغات والفسح وتنمية المهارات؟ سينمو مثلها ينمو الجميع! ستمر الأيام والأعوام ولن تنتظره أو تنتظرنني! «يكبر زي ما يكبر»! بعدما يكبر يمكنه أن يصرف على نفسه ويتعلم ما يشاء. أترك نفسي لأفكاري وأتخيل أنني قد تخففت من أحمالي والتزاماتي وأعبائي. أبتسم. أكاد أن آخذ القرار! سألغي كل الدروس وأتوقف عن كل الأنشطة «ولن أهتم بما يحدث».

يأتيني صدى صوت الذنب والندم من أرجاء المحيط! ذبذبات وليست كلمات! ذبذبات تخترق جسدي وتلاعب بعقلي! موجات لا أعرف من يتحكم بقوتها وقسوتها! تحت وطأة الخوف من المجهول، واللوم والالتهام بالتقصير، أترجع! هذا طريق مرسوم لي! في أوقات سأسير فيه بخطوات واثقة، وستأتي أوقات تتردد خطوتي وتتوتر. قد أجري وقد أقفز وقد أزحف، لكن لا مفر من الطريق المرسوم!

كلما كبر صغيري كلما زادت التحديات، وكلما زادت الضغوط عليه وعليّ، وكلما زاد قلقي وخوفي من المستقبل، تهمز رؤيوتي وقدرتي على التركيز. تتلاعب قوى خفية بالخط الفاصل بين احترام قدرات الطفل وأن «آخره كده»، واحترام حق الطفل في الوصول بهذه القدرات لمنتهاها.

مشكلة مثل الديسبراكسيا لا تزول من تلقاء نفسها مع تقدم العمر، لكنها تحتاج إلى تدريبات كثيرة جداً رياضية لتقوية تلك العضلات الضعيفة لتمكين من تأدية الحركات المطلوبة منها، وتدريبات أخرى للتوازن، وتدريبات أخرى للتوافق بين نصف الجسد الأيمن والنصف الأيسر. هناك أيضاً تدريبات عضلات اليد على الحركة الدقيقة وعلى إحكام القبضة وعلى قوة الضغط على القلم. الأهم تدريبات السمع والموسيقا، وتدريبات اللغة والتخاطب واللسان.

أنظر إلى وجه «آدم» وهو نائم، وأتخيل حواراتنا في المستقبل؛ هل سيلومني على عدم الصبر عليه لتعليمه الإنجليزية والصينية كما نويت؟ هل سيلومني على قسوتي الظاهرية أحياناً؟ هل سيلومني على التقصير في حقه؟ هل سيلومني على ضغوطتي عليه؟ أغرق كل ليلة في دواماتي وأسئلتي واكتئابي، ثم أستيقظ لأكمل واجبي نحو ابني وأنا أتأرجح بين الأمل واليأس. كل ما أعلمه اليوم أن رحلة تعليم «آدم» ستكون رحلة شاقة مرهقة، وسيبذل أضعاف ما يبذله غيره لإتقان نفس الشيء.

أذكر رسائل الأمهات اللواتي يشكين من اختبارات القبول بالمدارس، وكأنهن يحاولن جاهدات أن ينتقوا أطفالاً بلا تحديات أو إعاقات أو صعوبات من أي شكل. في الاختبارات، يطلبون من طفل بعمر الثالثة أو الرابعة أن يسير ويجري ويقفز ويجعل ليتأكدوا أنه لا يعاني من

صعوبات حركية، ويطلبون منه أن يجلس ويحجب ويكتب ويرسم ويتتبع الخطوط والحروف، ويطلبون منه أن يتحدث بالعربية والإنجليزية والفرنسية ليطمئنوا على نطقه وعلى قدراته، ويطلبون منه أن يكون هادئًا محترمًا ليتأكدوا أنه لن يشيع الفوضى في الفصل.

أتذكر أسئلة «الناس»، المتعجبين من نطق «آدم»، عن عمره. أتذكر لومهم لي، واتهامي بعدم اهتمامي باللغة العربية، ثم يسألون عن أسباب عدم تحدّثه بالإنجليزية بطلاقة مثلي. تعليقات سخيفة من أشخاص سخفاء عديمي الإحساس. لقد اتخذت قرار التعليم المنزلي وقرار تعلّم المونتيسوري بصورة متخصصة منذ سنوات عديدة قبل أن أدرك وجود الديسبراكسيا ودرجة تأثيرها على حياتنا. كم ساعدني نهج المونتيسوري على العمل مع ابني بصورة متخصصة ودقيقة أثرت بالإيجاب عليه وعلى قدراته على جميع المستويات. تقول عمتي إن كلهم _الأطفال_ يكبرون، وتقول أُمِّي أن أستمّر في المحاولة حتى سن الثامنة وسأجد أنه تغير تمامًا وأصبح «طبيعيًا».

سأصدقها!

متعة التعليم

أخطط دروس «آدم» ورحلاتنا بكل حب وإخلاص. أشعر أن «آدم» وكل ما يخصه فرصة ثانية لي في كل شيء، فرصة ثانية لتعلم تقبل الضعف والفرحة الناقصة. فرصة ثانية لحب الذات. فرصة ثانية لممارسة الحب غير المشروط. فرصة ثانية للتصالح مع طفولتي وتجاربي في التعليم. فرصة ثانية للتعليم، نعم! أنا أتعلم كل شيء من جديد مع «آدم». أتعلم التاريخ والجغرافيا وعلم النبات وعلم الحيوان والرياضيات والهندسة والشطرنج والموسيقا والرسم والبرمجة وحتى التنس واللغة العربية!

خلال سنوات دراستها كطالبة في المدرسة، تراكت لى دى د. «ماريا مونتيسوري» العديد من الخبرات السيئة، بداية من ساعات الجلوس الطويلة، والحصص المتتالية الرتيبة، وأسلوب التلقين والحفظ في التدريس، والمناهج الكئيبة العقيمة. أدركت «ماريا مونتيسوري» التأثير السلبي لهذه البيئة المعادية للنمو الطبيعي للإنسان، تلك البيئة التي يحنق بداخلها فضول الطفل الطبيعي للعلم وقدرته على الابتكار والإبداع.

اليوم، وبعد مرور أكثر من مئة عام على سنوات تتلمذ «ماريا مونتيسوري»، تتكرر هذه

البيئة، وتلك الظروف، في العديد من المدارس، مما يؤدي إلى نفور الطفل من الكتاب وانصراف عقله عن العلم. قدمت د. «مونتيسوري» الحل لهذه المعضلة التعليمية من خلال ما يسمى بـ «الوحدة التعليمية» أو Study Unit.

تعريف الوحدة التعليمية هو تكوين ركن متكامل لشرح موضوع معين من زوايا مختلفة، ويمكنكم استخدام الوحدة التعليمية ابتداءً من سن ثلاث سنوات. الوحدة التعليمية مثلها مثل جميع أنشطة المونتيسوري لها شروط، عليكم أن تكونوا وحدة تعليمية يسهل على الطفل الوصول إليها بدون مساعدتكم، ويجب أن تتسم بالنظام والجمال والبساطة، وأن تخاطب جميع حواس الطفل. لا تنسوا عند تكوين الوحدة التعليمية أن تخاطبوا اهتمامات الطفل ومراحله الحساسة التي تحدثنا عنها بالتفصيل سابقاً.

كيف تكونون وحدة تعليمية؟

- اختاروا الموضوع المناسب لطفلكم حسب عمره واهتماماته والمرحلة الحساسة. يمكنكم اختيار الموضوع أيضاً على أساس منهج دراسي معين أو مقرر ما.
- حددوا تاريخ بدء استخدام الوحدة التعليمية، وتاريخ الانتهاء منها، وتذكروا أن الانتهاء منها لا يعني إزالتها من أمام الطفل. تاريخ الانتهاء هنا يعني نهاية الشرح، ونهاية عرض مكوناتها، ونهاية العمل بها، ولكن للطفل الحق في الرجوع إليها في أي وقت.
- يجب أن تحتوي الوحدة التعليمية على صور وفيديوهات وأغانٍ أو مؤثرات صوتية وكتب وخرائط توضيحية وزيارات خارجية متاحف أو حقول أو مزارع أو أي مكان آخر يعزز من بنیان الوحدة التعليمية.
- يمكن للوحدة التعليمية أن تتناول الموضوع الواحد من زوايا متعددة؛ مثلاً، إذا كان موضوع الوحدة هو التفاح، يمكنكم تناول الموضوع جغرافياً وتاريخياً وعلمياً، وإدخال مبادئ الحساب وتعريف التفاح بلغات عديدة.
- لا تنسوا توثيق الدراسة باستخدام تلك الوحدة التعليمية من خلال الصور وكتابة الملاحظات.

مزايا الوحدات التعليمية لا تعد ولا تحصى! الوحدات التعليمية لديها القدرة على إثارة فضول الطفل وتضاعف من قدرته على الاستيعاب والتذكر والاحتفاظ بالمعلومات وربط الأحداث ببعضها. بسبب تنوع وسائل العرض، تحاطب الوحدات التعليمية احتياجات الطفل الفردية وتتماشى مع مختلف القدرات. لهذه الأسباب، اخترت الرحلات التعليمية كأداة أساسية في وحداتنا التعليمية.

مثلاً عند تكوين وحدة تعليمية عن النوبة المصرية تم الاستعانة بالآتي:

- 1 - خريطة ملونة لمصر.
- 2 - كتاب عن النوبة المصرية للأطفال.
- 3 - صور من معرض الفنان «فريد فاضل» عن النوبة.
- 4 - عدد من أغاني الفنان النوبي «علي كوبان».
- 5 - صور تعرض مقتطفات من حياة النوبيين القدماء من على المعابد.
- 6 - صور تعرض أهم الصناعات أو الحرف النوبية.
- 7 - صور تؤرخ لتهجير النوبيين.
- 8 - صور لآثار النوبة وقصة غرقها ونقلها.
- 9 - بخور وحناء وعطور زيتية ومهارات وحلي ذهبية من النوبة.
- 10 - أشكال من الفخار لشكل البيت النوبي وسكان النوبة وأنشطتهم اليومية.
- 11 - زيارات متكررة إلى القرية الكونية ومدينة العلوم الاستكشافية وحديقة صن بيرد الثقافية لمعاينة ودراسة النوبة المصرية.
- 12 - زيارة النوبة نفسها والمتحف النوبي والبيت النوبي بغرب سهيل وأسوان.

درس الثلاث فقرات

عند شرح درس ما للطفل، يتبنى نهج المونتيسوري طريقة تسمى «درس الثلاث فقرات». مثلاً، إذا أردتم أن تعلموا طفلاً الأشكال الهندسية، يبدأ الدرس بعرض ثلاثة أشكال خشبية للدائرة والمثلث والمربع أمام الطفل بدون كلام أو مقدمات. إذا أمسك الطفل بالأشكال وبدأ يستكشفها، هذه إشارة إلى أنه يريد أن يتعلم هذا الدرس، وإذا لم يبد الطفل اهتماماً فهذا معناه أن ذلك ليس الوقت المناسب لتقديم هذا الدرس. في حالة اهتمام الطفل، مطلوب منكم بكل وضوح أن تمسكوا بكل شكل وتقولوا اسمه، هذا مربع أو هذه دائرة أو هذا مثلث. هذه هي الفقرة الأولى في الدرس. الفقرة الثانية، تسألوا الطفل أن يأتيكم بشكل محدد، أين الدائرة؟ أين المثلث؟ أين المربع؟ وأخيراً الفقرة الثالثة، تسألوا الطفل عن اسم شكل ما باستخدام سؤال مباشر: ما اسم هذا الشكل؟

ماذا تفعلون إذا كان الطفل أصغر من أن يمسك بالشكل ويأتيكم به؟ في هذه الحالة، في الفقرة الثانية، لا تطلبوا منه أن يمسك بالشكل، واكتفوا بأن يشير إليه. إذا كان الطفل أصغر من أن يشير بإصبعه، تابعوا نظراته.

ماذا تفعلون إذا كان الطفل لا يستطيع الكلام؟ إذا كان الطفل أصغر من أن يتحدث يمكنكم تجاوز الفقرة الثالثة.

ماذا تفعلون إذا أخطأ الطفل في الفقرة الثانية أو الثالثة؟ لا تقولوا له أبداً «هذا خطأ» لأن هذا كفيلاً بالتسبب في بناء حاجز بينه وبين الدرس. اكتفوا بالتصحيح. فمثلاً إذا أحضر الطفل الدائرة بدلاً من المثلث: «أشكرك! لقد أحضرت الدائرة. من فضلك أحضر المثلث!» إذا أخطأ في نطق اسم الشكل، لا تقولوا له إنه أخطأ. أمسكوا الدائرة التي أخطأ في اسمها، مثلاً، وقولوا: مضبوط هذه دائرة!»

ماذا تفعلون إذا انصرف الطفل في منتصف الدرس؟ إذا كان عمر الطفل أقل من ستة سنوات، لا تدعوه للعودة لدراسة الأشكال. في هدوء أعيدوا الأشكال إلى مكانها واتركوا الطفل يفعل ما يشاء. راقبوا أين ذهب، وقدموا له درساً أو نشاطاً يلائم اهتمامه في تلك اللحظة. تذكروا أن كل مناسبة هي فرصة للتعليم. إذا كان الطفل أكبر من ست سنوات، يمكنكم سؤاله عن سبب انصرافه لتفهموا طبيعة المشكلة. بعمر سبع سنوات، يفضل تشجيع الطفل على إنهاء ما بدأه.

قواعد عامة لتقديم الدروس:

- لا تجبروا الطفل على تعلم شيء لم يثر اهتمامه وفضوله.
- ثقوا أنه في الوقت المناسب سوف تتاح لكم الفرصة لتعليم الطفل كل شيء.
- لا تسخروا من الطفل في حال الخطأ أو عدم معرفة الإجابة.
- أعطوا الطفل الفرصة للإجابة في الفقرة الثانية والثالثة وإذا لم يجب لا تضغطوا عليه وقدموا له الإجابة، أمسكوا بالدايرة وقولوا «ها هي الدائرة».
- الدرس الناجح يحتوي على أقل قدر من الكلمات من قبل المدرس! لا تشرحوا ولا تسهبوا ولا تستسلموا للإطراب والاستعراض. مثلاً لا تقولوا للطفل: هذا مثلث! انظر! له ثلاثة أضلاع! انظر! هذه زاوية! انظر تسمى هذه الزاوية «زاوية قائمة»!
- دوركم هو تفتيح أبواب المعرفة أمام الطفل وإجابة أسئلته النابعة من شغفه وفضوله.
- بدلاً من تقديم العديد من المعلومات التي لن يستوعبها، وغالباً سوف تمثل عبئاً على

عقله، انتظروا حتى ترونه ممسكًا بشكل المثلث، يحاول عد أضلاعه، ثم سيأتي اليوم الذي سيمسك عددًا من المثلثات ويقارن شكل زواياها.

- انتظروا أسئلته ولا تقحموا أنفسكم في عقله.
- الدرس الناجح هو درس بسيط ومباشر.
- لا تنجرفوا في الحكيم عن أنفسكم أو عن خبراتكم خلال الدرس. مثلاً لا تتطوعوا بمعلومات عن شرائح البيترزا التي تشبه المثلثات أو قطع الحلوى التي تأخذ شكل الدوائر.

كيف يساعد نهج المونتيسوري الطفل على «الكلام»؟

يراسلني العديد من الآباء يسألون عن أسباب تأخر الكلام عند أطفالهم، بما أنني مررت بتجربة مشابهة مع «آدم»، وكيف يمكنهم مساعدة الصغار على التعبير عن أنفسهم باستخدام كلمات وجمل أكثر.

في بداية كلامي أحب أن أنوه أن هذه النصائح ليست بديلاً من نصائح طبيب الأطفال أو طبيب السمعيات أو التخاطب، هناك حالات تستدعي تدخلاً جراحياً وهناك حالات تستدعي جلسات علاج مكثفة.

تنقسم اللغة إلى قسمين: اللغة الاستقبالية واللغة التعبيرية. النوع الأول يرمز إلى مقدرة الطفل على فهم كلامك وفهم أوامرك وإرشاداتك وفهم الكلمات المكتوبة، في كتاب مثلاً. النوع الثاني هو قدرة الطفل على التعبير عن نفسه واحتياجاته وأفكاره باستخدام الكلمات الصحيحة والصياغة السليمة.

هذه النصائح تهدف إلى مساعدة الأطفال في تنمية لغتهم التعبيرية، فإذا كنتم تشعررون أن طفلكم متأخر في الكلام، اقرءوا هذه النصائح وابدءوا في تطبيقها:

أولاً: أغلقوا التلفزيون تماماً ونهائياً! جلوس الطفل أمام التلفزيون من أول أسباب تأخره في استخدام اللغة لأنه يتحول إلى متلقي صامت مغيب بسبب التحفيز البصري والسمعي والحركي الزائد. حتى وجود صوت التلفزيون في الخلفية يعد من عوامل تشتيت انتباه الطفل

ويقلل قدرته على التركيز والاستيعاب. أغلقوا التلفزيون وجميع الشاشات، الكومبيوتر واللابتوب والتابلت والموبايل والباد!

ثانياً: استبدلوا بعادة قضاء الوقت أمام الشاشة الألعاب العائلية الجماعية! يمكنكم تكوين بازل أو تشييد قلعة باستخدام المكعبات أو الرسم الحر على فرخ كبير من الورق على الحائط أو على الأرض أو الغناء أو الطهو أو التنظيف أو ترتيب الدولاب أو اللعب مع الطفل بلعبه. خلال هذه الأنشطة سوف يبدأ حوار بسيط بين الطفل ومن يلعب معه وسوف يسمع كلمات متكررة وسوف يبدأ في استخدامها.

ثالثاً: استبدلوا بعادة قضاء الوقت أمام الشاشة الخروج إلى الطبيعة، حدائق أو نادي أو حقل أو حديقة الحيوان أو أي مكان مفتوح آخر يساعد الطفل على الانطلاق بدون شرط أو قيد أو خطر.

رابعاً: إذا قال الطفل كلمة أو جملة خطأ لا تسخروا منه ولا تحتدوا عليه! أعيدوا كلمته أو جملته إليه بعد التصحيح وكأنكم ترددون ما قاله لتتأكدوا أنكم فهمتم ما يقول.

خامساً: لا تعتمدوا تجاهل الطفل في محاولة منكم لإجباره على الكلام! هذا قهر وعنف نفسي! لا تفترضوا أن طفلكم كسول وتأكدوا أنه إذا كان الطفل يستطيع الكلام لكان تكلم! في حالة «آدم»، كان غير قادر على تحريك عضلات فمه ولسانه وفكه وشفتيه لإصدار الأصوات المطلوبة للكلام. تجاهله كان سيزيد من إحباطه ويحوله إلى مجرد طفل صارخ.

سادساً: اقرءوا لطفلكم كثيراً! اقرءوا لطفلكم أثناء النهار وقبل النوم لأن الكتب سوف تساعد الطفل في زيادة الحصيلة اللغوية وفي تركيب الجمل وفي تعلم اللغة والصياغة.

سابعاً: احكوا لطفلكم قصة قصيرة جداً ثم اطلبوا منه أن يحكيها لجده مثلاً في التلفزيون. قد تكون القصة مكونة من جملة واحدة مثل «النهاردة أكلت بيضة» وقد تكون مكونة من عدد من الجمل والأحداث.

ثامناً: استخدموا الرسم والأعمال الفنية لمساعدة طفلكم على زيادة الحصيلة اللغوية ومعرفة الألوان والأشكال.

تاسعاً: علموا طفلكم الأصوات بدلاً من أسماء الحروف. لا تعلموه ألف باء تاء لكن علموه الصوت الذي يصدره كل حرف. مثلاً يمكنكم لعب لعبة: الطفل يختار حرفاً من الأحرف الخشبية الموجودة لديه وأنتم تمسكون الحرف تقولون له صوته ثم تبحثون معاً عن كلمات تبدأ بهذا الصوت مثل «مممم» ماما، منزل، مشبك، مفتاح، موزة وهكذا. في البداية لا ترغموا الطفل على البحث معكم عن كلمات، ابدءوا أنتم ومع الوقت سوف يشارككم الطفل اللعب.

يمكنكم اختيار ثلاثة أحرف واختاروا بضع حيوانات وفاكهة وخضراوات تبدأ بأصوات هذه الأحرف، وساعدوا الطفل على وضع كل مجسم أمام الحرف المناسب له. مثلاً أمام حرف الألف ضع أسد وأرنب وأستك وأستيكة. ابدءوا بالحروف التي ينطقها الطفل والأشياء التي يعرف الطفل اسمها.

من الألعاب الأخرى التي تساعد الطفل على معرفة الأصوات هي لعبة نهاية الكلمات، كرة وذرة مثلاً لهما نفس الصوت. لتنمية هذه المهارة يمكنكم قراءة الشعر الخاص بالأطفال. يمكنكم استخدام حروف المونتيسوري المصنعة من ورق الصنفرة وساعد طفلك على تتبع الحرف بإصبعه مع نطق صوته.

يمكنكم أيضاً تشجيع الطفل على وضع الأحرف المتحركة جنباً إلى جنب ومحاوله نطق الكلمة وفقاً لأصوات الحروف مثل باب = ب ا ب

يمكنكم أن تعطوا للطفل بعض الكلمات وتطلبوا منه استبعاد الكلمة الغريبة مثل قال قام نام (الكلمة الغريبة نام)

عاشراً: كل هذه الألعاب يمكنكم لعبها أثناء القيام بالمهام المنزلية أو أثناء السواقة أو في أي وقت. المهم أن تلعبوا وتضحكوا وتكونوا ذكريات سعيدة مع طفلكم!

الإنسان الرائع

أخطى كثيراً، ولكن ما لم أخطى به أبداً هو توفير الحظن كلها احتاجه «آدم»! حتى بعد انتهاء ثلاث سنوات الرضاعة! حتى بعد أن بدّل «آدم» أسنانه! يستيقظ «آدم» في حضني كل صباح وينام في حضني كل مساء ويختبئ في حضني من الألم أو الخجل أو التعب. أنتهز كل لحظات الحظن هذه وأسجلها في خلايا جسدي بدقة. أشم رائحة رأسه وأقبل يديه وخديه وأضمه للحظات يتوقف فيها الزمن.

أحب أن أشاهده يسير نحوي وأستمتع بمراقبته يسير بعيداً عني، أيّاً كان اتجاهه أحب نظرة الإصرار في عينيه والابتسامة الساحرة على وجهه. أراقبه مثلما أراقب زهرات الليليوم تتفتح على شرفتي. في البداية يتكون البرعم الصغير الأخضر ويظل يكبر ويكبر. يصير منتفخاً وأتوق شوقاً لمعرفة ماذا يجيء. هل بداخله زهرة بيضاء أم حمراء أو صفراء أو برتقالية؟ هل ستكون وردية أم بنفسجية؟ هل ستكون لوناً واحداً أو أكثر من لون؟ ترى كيف سيكون قلبها؟ كيف سيتكون ملمس بتلاتها؟ أنتظر في صبر وأتخيل رائحتها وريحها.

أراقب صغيري في صبر وحب. أرويه في حضني كل صباح ومساء. أشحن طاقة حبي

له وحبه لي. أثناء اليوم، ينطلق «آدم» ليكتشف نفسه فأرى روحه الجسورة المقدامة، كم هو شجاع! أراقبه يقترب من الأغراب في ثقة، يستجمع شجاعته، يطرح أسئلته، يعبر عن رأيه، يدير النقاش، يكسب الحب والاحترام. كم هي مرهقة عملية تنمية مهارات التواصل! أهم ما في الموضوع هو الإيثار بالقدرة والاستطاعة! ينظر «آدم» إلى تل، فيقول إنه يريد أن يتسلقه، فيتسلقه! يرى الصحراء الشاسعة، فيقول إنه يريد أن يستكشف رمالها وأطلال المدن البائدة فيها، فينطلق! يرى البحر والأسماك الملونة، فيقول إنه يريد أن يغوص بينهم، فيغوص!

أجلس على الشاطئ عند انحسار الحب، أراقب الصخور العارية في صبر، في انتظار المد والمدد! أما «آدم»، فيسير بكل ثقة نحو الصخور ويراقب الكائنات الصغيرة التي تعيش بينها وتحتها. يحرك الصخور بأنامله الصغيرة، فتخرج من تحتها أسراب السلطعون تجري. يحفر مجرى بين الصخور لتسير فيه المياه الضحلة، فيضحك بفخر على النهر الصغير الذي صنع بين الصخور. يجري نحوي، يسألني عن طفولتي، أجيبه بكل ثقة بأنني كنت «بلاص». يضحك ويجري نحو الصخور مرة أخرى، يحفر بثراً صغيراً، وسرعان ما تعود المياه من انحسارها، ويعود الحب ليجتاحني.

يجري «آدم» نحوي ويدعوني للسباحة معه في المياه الآمنة الدافئة. أحمله في حضني، يتعلق برقبتي، تنزل البحر بدون خوف أو قلق. نضحك كثيراً. يتجدد الحب وتُحفر في الذاكرة الابتسامات والضحكات وكلمات الحب الصادق غير المشروط. جزء من قلبي يسير أمامي! جزء من قلبي يجلس بجانبني! جزء من قلبي يدفئ حضني! أحكي له عن حبي الذي بدأ قبل أن أراه وسيدوم مهما حدث. أقول له إنه «هدية ربنا» وأعنيها بكل جوارحي. أقول له إنني لم أكن أصلح أمّاً لأي طفل آخر. أقول له إن ربنا أعطاني فيه وبه كل ما تمنيت. يسألني عن مدى حبي له، أقول:

«بحبك قد الحاجات إلي نعرفها والحاجات إلي ما نعرفهاش، قد الحاجات إلي شفناها وإلي ما شفناهاش، قد الحاجات إلي أكلناها وإلي ما أكلناهاش».

يضحك، يقاطعني ويقول: بحبك قد اللمة المحروقة!

معجبة أنا بهذا الإنسان الرائع! جوهره ثمين وقلبه طيب! أراقبه يعرض المساعدة على

الجميع وبيادر بالحب والعطاء دائماً. يكبر برعمه ببطء ولكن جذوره متشعبة في قلبي وساقه قوي صلب في وجه الناس والصعوبات. يقول إنه يريد أن يصبح نجاراً، يريد أن تكون عنده مزرعة وفيلا فيها ورشته. يحرك أصابعه كالساحر وهو يقول إنه يحب أن يصنع الأشياء بيديه. أبتسم وأدعو له بفرحة تحقيق الأحلام. كم هي جميلة أحلامه، أسأله في الصباح عن سبب ضحكته وهو نائم، فيقول إنه كان يحلم. لا يتذكر حلمه ولكنه يتذكر أنه كان يضحك. يسألني ببراءة عن تفاصيل حلمه ويتعجب أنني لم أكن معه في الحلم.

أهمية «الحضن»

لم يبدأ نهج المونتيسوري كأسلوب لتربية وتعليم الأطفال في المنزل، نهج المونتيسوري في الأصل أسلوب لإدارة الحضانات ودور رعاية الأطفال في غياب آبائهم، وخاصة الأم. هكذا درست في الكتيبات التعليمية. لكن مفاجأتي الحقيقية كانت عند قراءة صفحة «الحضن» في كتيب إعداد مدرسات المونتيسوري للأطفال بين ثلاثة أشهر وسنة. في هذا العمر أكدت د. «ماريا مونتيسوري» على وجود مدرسة واحدة تقوم على رعاية كل رضيع وتكون بمثابة أم بديلة له خلال فترة تواجده في الحضانة. نهت «ماريا مونتيسوري» عن ترك الأطفال الرضع وحدهم ويكون وطالبت المدرسات بحمل واحتضان الرضيع في كل الأوقات ما عدا وقت نومه.

يرضع الطفل وقتما يشاء دون الالتزام بمواعيد محددة ويرضع في حضن المدرسة المسئولة عنه، ترضعه وتحضنه وتهزه وتغني له في هدوء ورقة. عند تغيير حفاظته على المدرسة مراعاة درجة حرارة الجو وحرارة يديها حتى لا يستاء الطفل، ونصحت المدرسات بتدليك ظهر وبطن وساقَي وأيدي الرضيع حتى يشعر بالحب والحنان. على المدرسة حمل الرضيع

والتنزه به داخل حديقة الحضانة والتحدث معه باستمرار والجلوس به ومعه بالقرب من الأطفال الأكبر سنًا حتى يشاهدتهم في لعبهم في الداخل والخارج. وأخيرًا طالبت «ماريا مونتيسوري» كل مدرسة بالتقاط العديد من الصور اليومية للرضيع وتدوين تفاصيل يومه لمشاركتها مع الأم.

في شرح ما سبق، تقول «ماريا مونتيسوري» إن الإنسان يبدأ في تكوين نظرتة الداخلية لنفسه منذ وجوده في رحم أمه، حيث يشعر ويدرك بالحب أو عدمه، ويستكمل تكوين هذه الصورة خلال الأعوام الستة الأولى من حياته. أسلوب الأهل، أو القائمين على رعاية الطفل، في هذه المرحلة سوف ينتج عنه إنسان يشعر بالأمان والثقة في نفسه وفي أهله ويشعر أنه جدير بالحب والاحترام، أو سينتج عنه إنسان عصبي مذبذب يعاني من صراعات عديدة مع نفسه ومع العالم من حوله.

سوف تنعكس هذه الصورة على جميع علاقات هذا الإنسان في الطفولة والمراهقة والنضج، وسوف تؤثر على اختياراته في الصداقة والحب والزواج. يبحث الإنسان دائمًا عن أشخاص يشعر بالارتياح في وجودهم والارتياح هنا قائم على المشاعر التي كبر الطفل وسطها، من نشأ وترعرع وسط حب ودفء وأمان، يبحث عن تلك المشاعر في علاقاته. من نشأ وترعرع وسط حرمان وألم ودموع، ينجذب تلقائيًا لمن يشعره بتلك المشاعر لأنه يألفها! من تربى على الألم يشعر بغربة في الحب، ومن تربى على إهمال احتياجاته العاطفية ينفر من العلاقات الصادقة وهكذا!

استغلت «ماريا مونتيسوري» خلفيتها الطبية كذلك في ربط «الحضن» بالذكاء! تقول إن عقل الطفل عند الميلاد لم يكتمل نموه بعد، وأن في أول ثلاثة أعوام يتضاعف حجم المخ وتزداد التشابكات بين الخلايا العصبية. تلك التشابكات مرتبطة بالذكاء والسلوك والإدراك، كلما زادت التشابكات كلما زاد الذكاء والعكس صحيح. احتضان الطفل وتقبيله ولمسه بحب وحنان لأطول وقت ممكن من المحفزات الأساسية لتشابك وتواصل الخلايا العصبية، وترك الطفل يبكي أو وضعه على الأرض أو في سريريه يؤدي إلى عدم تشابك الخلايا العصبية، وفي بعض الأحيان يؤدي إلى انفصالها خاصة مع البكاء المستمر.

في أواخر حياتها، استهدفت «ماريا مونتييسوري» السلام العالمي من خلال أجيال من الأطفال المشبعين عاطفياً والواثقين من أنفسهم ومن قدراتهم ومستقرين في علاقاتهم ومتحقيقين ذاتياً، أجيال تحب الطبيعة والعمل والإعمار وتستبدل بقيم الاستهلاك والتنافس والعداء التعاون والحب والإخاء!

وصفة سحرية

هل هناك حقًا وصفة سحرية من أجل تربية طفل واثق بنفسه ومستقل ومنظم ودقيق ومتعاون؟ نعم! لقد اكتشفتها د. «ماريا مونتيسوري» وطبقتها أجيال من الأمهات والجدات، ثم أغفلتها الأجيال الحديثة التي تعاني اليوم مع أطفالها! تنقسم دراسة نهج المونتيسوري في مرحلة الطفولة المبكرة إلى عدة أقسام، ويتم دراستها وتقديمها للطفل بنفس هذا الترتيب: الحياة العملية، أنشطة حسية، ثقافة وعلوم، اللغة، وأخيرًا الرياضيات. في بداية دراستي، سألت نفسي عن سر هذا الترتيب، لماذا يتم تقديم أنشطة الحياة العملية أولاً للطفل؟ لو كان الأمر متروكًا لي، كنت بدأت بأنشطة وأدوات تعليم اللغة! أليس هذا ما نبدأ به في الحضانات والمدارس؟

وجدت الإجابة في أول خمس صفحات في كتيب الحياة العملية! أنشطة الحياة العملية مألوفة للطفل، يراها في المنزل ويألف أدواتها، وهذا يقلل من رهبته عند بداية الدراسة. يشعر الطفل بالرهبة في فصل لا يعرفه ومدرسات لا يألّفهن وأطفالاً لم يرههم من قبل! منطقة الأمان بالنسبة له هي ركن أنشطة الحياة العملية. السبب الآخر هو دفعة الثقة بالنفس

التي يأخذها الطفل في هذا الركن! تخيلوا لو بدأت، مثلما أردت أن أبدأ أنا، بتعليم الطفل أصوات الحروف، ولأي سبب لم ينجح الطفل في ترديدها أو تذكرها أو معرفة رموزها! كيف سيشعر؟ بالتأكيد سوف يشعر بالفشل وسوف ينفر من الأنشطة، وربما يكره الدراسة من أساسها! تخيلوا سيناريو آخر وقد تعلم الطفل الإمساك بفوطة صغيرة وقام بتلميع طاولة أو اثنتين في الفصل، أو قام بري الزرع باستخدام رشاش صغير، أو قام بصب الماء لنفسه، كيف سيشعر الآن؟ بالتأكيد سوف يشعر بالنجاح وسوف يقبل على تعلم الأنشطة الأكثر صعوبة بثقة.

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه هو كيف أساعد الطفل على النجاح في أنشطة الحياة العملية؟ دوري كأُم وكمعلمة أن أمهد طريق النجاح لطفلي بدلاً من تعجيزه وتأهيله للفشل! إذا قلت لطفلي «اغسل ألعابك في الحمام» سوف يفشل! سوف يخطئ! النشاط سهل ولكن بالنسبة للطفل هذا طلب تعجيزي!

التصحيح: «هيا بنا نتعلم كيف ننظف عرائسك! أولاً سوف نحضر العرائس (ونذهب لنحضرهم). ثانياً سوف نخلع ملابسهم (ونخلع ملابسهم). ثالثاً سوف نملاً الطشت ماء (وهكذا نفعل). رابعاً سوف نضع أول عروسة في الماء. خامساً سوف نضع قطرة صابون على الإسفنجة. سادساً سوف نغسل العروسة. سابعاً سوف نجففها. ثامناً سوف نضع عليها ملابسها. تاسعاً سوف نعيدها إلى مكانها في الحجرة. عاشراً سوف نكرر الخطوات مع العروسة الثانية.

يتعلم الطفل عندما يرى ولهذا السبب يجب أن يراني أنفذ هذه الخطوات حتى يتعلمها. هناك طفل يحتاج أن يرى الخطوات مرة واحدة وهناك طفل يحتاج أن يرى الخطوات خمس مرات. إذا شعرت أن المهمة صعبة على الطفل، يمكن أن يتدرب على كل خطوة على حدة، في عمر عامين يتدرب على إحضار العروسة وإعادتها إلى مكانها، هذا نشاط مستقل بذاته! في عمر ثلاثة أعوام يتدرب على خطوات غسل العروسة وتجفيفها. في عمر أربعة أعوام يتدرب على خلع وارتداء الملابس.

السؤال الثالث: هل حقاً غسل العرائس مهم إلى هذا الحد؟

هيا بنا نستعرض ماذا تعلم الطفل من خلال هذا النشاط:

- التركيز من خلال فهم الخطوات واتباعها.
- إتمام العمل من البداية إلى النهاية.
- تفكيك كل ما هو صعب إلى خطوات صغيرة والتدريب على كل خطوة على حدة.
- الثقة بالنفس، لقد أتم المهمة بنجاح.
- مهارات حركية متعددة سوف تساعده فيما بعد على الكتابة.
- مهارات حل المشاكل والتفكير المنطقي.
- مهارات إتقان العمل، العروسة أصبحت نظيفة.
- التعلم من خلال التكرار، تكرار الخطوات مع العروسة الثانية.
- العمل المنتج، هو لم يكن يلعب أو يضيع وقته، لقد كان يعمل!
- النظام والترتيب.
- التوافق العضلي العصبي.
- الصبر.
- الاستقلال، إذا أتقن الطفل هذا النشاط فسوف يتقن ارتداء وخلع ملابسه بنفسه والاستحمام مستقلاً!

السؤال الرابع: ما هي أنشطة الحياة العملية في نهج المونتيسوري؟

تنقسم هذه الأنشطة إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أنشطة ابتدائية مثل إحضار سجادة العمل وفردها وإحضار النشاط من على الرف وإعادة مكانه وصب الماء من وعاء إلى آخر باستخدام أدوات مختلفة ونقل الحبيبات من وعاء إلى آخر باستخدام أدوات مختلفة.

النوع الثاني: الاعتناء بالنفس مثل غسل الأيدي والوجه والأسنان واستخدام التواليت واستخدام المنديل لتنظيف الأنف وتعلم فك وربط الأزرار والسوستة والكباسين.

النوع الثالث: العناية بالبيئة وهي تشمل العناية بنظافة المنزل والفصل والحفاظ على الطبيعة.

النوع الرابع: الذوق واللياقة وهي تشمل السلوكيات العامة مثل التحية والتعارف وآداب المائدة.

في كل الأنواع السابقة، ذكرت مجرد أمثلة لفهم كل طبيعة كل نوع من أنشطة الحياة العملية.
السؤال الخامس: ماذا يحدث للطفل الذي لا يتعلم هذه الأنشطة؟

تبدأ المرحلة الحساسة للنظام ولتعلم أنشطة الحياة العملية في عمر سنتين، وتستمر حتى ست أو سبع سنوات! خلال هذه الفترة يريد الطفل أن يلعب الطاولة ويغسل الأطباق ويساعد في إعداد المائدة ويرش ملمع الزجاج وغيرها من الأعمال اليومية! إذا تم استغلال هذه المرحلة الحساسة، فسوف يصبح طفلكم واثق بنفسه ومستقل ومنظم ودقيق ومتعاون. إذا تم منع الطفل من هذه الأعمال بحجة الإتلاف والإفساد وأنه لا يعرف، فسوف تمر المرحلة وتحصلون على مراهق وشاب _فتى أو فتاة_ يحتاج دائمًا إلى من يخدمه وينفر من جميع الأعمال المنزلية! سوف يعاني هذا الشخص في الدراسة المدرسية والجامعية وفي العمل لأنه يجد صعوبة بالغة في إنهاء ما بدأ وفي إتقان ما يعمل وفي نظراته لنفسه وقدراته وإمكانياته!
كيف يتعلم الطفل الاستقلال؟

الحرص على تربية طفل مستقل تعتبر من أولويات كل أم وكل أب، على الأقل من الناحية النظرية!

بدافع تربية هذا الطفل المستقل، ترفض الأم حمل طفلها إلا إذا كان بغرض الانتقال أو الرضاعة أو تغيير الحفاضات أو الاستحمام. ينصح الناصحون بعدم حمل الطفل وتركه يبكي ما دام على الأرض ولا يوجد خطر جسدي عليه، حتى لا يعتاد الطفل على «الشيل». ينصح الناصحون كذلك بنوم الطفل في سرير منفصل أو غرفة منفصلة مباشرة بعد الولادة، أو بعد عدة أشهر من عمر الطفل. يترك الطفل يبكي في سريره وحده خلف باب مغلق حتى لا يزعج أحدًا بأصوات الاستغاثة. يفتخر أصحاب هذا النهج في التربية بأنه بعد أسبوع على الأكثر من البكاء المتواصل يقتنع الطفل أنه لا فائدة من الصراخ ويبأس ويصمت وينام ويرتاح الجميع!

ينصح الناصحون كذلك بدفع الطفل دفعًا خارج المنزل، ووضعه في حضانه في أسرع وقت حتى يستقل عن الأم ويعتاد الغرباء. أما بالنسبة لاستخدام التواليت والاستغناء عن الحفاضات، بغض النظر عن استعداد الطفل، ينصح الناصحون بهذه الخطوة في عمر عام ونصف أو عامين على الأكثر ولا مانع من ضرب الطفل على ساقيه ومؤخرته حتى يعرف «الصح من الغلط». يقول الناصحون إن الطفل كائن ملتوٍ يستخدم الزن والبكاء للتلاعب بالكبار وأن على أهل الحريصين على استقلال الطفل تجاهله حتى لا يفسد!

يقول دكتور وليام سيرز المدافع عن نهج التربية من خلال الارتباط الوثيق بين الطفل والأهل - Attachment Parenting - إن هناك فرقًا بين الاستقلال والانفصال. الطفل المستقل عن أهله يشعر بالسعادة في استقلاله وبالثقة في نفسه وفي خطواته ويشعر بالأمان الداخلي النابع من حب الأهل وحنانهم ويعرف جيدًا أنه يستطيع الاعتماد على أهله والثقة بهم في أي وقت. الطفل المنفصل قد يبدو مستقلًا ولكن إذا نظرنا له وجدناه غاضبًا عنيدًا خائفًا. الطفل المنفصل لا يثق بنفسه ولا يثق بأهله ويرفض نصحتهم وتدخلهم لأن خلايا عقله وجسده تحمل ذكريات الهجر والخذلان. هناك نوعان من الأطفال المنفصلين عن أهلهم، الطفل المنفصل المعتمد والطفل المنفصل غير المعتمد. النوع الأول منفصل عاطفيًا ولكنه يعتمد على أهله في جميع نواحي الحياة والنوع الثاني منفصل عاطفيًا وماديًا وجسديًا!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» في كتابها The Absorbent Mind إن هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تعلمها للطفل، مثل الجلوس والمشي والكلام وإطعام نفسه وخلع وارتداء ملابسه والاستقلال! كل ما يمكنك أن تقدمه للطفل هو بيئة صديقة تساعد على هذه الخطوات عندما يكون مستعدًا لها جسديًا وعصبيًا ونفسيًا. لا يمكنك أن تجعل طفلًا يسير قبل أوانه وإلا نتج عن محاولتك العديد من الإحباطات والشروخ النفسية وتقوس في عظام الساقين! كذلك لا يمكنك تعليم الطفل الاستقلال من خلال إرغامه على الابتعاد عنك وحرمانه من الشعور بالأمان ونكران حقه في الحضانة والحب والاستجابة لندائه. مثل هذه النصائح تؤدي إلى النفور والعديد من المشاكل النفسية.

من ناحية أخرى، نجد نفس هؤلاء الحريصين على استقلال الطفل أول المجهضين لكل محاولاته للاستقلال! لا تعبت بالطعام! لا تمسك المعلقة! لا تنزل على الأرض!

لا تركض! لا تتحدث! لا تسأل! لا تتسلق! لا تفتح! لا تغلق! لا تلمس! لا تعبت
بالسوستة! لا تخلع حذاءك! لا تقل لا! ينشأ الطفل في منزل مليء بالقيود ويدخل حضانة
تزيد من قيوده ثم يدخل مدرسة تتبع أسلوباً تربوياً يزيدته تكييلاً ثم نتساءل كيف نعلم الطفل
الاستقلال؟

اللغة الصينية

عندما يتعلم الطفل أكثر من لغة، يصبح عقله أكثر مرونة، وتصبح مخارج حروفه أكثر دقة وتنوعاً، وتصبح مهارات الإنصات والحفظ والاسترجاع أقوى. عندما يكبر هذا الطفل يكون أكثر تفتحاً، ويكون أكثر تقبلاً للثقافات المختلفة، ويكون فهمه للتاريخ والحضارة أعمق ممن يتحدث لغة واحدة فقط.

هناك أيضاً عامل المستقبل، إجادة أكثر من لغة بجانب اللغة الأم يفتح أبواب العمل أمام الإنسان ويمنحه نعمة الاختيار. يختار مجال الدراسة وبلد الدراسة ولغة الدراسة ومجال العمل وطريقة العمل وغيرها من الاختيارات التي لن تتوفر لمن لا يتقن اللغات.

تختلف طرق تعليم الطفل للغات وفقاً لعمره، إذا كان الطفل أقل من ثلاث سنوات، الأمر لا يحتاج سوى وجود شخص يلعب مع الطفل ويحدثه بهذه اللغة. سيمتص عقل الطفل لغة واثنتين وثلاثاً وأربعاً بسهولة إذا كان يتعرض لهم من خلال الاحتكاك والتعامل مع شخص يتحدث هذه اللغة معه. هذا هو أسلوب الغمر.

إذا كان الطفل بين ثلاثة وستة أعوام سينجح أسلوب الغمر وقد يحتاج بعض المجهود

من الطفل في التردد والحفظ والاسترجاع. في هذه الفترة يظل الطفل في مرحلة «العقل الماص» ولكنه العقل الماص الواعي الذي يدرك ما يتعلمه الطفل ويبدل مجهودًا ليتذكره.

إذا كان الطفل ما بين ستة وتسعة أعوام سيكون لديه الصبر والشغف والتركيز الكافي لتعلم اللغات لكنه لن يمتصها. يتعلم الطفل اللغات في هذه المرحلة بالمثابرة والمجهود والتكرار والترديد والاسترجاع. لن يكون الأمر سهلاً مثلما هو الحال لدى الطفل في مرحلة «العقل الماص».

إذا كان الطفل ما بين التاسعة والثانية عشرة سيكون الأمر أصعب على عقله ولسانه وسيحتاج وقتًا أكثر ومجهودًا أكبر ممن هم أقل منه سنًا. أما بعد الثانية عشرة فسيصبح الأمر في نفس صعوبة تعليم البالغين لغة جديدة.

كل ما سبق من كلام ينطبق على الأطفال ذوي النمو النمطي «الطبيعي». أما «آدم»، فلم يكن قادرًا على تعلم حتى اللغة العربية، وهي لغته الأم، بالغمر. تأخر «آدم» كثيرًا حتى تكلم، وعندما بدأ يكون جملًا، كانت له صياغته الخاصة. إلى اليوم، تفتقد جمل «آدم» للصياغة السليمة. «عقله الماص» لا يمتص المفردات ونطقها ولا الجمل وتركيبها. ازداد الأمر تعقيدًا مع تعلم القراءة والكتابة، أرى حروفه المعكوسة وكأنه أمام مرآة ونطقه العجيب وتعثره وكأنني رأيت عفريتًا!

مهما تكرر الموقف، مهما رأيت من تعثر، ما زلت أنتفض صارخة كلما رأيت الحروف تنظر في عكس اتجاهها والأرقام على غير شكلها. تأكدت مع الوقت أن «آدم» لن يصل لمستوى الطلاقة في أي لغة، لا الإنجليزية ولا العربية. أردت أن أختار له لغة ثالثة تعطيه ميزة تنافسية في سوق العمل والحياة. هناك منافسة عالية في اللغة الفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، ومهما تعلم، فلن يصل في مستوى طلاقة الآخرين.

بحث عن أكثر اللغات المستخدمة عالميًا بعد اللغة الإنجليزية ووجدت الإسبانية والألمانية ثم الصينية في أول القائمة. في مصر، الكثير من الطلبة يدرسون اللغة الفرنسية أو الألمانية ولكن قلة قليلة من المصريين يدرسون الصينية وأغلبهم من البالغين. بالنسبة لي، هذه فرصة لإمداد ابني بسلاح قد يفتح له باب الإرشاد أو الترجمة أو الكتابة أو الفن أو النقد أو الأدب

المقارن أو التجارة أو السلك الدبلوماسي أو الطب في المستقبل.

بدأ «آدم» يتعلم الصينية، وواجهت معه نفس المشكلات، تحديداً النطق غير السليم والصعوبة في التذكر. لكن من جمال اللغة الصينية أن كلماتها حقاً بسيطة وأصواتها خفيفة ولا يوجد بها صيغ للمؤنث والمذكر ولا تصريفات للأفعال. مع الوقت وكثرة إحباطاتي، قررت أن أبتعد وأترك «آدم» للمعلمة ويقتصر دوري على تسديد قيمة الدروس وتحميل الفيديوهات ليراجعها «آدم». قررت أن أرحم نفسي من عفريت الديسلكسيا، ولو قليلاً.

بدأت المعلمة تعلم «آدم» رموز اللغة الصينية ليتعلم القراءة. لم أندخل. «يتعلم إلي يتعلمه!» هكذا كنت أقول لنفسي. مرت عدة أشهر وبالصدفة وجدت جزءاً من درس صيني مكتوب على سكايب. كان «آدم» بجانبني، فسألته إذا كان يفهم المكتوب. قال بثقة إنه يمكنه أن يقرأه لي. بدأ يقرأ الطلاسم بكل سلاسة ويسر! حضنته وهنأته وحمدت الله.

جلست أفكر طويلاً! هل من الممكن أن يكون عسر القراءة مختصاً ببعض اللغات؟ هل من الممكن أن يكون «آدم» طفلاً طبيعياً في اللغة الصينية وطفلاً يواجه تحديات التعلم في العربية والإنجليزية؟ بدأت أبحث وصدق حدسي! الجزء المختص بقراءة الحروف الأبجدية في المخ غير الجزء المختص بقراءة الرموز الصينية أو اليابانية! عسر القراءة في اللغات التي تعتمد على الحروف الأبجدية سببه صعوبات فك شفرة صوت كل حرف ودمج الأصوات ثم نطق الكلمة. نفس الصعوبة عند الكتابة، لأنها تعتمد على تفكيك الكلمة إلى مقاطع صوتية وترجمة كل صوت إلى الحرف المختص به.

أما في اللغة الصينية، فهي تتكون من 3000 رمز. يتعلم الطفل كل رمز على حدة ويحفظ شكله. تتكون الجمل من عدة رموز جنب بعض، ولهذا قرأ «آدم» الطلاسم بكل سهولة ويسر. هو يعرف أن هذا الشكل يعني «أنا» وهذا الشكل يعني «عندي» وهذا الشكل يعني «قطة». عجيب هذا العقل البشري! «آدم» ينفر من قراءة المقاطع الكبيرة بالعربية أو الإنجليزية، يقول إنها مرهقة وأنه لا يجيها. أما اللغة الصينية، فتعتمد على حفظه لشكل الرموز وكل رمز يعبر عن كلمة لهذا وجدها أسهل. عسر القراءة في الصين يختلف في تعريفه وتفصيله عن عسر القراءة في مصر!

الأبجدية

تعليم الطفل الحروف الأبجدية يعتبر أول ما يهتم به الأهل ويليها مباشرة تعليم الأرقام! بطريقة تلقائية نجد الأم تغني لطفلها أغاني الحروف الأبجدية بالعربية والإنجليزية والفرنسية، وتبدأ في عد درجات السلم صعودًا ونزولًا، وعد أصابع الأيدي والأقدام، وتبدأ في شراء الحروف الممغنطة وبازل الحروف والأرقام. كذلك يتم قياس نجاح الطفل في الحضانه بمدى معرفته بالحروف والأرقام، وعند دخوله المدرسة، في عمر أربعة أعوام، يدخل الطفل في مقابلة شخصية ليتم قبوله أو رفضه في المدرسة اعتمادًا على معرفته بالحروف والأرقام والأشكال، وفي بعض الأحيان أيام الأسبوع!

أثناء عملها مع ذوي الاحتياجات الخاصة، أدركت د. «ماريا مونيتيسوري» حقيقة غابت عن الكثير من الأمهات والآباء، أدركت أن التعلم يبدأ من الطفل ليس من الأهل أو من المعلمات والمعلمين! لا يمكنك إجبار طفل ما على تعلم شيء عقله لم يصدر له الأمر بتعلمه! تمامًا مثل الجلوس والوقوف والمشي، لا يمكنك فرض تعلم الحروف والأرقام على الطفل قبل أوانه، وقبل أن يستعد له جهازه العصبي وكيمياء مخه.

تأكدت د. «مونتيسوري» من هذه النتيجة عندما بدأت تعمل مع الأطفال في أول بيت للطفل أسسته في حي سان لورنزو الفقير، الطفل هو من يأخذ مبادرة التعليم ودور الأهل والمعلمين هو إعداد البيئة المشجعة والمناسبة للطفل.

هذه هي خطوات تعليم الطفل الأبجدية في نهج المونتيسوري:

الرغبة: يجب أن يبدي الطفل اهتمامًا بالحروف وبالكلمات، ويظهر هذا الاهتمام من خلال إشارته للحروف وسؤاله عنها وعن أصواتها، وقدرته على رؤيتها والتعرف عليها. دوركم هنا هو إحاطة الطفل بالكلمات والحروف من خلال أنواع الكتب المختلفة، قصص وكتب مصورة وكتب تعتمد على الحركة واللمس. كذلك يجب أن تقرأوا له كثيرًا، وتصبح القراءة روتينًا يوميًا، ونوعًا من أنواع المكافأة، كذلك يجب أن يراكم الطفل تقرأون ليحب القراءة ويدرك أهميتها.

الترتيب: ترتيب تعليم الحروف يجب أن يساعد الطفل على التعلم وليس إرباكه! لذلك تنصح د. «ماريا مونتيسوري» بتعليم الطفل الحروف بهذا الترتيب من اليسار إلى اليمين:

asm etc opu dfj glb inw rhy qzk vx

وبهذا الترتيب من اليمين إلى اليسار:

أ س م و ت ك ث ة ش د ف ج ل ب ح ي خ ص ذ ط ع ر ض غ ز ه ق
ظ ك ن آ ي

ملحوظة: ترتيب الحروف العربية اجتهاد مني

القواعد الأساسية:

- علموا الطفل صوت الحرف وليس اسمه.
- ابدءوا بتعليم الطفل أصوات الحروف في أول الكلمة ثم في نهاية الكلمة ثم في منتصف الكلمة.
- كل يوم علموا طفلكم ثلاثة أحرف فقط باستخدام درس الثلاث فقرات (هذا كذا، أين كذا، ما هذا).

- قبل تقديم مجموعة جديدة من الحروف، راجعوا على ما سبقها.
- ابدءوا بالحروف التي يعرف طفلكم نطقها.
- سبب هذا الترتيب هو تفادي تقديم الحروف المتشابهة من حيث الصوت أو من حيث الشكل في المجموعة الواحدة.

استخدام الحواس: لا تعلموا طفلكم باستخدام حاستين فقط (البصر والسمع)! يستخدم نهج المونتيسوري حروف الصنفرة (sandpaper letters) لتعليم الطفل باستخدام حاسة اللمس وحاسة الكيف (stereognostic sense).

كما يستخدم صينية الرمال لمساعدة الطفل على رسم كل حرف وربط حركة الحرف بصوته! من ألعاب فصل المونتيسوري لعبة رسم الحرف على الظهر، حيث يقف طفل ويقوم زميل له برسم حرف على ظهره وعلى الطفل تخمين الحرف الذي كتبه زميله على ظهره.

كذلك هناك لعبة «إني أرى» حيث تقول المعلمة «إني أرى على المكتب شيئاً يبدأ بصوت «م»» وعلى الطفل محاولة معرفة الشيء الذي تراه المعلمة. إذا لم يعرف الطفل تضيف المعلمة أوصاف هذا الشيء مثل لونه أو طوله أو ملمسه أو استخدامه.

هناك تدريب أكياس الأصوات (sound pouches)، كيس صوت الـ «م» بداخله ثلاثة أشياء تبدأ بهذا الصوت مثل معزة ومشط ومفتاح.

هناك كتيبات الأصوات - تصنع لطفلك كتيب لكل صوت - على الغلاف شكل الحرف وفي الداخل خمس صور لأشياء تبدأ بهذا الصوت، ومع الوقت، يتصفح الطفل المجلات وتقص معه صور جديدة لكل صوت.

أما الكتابة، فلا تبدأ بالورقة والقلم. بعد صينية الرمال المذكورة ضمن الألعاب السابقة، نلعب بالحروف البلاستيكية الخاصة بنهج المونتيسوري. اجلسوا بجانب طفلكم وأمامكم العديد من الحروف الصغيرة، واسألوه عما يريدك أن تكتبوا له. اكتبوا له اسمه واسم فاكهته المفضلة واسم أي شيء يطلبه.

استخدموا المساطر المفرغة لمساعدة الطفل على الإمساك بالقلم وتتبع خطوط المسطرة لرسم مربع أو مثلث أو حرف، حسب نوع المسطرة. اشترىوا للطفل سبورة وطباشير ودعوه يلعب. الطباشير لا ينزلق سريعاً ويساعد الطفل على التحكم في الخطوط التي يرسمها.

كذلك، هناك العديد من الأنشطة التي تساعد الطفل على التحكم في حركة أصابعه مثل استخدام المقص وتقطيع موزة أو عججين بالسكين أو قطاعات البسكوت واستخدام ماشة الفحم أو ملقاط كبير في نقل الأشياء من وعاء لآخر.

تجنبوا تدريبات الكتابة المملة المرهقة، خاصة في الأطفال أقل من السابعة، وحولوا التعليم إلى لعبة سائقة. إذا شعرت أن الطفل فقد اهتمامه بالنشاط فلا تضغطوا عليه وانتظروا فرصة أخرى لاستئناف الدرس.

من خلال ملاحظتها للأطفال بين ثلاث وست سنوات، استنتجت د. «ماريا مونتيسوري» أن الطفل يتعلم الكتابة أولاً ثم القراءة، وأن الإمساك بالقلم وكتابة الحروف والكلمات عملية تبدأ وتتطور ما بين أربع وسبع سنوات.

الإمساك بالقلم والكتابة قد يبدو شيئاً سهلاً وبديهيّاً للكبار، ولكنه موضوع معقد جداً، يبدأ الطفل في محاولات الإمساك بالأشياء في عمر ثلاثة أشهر. ينظر الطفل إلى لعبة معلقة فوق رأسه ويحاول أن يخطبها بيده. في هذه المرحلة يحاول الطفل أن ينمي التوافق بين قدرته على الإبصار ورغبته في لمس ما يراه وهو ما يعرف باسم hand-eye coordination. بعد العديد من المحاولات ينجح الطفل في الاستهداف، يستهدف اللعبة فيصيب الهدف. دور الأهل هنا هو إتاحة الفرصة للطفل لاستهداف الأشياء وتنصح «ماريا مونتيسوري» بعدم تشتيت تركيز الطفل بوضع لعب كثيرة أمامه، لعبة واحدة تثير اهتمامه تكفي، كما يفضل تغيير اللعبة عندما يملها الطفل.

في الفترة بين ثلاثة أشهر وستة أشهر يطور الطفل قدرته على الإمساك بشيء في يده والتحكم في مدة الإمساك. يتعلم الطفل أن يترك اللعبة ويمسكها حسب رغبته. الفرق بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة هو الإرادة، سابقاً كان الطفل يمسك ويترك لا إرادياً. دور الأهل هنا هو إتاحة الفرصة للطفل للإمساك بالأشياء واستكشاف الملمس المختلف

للمال والطين والزرع والخشب والزجاج والحديد والأقمشة المختلفة.

في المرحلة السابقة يمسك الطفل لعبته بكامل قبضته، ومع الوقت يطور الطفل أسلوبه في الإمساك ليمسك بإصبعين اثنين فقط، السبابة والإبهام. دور الأهل هنا هو تشجيع الطفل على تنمية هذه المهارة الهامة من خلال اللعب والأكل. يتم تقطيع الطعام على شكل مكعبات صغيرة يمكن للطفل إمساكها بنفسه. قدرة الطفل على إمساك الطعام ورفعها إلى فمه بنجاح تطور هائل في مهارات الطفل.

هناك فرص عديدة يمكن للأهل استثمارها في عام الطفل الثاني وعامه الثالث لتنمية المهارات التي اكتسبها في عامه الأول. منها تشجيعه على الإمساك بالمقابض وفتح وغلق الأدراج والزجاجات وأواني الطهي والأبواب. يمكنهم كذلك تشجيعه على اللعب بالصلصال وطينة الفخار والعجين. أنشطة نقل الأشياء من وعاء إلى آخر متعددة ومسلية، النقل باستخدام ملعقة أو كوب صغير أو جاروف أو ماشية مكعبات السكر أو ماشية الفحم أو ملقاط. تنصح د. «ماريا مونتيسوري» بالتنوع بين الأغراض المنقولة من حيث الحجم والوزن والنوع والشكل، الثلج والسكر وحببيات الأرز والورق والمكعبات والخضراوات والفاكهة والكتب، أمثلة بسيطة للأغراض المتاحة لأنشطة النقل بين الأوعية.

نشاط العصر من الأنشطة المساعدة لتقوية عضلات الأصابع وإحكام القدرة على الإمساك بالأشياء. عصر فوطة صغيرة مبللة وعصر الإسفنج والليف وعصر البرتقال والليمون هي بعض الأمثلة السهلة التنفيذ في المنزل. تنصح «ماريا مونتيسوري» الأهل بإتاحة الفرصة للطفل لاستخدام سكين حقيقي غير حاد أو مدبب، واستخدام المقص، واستخدام القلم والألوان. لا يجب على الأهل محاولة تعديل أسلوب إمساك الطفل بالقلم أو المقص أو السكين وأن الطفل يتعلم من خلال مشاهدتهم، وعندما تنمو عضلاته وقدراته بالتدريب والممارسة.

هل تعلمون أن الطفل يحتاج إلى تقوية جسده بالكامل حتى يستطيع أن يستخدم القلم؟ يحتاج الطفل إلى تقوية عضلات الذراع والرسغ والكتف والظهر مثلما يحتاج إلى تقوية عضلات يديه وأصابعه. شجعوا طفلكم على التسلق والجري ووفروا له العديد من الفرص لمساعدتكم

في نقل الأشياء من مكان لآخر داخل المنزل. المهارات الحياتية التي اشتهر بها نهج المونتيسوري أفضل إعداد للطفل للدراسة! الكنس والمسح وتطبيق الفوط ونشر الغسيل والزراعة والعناية بالزرع والتقطيع والعجن والطهو - كلها من المهارات الحياتية التي حرصت د. «مونتيسوري» على تعليمها للأطفال.

الملخص: هناك «أساطير» حول الطفل والقلم:

- * الطفل يستخدم عضلات يديه للكتابة.
- * الطفل يمكنه الكتابة من عمر ثلاثة أو أربعة أعوام.
- * يمكنكم الإمساك بيد الطفل ليتعلم كيف يمسك القلم.
- * كثرة الواجبات في مرحلة الحضانة والتمهيدي تحسن خط الطفل.
- * أفضل وضع للكتابة هو الجلوس على مكتب أو «تخته».

الحقائق حول الطفل والقلم

- * إذا كان طفلكم يقف مائلاً للأمام أو الجنب أو الخلف ويتعب من الوقوف مستقيماً، سيواجه مشاكل بالكتابة.
- * إذا كان طفلكم لا يستطيع القفز والشقبة والوقوف على ساق واحدة، سيواجه مشكلة بالكتابة.
- * إذا كان طفلكم يجلس مائلاً أو محدباً أو يستند على كوعه أو ساعده أثناء الكتابة، فهو يعاني من مشكلة.
- * تفسير الثلاث نقاط السابقة هو ضعف عصب الطفل وجذعه. هذا الضعف يبدأ منذ الميلاد عندما لا يقضي وقتاً نائماً على بطنه ثم يستمر عندما لا يزحف ثم يستمر عندما يمنع من الحركة والجري واللعب والتسلق ويتطور عندما يفرض عليه الجلوس وتلقي المعلومات.
- * الحل هو الحركة. الطفل يحتاج فرصاً كثيرة لتقوية جسده وعضلاته وأمره بالجلوس لفترات طويلة والحركة المحدودة عوائق في طريق النمو السليم. البعض يحل هذه المشكلة بممارسة الرياضة المنتظمة وركوب الدراجة.
- * الطفل يبدأ استكشاف الكتابة بأصابعه والفرشاة والألوان والأقلام من تلقاء نفسه

- ولا يجب غضبه على التتبع أو التلوين أو كتابة الحروف.
- * يتعلم الطفل الإمساك بالقلم على مراحل ويكون هو قائد جميع هذه المراحل. لا تمسك بيد الطفل ولا تغصبه ولا تضربه.
 - * إذا كان طفلكم أشول، لا تجبروه على استخدام يده اليمنى. هذا التفضيل لاستخدام يد على الأخرى مرتبط مباشرة بالمخ وبأي فص مسيطر على حركة واتزان الجسد.
 - * الواجبات في مرحلة الحضانه والتمهيدي تتسبب في كراهية الطفل للكتابة والتعليم وتوتر العلاقة بين الأم والطفل في هذه المرحلة الحساسة من تكوين شخصيته.
 - * لا يمكن للطفل أن يمسك القلم ويكتب بصورة صحيحة قبل ستة أو سبعة أعوام.
 - * إذا اعتاد الطفل الجلوس في وضع خاطئ أو الإمساك بالقلم بطريقة غير صحيحة سيكتب بخط سيئ وتصبح هذه عادة.
 - * الوضع الأمثل للكتابة قبل سبع سنوات هو الكتابة أثناء النوم على البطن، وكلما قلت فترة جلوس الطفل على مكتب كلما تحسن خطه وأتقن الكتابة.
 - * إذا اشتريتم مكتب وكرسي لطفلكم يجب أن تتأكدوا أن قدميه مستقرتان على الأرض تماماً وأن ظهره ملتصق بظهر الكرسي وأن ركبتيه ملتصقتان بنهاية المقعد فيكون جسده كله في زوايا قائمة.

هذا جدول سيساعدكم على تقييم الطاولة والكرسي عند شرائهم للطفل

عمر الطفل (عام)	ارتفاع الطاولة (سم)	ارتفاع الكرسي (سم)
3 - 4	46	26
4 - 6	53	31
6 - 8	59	35
8 - 11	64	38
11 - 14	71	43
فوق 14	76	46

القراءة

متى يتعلم الطفل القراءة؟

تسأل الأمهات عن السن المناسب لتعليم الطفل القراءة. كنت أود كتابة إجابة من سطر واحد للرد عليهن، ولكن الأمر أعقد من ذلك.

القراءة مهارة معقدة وهذه خطواتها:

أولاً: القدرة على التعرف على صوت كل حرف.

ثانياً: القدرة على استرجاع صوت الحرف وتذكر شكله.

ثالثاً: التعرف على شكل الحرف في أول ومنتصف وآخر الكلمة.

رابعاً: القدرة على نطق الحرف بالحركات، الفتحة والكسرة والسكون والضممة.

خامساً: القدرة على دمج أكثر من حرف معاً.

سادساً: القراءة بطلاقة.

سابقاً: فهم ما يقرأ.

الأمر أعقد من أن نضع له عمراً افتراضياً هكذا بكل بساطة وخاصة أن كل الخطوات السابقة تبدأ من الطفل وليس من الأهل أو المدرسة، وهذا تطبيق آخر على «المراحل الحساسة» المعروفة في نهج المونتيسوري.

في وقتٍ ما، تفتح طاقة شغف وفضول في عقل الطفل. تفتح فجأة وتتحول إلى هوس وتنتهي فجأة مثلما بدأت فجأة. كما ذكرت سابقاً، لا يمكنكم أن تجربوا عقل الطفل على بدء «مرحلة حساسة» ما. لا يمكنكم أن تعلموه شيئاً عقله لم يأذن له بتعلمه بعد. دوركم الوحيد هو وضع الطفل في بيئة صديقة تشجع الفضول وتنمي الشغف وترعى اهتماماته.

لنتحدث عن كل مرحلة من «المراحل الحساسة» المتعلقة بالقراءة بالتفصيل:

أولاً: القدرة على التعرف على صوت كل حرف

هذه المرحلة تتبع مرحلة أخرى مهمة، مرحلة تعليم الطفل الأصوات في بداية الكلمات. تبدأ المرحلة الحساسة لتعلم أصوات بداية الكلمات في عمر عامين ونصف أو ثلاثة. تقدم الأم للطفل نشاط «سلة الأصوات»، وهي عبارة عن سلة بها مجسمات لأشياء تبدأ بنفس الصوت (أسد، أرنب، إبرة). بعد المجسمات، تقدم الأم صور لأشياء بنفس الصوت ثم تصنع كتيب لأشياء بنفس الصوت.

فجأة ستحتاج الطفل رغبة ملحة لتصنيف الأشياء وفقاً لصوت بدايتها. سيشير إلى كل شيء ويقول، مثلاً: «ب... بطة، بصلة، بطيخة...».

بعد هذه المرحلة يمكن للأم أن تقدم للطفل شكل الحرف المنفصل وتربط بينه وبين صوته. تقدم الأم في البداية ثلاثة حروف فقط. يفضل أن تكون حروفاً لا تشبه بعضها في الشكل أو الصوت.

تقدم الحروف في صورة درس الثلاث فقرات.

الفقرة الأولى: هذا حرف الألف.

الفقرة الثانية: أين الألف؟

الفقرة الثالثة: تشير الأم إلى الحرف وتساءل الطفل «ما هذا؟»

ثانيًا: القدرة على استرجاع صوت الحرف وتذكر شكله.

هذه مقدرة أخرى تختلف من طفل لآخر. لمساعدة الطفل، على الأم، قبل تقديم مجموعة أخرى من الحروف، مراجعة الحروف السابقة. لتقوية قدرة الطفل على الملاحظة والتذكر، يمكن أن تلعب لعبة اصطيد الحروف في الكتب، البحث عن حرف الألف في كل صفحة في أول الكلمات. الطفل يبحث عن الحرف والأم تنطق له الكلمة.

ثالثًا: التعرف على شكل الحرف في أول ومنتصف وآخر الكلمة

بعد الانتهاء من الحروف المنفصلة، تقدم الأم للطفل الحروف المتصلة بنفس الطريقة السابقة. مجموعات من ثلاثة حروف ودرس الثلاث فقرات.

رابعًا: القدرة على نطق الحرف بالحركات، الفتحة والكسرة والسكون والضممة

يتعلم الطفل قراءة الحروف جميعها بالفتحة أولاً، ثم الكسرة والسكون والضممة.

خامسًا: القدرة على دمج أكثر من حرف معًا

يفضل تقديم كلمات من ثلاثة حروف، جميعها مفتوحة، للتعرف على الفتحة مثلًا.
(فَتَحَ، دَخَلَ، صَعَدَ)

سادسًا: القراءة بطلاقة

لا تأتي هذه المرحلة إلا بالتدريب والممارسة والتكرار. لهذا لا يوجد لها عمر محدد. في البداية يقرأ الطفل وكأنه إنسان آلي ومع الوقت والتدريب يقرأ بطريقة أكثر طبيعية.

سابعًا: فهم ما يقرأ

في البداية، يكون تركيز الطفل كله منصبًا على تذكر شكل الحرف ونطقه والتعرف على التشكيل ودمج الحروف. لا يتبقى شيء من عقل الطفل ليفهم ما يقرأ. مع الوقت يقل المجهود المبذول في القراءة، ويبدأ الطفل في فهم الكلمات والجمل، والاستمتاع حقًا بالقراءة.

لأ

يتعلم الطفل التعبير عن الرفض من الشهر الأول! يشيح بوجهه ليرفض الطعام. يرمي الملعقة في غضب. يغلق فمه. يقاوم الربط في أي كرسي تحت أي مسمى. يرفض عصير بطعم ما. يتف طعام لا يعجبه. يقول لا! أول مرة «آدم» قال «نو» بالإنجليزية كان عمره ثلاث سنوات وثمانية أشهر. كنت في قمة سعادتني، وكنت أعطيه الكثير من الفرص لممارسة أول كلمة تمكنه من استخدام «الضم»، لم يعرف «آدم» قبلها كيف يزم شفثيه في الاستدارة المطلوبة لإصدار أي صوت مضموم.

باقتراب عامه الخامس، تعلم أن يصدر صوت الهمزة، أول كلمة قالها باستخدام الهمزة كانت «بؤبؤ»! بعدها تعلم أن يقول «لأ» وتمكن من نطق اسمه بالهمزة وليس بمجرد الفتح. احتفلت برفض «آدم» احتفالاً كبيراً. هاتفت كل من أعرف لأزف لهم بشرى الهمزة الجديدة. كم راقبت الأمهات في النادي يقلن لأطفالهن: «لا تقل لا» بقسوة وعنق! كم تمنيت أن أسمع هذه ال «لأ»!

ماذا تفعلون لو رفض طفلكم نشاط المونتيسوري؟

ها أنتم تجلسون أمام طفلكم في إحباط تام بعد أن فشلت كل محاولاتكم لجذب اهتمامه وإقناعه بالمشاركة في نشاط ما! تشعرون بالغضب والحقد تجاه هذا الطفل ناكر الجميل! هذا الطفل الذي لا يعرف كم الوقت والجهد الذي بذلتموه لتعدوا له هذا النشاط! تتأجج مشاعركم وأنتم تفكرون في المال الذي استثمرتموه في أدوات لا ولن يستخدمها هذا الطفل المقرف، الغبي، التافه! هذه اللحظة ليست غريبة عليّ وليست غريبة على الكثير من الآباء والأمهات! تنظرون إلى طفلكم الهائم على وجهه بلا هدف في غرف المنزل وتتساءلون عما اقترفتن من خطأ!

إليك بعض النصائح لتساعدكم على فهم الموقف ووجود حلول مناسبة لهذه المشكلة:

أولاً: انظروا للنشاط.

ثانياً: انظروا لطفلكم.

ثالثاً: انظروا لأنفسكم.

هل هذا نشاط يلائم الطفل؟ قد يقول الكتيب إن هذا النشاط ملائم للأطفال في عمر 12 - 15 شهراً، ومع ذلك قد لا يناسب هذا النشاط قدرات طفلكم! عليكم بمراجعة أهداف النشاط الأساسية والثانوية، ومراجعة القدرات التي يعمل هذا النشاط على تطويرها، ومراجعة القدرات التي يفترضها هذا النشاط ثم انظروا لطفلكم!

قد تكون عضلات طفلكم الدقيقة أضعف من أن تمسك بالكرة كما يجب، وهذا سبب انصراف الطفل عن النشاط! يشعر الطفل بالعجز والإحباط وبالتالي يرفض النشاط! قد تكون حواسه أنشط من المعتاد، فيزعجه أصوات اصطدام الملعقة بالحلة، ولهذا يرفض المشاركة في هذا النشاط! عليكم أن تعرفوا طفلكم حق المعرفة وتعرفوا نقاط قوته وضعفه، وتقدموا له الأنشطة التي تبرز نقاط قوته وتشعره بالسعادة تجاه نفسه! أما بالنسبة لنقاط وضعفه فيمكنكم العمل على تقويتها من خلال الأهداف الثانوية للنشاط.

تأكدوا كذلك أن النشاط الذي تدعون طفلكم للمشاركة فيه متوافق مع المرحلة الحساسة

التي يمر بها! لا تقدموا نشاطًا يساعد على التوازن أثناء الحركة، وطفلكم يمر بمرحلة حساسة محورها الجلوس واستخدام أصابع يديه، مثل استخدام المقص مثلًا! يمكنكم دائمًا إعادة تقديم النشاط في وقت آخر، ويمكنكم الانتظار حتى يأخذ طفلكم المبادرة ويستفسر عن كيفية استخدام أداة ما.

انظروا لطفلكم مرة أخرى وتأكدوا أنه ليس مريضًا! تأكدوا أنه لا يمر بحالة نفسية سيئة! تأكدوا أنه ليس غاضبًا أو حزينًا أو شاردًا قبل أن تطلبوا منه التركيز في نشاط ما!

هناك عاملا الطعام والراحة كذلك! هل يأكل الطفل طعامًا صحيًا يساعده على النمو والتركيز؟ أو هل هو متحم بالنشويات والسكريات والمواد الحافظة؟ هل ينام طفلكم في مواعيد منتظمة لفترة مناسبة؟ أو هو مرهق منهك يفقد الراحة!

انظروا لأنفسكم! هل أعددتهم النشاط جيدًا؟ هل تدربتهم على تقديمه؟ هل تأكدتم أن جميع أجزائه تعمل؟ هل ابتسمتم في وجه طفلكم؟ هل أنتم في حالة مزاجية تسمح لكم بتقديم نشاط ما للطفل؟ هل أنتم مستمتعون بالنشاط؟ هل أنتم متحمسون؟ تذكروا أن طفلكم يلتقط مشاعركم! إذا افتقرتم إلى الحماس، فسوف ينصرف طفلكم عن النشاط! إذا افتقرتم إلى الصبر والهدوء فسوف ينصرف طفلكم عن النشاط!

بصفة عامة، لا ترغبوا الطفل على نشاط ما، ولا تفرضوا عليه أدوات معينة، لكن في الوقت ذاته، لا تتركوا طفلكم يتجول في زهق بلا هدف في المنزل. اسألوا طفلكم عما يريد أن يفعل، واعرضوا عليه نشاطين أو ثلاثة ودعوه يختار. تأكدوا أن المنزل هادئ، وأنه لا توجد عناصر تشتت من أي نوع، مثل صوت التلفزيون أو أغاني أو صوت شخص يتحدث في التلفزيون. عندما يختار طفلكم نشاطًا ما، ذكروه بعلامة انتهاء النشاط، مثل الانتهاء من تقطيع جميع الفاكهة، أو الانتهاء من تلوين الصفحة كاملة، أو الانتهاء من تكوين البازل، أو الانتهاء من بناء البرج وهكذا!

في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الأطفال ضعفاء التركيز، أو قليلي الاستيعاب، أو كثيري الحركة، أو رافضي التعليم! هناك فئة صغيرة من الأطفال لديهم مشكلة حقيقية مرضية مع التركيز والجلوس والانتباه، ولكن أغلب الأطفال مشاكلهم الحقيقية في أسلوب

حياتهم، وفي طريقة التعليم، وفي توقعات البالغين منهم. لن أتحدث هنا عن علاج اضطراب نقص الانتباه وفرط النشاط (ADHD)، أريد أن أتحدث عن الطفل الذي يواجه صعوبات في التركيز والاستيعاب، لأسباب بيئية أو نفسية.

إذا كنتم ممن يعانون مع طفلهم _ ما بين ثلاث وست سنوات _ من مشاكل في الانتباه أو التركيز أو الاستيعاب أو التحصيل حاولوا اتباع هذه النصائح:

أولاً: تقليل المحفزات في حياة الطفل!

المحفزات هنا مقصود بها مسببات الضوضاء الذهنية وعوامل التشبث! تأتي شاشة التلفزيون في أول القائمة، تليها شاشات الأياد والموبايل واللابتوب، ثم الألعاب التي تصدر أصواتًا وتثير وتتحرك في الوقت ذاته، وأخيرًا الموسيقى! تخيلوا طفلًا ما يقضي أغلب يومه _ كل يوم _ وحواسه قد اعتادت التحفيز البصري والصوتي والحركي والعقلي بهذا الشكل، ثم تأتون أنتم وتطلبون منه أن يمسك كتابًا ويقرأ أو يجلس ليتعلم درسًا ما في فصل أو في المنزل، هل ترون أسباب ملله وعدم استيعابه؟ لم يعتد هذا الطفل الهدوء أو العمل في هدوء. اعتاد الضوضاء في خلفيته طوال اليوم بسبب التلفزيون المفتوح أو الراديو أو الموسيقى، ولم يعد يحتمل الصمت. اعتاد السرعة، هذا هو العامل الأساسي للعب أي لعبة! تذكروا أن:

- جميع أدوات المونتيسوري لا تثير ولا تضيء ولا تتحرك ولا تصدر صوتًا، إلا إذا كان هذا هو الدرس المراد للطفل تعلمه.
- الطفل في نهج المونتيسوري مسموح له أن يتفحص أداة ما أو يعمل نشاطًا ما وهو واقف أو جالس أو نائم على بطنه أو مستندًا إلى حائط، لكنه يعمل في هدوء وصمت.
- مقاطعة الطفل بصفة مستمرة بغرض توجيهه أو إصلاح خطئه يضعف الاستيعاب.
- لا تتدخل إلا إذا طلب الطفل مساعدتك ولا تساعده مباشرة، وجه فكره لحل المشكلة التي يواجهها.
- لا تسخروا من الطفل ولا تنعته بالغباء أو التخلف أو التأخر أو الفشل! سوف يصدقكم لأنكم أهله!

- أنشطة المونتيسوري تساعد الطفل على تصحيح الخطأ بنفسه مثل مكعب لن يدخل في فتحة مستديرة أو قطعة بازل لن تتركب إلا في مكانها!
- يجب على الطفل إعادة النشاط إلى مكانه قبل البدء في نشاط آخر!
- «فصل الخواص» من أهم مميزات أنشطة المونتيسوري!

لهذا نجد أن الطفل الذي يتعلم الأحرف مثلاً، يتعلم من كروت مصنوعة من نفس الخامة ونفس الحجم ونفس اللون والاختلاف الوحيد بين الكارت والآخر هو الحرف المكتوب عليه بورق الصنفرة الناعم.

ثانياً: علموا الطفل ما يريد أن يتعلمه!

الطفل لن يتعلم شيئاً لا يمثل له أهمية! لماذا يتعلم الطفل الأرقام إذا كان لا يحتاج إليها، وكيف يتذكر شكلها إذا كان لا يستخدمها؟ نفس الشيء ينطبق على الحروف والإملاء والكتابة وغيرها من الأشياء التي تريدون أن تعلموها لطفلكم!
أمثلة طبقتها مع «آدم»:

- يمكنكم صناعة نتيجة يومية للطفل، وعليها تتابعون معه تغير الأربعة فصول والاثني عشر شهر وأيام الأسبوع السبعة وعدد أيام كل شهر ودرجة حرارة اليوم.
- يمكنكم وضع كلمة سر من الحروف أو الأرقام على الموبايل، وإذا أراد الطفل استخدام الموبايل فعليه بإدخال كلمة السر.
- إذا أراد الاتصال بشخص ما فلا تعتمدوا على الأرقام المسجلة، يمكنكم إملاء طفلكم الرقم وعليه إدخاله حتى يستطيع محادثة هذا الشخص.
- يمكنكم إعطاء الطفل عشرة جنيهات معدناً ومساعدته في شراء زجاجة مياه أو علبة مناديل أو أي شيء يريده.

ثالثاً: بعض الأطفال الطبيعيون تماماً يتعلمون من خلال الحركة!

لهذا عليكم بابتكار ألعاب تساعدكم على الحركة والتعلم في الوقت ذاته! من أمثلة ألعاب المبتكرة مع «آدم»،

- يمكنكم شراء عدد من الأطباق الورقية المستخدمة في أعياد الميلاد_أبيض سادة_ وعلى كل طبق اكتبوا رقماً أو حرفاً، وعلى أي حائط في المنزل الصقوا الأطباق بـ Blue Tack وأحضروا كرة إسفنجية وابدءوا لعبة النشان مع طفلكم. يمكنكم النشان على رقم محدد أو قذف الكرة عشوائياً وذكر اسم الرقم الذي أصابته الكرة.
 - على أي أرضية يمكنك رسم عشر دوائر وفي كل دائرة رقم، وعلى الطفل رمي حجر وذكر اسم الرقم الذي أصابه، أو يمكنه القفز داخل الدوائر ومعرفة اسم الرقم، أو يمكنه وضع حبات فاصوليا أو فول في كل دائرة مطابقة للرقم المكتوب.
- رابعاً: لا تصروا على تعليم طفلكم كما تعلمتم أنتم ولا تصروا أن تعلموه كما يتعلم غيره!

لقد فهمت وطبقت الجزء الأول من هذه النصيحة جيداً، لكنني تعثرت في النصف الثاني. أحياناً كثيرة أنسى أن كل طفل مختلف، وأن دوري هو فهم اختلاف «آدم» وتفردته، ومساعدته على تطويع هذا الاختلاف ليكون عوناً له في مستقبله. أكتب هذا الكلام، في مقالاتي وكتابي، لأذكر نفسي وأذكركم، أن أطفالنا سوف يكبرون ليصبحوا ما نصفهم به، هناك أوقات وصفت «آدم» فيها بالخمول والكسل، وأوقات أخرى وصفته بالبطء. عانيت، وأعاني، من تشتت الانتباه وضعف الجلد.

نصيحة لي ولكم، لا تصفوا طفلكم بالغباء أو التخلف أو الضياع أو أي وصف سلبي، لأنكم بدلاً من أن تعلموا طفلكم، قد علمتم عليه!

التلفزيون

كنت مثلكن! كنت مرهقة وأفتقد مساحتي الشخصية. كنت أدير التلفزيون طوال فترة وجودي أنا و«آدم» في البيت. كنت ألعب معه وأحدثه وأرضعه ولكن التلفزيون في الخلفية. لم يكن ينتبه له. لم يكن مهتمًا به. لكنه كان دائمًا هناك. في أحد الشتويات العاصفة، أمطرت السماء وبرقت ورعدت، وسقط الطبق من سطح منزلنا على الأرض مهشمًا! كان «آدم» وقتها عمره اقترب من عامين، ولسبب لا أعرفه، قررت عدم إصلاح الطبق أو شراء غيره! كنت في هذا الوقت بدأت دراسة المونتيسوري بصورة متخصصة، وكان التلفزيون لا يتوافق مع ما أتعلم!

بدأت د. «ماريا مونتيسوري» العمل مع الأطفال في «بيت الطفل» Casa dei Bambini في عام 1906 واستمرت في تطوير نهجها حتى وفاتها في عام 1952، وخلال هذه السنوات بدأ البث التلفزيوني في إيطاليا لأول مرة عام 1934 وتوقف عام 1940 وعاد في عام 1954، بعد وفاتها بعامين! لم تكتب «ماريا مونتيسوري» في كتبها أي شيء عن التلفزيون وآثاره الإيجابية أو السلبية على الأطفال لأن تلك المسألة لم تكن مطروحة للنقاش أساسًا! عدد

الأشخاص الذين اقتنوا تليفزيونًا كان معدودًا والبث كان محدودًا والاختيارات كانت منعدمة!

بعد وفاتها، كتب الكثيرون ممن تتلمذوا على يديها عن التليفزيون وأثاره قياسًا على الأعمدة الأساسية لنهج المونتيسوري، ذكاء الطفل يبدأ وينمو في يديه! وهذا يعني أن الجلوس أمام التليفزيون يمنع الطفل من استخدام يديه في الفك والتركيب والبناء والهدم والشخبطة والتجربة والاستنتاج! بدون استخدام اليد لا يتعلم الطفل أي شيء.

الطفل يحتاج إلى تجارب متعددة لتنمية قدراته العقلية واللغوية والاجتماعية والحسية والحركية! الجلوس أمام التليفزيون يعد بمثابة مخدر للعقل واللسان والإحساس! يتعلم الطفل أول مهاراته الاجتماعية من خلال التفاعل مع الأهل وهذا هو أول شيء يفسده التليفزيون!

العقل السليم في الجسد السليم والجسد السليم يحتاج إلى الحركة! الجلوس أمام التليفزيون يجرم الطفل من الجري والقفز والتسلق والترحلق والحركة بجميع أشكالها! قد يؤدي أيضًا إلى شراهة في الأكل وتشوهات في العمود الفقري ومشاكل في النظر!

لغويًا، يحتاج الطفل إلى الحوار والتواصل مع الأهل، أما التليفزيون فيتting عنه طفل صامت متلقي! هناك دراسات تؤكد أن مشاهدة الأطفال للتليفزيون تسبب فقدان التركيز وعدم القدرة على إنهاء نشاط ما. سرعة الحركة وتعدد المؤثرات الصوتية والضوئية والحركية في التليفزيون تدخل الطفل في حالة من الافتتان والخدر الحسي فيفصل عن الواقع.

يعد الإدمان من أضرار التليفزيون أيضًا! يصبح التليفزيون هو الوجبة المفضلة للطفل! ينفر من البازل والكتاب والألوان والصلصال والمكعبات وأي نشاط يتطلب صبرًا وتركيزًا وهدوءًا! يفضل الجلوس أمام الشاشة عن الرياضة أو زيارة متحف أو الحوار مع الأهل! يتطور إدمان التليفزيون إلى إدمان عام للشاشات أيًا كانت!

هناك اعتقاد خاطئ أن التليفزيون مضر لكن برامج الأطفال المسجلة مفيدة! كل ما سبق ينطبق على برامج الأطفال والكارتون الشهيرة! أما التليفزيون العام، من مسلسلات وأفلام وإعلانات وبرامج حوارية ونشرات إخبارية، يعد جريمة في حق الطفولة! يتعلم

الطفل أن العنف عادي والدم طبيعي والصوت العالي نقاش والمرأة أداة جنسية والوقاحة مضحكة والعنصرية كوميديا وغيرها من الدروس المزعجة!

خلال الـ15 سنة الماضية حذرت الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال من تعرض الأطفال للتلفزيون ولبرامج الأطفال، لا يجب أن يتعرض الطفل أقل من عام ونصف أو عامين للتلفزيون على الإطلاق لأن هذا يؤخر نموه العقلي واللغوي والاجتماعي! ينصح الباحثون بساعة واحدة على الأكثر من التلفزيون للأطفال أكبر من سنتين. هناك دراسات عديدة تنصح الأهل بإغلاق التلفزيون تمامًا في حالة عدم المشاهدة لأن الصوت والصورة المتحركة في الخلفية تفقد الطفل قدرته على التركيز والعمل في صمت.

عند بدأ طفلكم _ أكبر من سنتين _ مشاهدة التلفزيون، يمكنكم اتباع النصائح التالية:

- اختيار ما يشاهده الطفل بعناية، والتأكد من خلوه من العنف أو الجنس أو العنصرية!
- تجنب الخيال والأساطير، والتركيز على البرامج العلمية أو الوثائقية والواقعية. تذكروا أن الطفل لا يستطيع التفريق بين الواقع والخيال قبل ستة أعوام!
- عدم ترك الطفل وحده أمام الشاشة! اجلسوا بجانبه وتحدثوا معه عما يحدث! شجعوه على المناقشة والنقد ولا تعودوه على دور المستهلك السلبي!
- إذا شاهدتم برنامجًا يقدم تجارب علمية للأطفال مثلاً، انقلوا هذه التجربة للواقع وقوموا بعملها مع الطفل!
- إذا شاهدتم برنامجًا عن حيوان معين أو بلد ما أو نوع من الموسيقى، عززوا التجربة بكتاب وصور ورحلات لتحقيق الاستفادة الحقيقية!
- برامج تعليم الأطفال الحروف والأرقام والكلمات كثيرة لكن لا تعتمد عليها كلياً!
- لا تهربوا من مسؤولية تربية طفلكم وتتركوه أمام الشاشة!
- لا تتعاملوا مع التلفزيون كأداة للثواب والعقاب!
- يجب أن تكونوا قدوة، لا يجب أن يراكم الطفل جالسين أمام التلفزيون أغلب الأوقات!
- إذا كان طفلكم يذهب إلى حضانة أو مدرسة، فتأكدوا من المحتوى الذي يعرض عليه ومن عدد ساعات مشاهدته للتلفزيون هناك!

إذا قررتم تقليص حجم الشاشات فسوف يواجهكم سؤالان:

السؤال الأول هو: ماذا يفعل الأهل لإلهاء الطفل ليتمكنوا من قضاء بعض الواجبات المنزلية؟

السؤال الثاني هو: كيف يقضي الطفل وقته بعيداً عن التلفزيون؟

إلهاء الطفل حتى تجد الأم وقتاً لدخول الحمام أو الاستحمام أو إعداد الطعام أو ترتيب المنزل أو القراءة أو قضاء أي وقت بمفردها من معضلات الأمومة في يومنا هذا، وكلما كان الطفل صغيراً كان دور الأم في تسليته كبيراً! في الستة أشهر الأولى من عمر الطفل، إذا أرادت الأم أي وقت لنفسها أو لبيتها أو لزوجها، فعليها الاستعانة بمساعدة خارجية مثل زوجها أو جارة أو قريبة أو امرأة تساعد في أعمال المنزل. في معظم الأوقات تستغل الأم فرصة نوم الطفل أثناء النهار أو نومه ليلاً للانتهاء من أعمالها المتراكمة ما يؤثر على قدرتها على الرضاعة وقدرتها على التركيز وقدرتها على التعامل مع احتياجات طفلها. الستة أشهر الأولى من أصعب ما يكون ولكنها مرحلة وسوف تمر! لا توجد طريقة لإلهاء الطفل في هذه المرحلة المبكرة من عمره!

ما بين ستة أشهر وستة أشهر وستة أشهر تنمو قدرات الطفل بسرعة مبهرة ومبهجة! يستطيع الطفل الجلوس بجانبها أثناء إعداد الطعام أو ترتيب المنزل ومع الوقت يظهر الطفل رغبة في المساعدة. الخطأ الشائع هنا، وسبب صراعات الأم والطفل في هذه المرحلة، أن الأم ترفض وجود الطفل في مطبخها ووسط أدوات النظافة وتتعامل معه كعائق أو عبء!

على الأم استغلال هذه الفترة لتنمية قدرات الطفل وتوسيع مداركه! عليها أن تشرح له كل ما يدور حوله وكأنها تقدم برنامج طهو في التلفزيون، أو كأنها تبث حلقة عن كيفية ترتيب البيت في أقصر وقت. في نهج المونتيسوري يلعب الطفل بكل ما هو حقيقي وواقعي ويشارك في كل شؤون المنزل حتى يشعر بأهميته كفرد وبدوره كإنسان!

ما بين سنة وثلاث سنوات يمكن للطفل بالفعل المساعدة في العديد من الأشياء حول المنزل، وضع الغسيل في الغسالة، ضبط المؤشر، ضغط زر التشغيل، المساعدة في النشر والتطبيق ووضع الملابس النظيفة في الأدراج. يمكن للطفل الوقوف على درجة أمام الحوض وغسل

الأطباق والخضراوات والفاكهة. يمكنه تلميع كرسي أو طاولة صغيرة. يمكنه المساعدة بطرق عديدة ولكن الأمر يتطلب من الأم الصبر وطول البال!

بالنسبة للعب منفصلاً عن الأم، فهذه الخطوة الكبيرة تبدأ في التحقق بعد ثلاث سنوات. يستمتع الطفل بالعزف أو التلوين أو تركيب المكعبات أو البازل أو تصفح الكتب. يمكنه اللعب مع أطفال آخرين من نفس عمره أو أكبر، ويمكنه التعبير عن نفسه وعن رغباته بصورة أوضح. يمكن للطفل الآن أن يتفهم لماذا لا تلعب معه أمه أو أنها تحتاج أن تخرج بمفردها أو أن هناك أولويات أهم من اللعب!

بعيداً عن التلفزيون، المشاركة في الأعمال المنزلية هي أفضل لعب للطفل داخل المنزل، يليها الألعاب ذات النهايات المفتوحة مثل المكعبات وألعاب البناء والصلصال، أو الألعاب التي تسمح للطفل بتصحيح أخطائه بنفسه مثل البازل بمختلف أشكالها. هناك أيضاً ألعاب مبتكرة تشجع الطفل على التعلم وعلى الخيال مثل أحجار الحكايات!

خلاصة القول، سوف يأتي يوم ويكبر طفلكم ولن يحتاج إليكم للعب أو للتسوية أو للرعاية! سوف يفضل طفلكم الذي أصبح شاباً قضاء وقته مع أصدقائه أو وحده خلف باب غرفته المغلق! سوف يأتي يوم وتستعيدون فيه القدرة على تخطيط يومكم والفرصة للاستمتاع بكل ساعاته! لم يأت هذا اليوم بعد ولكنه آتٍ! اليوم هو فرصتكم الوحيدة للعب وللتواصل مع طفلكم! تلك المرحلة المرهقة على جميع المستويات هي المرحلة التي ستشكل شخصية طفلك ونظرته لكم ولنفسه وللعالم من حوله. لا تهدروا اللحظات الثمينة بدون حوار، بدون لعب، بدون ضحكات متبادلة!

احتياجات خاصة

بعد تخرجها في كلية الطب عام 1896 تخصصت د. «ماريا مونتييسوري» في جراحات النساء والأطفال ثم بدأت تدرس الطب النفسي. خلال زياراتها المتكررة لـ «مستشفى المجانين» لاحظت أن الأطفال يمتجزون في نفس عنابر البالغين وأن سبب وجود هؤلاء الأطفال في المصححة هو عدم قدرتهم على العمل أو الدراسة أو مجرد البقاء في المنزل، لأن لديهم إعاقات جسدية أو عقلية تمنعهم من خدمة أنفسهم ومن الإنتاج. بدأت د. «مونتييسوري» في مراقبة هؤلاء الأطفال ولاحظت انشغالهم بأبسط المتغيرات في البيئة من حولهم، وإن كانت قطعة خبز قد سقطت من أحدهم. تساءلت إن كان هؤلاء الأطفال ضحايا الإهمال والعزلة وبدأت تدرس طرق تحفيزهم وتنشيط قدراتهم العقلية والحسية.

تأثرت د. «ماريا مونتييسوري» بثلاثة أطباء، «سيجوين» الذي عالج الأطفال ذوي الإعاقات العقلية والجسدية، و«إيتار» الذي تخصص في علاج الصم والبكم، و«بريرا» الذي تخصص في علاج الأطفال الذين فقدوا القدرة على الإبصار والسمع. وكان «بريرا» من الرواد في مجال تنمية القدرات والمهارات من خلال الحواس، وخاصة حاسة اللمس. تعلمت د. «مونتييسوري»

الآتي عن الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة بغض النظر عن طبيعة إعاقتهم:

- 1 - أغلب الأطفال لديهم طاقة غير مستغلة وقدرات مهملة يمكن تأهيلهم من خلالها.
- 2 - يجب التركيز على تنمية المهارات الحياتية حتى يستطيع هذا الطفل خدمة نفسه وقضاء احتياجاته الشخصية دون الاعتماد على أحد.
- 3 - الاحترام والحب عوامل أساسية في استجابة الطفل وتحسن حالته.

باستخدام الحواس والتدريب استطاع العديد من الأطفال الذين باشرتهم د. «ماريا مونتيسوري» تعلم الطهو والنظافة الشخصية وترتيب وتنظيف المنزل، كما تعلم آخرون حرفاً يدوية بسيطة، واستطاع بعضهم الحصول على فرص للتدريب والعمل. من خلال أسلوبها العلمي استطاعت اختراق الأنماط التقليدية للتعامل مع هؤلاء الأطفال، وبالمثابرة والاستكشاف والتجربة أثبتت د. «مونتيسوري» أن ذوي الإعاقات يمكنهم تعلم القراءة والكتابة بصرف النظر عن العمر.

تستخدم أنشطة المونتيسوري اليوم في مساعدة العديد من الأطفال على التركيز وعلى استخدام عضلات اليد والأصابع وعلى التواصل الاجتماعي. كما تستخدم أدوات المونتيسوري في مساعدة الأطفال الذين يواجهون صعوبات في التعلم بصفة عامة، أو صعوبات في التأقلم مع طرق التعليم التقليدية. إذا كان لديكم طفل «مختلف» يمكنك مساعدته من خلال نهج المونتيسوري عن طريق مراقبة الفترات الحساسة ومراعاة اهتماماته وشغفه، لأن هذا هو مدخله للنمو والتعليم، وعلى هذا الأساس قدموا له الأنشطة المناسبة ودعوه يحاول حتى يطور من نفسه.

للأسف تحولت الطفولة في وقتنا هذا إلى سباق بين الأطفال، ومنافسة بين الأهل، وتجارة بين الحضانات والمدارس، ضغوط نفسية وضعتها المؤسسات التعليمية على الأهل ونقلها الأهل إلى أبنائهم. ليس من الصواب في شيء أن تجري المدارس مقابلة شخصية للطفل وبعدها تقرر قبوله أو عدمه. ليس من حق المدرسة مطالبة الأهل بنقل الطفل إلى مدرسة أخرى لأنه «متأخر» عن زملائه. لقد ضاعت الطفولة الطبيعية وسط التوقعات وطلبات التقديم في المدارس والوعود بتحويل الطفل إلى قائد ذكي متفوق مهذب متدين خارق!

تنمية الحواس في نهج المونتيسوري

تقول د. «ماريا مونتيسوري» إن الطفل يدرك العالم من حوله من خلال حواسه، وأن البيئة الصديقة للطفل هي تلك البيئة التي تشجع محاولاته للاستكشاف بدلاً من المنع والرفض. تقول أيضًا إن المعلومات التي يجمعها الطفل من خلال حواسه في سنواته الثلاث الأولى تكون بيانات غير مرتبة أو مصنفة ودور التعليم في الطفولة المبكرة، من ثلاث إلى ست سنوات، هو مساعدة الطفل على استخدام حواسه من خلال أنشطة محددة لتنمية قدراته وتوسيع مداركه بأسلوب ممنهج.

قسمت ماريا مونتيسوري الحواس إلى 9 حواس:

- البصر
- السمع
- الشم
- التذوق
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه اللمس
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه درجة الحرارة
- الإدراك من خلال اختلاف أو تشابه الضغط والوزن
- الإدراك العضلي
- الإدراك من خلال التجسم (حاسة الكفيف)

ينفرد نهج المونتيسوري بأدوات تم تصميمها خصوصًا لتنقيح الحواس ولتنمية الإدراك من خلالها. أهم ما يميز أدوات تنمية الحواس:

- الأدوات جميعها مصممة خصوصًا لتلائم الأيدي والأصابع الصغيرة.
- جميع الأدوات مصنوعة من خامات طبيعية وشكلها منسق ومبهج.
- جميع الأدوات تقدم أمثلة وتدرجات ملموسة سهلة الهضم لمفاهيم مجردة أو نظرية مثل الهندسة والجبر والرياضيات بصفة عامة.
- كل نشاط يعتمد على «فصل الخواص». يتعلم الطفل تمييز الأطوال والأقطار (قطر

- الدائرة) والوزن والعرض ودرجات الصوت والحرارة وتدرج الملمس الناعم وغيرها من الخواص من خلال التركيز على كل خاصية منفردة.
- كل الأدوات تتدرج في مستوى الصعوبة من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً حتى تساعد الطفل على الاستيعاب.
 - أغلب الأنشطة تسمح للطفل بإدراك الخطأ وإصلاحه والتعلم منه بدون تدخل شخص بالغ.
 - جميع الخواص متعارف عليها عالمياً مثل الألوان ووحدات قياس الوزن والطول والحجم وهكذا.
 - لكل أداة هدف تعليمي محدد.
- هل أدوات المونتيسوري وأنشطته لذوي الاحتياجات الخاصة فقط؟

الإجابة: لا!

بعد أن استخدمت د. «مونتيسوري» أنشطتها وفلسفتها مع الأطفال في مستشفى الأمراض العقلية، التي تحدثت عنها بالتفصيل سابقاً، كانت تريد أن تختبر تأثيرها على الأطفال ذوي النمو النمطي. جاءت الفرصة عندما خاطبها رجال أعمال الحي، وبدأت عملها في «بيت الطفل» مع أطفال الشوارع.

النتيجة كانت مبهرة في درجة تقدمهم واستيعابهم، واستعدادهم للتعلم، وإقبالهم على الأدوات. بعد هذه التجربة، وخلال رحلتها الحياتية الطويلة الثرية، دربت د. «مونتيسوري» المئات من الموجهات وافتتحت الكثير من المدارس في أوروبا وأمريكا وآسيا لتطبيق فلسفتها.

ماذا تفعلون إذا كان طفلكم من ذوي الاحتياجات الخاصة؟

تمتلى كتب تربية الأطفال وكتب إعداد الأمهات ومواقع الأمومة والطفولة بجداول ترسم خطوط نمو الطفل جسدياً وحركياً وعقلياً واجتماعياً ولغوياً، وفي أغلب الجداول يضع الطبيب المؤلف مساحة للاختلافات الفردية غير المقلقة، مثلاً، في خطوة كبيرة مثل السير، نجد الكتاب يقول إن أغلب الأطفال يمكنهم المشي في عمر 12 شهراً، وهناك المبكرون في عمر 10 أشهر، وهناك الحذرون في عمر 15 شهراً.

بعض الحالات الخاصة تكتشف منذ الميلاد، سواء كانت حالات جينية مثل متلازمة داون، أو درجات من السكتة الدماغية، أو تلفاً في أعصاب معينة، أو غيرها من الحالات التي تكتشف مبكراً. هناك حالات أخرى لا تكتشف قبل عام أو عام ونصف من عمر الطفل مثل أعراض طيف التوحد، وهناك حالات أخرى تكتشف في عمر دخول الحضانه، وحالات أخرى تكتشف عند بدء التعليم الإلزامي في عمر ست أو سبع سنوات. في جميع هذه الحالات يصدم الأهل وتبدأ المعاناة في صمت!

في البداية يمر الجميع بحالة من الإنكار! لا يمكن أن يكون طفلي «أنا» معاقاً أو متأخراً أو مختلفاً! ماذا تفعل الأم والأب بأحلامها وأمنياتها وتخيلاتهما عن طفلها؟ تواجه الأم والأب أحلامهما المجهضة بالإنكار - قد يستمر هذا الإنكار فترة وجيزة وقد يستمر إلى الأبد! نجد مثلاً الأب الذي يصير على إدخال طفله المدرسة في مثل عمر أقرانه بغض النظر عن مدى استيعابه أو تفاعله.

يتبع الإنكار حالة من القلق والتوتر بسبب الغضب! لا يجد هذا الغضب منفثاً أو متنفساً، ولا تجد الأم أو الأب شخصاً يلومونه ويقتصوا منه! هذا الغضب قد يتحول إلى اتهامات تتبادلها الأم والأب، أو مجرد نوبات من الانفعال والبكاء غير المسبب.

الخوف من المستقبل ومن الأقارب ومن الأعراب! الخوف من الكلمات والنظرات والخوف من المجتمع وأحكامه، يغرق الأهل في دوامات الخوف!

الذنب شعور لا يمكن الهروب منه بالغضب! الذنب وتأنيب الذات مشاعر يعرفها كل أم وأب رزقوا بطفل غير نمطي في ملامحه أو نموه أو تعليمه!

الاكتئاب! ليس هذا مرادفاً للحزن! هذا النوع من الاكتئاب يتسلل إلى النفس ويمتص قوتها وطاقتها وإيمانها، إنه القاتل الصامت الذي لا يلاحظ وجوده أحداً!

«أجلس على شاطئ مهجور على الحدود بين الحياة والموت لأراقب تقلبات قلبي. أرى صخور القاع وقد انحسر عنها الحب وتعرت مشاعر الاستياء والغضب والألم والرفض. أراني متحجرة متخشبة وقد جفت ينابيع الأمومة بداخلي. أنظر لطفلي فأتمنى أن يختفي، أو أن أختفي أنا! أنظر له وللعداوة التي بينه وبين الكلمات، يسمعها فيصعب عليه تذكرها،

يفهمها فيصعب عليه نطقها، ينطقها فيصعب عليه تفكيك أصواتها، يتعثر في قراءتها وكتابتها، يعكس مواضع حروفها، يرى أحرفاً غير موجودة، يتعثر، يتعثر، أهجم عليه صارخة غاضبة رافضة، تنحسر الأمومة، تتعري الصخور... يقول أحبك وكأنه يشعر بتراجع حبي... أنظر له وكأنني تعثرت على الحدود بين الواقع والخيال.

أراني أغرق كصخرة ضخمة وقعت من سماء الأمومة في محيط الحزن والذنب والندم. لا أقاوم. لا أصارع. أستسلم للغرق والاختناق على دموع تحرق حلقي. ينظر إليّ وقد تخطى ألم هجمتي الأخيرة عليه، يبتسم، فأنظر له في يأس. أعد نفسي ألا أنتهك طفولته مرة أخرى. أعتذر له. أعلم أنني لن أفي بوعدتي. أجلس على الشاطئ في انتظار المد والمدد. أراقب المياه المنحسرة تعود رويداً رويداً. تعود أمومتي وتفيض فتغطي صخوري التي يرتطم بها صغيري. أحتضنه وأشم رأسه ويديه. أقبل قدميه وأنظر بداخل زرقة عينيه، فأجدني وأجد حبه لي وتعلقه بي. يناديني محيط الحزن والذنب والندم كل ليلة حتى وإن لم أهجم على «آدم».

الطفل المعجزة

من منا لم يطلق العنان لخياله وأخذ يتخيل مستقبل رضيعه؟ من منا لم يبحث في طفله عن موهبة ينميها أو هواية يتبناها أو تفوقاً يتباهى به؟ حتى الحضانات أصبحت تنتقي أسماءها لتداعب أحلام الأهل في التميز والتفوق والعبقرية والريادة والقيادة، والمدارس تنتقي أسماءها لتلعب على نفس الأوتار الحساسة، الكل في سباق محموم والضحية طفل! طفلي وطفلكم وجميع أطفال هذا الجيل الجديد! الهوس المرضي بالبطولات والجوائز والشهادات والابتكارات هو ما اجتمع عليه أمهات وآباء ما زالوا متعلقين بأحلامهم غير المحققة من طفولة لم ينتبه لها أحد!

قد يكون «آدم» محظوظاً لأنني لم أجربه خلف البطولات والجوائز، ولم أضعه تحت ضغط التفوق والتميز، بل إنني كثيراً ما كنت ألح عليه ليترك نشاطاً ما، وكان يرفض ويشكوني للمعلمات والمدرسين. كانت كل أحلامي أن يكون سعيداً، طبيعياً وسعيداً! كنت أتمنى أن يسير بطريقة طبيعية وأن يجري بطريقة طبيعية وأن يتحدث بطريقة طبيعية. على الرغم من بساطة متطلباتي، فإنها غير مشروعة!

نعم! ليس من حقي مقارنة «آدم» بالأطفال «الطبيعيين»! الحق، يوم توقفت عن مقارناتي الصامتة، أدركت تميزه واختلافه وجمال روحه وعقله! عندما أقبل يديه وأقول له إنه «هدية ربنا»، أعني كل حرف! لا يمنع إدراكي هذا من حدوث بعض الانتكاسات، لكنني أحاول وأجاهد للتغلب على مشاكلي أنا وإعاقاتي أنا! تتهافت الأمهات على المونتيسوري لأنهن يظنن أن نهج المونتيسوري يخلق الطفل مبدعاً ويضمن المستقبل الباهر. تتصفح أمهات المونتيسوري المواقع التي تشير إلى مشاهير العصر الذين ذهبوا إلى حضانات ومدارس المونتيسوري، وأصبح لهم شأن عظيم في بداية شبابهم. الحقيقة للأسف ليست كذلك!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» أن نهجها لا يصنع عبقرياً ولكنه يساعد الطفل على استغلال قدراته - أيًا كانت - على أكمل وجه.

بيئة المونتيسوري تشجع الطفل على الاستكشاف، ومن خلال استخدام يديه في تجاربه الصغيرة، تتسع مداركه عن مثيله المربوط في كرسي أو المحبوس في السرير ذي القضبان الخشبية. يدرك الطفل حقائق كثيرة في سنواته الثلاث الأولى من خلال حواسه، ويخزن عقله كل المعلومات التي امتصها حتى يحين وقت دراسة مواد بعينها، مثل اللغة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ وعلم النبات وعلم الحيوان كمثال. نجد الطفل صاحب التجارب الحياتية الغنية أكثر تفاعلاً مع الكتب والدروس.

أما بالنسبة لذوي الاحتياجات الخاصة من الأطفال، فيساعدهم نهج المونتيسوري على متابعة دروسهم وتنمية مهاراتهم باستخدام أكبر قدر من الحواس، وقد تطرقت للحديث في هذا الموضوع كثيراً على صفحات هذا الكتاب.

تقول د. «ماريا مونتيسوري» أن نهجها يساعد الطفل على تحقيق ذاته، وقد لا يكون مقدراً له أن يصبح عالماً أو مبتكراً أو فناناً، وقد يكون قدره أن يكون مجرد رجل عادي، رجل عامل! نهج المونتيسوري لن يصنع من طفلكم معجزة، ولكنه بالتأكيد سوف يفسح المجال للمعجزة لتتحقق.

ما بين التعليم النظامي والتدريبات الرياضية والأنشطة الفنية ودورات تنمية المهارات ضاعت الطفولة وأصبحت الأمومة مزيجاً من المنافسة و«النفسة» وسلسلة من المقارنات وأعباء نفسية ومادية.

أصعب ما في تجربة الأمومة هو حب طفلنا الذي رزقنا به وليس الطفل الذي تمنيناه أو تخيلناه! المحظوظون فقط يجدون في الطفل معلماً وفي الطفولة دراسة، فدعوا طفلكم يعلمكم كل ما تحتاجون أن تعرفوه عن أنفسكم وعن متطلبات الأمومة والأبوة وعن السعادة الحقيقية!

أنا محظوظة!

مع انتهاء فصل الشتاء، يأتي المد والمدد. تكتسي شجرتي العارية بأوراق خضراء جديدة وترهر براعم الحب من جديد في قلبي. أشعر بأشعة الشمس تتسلل إلى روحي وتضمّد ما فعله الشتاء بي. أعود لنفس اللحظة أثناء حملي، أبتسم نفس الابتسامة التي كانت تجد طريقها إلى وجهي وأنا أتحسس جنيني في رحمي، وأبدأ في غناء أغنيتي و«آدم»:

«وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإلي فيه.

وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإلي فيه

بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر
بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر
دا حلم أنا عايشة بيه»

يأخذ «آدم» يدي ويقبلها. يسألني عن مدى حبي له، فأقول له إنني أحبته قبل أن أراه.

«بحبك قد الحاجات إلي نعرفها والحاجات إلي ما نعرفهاش، قد الحاجات إلي شفناها وإلي ما شفناهاش، قد الحاجات إلي أكلناها وإلي ما أكلناهاش».

الأمومة تتحداني

في طقس سنوي، كلما اقترب عيد ميلاد «آدم»، أجدني أجتر الذكريات وأتأمل رحلتنا معًا. لقد سرنا معًا طريقًا، يبدو طويلًا، مليئًا باللحظات الجميلة وحافلًا بالانتصارات الصغيرة، ولكنني الآن سأحكي عن أصعب عشر خطوات خطوتهم معي في هذه الرحلة.

(1) الحميمية

قد يبدو عنوان هذه الخطوة صادمًا، من يجد التقارب والارتباط والحميمية عبئًا؟ كل منا له طاقة معينة للحميمية ولكن مهمل ارتفعت أو انخفضت طاقتك، فستجدين درجة الحميمية التي تطلبها الأمومة الحقة تفوق قدرتك على الاحتمال. لن تستطيعي الانفراد بنفسك لحظة _ على الأقل أول ثلاثة أعوام _ لأن هناك كائنًا صغيرًا، اخترت أنتِ بكامل إرادتك أن تأتي به إلى هذا العالم، نظره وقلبه وجميع حواسه معلقة بك. هذا الكائن الصغير يحتاج أن يلمسك وأن يراك وأن يشم رائحتك وأن يسمع صوتك وأن يشعر بدقات قلبك وأن يرى ابتسامتك أثناء يقظته وأثناء نومه بلا أي استثناءات.

(2) مواجهة مع الطفولة

وجود طفل في حياتك وتحت رعايتك يحتم عليك قطع الكثير من الرحلات المكوكية لطفولتك أنت شخصياً. كل يوم، لمرات عديدة، ستزورين مواقف وحوارات ولحظات بعينها دفنتها في صندوقك الأسود وتركتها لتتفحم. سوف تضطرين إلى استرجاعها وتحليلها والتصالح معها حتى لا تكررهما مع طفلك. سوف تتذكرين كل ما كسرك حتى لا تكسريه، وكل ما جرحك حتى لا تجرحيه، وكل ما شوهك حتى لا تشويهه، وعندما تخطئين في حقه، سوف يكون الألم مضاعفاً لأنك تعرفين مقدار الدمار الذي ستسبب فيهِ.

(3) اتخاذ القرارات

أنا أكره اتخاذ القرارات! لا أتخيل كم القرارات التي اتخذتها خلال أعوام «آدم» السابقة وتنوعها وعواقبها. قرارات لحظية وأخرى يومية، قرارات مصيرية، قرارات زمنية، قرارات في جميع نواحي الحياة. قرارات قد تبدو صحيحة، قرارات تأتي معها عواقب، قرارات تزيد من شعوري بالغرابة وعدم الانتماء للمكان والزمان.

(4) رؤية العالم من منظور طفل

كان عليّ أن أتخلى عن المنطق لأن عالم الطفل بلا منطق! الطفل ينبهر بكل شيء، يحركه الفضول والرغبة في الاستكشاف والخيال. يخاف من أشياء لا أدركها ولا يهاب كل ما أجده مرعباً. يحتاج للحركة والخروج بصورة دائمة ويومية ولا يعرف أي شيء عن الذوق والأصول والعيب ومشاعر الآخرين. كيف يمكن لشخص أن يتحمل هذا المزيج من الأنانية والفضول في آن واحد دون أن يفقد أعصابه، ويخطئ؟

(5) لا مفر

كم كانت مريحة حياتي السابقة، وظيفه لا تعجبني أتركها! علاقة تؤلمني أتركها! صداقة ترهقني أتركها! البدء من جديد كان أسهل قرار، حتى أصبحت أمّاً! مهما كان الألم أو التعب أو الإرهاق أو الغضب أو الثورة، لا مفر! لا يمكن أن أدخل حجرتي وأغلق الباب

خلفي، ولا يمكن أن أفتح الباب وأترك طفلي ورائي، ولا يمكن أن أدخل الحمام وأحبس نفسي! لا يمكن أن أترك ورائي طفلاً باكياً متشبثاً بي وأدخل صومعتي المهجورة. لا يمكن أن أتوقع في فراشي وأرفض القيام بواجباتي مهما أردت ذلك أو احتجته، الحياة يجب أن تستمر رغمًا عن أنفي!

(6) التعليم

جميع قراراتي المتعلقة بالتعليم مبنية على تجربتي الشخصية في التعليم في هذا البلد. في مكان آخر يحترم الطفل واحتياجاته وقدراته ويستثمر في المعلم ولا يستهين بإعداده وتعليمه وتأهيله، كنت سأسلك طريقاً مختلفاً، هكذا أقول لنفسي. لكن بيني وبين نفسي، بداخلي، في أعماقي، أنا أعرف أن كل بلد له عيوبه وكل نظام تعليمي له عيوبه. أظن أن قرار التعليم المنزلي كان سيكون قراراً في أي بلد.

(7) التغيير

إذا قابلت أمّاً أو أباً وقالوا لك بكل ثقة إن وجود طفل في حياتهم لم يغيرهم ولم يغير حياتهم، فاعلمي أن طفلهم يعاني معهم وبسببهم. البعض يسميها تنازلات والبعض الآخر يسميها تضحيات، ولكنني أفضل أن أسميها جميعاً تغييرات. لتستجيب لاحتياجات الطفل الأساسية، عليك أن تهجري موقعك الأثير المريح في الحياة وتبدئي رحلة الصيد والجمع! تصطادين الفرص لإثراء طفولته وإسعاده وتجمعين المعلومات لتساعدك على اتخاذ قرارات التعليم والرياضة والهوايات والأغذية والفسح والرحلات والصدقات.

تهجرين عاداتك السيئة وتغيرين قدر استطاعتك لتكوني قدوة لهذا الكائن الذي يراقبك في صمت ويتعلم منك ومن خلالك. كلما زاد إدراكك للمسئولية زادت التغييرات.

(8) الصبر

كل شيء في هذه الرحلة يحتاج للصبر ويعلم الصبر ويدعوك للاستمتاع بالطريق بدلاً من انتظار النتائج.

(9) الدراسة

تربية الطفل تحتاج دراسة، رعاية الطفل تحتاج دراسة، تعليم الطفل يحتاج دراسة، كل القرارات تحتاج دراسة.

(10) الهموم

بالإضافة للهموم المعتادة، ستحملين هم هذا الطفل وكل ما يتعلق به، ولن تضعيه أبداً!
ستحملين الهم إلى ما لا نهاية!

الثواب والمكافأة

تعددت المدارس والمناهج في تناول طرق الثواب والعقاب في تربية الأطفال، ولكن أغلبهم اعتمد على تربية الطفل من وجهة نظر الكبار البالغين العاملين على مصلحته. اختلفت د. «ماريا مونتيسوري» عن المدارس الأخرى لأنها لم تفترض نظرية ما، ثم حاولت تطبيقها لتثبت صحتها. بالعكس، تركت كل النظريات واعتمدت على مراقبة الأطفال، ثم تركتهم يعلمونها كيف تتفاعل معهم في مواقف الخطأ والصواب. اكتشفت د. «مونتيسوري» أن الطفل لا يستجيب للعقاب والثواب، وأن ما نراه اليوم هو عملية تشويه لفطرة الإنسان السليمة من خلال برمجته وتحويل مساره الطبيعي!

«برافووووو» مع تصفيق شديد وفرحة وحماسة!

رد الفعل الجميل هذا نراه في مواقف كثيرة بين الأهل والطفل منذ شهوره الأولى، ويستمر ويتطور ليصبح التصفيق قبلا، ولتصبح القبلا قطعة حلوى، ولتصبح الحلوى نجمة أو «ستيكر» في الكراس، ولتصبح النجمة درجة عالية في الامتحانات، وليصبح التفوق يقابله لعبة كبيرة، ولتصبح اللعبة الكبيرة مكافأة مادية تكبر مع العمر والزمن والهدف!

هكذا تحول الطفل إلى كائن كسول لا ينتج ولا يعمل ولا ينجح إلا إذا وجد حافزاً خارجياً! هكذا قتلت القدرة على تحفيز الذات وانضم ترس جديد صدئ إلى عجلة الإنتاج العطلة! ما الحل؟

د. «ماريا مونتيسوري» قدمت الحل عندما راقبت الأطفال الصغار يعملون في صمت وإصرار! لقد وجدت أن الطفل_الذي سيصير شاباً بالغاً منتجاً فيما بعد_يعمل في انهماك تام إذا كان مهتماً، وإذا كان النشاط هذا يثير فضوله، وقمة سعادة الطفل هو أن يتعلم! نعم! جائزة الطفل هي التعلم والإدراك والتطور! يوم يحاول طفل تسلق شجرة وينجح، أو يوم يحاول تركيب لعبة وينجح، أو يوم يحاول ارتداء حذائه وينجح، هذه هي المكافأة! الطفل بفطرته لا ينتظر حافزاً خارجياً! الطفل يريد أن يحاول ويترك يحاول حتى ينجح، وكل المطلوب من الأم المحبة والأب الفخور هو الابتسام والاعتراف بنجاح الطفل!

في الفترة السابقة ظهرت خرائط لتقييم سلوك الطفل_هل أنت طفل جيد أم لا؟_بناء على نجوم أو دوائر توضع في خانات الأعمال المطلوبة من الطفل. رتب السرير؟ أعاد اللعب إلى أماكنها؟ أكل الطعام في موعده؟ ذاك دروسه؟ إلى آخر الأعمال اليومية المطلوبة من الطفل «الشاطر». تلك الخرائط لا تفرق كثيراً عن تقديم الحلوى أو المكافأة المادية، النتيجة طفل حسن السير والسلوك خوفاً من العقاب، أو طفل مدمن لتقدير من حوله! سيكبر هذا الطفل ويبتز كل من حوله مادياً أو عاطفياً ليحصل على «قطعة الحلوى».

الطفل السوي في تقدير د. «مونتيسوري» هو طفل يختار الصواب لأنه يسعده! طفل يشعر بالفخر والسعادة حينما يستطيع ترتيب غرفته، أو حينما يتعلم كلمة جديدة، أو حينما يتغذى جسده على طعام جيد! الطفل لن يختار الصواب إلا إذا فهمه وأدركه بحواسه حتى يصبح جزءاً من شخصيته!

إذا أردت الطفل أن فيحب القراءة يجب أن يراك وأنت تقرأ وتستمتع بالقراءة!

إذا أردت الطفل أن فيحب النظافة يجب أن يراك وأنت تنظف بيتك وأدواتك!

إذا أردت الطفل أن يعيد لعبه إلى مكانها فيجب أن يراك وأنت تغسل طبقك أو كوبك الفارغ وتعيده إلى مكانه!

لا يجب أن يراك تترك «عبء النظافة» على زوجتك أو على من تساعد زوجتك في أعمال المنزل. يجب أن يراك طفلك تستمتع بالنظافة والنظام والترتيب والجمال ومساعدة الآخرين حتى يمتص سلوكك ويختار الصواب!

في بداية عملها مع الصغار في أول بيت للأطفال أسسته، قدمت د. «ماريا مونتيسوري» للأطفال بعض الحلوى والشوكولاتة كمكافأة لهم على إتقان نشاط ما. فوجئت أن الأطفال أخذوا الحلوى ووضعوها في جيوبهم وعندما نظرت إلى وجوههم لم تجد سعادة أو حماساً أو أي رد فعل تجاه المكافأة! في البداية ظنت د. «مونتيسوري» أن السبب هو رغبة الأطفال في تناول الحلوى في المنزل، فقالت لهم «يمكنكم أخذ هذه الحلوى إلى المنزل وهذه قطع أخرى يمكنكم أن تأكلوها الآن». نظر لها الأطفال نفس النظرة الفارغة ووضعوا الحلوى في جيوبهم!

عندها أدركت د. «مونتيسوري» أن فرحة الأطفال الحقيقية ولمعة أعينهم كان سببها إتقان النشاط أو تعلم مهارة جديدة. المكافأة الحقيقية كانت من الداخل!

تسمي د. «ماريا مونتيسوري» هذه المرحلة بالـ *normalization* وهي مرحلة يتسم فيها الطفل بالقدرة على العمل في هدوء بدون إزعاج من حوله، ويجد متعة في العمل وإتقانه، ويتعمق فيما يعمل بدافع حقيقي للعلم والمعرفة. تزداد قدرته على التركيز ويجد متعة في الطاعة، ويتميز بالاستقلال والقدرة على تحديد واجباته والقيام بها، بدون رقيب أو تذكير. تمثل هذه المرحلة الانضباط الذاتي والشغف الحقيقي.

مثلما تجاهل الأطفال المكافأة تجاهل الأطفال العقاب! في نفس المنطقة الفقيرة تلك، لم يفرق مع الأطفال المخربين الضرب أو الحبس أو الإهانة! كأن العقاب تسبب في طبقات عازلة من الجلد السميك وقد غطى الطفل وتسبب في تبلده! واجه الأطفال العقاب بنفس اللامبالاة التي واجهوا بها الحلوى!

العقاب

أولاً اكتشفت د. «ماريا مونتيسوري» أن التهديد والوعيد يأتي بنتيجة عكسية، بدلاً من تنبيه الطفل للصواب، يفرز عقله مادة «الكورتيزول» التي تشل قدرته على الاستيعاب أو التقدير، وينتهي الموقف بطفل صارخ وأهل فاقدين للسيطرة. كما يرفض نهج المونتيسوري الصراخ الدائم بوجه الطفل وبالتبعية الضرب غير مطروح للنقاش من الأساس. يشجع نهج المونتيسوري على التعامل مع الطفل باحترام، كما لو كان شخصاً بالغاً قادراً على رد الإهانة، وفي أحد كتبها ضربت مثل الخادمة التي يعاملها الأهل بثقة واحترام أكثر من الطفل، لا أحد يضرب الخادمة أو يسبها أو يكلمها بلهجة تحمل العنف أو الإساءة، ولكن الطفل ينصب عليه غضب واحباطات الأهل بصفة عامة.

ثانياً اكتشفت د. «مونتيسوري» أن العنف اللفظي أو الجسدي تجاه الطفل لا يتوافق مع حجم الخطأ في أغلب الأحيان! خطأ الطفل فرصة للأهل للتنفيس عن غضبهم وضغوط الحياة عليهم، غضب الزوجة من زوجها ينصب على الطفل، إحباط الزوج في عمله ينصب على الطفل، ومشاكل ومخاوف الكبار تجد مخرجاً لها من خلال العنف تجاه من لا يستطيع الرد أو الدفاع عن نفسه، الطفل!

ثالثاً أدركت د. «مونتيسوري» أن الطفل لا يتعلم الصواب والخطأ بالعقاب! الدرس الوحيد الذي يتعلمه الطفل من العقاب هو الكذب وتوخي الحذر في المرة القادمة! الرسالة التي تصله هي أنه غير محبوب وغير مرغوب فيه، وبالطبع لا يدرك نظرية البالغين بأن العقاب هذا لمصلحته وأنهم يضربونه من أجل مصلحته وأن هذه هي التربية!

رابعاً طالبت د. «مونتيسوري» الأهل بتغيير هدفهم من تربية الطفل! لا تجعلوا هدفكم طفلاً مطيعاً، ولا تعملوا على إنتاج كائن يخاف الردع والعقاب وإلا اختار الخطأ. ربوا طفلاً يختار الصواب بغض النظر عن الثواب أو العقاب. أنشئوا شخصاً يستطيع تقييم عواقب أفعاله وتحمل المسؤولية.

حسناً، ماذا تفعلون حينما يخطئ طفلكم؟

احضنوه أولاً!

هذا الأسلوب يسمى gluing أو الالتصاق! قبل أن تخاطبوا الطفل أو توجهوه، احضنوه وقولوا له إنكم تحبونه، ثم وجهوه إلى الصواب واشر حوا له بلغة بسيطة مراراً وتكراراً نتيجة فعله وسبب مخاوفكم.

لا تسخروا من بكائه ولا تقللوا من شأن مشاعره ولا تهينوه ولا تقولوا له كلاماً جارحاً! الطفل لن يصغي لكم ولن يتفهم ما تقولون إذا كان تحت تأثير «الكورتيزول» الذي يفرز في الدم عند الخوف أو التوتر أو الحساس الزائد، الشقاوة!

نصحت د. «ماريا مونتيسوري» كل أم وأب بالعمل على حل مشاكلهم الخاصة وإحباطاتهم الحياتية بعيداً عن الطفل، وحذرت من نتيجة العنف اللفظي والجسدي تجاه الصغار! نتيجة العنف اللفظي والجسدي هي طفل ماكر يداري أخطاءه وشخص بالغ لا يفعل الصواب إلا تحت وطأة الخوف من العقاب. يوماً ما سيكبر الطفل ويتعلم العنف اللفظي ويرده على أهله بصورة أو بأخرى!

احترموا الطفل حتى يحترمكم وإذا أخطأتم في حقه فيجب أن تعتذروا وتؤكدوا أن الطفل قد ساءحكم! هكذا يتعلم الطفل الاختيارات الصحيحة والاعتذار عند الخطأ وينفض عنه آفات البالغين، الكبر والعناد والمكابرة!

حل اللغز

منذ بداية الزمن، ومن قديم الأزل، وشكوى الأهل واحدة من الأطفال. الكل يشكون من تكرار الخطأ ومن العند وعدم سماع الكلام! ماذا يقول هذا عن الطفل؟ بكل بساطة، معنى هذا أن هذه «خلقة ربنا»! ماذا يقول هذا عن الأهل؟ بكل بساطة أيضاً، معنى شكواهم أنهم لا يفهمون الطفل وتوقعاتهم غير مناسبة لعمر الطفل.

حل اللغز: فهم مراحل الطاعة وتطورها!

اكتشفت د. «ماريا مونتيسوري» أن قدرة الطفل على الطاعة تختلف حسب عمره لأن هذه القدرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنمو الجزء الأمامي من المخ prefrontal cortex!

المستوى الأول: الطفل لا يستطيع اختيار الطاعة! لا يستطيع السيطرة على انفعالاته أو رغباته أو نزعاته! المستوى الأول من الطاعة ينطبق على الطفل في أول ثلاث سنوات من عمره.

من 0 - 2 لا يستطيع الطفل الاختيار بين الطاعة وعدم الطاعة! الطفل لا يستطيع

أن يفعل ما يؤمر به إلا إذا كان شيئاً يريد أن يفعله ويستهو به. لذلك لا تعاقبوا الطفل تحت السنين على عدم الطاعة. في العام الثالث يبدأ الطفل في التدريب على السيطرة على رغباته أو انفعالاته! هذا معناه أنه قد ينجح مرة وقد يفشل مرات وسوف بالتأكيد ينسى توجيهاتكم في أغلب الأحيان.

المستوى الثاني من الطاعة هو الطاعة العمياء! الطفل بين ثلاث وست سنوات يفهم تماماً ما يطلبه البالغون منه ويطيعهم، ولكن هذا ليس اختيار الصواب وليس تهذيباً وانضباطاً ذاتياً! الطفل يطيع لأنه يجب من طلب منه الفعل أو لأنه يخشاه أو لأن الطلب يستهو به. ولأن الجزء الأمامي من المخ لم يكتمل نموه، سيظل الطفل ينسى ويخطئ ويخضع لرغباته.

المستوى الثالث من الطاعة هو الطاعة عن قناعة! هذا هو هدف نهج المونتيسوري ويجب أن يكون هدف الأهل! الطفل فوق الست سنوات يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، وسبب الطاعة هنا هو حب الصواب، يتفهم الطفل ما يطلب منه ويجد بهجة وسعادة في اختيار الصواب! هل معنى هذا أن الطفل لن يخطئ؟ لا! سوف يخطئ لأنه يجرب! سوف يخطئ لأنه يكون رأيه! سوف يخطئ لأنه يتحدى القواعد والحدود التي وضعها الأهل!

قدرة الطفل على ضبط الانفعالات والتحكم في النزعات تزداد مع الوقت، يستمر الجزء الأمامي من المخ في النمو. هل تعرفون متى يكتمل نمو هذا الجزء الذي يخضعنا لرغباتنا ونزعاتنا؟ في المتوسط، بعد الخامسة والعشرين!

إذا كان طفلكم أقل من ست سنوات، يمكن تجربة هذا النشاط لمساعدته على الانضباط. اسم هذا النشاط Walk the Line أو السير على الخط. باستخدام شريط لاصق أو طباشير، يتم رسم شكل هندسي مختلف كل مرة، دائرة أو مربع أو مستطيل أو مثلث أو شكل بيضوي. مطلوب من الأطفال السير في صف واحد على الخط.

السير على الخط مفيد جداً للأطفال في هذه المرحلة لأنه يساعدهم على تنمية وتطوير العديد من الصفات الشخصية والمهارات، منها المهارات الحركية الكبرى والمهارات الحركية الدقيقة والتوازن والتحكم في الحركة والتركيز وإكمال نشاط ما، إلى نهايته والشعور بالجسد وحدوده وقدراته والاستقلال والثقة بالنفس.

أثناء سير الأطفال على الخط، يمكنكم تنويع الإرشادات، قف! استمر! اجر! اقفز! سر كاجمل! رفر كاطير! اقفز كالضفدع! قلد خطوة الفيل! افرد ذراعيك كالطيارة! يمين! شمال! للأمام! للخلف! هكذا يتعلم الطفل كلمات جديدة والاتجاهات والانتباه وخواص الحيوانات!

يمكنكم أيضاً استخدام الموسيقى ليتعلم الطفل الإيقاع، خطوة سريعة مع الإيقاع السريع وخطوة بطيئة مع الإيقاع البطيء! يمكن استخدام أغاني تشجع على حركات معينة مثل أغنية الأطفال الشهيرة If you're happy and you know it حيث يسير الطفل على الخط وهو يستمع إلى الأغنية ويصفق بيديه أو يلمس أنفه أو يدب في الأرض أو أي حركة أخرى!

يمكن السير على الخط وحمل شيء ما! اختيار الشيء يعتمد على عمر الطفل وقدراته! يمكن للأصغر سنًا الإمساك بعلم أو كرة صغيرة أو مكعب، والأكبر سنًا يمكنهم حمل كوب من الماء! يمكن للأطفال قذف كرة إلى أعلى وإمسакها قبل أن تقع أثناء سيرهم. يمكن وضع بعض العرائيل على الخط وعلى الأطفال تجنبها أثناء سيرهم!

يمكن تقديم هذا النشاط في الخارج أو في الداخل بحسب الجو! يمكن لأي عدد من الأطفال المشاركة فيه، ويمكن أن يلعب الكبار مع الأطفال، ويمكن أن يتبادل الكبار والأطفال الأدوار حيث يسير الكبار على الخط وينفذوا أوامر الأطفال، وهكذا يستخدم الطفل الكلمات الجديدة التي تعلمها وتتوطد العلاقة بين الأطفال والكبار في جو من المرح والضحك.

تقول د. «ماريا مونتيسوري» في كتابها The Secret of Childhood:

«تعد الحركة، أو النشاط البدني، عامل أساسي في النمو الفكري وتكوين ذكاء الطفل، والذي يعتمد على الانطباعات التي تكونت لديه من تجاربه مع بيئته».

إذا طبقنا هذه المقولة على نشاط السير على الخط، ندرك كيف ينمو الطفل جسدياً وعقلياً وحركياً ولغوياً واجتماعياً من خلال الحركة! يتعلم الطفل الإنصات والانتباه والتركيز والتحكم في نفسه وحركته - هذا التدريب يساعد الطفل على تطوير قدرته على الطاعة من خلال التحكم في نفسه وجسده!

التهديد

لفترة طويلة من عمر «آدم»، لا أتذكر تحديداً هل كانت حتى السادسة أو السابعة، كانت العقوبة القصوى في بيتنا هي «زعل ماما». قبل أن أعلن أنني سوف «أزعل منه»، كانت هناك مراحل عديدة من التوجيه. أكثر ما كان يحزنه هو غياب الابتسامة عن وجهي وعبوسي في وجهه. أن أقول «كده؟» بنبرة لائمة كان يكفي! أن أقول «كده ماما؟» بنبرة حزينة كان يكفي! بدأ «آدم» يلعب رياضات مختلفة منذ كان في الثالثة والنصف من عمره، كل بضعة أعوام، نضيف رياضة جديدة - كان المدربون يفاجئون أن كلمة «هزعل منك» كافية لإيقاف السلوك السيئ. أعتبر هذه النتيجة من انتصاراتي الصغيرة أيضاً في رحلتي مع «آدم».

«التربية بالترابط» ساعدتني كثيراً في تربية وتهذيب صغيري، ولحسن الحظ، لم أشك من الكثير من المشاكل التي تواجه الأمهات والآباء الآخرين. تبدأ التربية بالترابط منذ الميلاد بالاستجابة الفورية لكل احتياجات الطفل. كل احتياجات الطفل بلا استثناء مشروعة! الاحتياج للرضاعة الطبيعية، الحضان، الهزهزة، لأن يُحمل، للنوم في الحضان، للملاعبة، ولأن يحدثه ويضحكه ويتفاعل معه.

ساعدتني أيضًا «التربية بالترابط» في فهم ما يدور في عقل «آدم» والتنبؤ بتصرفاته واحتياجاته. في أوقات كثيرة كنت ألحق الخطأ قبل وقوعه. خلال السنوات الست الأولى، كنت رصيدًا لا بأس به من الحب والاحترام في قلب «آدم»، رصيدًا أعتمد عليه حتى اليوم حينما تنحسر مشاعري وتتعرى صخوري. لم أحتج في يوم من الأيام لتهديد «آدم» بأي شيء! لم أحتج لعقابه أو للتفكير في عقابه! المرة الوحيدة التي قررت أن أعاقبه فيها، كان في السابعة من عمره، بالغت مبالغة بشعة! بالغت لدرجة أنني أغلقت باب حجرتي عليّ وتركته يبكي أمام الباب طوال الليل. بالغت لدرجة أنني قلت لوالده أن يأخذه! بالغت لدرجة أنني لفظته خارج قلبي وحضني! لا يهم ماذا فعل ليستحق أن يشعر بهذه المشاعر المؤلمة! المهم أنني لم أحسن التصرف! نسيت كل ما تعلمت وتركت مشاعر عدم الأمان والخوف من الفقد تتمكن مني! إلى اليوم، يلومني «آدم» على تصرفي وقتها! إلى اليوم، أعتذر بصدق!

أحكي لكم إخفاقاتي لأذكركم أننا كلنا بشر وكلنا خطأون!

ماذا عنكم؟ بما تهددون طفلكم؟

أرسلت لي أم تشكو أن طفلتها - 4 سنوات - تقرض أظافرها وهددتها بالحرمان من الحلويات ومن اللعب بلا نتيجة. ثم هددتها بالذهاب إلى الطبيب وبالحقن بلا نتيجة. ثم هددتها أن أسنانها ستقع وأيضًا بلا نتيجة. هددتها بوضع شطة على أصابعها وبلا نتيجة. لا أعرف أيًا من هذه التهديدات تم تنفيذها ولكن كل معلوماتي أن المشكلة ما زالت قائمة. في السطور القادمة سأحدث عن الجوانب المختلفة لتهديد الطفل، اختيار التهديد، شكل التهديد، تنفيذ التهديد، والنتيجة.

أولاً الحرمان

تهديد الطفل بالحرمان من شيء يحبه، أو شيء يريده، أمر متعارف عليه في بيوت كثيرة. أكثر تهديد متداول هو الحرمان من الحلوى ويليهِ الحرمان من الخروج.

عند تهديد الطفل بالحرمان يفرز «الكورتيزول» في دمه، فيتوقف عقله عن الاستيعاب أو العمل، وتبدأ سلسلة من ردود الفعل العشوائية غير المنضبطة مثل البكاء أو الصراخ أو

خبط رأسه في الحائط أو أي شكل آخر من إيذاء الذات أو محاولات إيذاء مصدر التهديد. مع الوقت، ومع تكرار تنفيذ التهديد، يقرر الطفل بدون وعي منه ألا يرتبط بشيء، ألا يجب شيئاً، أن يتخلى عن أحلامه المرتبطة بالفن أو الرياضة أو الصداقة لأنها تستغل ضده. ببساطة، الذراع الذي يستخدم لإيلامه، يقطعه.

تتفاقم المشكلة إذا أدرك الطفل أن التهديد أجوف، كل مرة يتم التهديد ولا يتم تنفيذه!
ثانياً الطبيب والحقن

لقد شاهدت أشكالاً عديدة من هذا التهديد باختلاف مستويات تعليم وثقافة الأهل. تهدد الأم «الشيك» طفلها بالذهاب إلى «الكلينك» _العيادة_ مثلما تهدد باقي الأمهات طفلها بالحقنة والطبيب والدواء!

يترسخ في ذهن الطفل أن الطبيب والحقنة والدواء عقاب. ماذا يحدث إذا مرض الطفل؟ ماذا يحدث عند زيارته للطبيب؟ ماذا يحدث عند تناول الدواء؟ من المسؤول عن زرع الخوف بدلاً من احتوائه؟

من ناحية أخرى لم تحل المشكلة الأصلية لنفس أسباب فشل التهديد بالحرمان، «الكورتيزول» والتهديد الأجوف!

ثالثاً الإيذاء البدني

التهديد بالضرب أو الشطة أو أي شكل من أشكال الإيذاء البدني لا يفرق كثيرًا عن التهديدات السابقة ذكرهما. إذا تم تنفيذ التهديد آلت طفلك وفقد ثقته بك وأدرك أنك لا تحبه وأنتك «مؤذي»، وقد يحاول إيذاء الآخرين بنفس الطريقة ويصبح الطفل نفسه عنيفاً ومؤذياً!

إذا لم يتم تنفيذ التهديد وقع الأهل مرة أخرى في خطأ التهديد الأجوف!

الحل؟ لا للتهديد!

علاج سبب المشكلة! في حالة الأم صاحبة الرسالة، عادة قرض الأظافر سببها التوتر

والقلق والاكئاب وتزداد مع الفراغ والملل. على هذه الأم البحث عن أسباب توتر طفلتها وعلاج المشكلة الحقيقية التي قد تكون الاحتياج للاهتمام أو الاحتياج للفسح والانطلاق، أو الاحتياج للحب والضحك والمرح، أو الغيرة، أو مشكلة أعمق مثل توتر العلاقة بين الأم والأب!

تكرار التوجيه!

الصبر!

عقوبة العزل

أخطأ الطفل، فوجهتموه، ثم كرر الخطأ، فنهزتموه، ثم كرر الخطأ، فطبقتم نظام الـ Time Out وعاقبتموه بالجلوس على كرسي في ركن من أركان المنزل، أو بدخول حجرة والبقاء بها لمدة محددة ترونها مناسبة! كأم أو أب ترون أنكم هكذا تعاقبون طفلكم عقاباً خفيفاً حتى لا يكرر الخطأ! من وجهة نظركم، أنتم أفضل من غيركم لأنكم لم تعاقبوه بالضرب أو الصفع أو الزغد أو الشك أو اللسع أو أي وسيلة أخرى من الوسائل الشائعة!

هناك مقالات عديدة، وكتب كثيرة، تؤيد هذا العقاب. لكن هناك مقالات أكثر وكتباً أكثر ترفض عزل الطفل كعقاب له. هناك مدرسة في التربية اسمها التربية الإيجابية Positive Discipline أو Positive Parenting، ومدرسة أخرى اسمها التربية بالترابط، Attachment Parenting وهذه المدارس اكتشفت عيوب العزل. عندما درست نهج المونتيسوري وجدت أن د. «ماريا مونتيسوري» اكتشفت نفس العيوب منذ أكثر من مئة عام!

هل لاحظتم وجه الشبه بين عزل الطفل كعقاب وبين الحبس الانفرادي كوسيلة تعذيب؟ هل تساءلتم يوماً عن أسباب تصنيف الحبس الانفرادي كأسوأ تعذيب نفسي لمسجون؟ هل

تعرفون أن المسجون في الحبس الانفرادي من حقه بعض الكتب والجرائد؟ هل تسمحون لطفلكم ببعض اللعب في عزلته؟

المسجون في الحبس الانفرادي يعاني من الآتي: القلق والخوف والترقب والتوتر والاكتئاب واليأس واللامبالاة والانكسار والكسل والخمول والغضب والتحفز والعدوانية ونوبات الهياج وضعف التركيز وتشتت الانتباه وضعف الذاكرة وتشوش الأفكار. إذا طالت فترة حبسه فقد يصاب بالفصام والاكتئاب المزمن وأمراض نفسية أخرى.

هذا نفس ما يحدث لطفلكم في عزلته، وتزداد الآثار الجانبية كلما تكرر عزله وكلما طالت مدة عزلته! هل لاحظتم أن طفلكم أصبح عنيداً بشكل يشل؟ يعتمد الخطأ ويتعمد مضايقتكم ولا يبالي بكم وبعقابكم؟ هل لاحظتم أن طفلكم لم يعد طفلاً؟

أما د. «ماريا مونتيسوري»، فوجهة نظرها كانت أن الهدف من العقاب هو عدم تكرار الخطأ، ولكن العقاب لن يؤدي إلى هذه النتيجة! يتعلم الإنسان ألا يخطئ عندما يدرك عواقب خطئه. العزل لم يعلم الطفل أي شيء ولكنه عرضه لإساءة نفسية بالغة! طفلكم اليوم يريد الانتقام منكم بأفعاله تلك!

هذه بعض الأمثلة التي وردت إليّ من تصرفات الأطفال التي أدت إلى عقابهم بالعزل، ومعها الأسلوب الصحيح للتعامل معها:

* الطفل كسر اللعبة أو الريموت أو الكوب، في هذا الموقف الطفل لم يقصد كسر الشيء ولكنه كان يحاول استكشافه. بدلاً من عقابه، دوركم أن تعلموه كيف يستكشفه بأسلوب صحيح، وكيف يتعامل معه حتى لا ينكسر. الدرس هنا هو الاستئذان وطلب المساعدة والتعلم. يرى الطفل حزنكم على ما انكسر ويرى المكسور في الزبالة ويتعلم الفقد والخسارة.

* الطفل يشتم، الطفل لن يفهم كلمة «عيب» مهما كررتوها أمامه! عندما يشتم الطفل، قولوا له «فمك الآن اتسخ! هيا بنا نغسله!» في أي وقت وأي مكان توقفوا وخذوا الطفل واغسلوا فمه وكأنه متسخ حقاً! سوف يتوقف الطفل عن توسيخ فمه بالشتيمة مع الوقت.

* الطفل يضرب، الطفل يضرب بحسن نية عندما لا يعرف كيف يتفاعل مع شخص يريد اللعب معه، ودوركم هنا هو تعليمه كيف يلعب ويتفاعل بدون ضرب. قد يضرب لأنه غاضب ودوركم هنا أن تعلموه استخدام الكلمات للتعبير عن مشاعره، ودوركم كذلك أن توضحوا له أثر ضربته من ألم أو أذى لحق بالشخص المضروب.

* الطفل يمسك بشيء لا يجب أن يمسك به، دوركم هو إبعاد الشيء عن متناول الطفل، ودوركم كذلك هو فهم أسباب فضول الطفل ومنحه فرصة أو نشاطاً لاكتشاف هذا الشغف! قد يكون الكهرباء أو الماء أو الطين أو أي شيء آخر! القاعدة: لا تعاقبوا طفلكم على شغفه وفضوله!

سأحكي لكم قصة معبرة:

أراد المدرب أن يلعب مع الأطفال لعبة الكراسي الموسيقية، وبدأ يصفق، وعندما توقف، جلس الأطفال إلا طفلة واحدة لم تلحق كرسي لها! فقال لها أن تجلس على كرسي بعيد عن الملعب. هكذا يلعب الجميع اللعبة!

انهارت الطفلة! انهارت تمامًا! بكت وصرخت وجرت على أمها، وقالت إن الكابتن يعاقبها، وأنها لا تريد أن تجلس على الكرسي خارج الملعب! لقد شعرت بإحراج الأم التي اعتادت عقاب البنت بالعزل، ها هي طفلتها الجميلة ذات الأربعة أعوام تعاني آثار العزل تمامًا مثلها يعاني السجين آثار تعذيبه بالسجن الانفرادي!

ما الفرق، إذًا، بين ركن العقاب (Time Out) وركن السلام (Peace Corner)؟

ركن السلام هو ركن هادئ في المنزل، أو الحضانة، بعيد عن الأطفال والمؤثرات الصوتية والبصرية. قد يكون خيمة أو ركنًا فعليًا في حجرة ما. عندما يثور الطفل يذهب ليجلس في هذا الركن ليفكر ويهدأ ثم يعود للاندماج في الحياة اليومية والأنشطة المعتادة.

بدون تدقيق قد يبدو ركن السلام مجرد اسم مختلف للـ naughty corner المعروف في أسلوب العزل. إليكم الفروق:

أولاً: ركن السلام حقاً يبعث على السلام لأن الطفل هو من يكونه. يختار الطفل مكانه في المنزل ويعرفه باسم «ركن السلام» ويختار مكوناته بنفسه.

ثانياً: مكونات ركن السلام محبة لقلب الطفل وتساعد على الاسترخاء والهدوء، وهو من يختارها بنفسه، قد تكون قصة مصورة يجربها أو موسيقا مفضلة أو مجموعة لوحات أو مكعبات خشبية أو فانوساً أو مسبحة. يصمم الطفل ديكور هذا الركن ليكون الركن المفضل له في المنزل.

ثالثاً: أنتم قدوة. ليعرف الطفل فيم يستخدم هذا الركن يجب أن يراكم تستخدمونه. مثلاً، عندما تكون الأم مرهقة أو ثائرة أو متوترة أو قلقة، تقول للطفل إنها تحتاج للذهاب إلى ركن السلام لتفكر وتهدأ. إذا أراد الطفل الذهاب معها، لا بأس! تعلمه أن يذهب معها وأن يجلس في حضنها في صمت وسكينة.

رابعاً: لا توجد فترة محددة يجب على الطفل أن يمضيها في ركن السلام! هو يختار أن يجلس به وقتما يحتاج للسلام وأن يخرج منه عندما يشعر أنه استعاد هدوءه.

خامساً: إذا طلب منكم الطفل أن تنضموا له في ركن السلام، انضموا له لأن في هذه الحالة هو يحتاج الحزن و«الونس» ليصل إلى السلام الذي يبتغيه.

سادساً: لا تأمروا طفلكم بالذهاب إلى ركن السلام، اسألوه بهدوء: «هل تحتاج أن تذهب إلى ركن السلام؟» واعرضوا عليه الذهاب معه: «هل تحتاجني أن أذهب معك أم تريد أن تكون وحدك؟» واسألوه إذا كان يريد أن يأخذ شيئاً معه: «هل تريد أن تأخذ معك قصتك المفضلة؟»

سابعاً: عندما يخرج الطفل من ركن السلام عانقوه واطمئنوا عليه: «هل أنت بخير؟» «هل تريد التحدث بشأن ما حدث؟»

هذه هي الفروق الأساسية بين ركن السلام وركن العقاب! نتيجة ركن السلام هي طفل هادئ قادر على السيطرة على انفعالاته ومسؤول عن قراراته ويشعر بالحب. نتيجة ركن العقاب هي طفل غاضب مدمر منتقم يشعر بالكرهية!

الجريمة والعقاب

لا تعاقب طفلك، أبداً!

ماذا تفعلون عندما يخطئ طفلكم؟ ماذا تفعلون عندما يكرر الخطأ؟ ماذا تفعلون عندما يخطئ عن عمد وهو يتحداكم تحدياً سافراً؟

* لا لأي عقاب بدني سواء كان ضرب أو مد أو قرص أو ضرب على الأيدي!

* لا لأي عقاب لفظي سواء كان شتيمة أو تهزيق أو توبيخ أو إهانة مباشرة!

* لا لأي عقاب نفسي مثل الحرمان أو التهديد أو التذنيب أو العزل!

هيا بنا نحلل معاً أسباب أخطاء الطفل:

* قد يخطئ الطفل لأنه لا يعلم الصواب.

* قد يخطئ الطفل لأنه يعلم الصواب لكنه لا يعرف كيف يفعله أو ينفذه.

* قد يخطئ الطفل لأنه يعلم الصواب ويعرف كيف ينفذه ولكنه نسي وسهي عليه.

* قد يخطئ الطفل لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لجذب الانتباه له، حتى لو كان

الانتباه سلبي (العقاب).

- * قد يخطئ الطفل عقابًا لكم على إساءة ما في حقه.
- * قد يخطئ الطفل لأن البيئة المحيطة به لا تساعد على اختيار الصواب.
- * قد يخطئ الطفل لأنه مريض.

ما هو دوركم في كل حالة من الحالات السابقة؟

إذا كان طفلكم لا يعرف الصواب، دوركم هو التوجيه والتعليم! إذا كان لا يعرف كيف ينفذ الصواب، دوركم هو تدريبه مرارًا وتكرارًا على خطوات الفعل المطلوب، حتى تتأكدوا أنه قادر على فعل المطلوب منه! إذا كان خطأ طفلكم بسبب النسيان _جل من لا يسهو_ دوركم هو التذكرة حتى يصبح الصواب جزءًا من شخصيته وتفكيره ويقوم به تلقائيًا!

إذا كان طفلكم مفتدكم لدرجة أنه مستعد لعقابكم في مقابل لحظات معدودة تعيرهه خلالها انتباهكم، فعليكم مراجعة أنفسكم! هل أنتم دائمًا على التليفون أو على النت أو أمام شاشة من الشاشات؟ متى كانت آخر مرة لعبتم مع طفلكم أو شاركتموه أنشطته أو خرجتم معه وسمعتموه يضحك من قلبه؟

إذا كان طفلكم يتحداكم، فتأكدوا أنه يعاقبكم! هذا هو تعبيره لكم عن استيائه من معاملتكم له وتصرفاتكم! أيضًا قد يكون سلوك طفلك السيئ مجرد اقتداء بكم! العند يولد العند والعنف يولد العنف والغضب يولد الغضب والقهر لا يؤدي إلا للتمرد!

انظروا إلى مجتمع طفلكم وأصدقائه وزملائه وحضائنه أو مدرسته! هل يسخرون منه عندما يفعل الصواب؟ هل كل ما حوله يدعوه إلى العنف أو التدمير أو قلة الأدب؟ عليكم بإصلاح بيئة طفلكم قبل أن تطالبوه بأي شيء!

أما بالنسبة للطفل المريض، قد يكون طفلكم متوعكًا قليلًا بسبب اضطراب نومه، أو قد يكون متألمًا بسبب إصابة ما، أو قد يكون في مرحلة التعافي من مرض ألم به! اعذروه! هناك أمراض أخرى قد تحتاج تدخل طبيب نفسي أو اختصاصي تعديل سلوك أو طبيب مخ وأعصاب! لا تفترضوا أن طفلكم يحتاج إلى أي من هذه التدخلات قبل أن توفر له معايير الطفولة السعيدة! الحب قولًا وفعلًا، والاهتمام، والوقت القيم، والمشاركة، والمرح،

والرياضة المنتظمة، والرحلات الترفيهية والميدانية، والقراءة له ومعه، والقدوة الحسنة!
أخيرًا تذكروا قدرات طفلكم! الطفل ليس شخصًا بالغًا صغير الحجم! الطفل شخص صغير يكبر! تذكروا أن الطفل أقل من عامين غير قادر على الطاعة! الجزء الأمامي من مخه لم يكتمل بعد وقدرته على السيطرة على رغباته أو نزعاته تبدأ بعد الثالثة وتنمو ببطء حتى يتمكن من السيطرة على نفسه نسبيًا في عمر السابعة!

لا يكتمل نمو الجزء الأمامي من المخ قبل العشرينيات! ما بين سن الثالثة والسابعة يمكن للطفل فهم ما تقولون، وسوف يحاول السيطرة على نفسه وعدم مخافة القواعد المتفق عليها! سوف ينجح مرة وسوف يفشل كذا مرة! في كل مرة يفشل فيها عليكم بتوجيهه وتذكيره! عندما تتعاملون مع طفل مخطئ، لا تجعلوا العقاب هدفًا لكم! هدفكم هو التربية!

يتحقق هذا الهدف عندما يدرك طفلكم عواقب أفعاله، عندما يتعلم أن المكسور لا ينصلح وأن عليه تنظيف بقايا ما سكب وهكذا! آخر نقطة في هذا الموضوع: لا تكثروا من النواهي حتى لا تفقد «لا» قوتها! قبل أن تقولوا «لا» اسألوا أنفسكم كيف يمكن أن يتحول الموقف لصالح الطفل؟ كيف يمكن أن تضيف أو تزيل بضعة عوامل حتى يمكنكم قبول طلبه!

التسيب والفوضى

هل يدعو نهج المونتيسوري إلى التسيب والفوضى؟

كيف يتربى الطفل على الانضباط والالتزام بدون أي نوع من أنواع العقاب، أو أي شكل من أشكال الثواب؟

إستراتيجيات تعليم الطفل الانضباط:

ضعوا قواعد واضحة!

في فصل المونتيسوري يتعلم الطفل في أول أسبوعين القواعد، أين يعلق معطفه، وأين يخلع حذاءه، وأين يضع أشياءه، وكيف يتعامل مع الأنشطة المعروضة، وكيف يطلب المساعدة، وكيف يتعامل مع زملائه، وكيف يغسل يديه قبل وبعد الطعام واستخدام الحمام، وكيف يتعامل مع سجاداة العمل، وغيرها من قواعد الفصل. هذه القواعد ثابتة ويتم شرحها بوضوح للطفل، ثم تمثيلها ويتبادل الطفل والمدرسة الأدوار حتى تتأكد المدرسة أن الطفل قادر على الالتزام بكل قاعدة.

نفس الشيء في المنزل، ضعوا قواعد واضحة يلتزم بها كل من في البيت! لا تضعوا قواعد للطفل فقط لأن هذا ضمان لتمرّد الطفل عليها.

الالتزام بالقواعد في جميع الأوقات!

لا توجد استثناءات للقواعد. لا استثناء لأشخاص أو أوقات. عدم الالتزام بالقواعد من شأنه لخبطة الطفل وإرباكه! الأطفال من عمر ستة أشهر حتى سبعة أعوام يكونون حس النظام! إحساس الطفل بالنظام ينبع من داخله ويحتاج إلى إشباعه دائماً! على عكس الظنون الشائعة، يولد الطفل منظماً ويحتاج للروتين والنظام حتى يستقر نفسياً!

التذكير بالقواعد!

إذا أحل الطفل بقاعدة ما، كل ما عليكم هو تذكيره بالقاعدة:

«مش احنا اتفقنا إن مافيش أكل في أوضة النوم؟»

«مش احنا عندنا قاعدة بتقول إن ما حدش يدخل بالجزمة البيت؟»

التذكير بالقواعد يساعد الطفل على الالتزام بها وتنفيذها في وجود الأهل وفي عدم وجودهم!

كيف تضعون قواعد وتضمنون الالتزام بها؟

الطفل أقل من أربعة أعوام غير قادر على تعميم القواعد، مثلاً، اليوم قلم له ألا يلمس الفرن الساخن في مطبخكم. لا تتوقعوا أن يربط عقل الطفل هذه القاعدة بكل الأفران الساخنة. سيحتاج الطفل أن تذكره بعدم لمس الفرن الساخن في مطبخ الجدة أو العمّة.

تذكروا أن الطفل أقل من ثلاثة سنوات يحتاج للتذكيرة دائماً ولهذا عليكم بتكرار القواعد ليحفظها وتصبح جزءاً من تفكيره.

اجعلوا القواعد مرئية. إذا كان طفلكم صغيراً، ارسموا القاعدة، وإذا كان طفلكم كبيراً، أضيفوا سطرًا مكتوبًا تحت الصورة. لا تضعوا جميع القواعد في نفس الصفحة أو الكتيب، ولكن ضعوا كل قاعدة في صفحة مستقلة.

الهدف هو مساعدة الطفل على رؤية ولمس القواعد وربطها بصرياً وكذلك، في الموقف المناسب، يمكنكم سؤال الطفل عما تقوله القاعدة، وعليه الإشارة للصورة الملائمة لتطبيق القاعدة.

في بعض الأوقات يمكنكم أن تمنعوا البلاء قبل وقوعه من خلال مراجعة القاعدة قبل الموقف. مثلاً قاعدة اللعب الجماعي قبل لقاء الأصدقاء. قاعدة التعامل في السوبرماركت قبل الذهاب إلى السوبر ماركت.

وفقاً لعمر طفلكم ستحدد القواعد، ففي الأعوام الأولى ستكون أغلب القواعد عن رمي الطعام والخلاف على الألعاب والعض والضرب والنظام. بعد السادسة ستكون القواعد أكثر تفصيلاً كتلك القواعد الخاصة بنبرة الصوت ومقاطعة المتحدث والتدخل في الحوار واختيار الصواب. بعد العاشرة ستكون القواعد خاصة بآداب الحوار واللغة المقبولة في المنزل والمواعيد والمسؤوليات والمهام.

تذكروا أن القواعد ليست عقاباً، ولكنها تمثل القانون الذي يحمي حقوقاً، ويفرض واجبات، كل من يعيش مع الطفل في نفس المنزل.

مقاييس الانضباط وفقاً لعمر الطفل:

في أول ثلاثة أعوام من عمر الطفل يصعب عليه الالتزام والانضباط التام، ولكن هذه فترة مهمة جداً لإعداد الطفل للالتزام في السنوات القادمة. في هذه الفترة يعمل عقل الطفل على امتصاص وتخزين كل ما يحدث حوله. يخزن الطفل كل تصرفاتكم وكل كلامكم وكل ردود أفعالكم! يتعلم الطفل منكم قواعد المنزل، ويتعلم منكم مدى أهمية الالتزام بهذه القواعد.

في أول ثلاثة أعوام دوركم هو أن تكونوا قدوة وأن توضحوا للطفل القواعد وتساعدوه على تنفيذها.

ما بين ثلاثة وستة أعوام، سوف يحاول الطفل كسر جميع القواعد لأن في هذه الفترة يحاول الطفل استكشاف حدوده واستكشاف مدى جديتكم. سوف يحاول الطفل التفاوض

معكم من أجل ساعة زيادة من مشاهدة التلفزيون أو بسكوتة أخرى أو عدم غسل أسنانه وهكذا!

لا تنزعجوا ولا تعاقبوا الطفل لأن هذه مرحلة من مراحل نموه النفسي! كسر الحواجز وتخطي الحدود وتحدي السلطة!

دوركم هنا هو الهدوء وتذكير الطفل بالقاعدة! لا تكسروا القاعدة أبدًا لأن هذا سيفتح عليكم أبواب جهنم!

الطفل في عامه السابع يعرف القواعد وتدرّب عليها وقادر تمامًا على تنفيذها! إذا أصرّ الطفل على كسر قاعدة ما بعد سن السادسة فعليكم بالحوار! اسألوا طفلكم عن سبب اعتراضه على القاعدة؟ اعرّفوا وجهة نظره واشرحوا له وجهة نظركم! حاولوا أن تصلوا إلى حل وسط ويمكنكم أن تضعوا قاعدة جديدة تناسب المرحلة العمرية الجديدة!

تذكروا أن هدف نهج المونتيسوري، وهدفكم، هو طفل ملتزم ومنضبط من الداخل! طفل يختار الصواب في وجود أو عدم وجود رقابة! طفل مكافأته هي تعلم شيء جديد وإتقان ما يعرف! طفل عندما يكبر يحركه حافز داخلي للعمل والالتزام!

كيف اختلف نهج المونتيسوري عن غيره في التعامل مع السلوك السيئ للطفل؟

أكبر مميزات د. «ماريا مونتيسوري»، والسبب الأساسي لاختلاف نهج المونتيسوري عن أي نهج تعليمي أو تربوي آخر، هو قدرتها على التوحد مع الطفل، استطاعت أن تدخل عقل الطفل وترى دوافعه ومبرراته ونظرت للأشياء والأحداث من منظوره ومن خلال عينيه، ومن ثم استطاعت أن تتحدث بلسانه وتلبي احتياجاته وتقوم أخطائه بدون ترك آثار سلبية على شخصيته في الحاضر أو المستقبل.

الكثير من الأمهات يعانين من سوء سلوك الطفل الذي يظهر في:

- العند وتحدي الأوامر
- تحطيم الأشياء وتخريبها
- الفظاظة

- التبول عن عمد
- إساءة الأدب أمام الناس

عند دراسة مثل هذه التصرفات يمكن أن تُحصر الأسباب في:

- الغضب
- الغيرة
- الاحتياج للاهتمام
- الإهمال
- التهاون

سوف أوضح الآن الصلة بين السلوكيات الخاطئة ودوافعها، حتى يمكن للأهل تفاديها أو تداركها.

أولاً، أذكر نفسي وأذكركم أن الطفل الغاضب ظاهرياً، في باطنه طفل يعاني من احتياجات لم يتم تلبيتها:

- طفل يحتاج إلى الحركة ولكنه مطالب بالجلوس والصمت لفترات طويلة.
- طفل يحتاج أن يستكشف من خلال حواسه ولكنه مطالب بعدم لمس أي شيء حوله أو وضعه في فمه أو شمه أو استكشافه.
- طفل يحتاج إلى الخروج ولكنه حبس المنزل.
- طفل يتم الاعتداء عليه جسدياً بالضرب أو الوخز أو الزغد أو القرص أو أي طريقة أخرى.
- طفل محاصر بالخلافات الأسرية.
- طفل يعاني من الزعيق والتعنيف المستمر.

كل هذه الأسباب تخلق طفلاً غاضباً يخرج غضبه في السلوك السيئ والعدوانية تجاه البيئة أو الأطفال أو الأهل.

الغيرة محرك آخر للسلوك السيئ:

- قد تكون الغيرة من أخ أو أخت في الطريق.
- من أخ أو أخت حديث الولادة.
- من أخ أو أخت مفضل ومدلل ومقرب.
- من طفل آخر في العائلة له الأفضلية ويستحوذ على الإعجاب.

أما الاحتياج للاهتمام، فلنعلم أن الاهتمام الذي يحتاجه الطفل ليس فقط الاهتمام بنظافته وملبسه وطعامه:

- يحتاج الطفل منذ ولادته للحضن واللمسة الحانية والوقت القيم مع أهله.
- تعريف الوقت القيم هذا هو وقت بدون تليفزيون أو موبايل أو أي شاشة أخرى تشغل الأهل عن الطفل.
- يتم قضاء هذا الوقت في اللعب والكلام والقراءة والضحك معاً.

بدون هذا الاهتمام يلجأ الطفل إلى السلوك السيئ كتعبير عن مشاعره السلبية، وقد ينفصل عن الواقع ويدمن الشاشات والألعاب الإلكترونية. هناك أم لطفل في السابعة من عمره شكت لي إدمانه للأفلام الإباحية!

أما الإهمال، فهو الوجه الآخر لعدم الاهتمام:

- الطفل المهمل لا يجد من ينمي قدراته ويضيف إلى معلوماته ويوسع مداركه.
- الطفل المهمل قد يعاني من إهمال عقله أو إهمال جسده أو إهمال احتياجاته العاطفية.
- تشخيص الأطباء في بعض حالات التأخر اسمه: فقر بيئي!

هذا الطفل سيء التصرف لأنه لا يعرف أصلاً كيف يجب أن يتصرف. لا يجد قدوة يتبعها ولا يتم توجيهه ويتم عقابه بكثرة ويستخدم العقاب كتبرير للإهمال!

أخيراً التهاون، التهاون نوع آخر من الإهمال!

- التهاون هو عدم المبالاة أصلاً بتوجيه الطفل وإرشاده للسلوكيات المقبولة اجتماعياً!

- يرى الأهل أن هذا الطفل من حقه أن يتناول على أي شخص ويجدون هذا التناول مضحكًا.
- من حقه أن يخرب أي شيء ويجدون هذا الخراب فداء للطفل.
- من حقه أن يؤذي أي طفل آخر لأنهم أطفال يلعبون معًا!

في أغلب هذه الحالات نجد أن الأهل هم الأولى بالعقاب على سلوكهم السيئ تجاه الطفل!

كثرة استخدام كلمة «لا»، وأساليب العقاب القديمة مثل الضرب والحبس، وأساليب العقاب الحديثة مثل العزل Time Out أو الحرمان، كلها أساليب لن تحل المشكلة! حل المشكلة أولاً في اكتشاف الأسباب الحقيقية لتصرفات الطفل وعلاجها من المنبع، ثم تقويم الطفل من خلال تعليمه عواقب تصرفاته.

مثال لطفل يتبول عن عمد، بدلاً من الضرب والإهانة وإظهار الضيق، على الأهل عدم إظهار أي رد فعل، وفي منتهى الهدوء يقال للطفل: «لقد ابتلت ملابسك واتسخت الأرض! سوف تساعدني في تنظيفها الآن»، ويتم إعطاء الطفل فوطة مبللة ويتعلم كيفية تنظيف الأرض، ثم يطلب من الطفل غسل ملابسه في الحوض أو الطشت أو الغسالة ونشرها على الحبل لتجف. هكذا يتعلم الطفل أن هذا السلوك السيئ لن يلفت انتباه أحد له، ولن يضايق أحداً، ولكن عاقبة سلوكه هي تنظيف ما أتلف.

إذا كسر الطفل لعبة عن عمد، فعقابه الحقيقي هو أن يللمم أجزائها ويرميها في الزبالة. هكذا يتعلم أنه إذا لم يتحكم في تصرفاته فسوف يخسر مقتنياته، وهكذا!

أخيراً، إذا أردت أن تطاع فأمر بالمستطاع! لا تطلبوا من طفل صغير الجلوس في مكان عام مثله مثل الكبار، ولا تتوقعوا من طفل الصمت في زيارة عائلية، ولا تأملوا من طفلكم التحكم في نفسه دائماً وتاماً، خاصة إذا كان أقل من سبعة أعوام.

العند

أولاً هل هناك شيء اسمه طفل عنيد؟

في كتب التربية السلمية - Peaceful Parenting - لا يوجد وصف «الطفل العنيد»! يستخدم التربويون مصطلحات أكثر إيجابية وأكثر قدرة على التعبير عن هذه السمة في الأطفال مثل «الطفل ذو الشخصية القوية» أو «الطفل ذو الاحتياجات الملحة» أو «الطفل ذو الإرادة القوية» وغيرها من المسميات التي تزيل وصم «العند» عن الطفل!

مثل هذه المسميات تساعد الأهل على تقبل واحتواء طفلهم والتعامل مع متطلبات شخصيته بصدق ورحم وطول بال! في نهاية كل هذه الكتب، يعد التربويون الأهل بالجائزة الكبرى عندما يتخطى طفلهم مرحلة الطفولة! يعدونهم بطفل قائد يعتمد عليه، مستقل قادر على التفرقة بين الصواب والخطأ، وواعٍ وليس عرضة للانجراف في تيارات سلبية أو مدمرة!

ثانياً العلاقة بين مراحل الطاعة والعند

كما ذكرت سابقاً، الطفل أقل من سنتين غير قادر على الطاعة ولا يجب غضبه على الطاعة

باستخدام العنف اللفظي أو الجسدي! في هذه السن الصغيرة احتياج الطفل للاستكشاف والتجربة أقوى من أي توجيه أو قيد أو عقاب! عقاب الطفل سوف يؤدي إلى توتر علاقته بأهله وفقدان الثقة و«العند» كعقاب لهم على اعتدائهم عليه! في هذه المرحلة دور الأهل مساعدة الطفل على الاستكشاف مع تأمينه خلال محاولاته للتعرف على العالم من حوله!

في العام الثالث يطبع الطفل الأوامر وفقاً لأهوائه! أكبر خطأ يقع فيه الأهل هو مكافأته على الطاعة لأن هذا يجعل الصواب مقترناً بالمكافأة، ومع الوقت يكبر الطفل ويفقد حب اختيار الصواب! في هذا العام يجب على الأهل الإكثار من التوجيهات ووضع قواعد ثابتة للمنزل يلتزم بها كل من يعيش في هذا المنزل! مثلاً: كل من في المنزل يغسل يديه قبل وبعد الأكل، أو كل من في المنزل يرتب سريره، أو كل من في المنزل يرتب حجرته وهكذا!

ما بين ثلاثة وستة أعوام يبدأ الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ولكن قدرته على الالتزام بالصواب قد تخذله أحياناً! هذه مرحلة طبيعية يجب أن يمر بها كل الأطفال ويجب على الأهل استيعابها لأن الهدف في النهاية ليس تربية طفل خاضع خانع مطيع لأوامر كل من هو أكبر منه سناً، أو أعلى منه سلطة! الهدف هو تنشئة طفل ملتزم يختار الصواب وقادر على مقاومة المغريات!

ما بين ستة وثمانية أعوام يطبع الطفل من يثق بهم! لا تفترض أن الطفل يثق بك لمجرد أنك أبوه وأنتك أمه وتعرفان مصلحته! الثقة تكتسب من خلال المواقف أثناء جميع سنوات الطفولة الماضية!

بعد ثمانية أعوام من التربية تجنون ثمار ما زرعتم!

ثالثاً العند من منظور الطفل

إذا أردتم أن تفهموا الطفل فيجب أن تضعوا أنفسكم مكانه! تخيلوا أنفسكم في مكانه بالضبط! تخيلوا كيف يراكم وكيف يفسر تصرفاتكم وكيف يترجم أوامركم!

في أغلب الأحيان، الطفل «العنيد» يرى الأهل في صورة ديكتاتور أو سجان أو معتد على حريته وحقه! هذا سبب العند! يناطحكم رأساً برأس دفاعاً عن طفولته وعن حقه في اللعب أو التسلية أو الاستكشاف!

قبل أن تلوموه على خطأ ارتكبه، حاسبوا أنفسكم أولاً على أخطائكم في حقه، تركه فريسة للملل والزهق! حرمانه من الانطلاق واللعب والجري! تحميله مسؤوليات أكبر من عمره! استخدامه كمنفذ لغضبكم وإحباطاتكم!

ضعوا أنفسكم مكان الطفل، وتخيلوا ماذا أنتم فاعلون لو كنتم مكانه!

رابعاً أضرار «كسر» العند

كسر العند في الطفل له طرق معروفة! الضرب! الصياح! الحرمان! العزل! المعايرة! الذل! الحصار النفسي!

كم هي أساليب قاسية عندما نجردها من الزخرف اللفظي! فما ركن العقاب أو كرسي العقاب إلا عزل وذل وحرمان وحصار نفسي!

قد تنجحوا وتحصلون على طفل يهابكم ويطيعكم، ولكن انظروا إلى باقي شخصيته لتعرفوا مدى خطئكم في حقه، طفل مهزوز الشخصية غير قادر على مقاومة الاعتداء عليه من أي شخص، وفاقد الثقة في نفسه، ويحتاج دائماً إلى من يتخذ له القرارات - حتى وإن كان صديقاً في مثل عمره!

قد تحصلون على طفل متبلد لا يهमे العقاب ولا يشعر بالخزي ويتعمد إحراجكم في كل مكان! هذا الطفل ينقل ما تعرض له من قهر في منزله إلى الحضانة والمدرسة والنادي، ويتعمد إيذاء الآخرين لأنه متألم!

خامساً إستراتيجيات لتفادي العند

الإستراتيجية الأولى: ليه تقولوا لأ وأنتم ممكن تقولوا أيوه؟

هذا ليس سؤالاً مجازياً! حقاً! لماذا نحب نهي الأطفال بدلاً من تشجيعهم واحتوائهم! حتى تكون «لا» مؤثرة ومطاعة، لا يجب أن تكون مستهلكة ومعتادة! إذا أراد طفلكم تسلق شجرة أو الجري أو استخدام المفك أو تشغيل التلفاز أو فتح محفظتكم أو ال«دعبسة» في أدراجكم أو إعادة ترتيب اللاجعة، لماذا تمنعوه؟ ضعوا أنفسكم مكان طفلكم الذي يريد أن يستكشف ويتعلم ويستقل ويكبر، وها أنتم تمنعوه وتحولوا إلى عقبة في طريقه - عقبة

عليه أن «يزيحها» بكل ما أوتي من قوة! سوف يصرخ ويبكي ويدفعكم ويضربكم لأنكم تمثلون حائلًا بينه وبين المعرفة!

أليس من الأفضل أن تشجعوه؟ أليس من الأفضل أن تعلموه؟ أليس من الأفضل أن تتركوه يحاول وأن تؤمنوا البيئته من حوله حتى لا يصاب بمكروه؟

الإستراتيجية الثانية: اعرضوا بدائل وحلولاً إيجابية

لا تكتفوا بالأمر والنهي! يجب أن تعرضوا بدائل تشبع المرحلة الحساسة التي يمر بها الطفل! مثلاً، الطفل يريد أن يلعب في الماء، وأنتم تريدون أن تعملوا، ولن يمكنكم الإشراف عليه! بدلاً من الصدام يمكنكم أن تعملوا على اللابتوب على طاولة المطبخ، بينما يقف طفلكم على درجة أمام الحوض يغسل لعبه. إذا أراد طفلكم استكشاف الكهرباء، بدلاً من منعه، علموه كيف يضع كبس المكنتسة في الفيشة، وعلموه شروط التعامل مع الفيشة، ألا تكون يده مبللة، أو ألا يضع إصبعه أو شيئاً ما في فتحات الفيشة. كرروا الدرس كل مرة حتى يتذكره الطفل، وفي نفس الوقت علموه كيف يستخدم الفيشة بطريقة سليمة.

إذا وجدتم طفلكم «يخرب» لعبه، اعرفوا أنه يحاول فكها حتى يتعلم كيف تعمل. أحضروا له بطارية كبيرة «تورش»، وعلموه كيف يفتحها ويضع البطاريات الصغيرة بداخلها. ابدءوا بإجراء التجارب العلمية المنزلية مع طفلكم حتى تشبعوا هذا الشغف.

الإستراتيجية الثالثة: الوعد

أحياناً نكون في عجلة من أمرنا، أو يكون علينا قضاء مهمة ما ولا نستطيع التوقف لاستكشاف شيء في الحديقة أو الشارع، في هذا الموقف يجب أن نستخدم إستراتيجية الوعد! «الآن يجب أن نذهب إلى البنك ولكن عند عودتنا أو عدك أن نأخذ جولة في الحديقة ونشاهد البراعم الصغيرة»

هذا مجرد مثال، ولكن هذه الإستراتيجية لن تنجح إذا كانت لدى الطفل خبرات سيئة مع وعودكم له! كم مرة وعدتموه بالخروج ولم تفوا؟ كم مرة وعدتموه باللعب معه ولم تنفذوا وعدكم؟ إذا فقد وعدكم قيمته، فلن تنجح هذه الإستراتيجية!

تأكدوا من استخدام كلمة «أوعذك» حتى يربط الطفل بينها وبين صدق من تقولون!
هل تتذكرون أهلكم وجملتهم الشهيرة «إن شاء الله»؟ هل تتذكرون معناها بالنسبة
لكم؟ هل تتذكرون تأثيرها؟

الإستراتيجية الرابعة: اعرفوا وجهة نظر الطفل

لا تتعاملوا مع الطفل وكأنه جماد أو كائن عاجز! اسألوا الطفل لماذا يريد الذهاب إلى
المول، أو لماذا يريد السير وحده، أو لماذا يريدكم أن تحمله! أعطوه الفرصة للتعبير عن
نفسه بكل أدواته وإذا طلب منكم أن تتبعوه، اتبعوه حتى تروا وتعرفون أهمية رغبته!

قد يبدو الأمر تافهًا بالنسبة لكم، ولكن بالنسبة للطفل هذا عمل جاد! لا تستهينوا بلعب
الطفل لأن هذا اللعب هو العمل بالنسبة له!

الإستراتيجية الخامسة: نعم للحسم لا للعنف

في الأوقات النادرة التي لا يجب أن ترفضوا فيها رغبة الطفل، ولن تستطيعوا استخدام
الإستراتيجيات السابقة، قولوا «لا» بحسم مع توضيح الأسباب في جمل قصيرة واضحة،
ولا تلجئوا إلى الصوت العالي أو الإهانة أو الضرب! علموا طفلكم كيف يكون حاسمًا
بدون عنف، كونوا قدوة!

مثلًا، في أمر «الفيشة والكبس ومفتاح النور»، لا يخلو صندوق بريدي من هذا السؤال
بصورة شبه يومية: «كيف أمنع طفلي من العبث بالكهرباء؟» في أغلب الأوقات يكون
الطفل سبب المشكلة أقل من ثلاثة أعوام وعادة يكون في عامه الثاني. هل جميع الأطفال
على خطأ؟ هل خلقوا جميعًا وبهم هذا العيب البشع الذي يدفعهم لاستكشاف الكهرباء؟
إذا كنتم تعانون من هذه المشكلة مع طفلكم، فقد يساعدكم الكلام الآتي:

القاعدة الأولى في التربية بالترابط تقول: ضعوا أنفسكم مكان الطفل وانظروا للأمر من
وراء عقله ومن منظوره.

ماذا يجذب جميع الأطفال بلا استثناء للكهرباء؟

هل تعلمون أن الطفل في العام الثاني والثالث يسمى بـ«العالم الصغير»؟ هذا العالم الصغير

لديه شغف بالتجربة وباقتفاء الأثر ويحاول أن يجد علاقات منطقية بين الفعل ورد الفعل. الكهرباء بالنسبة للطفل مبهرة، زر صغير نضغط عليه فيضيء المكان بأكمله. عقل العالم الصغير يريد أن يتعرف على هذا السحر. كيف لهذا الزر أن يتحكم في هذه اللمبة المعلقة في السقف؟

لماذا تمنعون طفلكم من العلم؟ لماذا تقهرون العالم الصغير؟

إنها الموروثات المتراكمة وخوف الإنسان الفطري من الكهرباء وقوتها وقدرتها على الصعق. هناك بالفعل حوادث كثيرة راح ضحيتها أطفال تركوا يعبتون بالكهرباء. الخطأ في هذه الحالات ليس خطأ الطفل أو الكهرباء، هذا الخطأ الجسيم يسمى «الإهمال». ترك طفل أقل من ثلاثة سنوات بدون مراقبة دقيقة وعن قرب يسمى إهمالاً.

ماذا تفعلون إذاً؟

الخطوة الأولى:

دوركم هو تشجيع الطفل على الاستكشاف الآمن.

عندما يبدأ طفلكم مرحلة الشغف بمفتاح النور، علموه كيف يجفف يده أولاً قبل أن يضغط عليه. ثم اتركوه يكتشف المفتاح السحري ويتعلم أي مفتاح يضيء أي لمبة.

إذا خفتم على اللمبات من الاحتراق، فيمكنكم أخذ الطفل في جولة حول المنزل ليضغط كل مفاتيح الأنوار ليضيء اللمبات، ثم في جولة عكسية ليضغط على نفس المفاتيح مرة أخرى ليطفئها.

الشرط الأساسي هو جفاف يديه.

الخطوة الثانية:

بعد مرحلة مفتاح النور سيبدأ الهوس بفيشة الكهرباء. تغطية فيشة الكهرباء سيجعلها أكثر إثارة بالنسبة للطفل، وسيجعلكم عقبة في طريقه بدلاً من عون له على الاستكشاف وتنمية المهارات العقلية.

بدلاً من منع الطفل من التعامل مع فيشة الكهرباء، علموا الطفل كيف يمسك بـ«كبس» المكنسة من المنطقة الآمنة ووضع الكبس في الفيشة. في البداية سيكون هذا الأمر بمساعدتك حتى يتمكن الطفل من هذا بمفرده.

الخطوة الثالثة:

أعطوا للطفل مسؤولية إضاءة النور وإطفائه ومسئولية وضع الكبس في الفيشة كلما احتجتم لتشغيل أي من الأجهزة المنزلية.

أعطوا للطفل مسؤولية ضغط أي زر لتستخدموا المكنسة أو الخلاط أو الكبة أو أي جهاز آخر.

الخطوة الرابعة:

بعد أن يكمل الطفل أربع سنوات، يمكنكم أن تعلموه كيف تعمل الدائرة الكهربائية، وفي عمر الخمسة أعوام يمكنكم شراء ألعاب تكوين الدوائر الكهربائية ليستكشف المزيد عن كيفية عمل الكهرباء.

هكذا، يصبح طفلك ممتناً لكم ومعتمداً عليكم في كل محاولاته للاستكشاف، بدلاً من أن يتحول إلى كائن حانق عليكم مقاوم لكم، ويتنزه الفرص للاستكشاف في غفلة منكم، فتحدث الحوادث المؤسفة.

الضرب

هل أدمتكم ضرب طفلكم؟ لن أخاطبكم من على منبر تربوي وأدعي أنني لم أضرب «آدم» أبداً! خلال سنوات الماضية فقدت أعصابي عدة مرات! المرة الأولى كان عمره ثلاث سنوات إلا بضعة أشهر، كنت قد نهيتته عن نزول منحدر ما لأنه خطر، ولم يسمع الكلام، ووقع ونزفت شفته وجرح ركبتيه! لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ فيه أمام أهلي والمارة، وبدلاً من أن أمسح الدماء بمنديل مبلل، فتحت زجاجة مياه كانت في يدي ورششته بكل محتوياتها!

وقتها راسلت موجهتي، وحكيت لها تصرفي بكل التفاصيل المشينة، وطلبت منها النصيحة حتى لا أكرر تصرفي هذا! لم تعنفني ولم تشعرني بالحقارة! احتوتني وشرحت لي أسباب الأزمة! لقد أخطأت أولاً حينما توقعت من طفل أقل من ثلاث سنوات الطاعة! ثانياً، لقد أخطأت حينما لم أتفهم مدى قوة رغبة طفلي في التجربة! ثالثاً، لقد أخطأت حينما أهملت دوري الأساسي في حياة طفلي: تشجيعه وحمايته! قالت لي: «في المرة القادمة اذهبي معه وأمسكي يده واضحكي معه وأنتما تنزلان المنحدر!»

المرّة الثانية التي سبقت يدي فيها لساني، كان عمر «آدم» ثلاث سنوات ونصف! هل تصدقوني إذا قلت لكم إنني أعتذر له حتى اليوم! لن أحصي عدد المرات التي اعتذرت فيها! لقد صفعته! في يوم أسود مليء بالضغط والمنغصات فقدت هدوئي وسكينتي، وصفعته! كانت يدي أسرع من لساني! تركت أصابعي علامات القسوة والغضب على وجهه الجميل ووقفت مذهولة أمامه! لأول مرة يجري «آدم» ويحتبني مني! لأول مرة لا يحتبني في حضني! كلما سألت قريب أو غريب عما بوجهه قال ماما ضبضب «آدم!» كان أمامي خياران، أزيد الطين بلة وأجبره على الكذب أو أتقبل نتيجة فعلتي في أسف!

لقد علمني هذا الموقف أصول الاعتذار لطفلي! اعتذرت له كما لم أعتذر في حياتي قط! أدركت أن خلايا عقلي محملة بذكريات العنف، واليوم يتم إعادة تدويرها ويتلقى نتاجها ابني! ليست هذه الوعود التي وعدتها له!

للأسف على مر السنوات، تكررت الحوادث! اختلفت الأسباب وتكررت حوادث «فقد الأعصاب» والتخلي عن المنطق! أكتب هذا الكلام لأذكر نفسي بأخطائي ولأطمئنكم أننا بشر قد نصيب وقد نخطئ. أكتب هذا الكلام لأوضح أن الحوادث سوف تحدث، ولكن المهم أن نحاول أن نتجنب أسبابها وأن نعتذر بعدها، وألا يصح العنف ضد الطفل نهجاً وأسلوب حياة لنا!

نهت د. «ماريا مونتيسوري» تماماً عن ضرب الطفل على يده، لا على ظهرها ولا في بطنها! قالت إن يد الطفل هي أداة الاستكشاف الأولى والأساسية للطفل، وأنها متصلة بعقله وبشغفه للمعرفة، ضرب هذه الأداة يرسل إشارات سلبية للمخ مفادها أن الفضول سيئ وأن الشغف يؤدي إلى العقاب، ومع التكرار يتحول الطفل إلى كائن غير مهتم بأي شيء ولا يريد أن يعرف أي شيء.

الدروس المستفادة:

- إذا اعتادت أيديكم أن تسبق ألسنتكم، مع الوقت سيتحول ضرب الطفل إلى عادة، وهذا لن يعلمه سوى العند والتبذل والعنف المتبادل.
- مسؤوليتكم هي تأمين طفلكم خلال محاولاته للاستكشاف وليس منعه من الاستكشاف.

- قبل أن تطلبوا من طفلكم التحكم في تصرفاته وكلامه، عليكم أن تتحكموا أنتم في كلامكم وانفعالاتكم وأيديكم.
- كثرة الضرب تؤدي إلى التبلد وكثرة التعنيف تفقد الطفل ثقته في نفسه.
- في يوم ما، قد تفقدون مهاراتهم، وقد تفقدون قدرتكم على فعل أشياء كثيرة بحكم المرض أو تقدم العمر، وسوف يرد عليكم شخص ما _ قد يكون طفلكم أو شخصاً آخر_ هل تحبون أن يضربكم كلما أسقطتم طبقاً أو كسرتهم كوباً أو وقع منكم طعامكم؟ هل تحبون أن يضربكم أحد لمجرد أنكم أضعف منه؟

عن السيطرة على النفس أتحدث

أرسلت لي أم سؤالاً من أصعب الأسئلة بالنسبة إلي، سألتني: كيف أتحكم في أعصابي؟ كيف أمنع نفسي من ضرب ابنتي؟ أحتاج إلى مساعدة! اليوم ضربت ابنتي بمنتهى العنف ومنتهى القسوة ولم يوقني بكأؤها ولا وعودها ولا توسلاتها! لقد ضربت ابنتي ذات الثلاثة أعوام وأحدثت بها إصابات من شدة الضرب! ماذا أفعل؟

من السهل اعتلاء المنبر وإدانة تصرف هذه الأم، ومن الممتع مهاجمتها وإهانتها وإذلالها! من السهل ادعاء المثالية، ومن السهل تمثيل دور الأم المثالية، لكنني لم أختار الطريق السهل! أنا أعرف الغضب حق معرفة وأعرف شيطان الغضب وأعرف تلك اللحظة الفاصلة بين التحكم والانفجار!

لن أستخدم أيّاً من قراءاتي في مجال التربية بالترابط والمونتيسوري في الرد على هذه الأم. إليكم نصائحي كأما تحاول جاهدة كل يوم ألا تخطئ:

أولاً: تعرفي على لحظة الانفجار! تلك اللحظة التي يغيب بعدها العقل وتتحوّل اليد إلى أداة خارج سيطرتك. واجبك هنا هو الابتعاد عن ابنتك عندما تدركين اقتراب هذه اللحظة! ادخلي الحمام! اخرجي البلكونة! ادخلي حجرتك! ابتعدي حرفياً عن ابنتك!

ثانياً: المكينة الكهربائية! هذه منقذتي! قبل لحظة انفجاري، أجري على مكنتي الكهربائية وأبدأ في الكنس! أكنس وأصرخ حتى تهدأ ثورتني!

ثالثاً: المنفضة! يجب أن يكون في كل بيت منفضة! اجري على منفضتك وانفضي بكل قوتك جميع الأسيرة والكنب والوسائد!

رابعاً: الكيس الورقي! تعلمت هذا التكنيك في الطائرات! إذا شعر أحد الركاب بنوبة دعر، تأتي له المضيفة بكيس ورقي ينفخ فيه! انفخي كيسك الورقي حتى تنهمر دموعك!

خامساً: الفريزر! إذا شعرت بدمك يفور ويغلي، اجري على الفريزر وافتحي بابه وضعي رأسك بداخله وتنفسي حتى يعود تنفسك لطبيعته.

أنا أعرف أن نصائحني قد تبدو غريبة وقد تبدو مضحكة وقد تبدو مجنونة ولكنها جميعها تعمل!

كلنا نتعرض لضغوط مرعبة! ضغوط عاطفية وضغوط مالية وضغوط حياتية وضغوط صحية! كلنا على وشك الانهيار أو الانفجار! ولكن للأسف دائماً تأتي لحظة الانفجار في وجه من لا حول لهم ولا قوة! ننفجر فيمن يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم! مع كل انفجار نترك وراءنا حطاماً بشرياً ومهما الملمنا الأجزاء والأشلاء فسوف دائماً تبقى ذكرى الانفجار مروعة!

مع الوقت، سوف تعرف ابنتك أعراض نوبة الغضب قبل أن تحدث، ومع الوقت سوف تتعلم ألا تدفعك دفعاً إلى الهاوية، ومع الوقت سوف تكتشفين سحر المكنسة وجمال المنفضة وأهمية الكيس الورقي وتأثير الفريز العظيم.

مع الوقت سوف تتعلمين أن تطلبي من ابنتك أن تساعدك ألا تغضبي وألا تحزني وألا تثوري وألا تنفجري! مع الوقت ستعلمين ضبط النفس وإعادة توجيه الغضب!

الريش

تشعرتني رائحة الياسمين بالحب والطمأنينة، أما الريش فيشعرتني بالأمان والراحة النفسية. أحب الطيور حباً من نوع خاص، أحب نظرة عينيهم، حركة رأسهم، شكل وقفتهم على أرجلهم، منقارهم وهو ينظف الريش تحت أجنحتهم، صوت زقزقتهم، قدرتهم على الطيران، ورائحتهم! أنا أحب رائحة الريش وملمسه ودفئه وألوانه. في البداية، كان طقس أساسي عند زيارتي للمزرعة مع «آدم»، أن أحمل فرخة لأشعر بالسعادة. ثم اشتريت أول ببغاء أليف، «تيتو»، وتعرفت على شخصية الطائر الجميل عن قرب واكتشفت كيف أشعره بالأمان في يدي الضخمة وأمام وجهي المرعب بالنسبة له.

لأول مرة أشعر أن الطيور من الممكن أن تبادلنا الحب وأن تشعرتنا بالاهتمام. كذلك، الطيور لا تتهاون أبداً في حقها في الاهتمام. إذا أراد «تيتو» أن أداعب رأسه أو ألعب معه، كان يأتي إليّ ويعبر عن طلبه بوضوح. إذا لم أستجب، كان ينقر إصبعي، وإذا استمرت في تجاهله، كان يعض أذني ويصرخ في وجهي! بعد «تيتو»، أصبحت الطيور الأليفة جزءاً لا يتجزأ من عائلتنا. أصبحت رائحة الريش متعة يومية تساعدني على التعايش مع سخافات العالم، العالم حقاً مكان سخيف!

يجب «آدم» الطيور مثلي، ولكنه حب طفل لصديقه الأليف. أما أنا فعلاقتي بطيور وصلت إلى الاعتماد النفسي عليهم لعلاج المشاعر السلبية أو الطاقة الغاضبة، مهما كان يومي سيئًا، فيمكن لـ«تيتي»، ببغاء صغيرة شقية، أن تضفي عليه لمستها المبهجة. تقف «تيتي» على كتفي، تمسح رأسها في جانب وجهي، تنزل على صدري، أربت على رأسها وأهرشه برفق، فتنفس ريشها وأشعر بدفء جسدها الصغير على صدري. تنام «تيتي» في أمان وثقة على ظهرها وتتركني أقبل رأسها الصغير وأداعب ريش صدرها. الطيور ليسوا كالقطط_ لا يصدرون أصواتًا تنم عن السعادة_ ولكنهم قادرون على إشعاري بالسعادة.

أتمنى أن يجد «آدم» في الطبيعة ما أجده أنا في رائحة الياسمين وعلاقتي بالطيور. أعلم أن الحياة بها قسوة تتسلل إلى الروح ببطء وهدوء، فتسلبها السكينة والسلام. أعلم أيضًا أن الألم والحزن يغير ملامح الوجه ورقة القلب. أتمنى أن يجد «آدم»، على الرغم من أخطائي، في ذكرياتنا معًا القوة للحفاظ على روحه ورقة قلبه مهما واجه من مشقات في رحلته. شرب «آدم» ماء زمزم، وتمنى أن يتعلم لغة الطيور ليفهم حواراتهم معنا. أما أنا، فلا أتمنى سوى أمنية واحدة: ربنا يحفظك يا «آدم» يا ابن قلبي.

الطفل المشروخ

يراسلني العديد من الآباء والأمهات ويسأل أغلبهم عن كيفية تدارك الأخطاء التي ارتكبوها في حق أطفالهم. اعترف العديد منهم بالعنف وبالعصية وبعدم مراعاة قدرات الطفل، واشتكوا جميعاً من النتائج: طفل ضعيف الشخصية، طفل خائف، طفل يكذب، طفل متبلد، طفل عنيد، طفل باكي، طفل عنيف مع أخواته وزملائه! هل من الممكن إصلاح الطفل المشروخ؟

تناولت د. «ماريا مونيتسوري» انحرافات شخصية الطفل في كتابها The Secret of Childhood في فصل واحد فقط وكرست باقي الكتاب للحديث عن البيئة الصديقة للطفل. تعديل السلوك صعب، وتضميد الجراح يحتاج وقتاً ومجهوداً، وتغيير سمات الشخصية يعد من دروب المستحيل. الحقائق هي:

- الطفل يولد وقد تحددت الخطوط العريضة لشخصيته مثل الحذر أو التهور أو المرونة أو تعدد الاحتياجات. دور الأهل هنا هو تقبل شخصية الطفل هذه والاستجابة لمطالباتها. مثلاً محاولات «تجريد» الطفل الحذر سوف تسبب له عقدة! أو محاولات

- «تلجيم» الطفل المتهور سوف تؤدي إلى العند والمزيد من التهور.
- في أول ثلاث سنوات تتكون تفاصيل جديدة في شخصية الطفل منها منظوره للسلطة وشعوره تجاه العالم ورؤيته لنفسه وأسس علاقته بأهله.
- ما بين ثلاث وست سنوات تتكون أولى خبرات الطفل من خلال احتكاكه بأطفال آخرين وببالغين خارج نطاق العائلة. تكثر المواقف التي تزيد من ثقته في نفسه وفي أهله وفي السلطة، أو يحدث العكس ويفقد احترامه لنفسه وكل من حوله.
- ما تكوّن من شخصية الطفل في أول ست سنوات يصعب تغييره أو تعديله فيما بعد ويحتاج إلى العديد من جلسات العلاج النفسي والتعديل السلوكي للأهل والطفل معًا.

إذا كنتم قد أخطأتم في حق طفلكم وتريدون أن تغيروا مسار علاقتكم فإليكم بعض النصائح:

- ابدءوا بالاعتذار الواضح الصريح عما بدر منكم فيما مضى، واذكروا المواقف التي تريدون الاعتذار عنها واطلبوا من طفلكم السماح.
- ابدءوا صفحة جديدة مع الطفل! أحضروا ورقة وقلماً وكتبوا وعودًا جديدة منكم له تحددون فيها شكل التعامل بينكم وتأكدوا أنه لا يريد أن يضيف إليها وعودًا أخرى.
- الكثير من الضحك والفرح والبهجة من شأنه إزالة آثار القهر والعنف.
- استبدلوا بالجلوس أمام التلفزيون أو الكومبيوتر الألعاب مثل السلم والثعبان والشطرنج والطاولة والكوتشينة وغيرها من الألعاب التي سوف تعزز العلاقة بينكم.
- لا تتعاملوا مع طفلكم كأنه معيوب حتى وإن كان كذلك في نظركم! تعاملوا مع طفلكم وكأنه أفضل طفل في العالم وسوف يصبح أفضل طفل في العالم.
- قولوا لطفلكم كل يوم إنكم تحبونه واحضنوه وقبلوا يده ورأسه.
- استخدموا صفات إيجابية في الحديث مع طفلكم أو عنه! لا تقولوا له «أنت ضعيف» أو «أنت جبان» مثلاً وقولوا له «أنت شجاع»، مع الوقت سوف يرتقي بتصرفاته إلى مستوى وصفكم له!
- اصنعوا أشياء مع طفلكم! اصنعوا منزلًا أو طائرة أو خيمة أو سيارة أو لوحة!

- أكثروا من الخروج والتنزه والمرح.
 - اجعلوا أكبر مكافأة لطفلكم هي فخره بنفسه وأكبر عقاب له هو زعله من نفسه!
- تذكروا أن أغلب مشاكل سلوكيات الأطفال سببها خواء الروح ومعاناتها في الجسد، حرروا روح طفلكم من القيود والكلمات الجارحة والمواقف المهينة.

ضحية الإساءة

أرسلت لي صديقة مقالاً مؤلماً، كتبه «جوليت فيرزي»، عن الأعراض التي يعاني منها البالغون الذين تعرضوا للانتهاك النفسي والإساءة الوجدانية في طفولتهم. لقد وجدت الكثير من الأعراض لديها، وكان سؤالها كيف تحمي أطفالها من هذا المصير وما هي الأخطاء التي يرتكبها الأهل في حق الطفل ليصبح ضحية طفولة مسيئة.

هل لديك هذه الأعراض؟

- * لا تتحمل الصراعات أو الأصوات العالية المباغثة، أو أي شكل من أشكال العدوانية.
- * لا تعرف كيف تتقبل الشكر أو المجاملات.
- * تسعى بشكل محموم إلى التفوق والكمال.
- * تشعر أنك، مهما فعلت، لست بالجدارة الكافية.
- * تشعر أنك مخطئ ومذنب ومقصر أغلب الوقت.
- * أنت كثير الاعتذار. تعتذر عن تلك الأخطاء التي ارتكبتها وتلك التي تتخيل أنك اقترفتها.

- * تفضل العزلة والوحدة لأنك لا تحقق توازنك النفسي إلا بمنأى عن الناس.
- * لا تثق بالناس ولا تسمح لهم بالاقتراب منك حتى لا يخذلوك أو يجرحوك.
- * تعاني من التردد والتخبط في القرارات. لديك شعور يطاردك أن قراراتك دائماً خطأ.
- * تتجنب التعبير عن رأيك بصراحة حتى لا تصطدم بأحد، ما يعني أن هناك فجوة كبيرة بين حقيقتك وبين ما يراه الناس منك.
- * ردود أفعالك دفاعية بشكل مبالغ فيه ما يعطي انطباعاً سيئاً عنك. قد يظن الناس أنك بارد أو مغرور بسبب حيلك الدفاعية تلك.
- * لا تتقبل أي شكل من أشكال الحب، لأنك تظن أن هناك دائماً مقابلاً عليك أن تقدمه.
- * تسعى لإرضاء ونيل رضا من بمركز قوي أو سلطة حتى لو كان الثمن التوتر والضغط النفسي.
- * تبرر وتشرح وتوضح، تقدم تقريراً مفصلاً عن دوافعك وأسبابك وكأنك متهم بشيء ما.
- * لديك مشكلة في الرفض. تقول «نعم» حتى وأنت غير مقتنع خشية إثارة غضب أو حفيظة شخص ما.
- * لا تطلب المساعدة أو الدعم لأنك تشعر أن هذا يضعف من موقفك، أو ستكون مطالباً برد الجميل.
- * لا ترتبط بأحد ولديك شعور داخلي بأنك سوف تُهجر.
- * لديك شعور أن رأيك لن يكثرث به أحد، فلا تقوله أو تعبر عن نفسك.
- * لا تسمح لأحد أن يرى «جوانبك السيئة» أو ضعفك.
- * تشعر أنك «أقل»، أقل ذكاءً أو أقل فراسة أو أقل قدرة.
- * لا تصدق أنك تستحق الحب وأن هناك من يحبك فعلاً.
- * لا تستطيع إجراء حوار مع شخص ما وأنت تنظر بعينه. تجدك تشيح بوجهك وتضطرب.
- * من السهل إرباكك.

- * تشعر بالحزن والاكتئاب غير المبرر. تشعر بالحنين لشيء مجهول.
 - * لا تعرف كيف تقطع علاقتك بشخص يسمم حياتك. لا تعرف كيف تحمي نفسك من الاتهامات أو الكلام الجارح.
 - * تشعر بالغضب، دائماً. آراؤك غاضبة، كلامك غاضب، حركاتك غاضبة، حتى تعليقاتك على مواقع التواصل الاجتماعي هجومية غاضبة، على عكس شخصيتك في الواقع.
- كيف حدث هذا؟ كيف تحمي طفلك من هذا المصير؟
- * لا تترك رضيعك يبكي بحجة تعلم الاستقلال. أنت تعلمه أنه لا قيمة له وأنت لا يعتمد عليك، أول مسمار في نعش الثقة بالنفس وتقدير الذات.
 - * لا تتعامل مع طفلك بالصراخ والزعيق أو الضرب.
 - * لا تضع كل تركيزك في أخطاء طفلك ونقاط ضعفه. امدح محاسنه ومحاولاته ونجاحه.
 - * لا تعلق نجاح طفلك بحافز خارجي أو مكافأة. الحافز الأساسي هو رضا الطفل عن نفسه. من لا يعرف الرضاء عن النفس صغيراً لن يعرفه كبيراً.
 - * لا تلق اللوم على طفلك كلما أخطأ أو كلما حدث أمر سيئ.
 - * لا تجبر طفلك على الاعتذار.
 - * لا تفرض على الطفل رأيك وتشكك بقدرته على اتخاذ القرار أو الاختيار.
 - * لا تقهر طفلك بحرمانه من النقاش والتعبير عن وجهة نظره.
 - * طفلك سيصدق ما تقوله عنه وله.
 - * لا تقل لطفلك «افعل كذا علشان أحبك». لا تقرن حبك بشيء. لا تشترط أي شيء في مقابل الحب.
 - * أنت رمز للسلطة، علاقتك بطفلك ستحدد شكل علاقته بأي رمز آخر للسلطة في المستقبل.
 - * ثق بطفلك ولا تجعله يبرر كل شيء ويشرح كل شيء وكأنه دائماً متهمًا بشيء ما.
 - * من حق طفلك أن يقول «لا». أول تدريبات الرفض ستكون معك وفي منزلك.
 - * إذا طلب الطفل المساعدة، ساعده. لا تذله أو تهينه أو تعيره.

- * لا تختفي فجأة. لا تترك طفلك فجأة. لا تشعره بعدم الأمان لأن هذا الشعور سيطارده طوال عمره.
- * أنصت لطفلك ولمحاولته لتكوين المنطق.
- * من حق طفلك أن يضعف ويخطئ ويسيء الاختيار، وواجبك أن تكون موجودًا لتساعده على تصحيح مساره.
- * عبر عن حبك لطفلك صراحة.
- * لا «تزرع» له، حتى لا تكسر قدرته على التواصل البصري.
- * استثمر في اللحظات السعيدة والضحك واللعب والمشاركة.
- * لا تهين طفلك باسم الحب أو الخوف عليه أو مصلحته.

الفخ

التربية: الكلام سهل والتنفيذ فخ!

أكتب عن فلسفة المونتيسوري في تربية وتعليم الأطفال، وأجيب أسئلة الأمهات كل يوم عن الثواب والعقاب والعند وتحديات الأمومة. فجأة وجدت نفسي أمام طفل غير طفلي وبدأت أشكو من كسله ومن عدم تركيزه ومن تزميره من الأنشطة. بدأت أشك في نفسي وفي الطريق الذي اخترت اتباعه، وغرقت في دائرة المشاعر السلبية تجاه نفسي وتجاه طفلي وتجاه كل ما حولي. انحسرت مشاعري وتعرت صخوري، وجلست أنتظر نداء الوحش القابع في أعماق المحيط!

تربعت على قمة البؤس وبدأت أبحث عن طفلي الجميل الذي ضاع مني في الطريق. تمامًا كمن ضاع منه شيء ثمين، جلست أراجع جميع خطواتي وتصرفاتي مع «آدم»، بداية من هذه اللحظة الحزينة، حتى نقطة التحول في سلوكه. الفرق الوحيد بين «آدم» قبل هذه النقطة و«آدم» بعدها كان أنا!

• النظرات

اعتاد «آدم» مني على نظرات الرضا، راضية عنه شكلاً وموضوعاً وفعلاً وقولاً منذ كان رضيعاً! أدركت أن في تلك الفترة المظلمة أصبحت نظراتي له جامدة متقدمة مهاجمة ينقصها القبول والاحتواء. استرجعت نظراتي الفارغة وكأني أتطلع إلى عالم موازٍ من نافذة في خيالي. استرجعت نظراته، تتفحص وجهي تبحث عن أي أثر لأمه التي يعرفها.

• نبرة الصوت

اعتاد «آدم» صوتي الواضح وألف مخارج حروفي وسرعة كلامي وأسلوب إلقائي ولغة جسدي. صوتي العالي كان دليل الحماس والحب والطاقة، وفجأة انخفض صوتي فأصبحت أتحدث بلا روح كمن فقد إيمانه باستجابة الدعاء! أصبحت أخاطبه بكلمات مقتضبة وأوامر مباشرة بنبرة حادة.

• الكلام

اعتاد «آدم» مني الاحترام! أنظر له باحترام! أحدثه باحترام! أكلمه باحترام! أقول له أنت محترم! أذكره دائماً بصفات المحترم! أنتظر منه أن يكون هذا المحترم. يجنبي «آدم» ويريد أن يرى في عيني نظرة القبول والرضا فيحاول دائماً أن يكون محترماً.

في لحظة مظلمة توقفت عن احترام طفلي ولم أدرك هذه اللحظة إلا عندما جلست على قمة البؤس أسترجع طريقنا. اتهامات مباشرة بالكسل! نقد مباشر لأخطائه! صفات سلبية أقذفه بها! صمت، أقابل كل محاولاته لاستعادتي بالصمت! كم مرة سألني إذا كنت أحبه، وفي كل مرة كنت أحبيه بصوت يفتقد الحياة بالإيجاب. لم أدرك أنه لا يشعر بهذا الحب وأنه يحاول لفت انتباهي لنظراتي ونبرة صوتي وكلامي وكم هم مؤلمون بالنسبة له. أدركت أن المشكلة لم تكن بطفلي! أنا المشكلة! أنا سبب انطفاء لمعة عينيه وسبب الكسل وسبب رفض الأنشطة!

بدأت التغيير في لحظتها! بدأ هو أيضاً يتغير مع تغير معاملتي له! لقد عاد لي طفلي السعيد النشيط الشغوف عندما عاد احترامي له وإيماني به. لا يهم أنني كنت مضغوطة

أو مهمومة أو مخنوقة! لا يهم أسباب ضيقي وكربي! هذه الأعذار لا تبرر الأخطاء التي ارتكبتها، والتمسك بالأعذار لن يصلح العلاقة بيني وبين طفلي. أكتب هذه السطور لكل أم غير راضية عن طفلها، وأطلب منها مراجعة نفسها مثلما راجعت نفسي. أكتب لأذكر نفسي بضعفي وادميتي. للأسف، لا توجد أم مثالية ولا توجد تربية سهلة ولا توجد أمومة بلا تحديات مهما حاولنا أو تمنينا.

إستراتيجيات توجيه الطفل

هجرت د. «ماريا مونتيسوري» أسلوب الثواب والعقاب المتعارف عليه في التعامل مع الأطفال، واستبدلت به إستراتيجيات تعتمد على التوجيه قبل أن يقع الطفل في الخطأ أو بعده.

إستراتيجيات توجيه الطفل هي طرق للتواصل مع الطفل بطريقة إيجابية هدفها إرشاد الطفل برفق_دون قهر أو غصب أو إجبار_ وتعتمد على تعريف الطفل على البدائل المتاحة أمامه لاستبدال بالتصرف الخاطئ تصرفاً سليماً. كما تستبدل بالمدح المباشر تسليط الضوء على المجهود الذي بذله الطفل، أو على المثابرة، أو على شرف المحاولة، وبدلاً من التهليل والتصفيق، يكتفي الطفل بابتسامة رضا من الأهل ليدرك أنه على الطريق الصحيح.

كما ذكرت سابقاً، نفرت د. «ماريا مونتيسوري» من المنافسة بكل أشكالها، وخلت جميع أنشطة المونتيسوري من فكرة «الأول» و«الأخير» و«الأنا». لا يوجد سباق لنعرف من سيصل أولاً، ولا توجد مسابقة لنعرف من سيكون الفائز، ولا يوجد نشاط يشجع الطفل على التنافس مع زملائه.

احترمت د. «مونتيسوري» قدرات الطفل الفردية ورفضت مقارنته بغيره من الأطفال، كما رفضت أسلوب تأنيب وتبكيك طفل لعدم استطاعته فعل شيء ما، كذلك رفضت السخرية من الأخير. تعاملت مع الطفل باحترام، ووجدت أن التوجيه السلبي ينتج عنه طفل يخشى المحاولة، ويحقد على من حاول ونجح. دائرة الغيرة والحقد والمشاعر السلبية التي يغرق فيها الطفل سببها أسلوب توجيه الأهل.

في حالة السلوك الخاطيء تنصح د. «ماريا مونتيسوري» الأهل بالآتي:

لا تكافئ السلوك الخاطيء بالاهتمام المباشر، بعض الأطفال يتعمدون الصراخ أو تكسير الأشياء للفت انتباه الأهل حتى وإن كان هذا الانتباه شخط ونظر أو ضرب وإهانة. بدلاً من التركيز على السلوك الخاطيء، ساعد الطفل على تحديد مشاعره «إنت زعلان؟» أو «إنت رميت العربية على الأرض علشان إنت غضبان؟» أو «إنت زهقان؟» أو «أنا شايف إنك بتعيط، إنت عايز تنام؟» في الكثير من الأحيان تكون تصرفات الطفل لأسباب داخلية لا يستطيع التعبير عنها بوضوح، وعليك كشخص بالغ رفض السلوك السيئ بدون رفض الطفل نفسه ومشاعره.

متى وكيف تتدخل في لعب - عمل - الطفل؟

سواء كان الطفل يلعب وحده أو مع أطفال آخرين، لا تتدخل إلا إذا كان الطفل في خطر، تطالب د. «ماريا مونتيسوري» الأهل والقائمين على رعاية الطفل بإعطائه فرصة لحل مشاكله بنفسه ولاستكشاف المواقف والأشخاص بعيداً عن التوجيهات المسبقة. مثلاً إذا وجدت الطفل يستكشف كشاف النور أو التليفون أو الريموت، لا تتدخل بالتوجيهات أو النصائح أو الإرشادات إلا إذا كان هناك خطر على الطفل. إذا نشب صراع بين طفلك وطفل آخر على لعبة ما، فلا تتدخل إلا إذا فشل الطفلان في التواصل وظهر أن أحدهما سيلجأ للعنف.

كيفية التدخل تعتمد على الموقف، لكن في جميع الأحوال يجب أن تتدخل برفق وهدوء واحترام. يمكنك التدخل بطرق عديدة منها:

- التحذير: حاسب تقع أو خلي بالك من الزجاج.

- تشيتت انتباه الطفل الغاضب وتوجيهه إلى نشاط آخر.
- اقتراح لعبة أخرى يلعب بها الطفلان المتعاركان.
- الاندماج مع الأطفال في اللعب يشجعهم على المشاركة ويمجد لهم أصول اللعب معاً ومتعته.
- الالتصاق: تأخذ الطفل المشاغب بعيداً عن الأطفال المنهمكين في عملهم وتلصقه بك حتى يهدأ ويمجد نشاطاً يستهويه.
- تدخل قبل أن يصاب الطفل بالإحباط لكن لا تنس الاستئذان. مثلاً لاحظت أن طفلك يحاول بناء شيء ما ولكن بنيانه لا يصمد وبدأ الطفل في الانفعال. لا تنتظر حتى يفقد الطفل أعصابه. تدخل بهدوء واعرض المساعدة.

الاختيار الموجه

إستراتيجية الاختيار الموجه تعتمد على احترام حق الطفل في الاختيار، وتبني ثقته في قدرته على اتخاذ القرار، وتجنبك صراعات القوى مع الطفل. ضع أمام الطفل اختيارين كلاهما إيجابيين وفي صالحه، واطلب منه أن يختار. مثلاً عند إعداد الطعام، اسأله هل تحب أن تأكل باميا أم فاصوليا، وعند الأكل علمه الالتزام باختياره. من مزايا هذه الإستراتيجية أيضاً تقليل استخدام أداة النفي «لا» من جميع الأطراف. مع مرور الوقت يمكنك إعطاء الطفل ثلاثة أو أربعة اختيارات على الأكثر.

اللمسات الحانية

الأحضان والقبلات والاحتواء واللمسات الحانية تساعد مخ الطفل على النمو كما يشعر الطفل بالحب والدفع والانتماء. في أحيان كثيرة، الطفل المشاغب يحتاج إلى حب أكثر واحتواء أعمق، لا إلى المزيد من الجفاء والعقاب. انتهز فرصة القراءة معاً أو مراقبة الطيور أو مشاهدة برنامج ما، لتأخذه في حضنك. كلما وقعت عينك على طفلك احضنه وقبل رأسه، وكلما مر بجانبك ربت على كتفه، وكلما التقت أعينكم ابتسم، ثم راقب التغيير الإيجابي في سلوكه معك ومع الآخرين.

تمهل

الطفل ليس شخصًا بالغًا محدود القدرات، الطفل شخص صغير أمامه الكثير من الوقت ليكبر ويطور من قدراته. عند مخاطبة الطفل استخدم عبارات قصيرة واضحة حتى لا يختلط عليه الأمر، وعند السير بجانب الطفل تمهل لأن هدف الطفل هو امتصاص كل ما يراه وليس الوصول إلى السيارة. تمهل قبل إصدار حكم «الغباء» أو «التخلف» أو «الهبل» على طفل سوف يصدق حكمك عليه وكلامك عنه! استمع إلى محاولاته اللغوية والجسدية لشرح موقفه واحتياجاته ولا تسخر منه تحت أي ظرف.

التغيير

لقد نشأ أغلبنا في أسر ومدارس تلجأ إلى الضرب والعقاب الجسدي بمختلف أنواعه للتعامل مع الطفل الغاضب أو الطفل قليل الأدب أو الطفل المخطئ! لقد تشرب من تربي بهذه الطريقة الصراخ والإهانة والعنف كأسلوب وحيد حاسم للتعامل مع الأطفال المغضوب عليهم!

الكثيرون يرفضون هذا الأسلوب في التربية بعقلهم، لكن في مواقف كثيرة تنهار قدرتهم على السيطرة على ميراث العنف، ويكررون نفس الأخطاء، ثم يقعون في براثن الشعور بالذنب. مع الوقت والضغط، وتكرار العنف، تتبدل المشاعر ويتنقل العنف من جيل الآباء إلى جيل الأبناء وتستمر دائرة العنف والقهر رغم النوايا الحسنة ومحاولات التغيير.

التغيير الحقيقي في السلوك طريق طويل وصعب ومليء بالانتكاسات! هذه بعض النصائح التي قد تساعد في رحلة التربية المرهقة:

- أحيطوا أنفسكم بالعديد من الآباء والأمهات الذين يشاركونكم نفس القناعات في التربية السلمية المسالمة. هؤلاء سوف يقومونكم حين تخطئوا ويساندونكم حين تخور قواكم!

- كرروا في بداية كل يوم عهدكم بعدم الصراخ في طفلكم! كرروا وعهدكم له بالحب والصبر!
- احضنوا طفلكم كثيرًا وقبلوه طويلاً، كل يوم! هذا هو المصدر الحقيقي لطاقة الصبر والحنان التي تحتاجونها!
- ذكروا أنفسكم بمعاناتكم الشخصية مع القهر والقمع والعنف!
- إذا أخطأتم في حق طفلكم، اعتذروا وكرروا الاعتذار! اعتذروا بالتفصيل! «أنا آسف! لقد أخطأت حين فعلت كذا وحين قلت كذا وحين وصفتك بكذا! هذا تصرف سيئ مني وأنا حقاً آسف! هل تسامحني؟»
- تذكروا أن كل شيء له علاج إلا النفس المكسورة! الملابس المتسخة يمكن تنظيفها أو شراء غيرها، والأشياء المكسورة يمكن إصلاحها أو الاستغناء عنها، لكن الطفل المكسور لا يمكن علاجه!
- امنعوا الخطأ قبل حدوثه قدر الإمكان! اعرفوا علامات التعب والإرهاق والزهق التي تظهر على طفلكم قبل ارتكاب الحماقات!
- الطفل الطبيعي يجب استخدام «لا»! لا تضعوه كثيرًا في مواقف الاختيار التي تكون نتيجتها لا. مثلاً: «أتريد أن تأكل جبنه وخيار أو بيض وخيار؟» الاختياران إيجابيان، وأياً كان رد الطفل فسوف تكونون سعداء.
- لا تنتقلوا من نشاط إلى آخر فجأة! أعطوا لطفلكم فرصة لتأهيل نفسه للخروج أو لمغادرة المكان أو لترك لعبة ما! هذه الفرصة قد تكون بالكلام المباشر أو بإشارات يعرفها الطفل. مثلاً: في المطعم يعرف الطفل أنكم على وشك المغادرة حين تتطلبوا الحساب وتدفعوا.
- اجعلوا هدفكم أن يكون عقاب الطفل هو اختفاء البسمة من على وجهكم حين تنظرون له أو ينظر إليكم.
- حين يخطئ الطفل لا تهاجموا شخصه بل انتقدوا تصرفه! بدلاً من «أنت غبي» قولوا «كسر الريموت ليس تصرفاً ذكياً! كيف سنشغل التلفزيون الآن؟»
- اسألوا طفلكم لماذا فعل هذا أو لماذا يرفض ذلك. ربما يكون له وجهة نظر في تصرفاته. إذا لم يكن هناك سبب فسوف يدرك خطأه ويتعلم منه.

- تذكروا أن الصراخ يؤدي إلى المزيد من الصراخ المضاد وأنك، كأم أو أب، الكبير البالغ المسيطر على الموقف.
 - كلنا نخطئ! المهم هو أن نتعلم من الخطأ ونتوقف عن تكراره!
 - لا تكابروا ولا تعاندوا ولا تستسلموا!
 - إذا كنتم تعانون من ضغوط كثيرة، تعاملوا مع الضغوط واستعينوا بالأهل والأصدقاء بدلاً من الانفجار في وجه الطفل!
 - طفلكم لن يتوقف عن ارتكاب الأخطاء! سوف يكبر الطفل وسوف تتغير أشكال الأخطاء! هذا واقع!
 - الكثير من الاهتمام والحب والضحك يقلل نوبات غضب الطفل والأخطاء التي ترتكب بغرض لفت انتباهكم!
 - اسألوا طفلكم أن يذكركم حين تخلفوا وعودكم له بالهدوء والسيطرة على انفعالاتكم!
 - يمكنكم البدء في التغيير اليوم، اليوم!
- نسبة الـ 5:1 في إنقاذ علاقتكم بطفلكم

اكتشف الباحثون النفسيون في مؤسسة «جوتمان» طريقة للتنبؤ بمصير الزيجات، الزيجات التي لا تقابل فيها كل لحظة سيئة أو كل شعور سلبي أو كل مشادة، بخمسة لحظات إيجابية تنتهي بالانفصال! تقول د. «لورا مارخام» إننا إذا طبقنا هذه القاعدة على علاقتنا بأطفالنا ستمكن من التنبؤ بشكل مستقبلنا معهم. هل تريدون علاقة تشوبها التصادمات والخلافات مع طفلكم في سن المراهقة؟ هل تريدونها فاترة سطحية؟ هل تريدونها متفجرة بلحظات الغضب ومشحونة بالسلبية؟ إذا كانت الإجابة لا، أنقذوا مستقبلكم الآن.

أمثلة الأخطاء السلبية في حق الطفل:

- الصراخ في وجهه.
- الضرب بكل أشكاله.
- الإهانة اللفظية.
- السخرية.
- عدم الانتباه لحديثه.

- النظرات الجارحة.
 - المقارنة بينه وبين طفل آخر.
 - اتهامه بصفات سلبية مثل الفشل أو الغباء.
 - تركه أمام التليفزيون «للتخلص منه».
 - حرمانه من حقه في الاستكشاف واللعب والمرح والخروج والفسح والانطلاق.
 - القهر والتحكم وفرض رأيكم بديكتاتورية.
- أمثلة التصرفات الإيجابية لتعويض الطفل:
- اللعب معاً بدون مقاطعات تليفونية وبدون شاشات وبدون زهق أو تملل. اللعب مع طفلكم بكل جوارحكم.
 - الضحك معاً. الضحك على مشاهد كوميدية أو الضحك أثناء اللعب.
 - الحضن. تكرار الأحضان والتعبير اللفظي الصريح عن حبكم لطفلكم.
 - الاعتذار الصريح المباشر عما بدر منكم مع إبداء الندم.
 - الكلام الإيجابي في حق الطفل مباشرة له وأمامه عند الحديث عنه.
 - الفسح والتنزه والاستمتاع بصحبة الطفل وأسئلته وتعليقاته وكلامه.
 - الإنصات للطفل وتشجيعه على فتح حديث معكم.
 - الابتسام في وجه الطفل كلما التقت أعينكم.
 - مشاركة الطفل أحداث يومكم والاستمتاع بالحوارات الشائقة معه.
 - تشجيعه على المناقشة وإبداء رأيه.
- امتنعوا عن تعويض طفلكم بشراء الألعاب أو الهدايا أو إعطائه المال، كطريقة لتعويضه عن قسوتكم أو إهانتكم أو اعتداءكم أو تجاهلكم. علاقتكم بطفلكم لا تصلحها الرشاوي المادية، بل بالعكس سيتعلم الطفل ابتزازكم واستغلالكم، ومع الوقت ستتلور مشاعره تجاهكم وتصبح سخطاً واحتقاراً لشخصكم وفكركم، حتى وإن لم يعبر عنها صراحة.
- تذكروا أن قوة علاقتكم بطفلكم وعمقها هي حجر الأساس في التربية والتهديب والتوجيه، وأن الاحترام المتبادل بينكم هو الاستثمار الحقيقي للمستقبل. مهما كانت أخطاؤكم في حق الطفل، ومهما ظننتم أنكم تأخرتم، ابدءوا الآن بمحاولة جادة لتقويم أنفسكم وتعديل سلوككم، وابدءوا الآن بتطبيق قاعدة الـ 5:1.

جهاد الأمومة

في يوم من الأيام قصصت على «آدم» قصة السور المخروم، تقول القصة إن هناك رجلاً أتى بابنه عند سور خشبي، وأعطاه صندوقاً من المسامير وشاكوشاً، ثم طلب منه أن يدق جميع المسامير في السور. انتهى الولد من مهمته، فأعطاه والده كماًشة وطلب منه أن يخلع جميع المسامير من السور. سألت «آدم» في هذه اللحظة «كيف سيكون شكل السور بعد أن يخلع الولد المسامير؟» فقال «مخرم». قلت له إن هذا حال قلبي الآن، الاعتذار مثله مثل خلع المسامير من السور ولكن يبقى الخرم.

منذ سنوات عديدة، عندما كان «آدم» رضيعاً، قالت لي أم، قابلتها في حمام حديقة الأطفال، إن ابنها يُصعّب عليها حبه. وقتها لم أكن «مروءة رخا» كاتبة مقالات المونتيسوري، كنت مجرد أم حديثة العهد بالأمومة تغير حفاظات طفلها في الحمام. أتذكر هذه الأم، وأنا أجاهد نفسي ألا أعضب على ابني. كنت أحاول بشدة ألا ألفظه مثلما أتقياً طعاماً فاسداً. في قمة يأسِي وإحباطي، أسمع صوتاً بداخلي يقول بسخرية إنه كان من الأحرى بي أن أتبنى كلباً بدلاً من جهاد الأمومة هذا.

الأمومة جهاد لا يتحدث عنه أحد ولا يعترف به أحد ولا يسمح به أحد. من تتحدث عن جهاد الأمومة تتهم بالبطر على النعمة أو تتهم بخلل في غريزتها. صورة الأم السعيدة، الراضية، الخاضعة، المعطاءة، المضحية إلى أبد الأبدين تحاصر كل أم في الحياة الواقعية لتجعلها تشعر بالقصور والنقص وجلد الذات.

لولا الهرمونات وتأثيرها على وضوح الرؤية لكانت الأمومة بكل بساطة، منذ بدء تكون الجنين، قصة حزينه عن كائن طفيلي ينمو داخل جسد سيدة ما ليجرده من عناصره وينخر في عظامه حتى يتضخم ويفجرها خارجاً تاركاً خلفه مخلفات جسد. يلتصق هذا الكائن الطفيلي بجسد هذه السيدة ليمتص دمه وقوته وصحته لأعوام طويلة. يستمر الجسد في خدمة الكائن الطفيلي حتى يستقل عنه.

جهاد الأمومة هو أن تحب هذا الكائن الطفيلي بدون أي شروط، بدون أي توقعات، بدون أي طلبات. جهاد الأمومة هو أن تقوض رغبتك الغريزية في الدفاع عن جسدك وعقلك وروحك ومنزلك ودخلك ومقتنياتك ضد كائن طفيلي محتل. إذا أردت أن تُسخر عبداً خادماً لك، أعطه من النوم والطعام والراحة فقط ما يبقيه بالكاد على قيد الحياة. أنهكه بالأشغال الشاقة، وبعد عدة أشهر، سيتوقف عقله عن العمل وسيكف عن مقاومة الذل وسيُنسى حقوقه وسيخضع لسيدته. العقل والمنطق لا يجتمعان مع جسد مرهق في حالة صراع من أجل البقاء. جهاد الأمومة هو أن تحافظ على قواك العقلية وأنت تعيش حياة هذا العبد.

جهاد الأمومة هو جهاد دائم ضد التمرد على شخص لا يرضى ولا يشكر ولا يحمى ولا يشبع مهما قدمت ومهما فعلت ومهما أعطيت. أجاهد نفسي كل يوم ألا أتمرد على علاقة قائمة على الابتزاز والاستغلال باسم الأمومة. الآن وقد تحدثت عن جهادي اليومي لأكون أمًا، سأعترف بأنني مثل كل أم، مصابة بـ«متلازمة ستوكهولم» حيث يجب العبد سيده ويتعلق المختطف بخاطفه ويرتبط الجسد بالكائن الطفيلي. أستمتع باحتياج الكائن الطفيلي لي وأستمتع بالألم الجسدي والنفسي وأستمتع بالضغوط المادية المفروضة عليّ وأستمتع بكوابيسي التي يختلط فيها الماضي والحاضر والمستقبل وتطاردي آمياتي ورغباتي لأستيقظ كل يوم ساعية لحرיתי خائفة من الحصول عليها.

الأمومة ليست متعة خالصة وليست حالة دائمة من الانتشاء والحب. الأمومة مثلها مثل الحياة، الكثير من المشقة والألم والحزن، تتخللها لحظات، طالت أم قصرت، من المتعة. شم رأس رضيعي متعة. مراقبة استدارة رأسه متعة. تحسس جلده متعة. النظر في عينيه متعة. احتضانه متعة. مراقبته يكبر ويكتسب مهارات متتالية متعة. الإمساك بكفه الصغير متعة. مشاهدة أولى خطواته متعة. سماع كلمة «ماما» و«بحبك» متعة. كبر رضيعي وأصبح ولدًا يحاورني ويشاركني أيامي. الحديث معه متعة. التعرف على شخصيته متعة. حضنه لي متعة. صوت نفسه المنتظم أثناء النوم متعة. تأمله يركب الدراجة بعيدًا عني متعة. تأمله يسير نحوي حاملاً باقة من الأزهار قطفها خصوصًا لي متعة.

لقد قلت لكم، لحظات، طالت أم قصرت، من المتعة! أما ما بين لحظة ممتعة وأخرى فهو جهاد تلك الرغبة الملحة في الاستسلام! الرغبة في عدم استقبال صباح آخر! الرغبة في التقوقع في مكان مظلم حتى يطويني النسيان! الرغبة في التحليق من فوق الشرفة! الرغبة في الصمت الأبدي، السلام الأبدي، السكينة الأبدية، نقطة النهاية بعد الجملة الأخيرة في الصفحة الأخيرة من الفصل الأخير في الرواية الأخيرة.

قابلت شابات في مراحل مختلفة من الحمل. كن كلهن طاقة إيجابية وأحلامًا وتطلعات لرحلة أمومة مفروشة بالورد والياسمين. رأيتهن بعد الولادة، في بداية الرحلة، ورأيت تحبطهن بعد أن صدمهن الواقع وتحطمت أحلامهن على صراخ الصغير واحتياجاته اللانهائية. التقت أعيننا. رأيت ملامح الصراع وأثار الجهاد اليومي. شعرت بهزيمتهن، أردن ألا يصرخن في الطفل! أردن ألا يضربنه! أردن أن يقدمن له قلوبهن على طبق من ذهب! لم يستطعن! لقد هزمتهن الأمومة!

أما أنا، فلم أهزم بعد! ما زلت أجلس على شاطئ مهجور على الحدود بين الحياة والموت لأراقب تقلبات قلبي. ما زلت أرى صخور القاع وقد انحسر عنها الحب وتعرت مشاعر الاستياء والغضب والألم والرفض. أراني متحجرة متخشبة وقد جفت ينابيع الأمومة بداخلي. أنظر لطفلي فأتمنى أن يختفي، أو أن أختفي أنا! تنحسر الأمومة، تتعري الصخور، يقول أحبك وكأنه يشعر بتراجع حبي، أنظر له وكأنني تعثرت على الحدود بين الواقع والخيال.

أراني أغرق كصخرة ضخمة وقعت من سماء الأمومة في محيط الحزن والذنب والندم. لا أقاوم. لا أصارع. أستسلم للغرق والاختناق على دموع تحرق حلقي، أجلس على الشاطئ في انتظار المد والمدد، أراقب المياه المنحسرة تعود رويداً رويداً. تعود أمومتي وتفيض فتغطي صخوري التي يرتطم بها صغيري. أحتضنه وأشم رأسه ويديه. أقبل قدميه وأنظر بداخل زرقة عينيه، فأجدني وأجد حبه لي وتعلقه بي. يناديني محيط الحزن والذنب والندم كل ليلة، يزأر الغضب، ويثور البركان الكامن في قاع المحيط، يناديني وحش الخوف من الفقد، أستيقظ، أجاهد، أحتفل بالانتصارات الصغيرة وأستعين بحضن «آدم» على الكلب الأسود، كلب الاكتئاب الأسود!

ألم الحياة

أنظر إلى «آدم» في نهاية كل يوم وهو نائم، كم هو بريء! كم هو جميل! كم هو حنون! كم هو أخضر! أفكر في «حال الدنيا»، فينقبض قلبي. أفكر في رائحة الياسمين وملمس ورائحة الريش، فأشعر بالسلام والأمان. أسأل نفسي عن درجة حمايتي لـ«آدم» من الألم النفسي، هناك شعرة بين الحماية والتضليل. إلى أي درجة نحمي أطفالنا من الواقع والحقائق؟ إذا صنعنا حجاباً متيناً بين الطفل وبين حقائق هذا العالم، ظناً منا أننا نحميه، نحن نفعل العكس تماماً. العزل التام عن الحقائق يدمر الطفل على مستويين، نربي طفلاً منفصلاً عن الواقع، وفي نفس الوقت سيتعرض الطفل لكم صدمات متتالية عند خروجه من تحت مظلتنا، قد تكسره إلى الأبد. سأعرض الآن بعض الأمثلة لتلك الحقائق التي يجب ألا نعزل أطفالنا عنها.

* الموت / الفقد

الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في هذه الحياة. كلنا سنموت. كل الكائنات الحية تموت. عدم تعريض الطفل لهذه الحقيقة مبكراً والكذب عليه بشأن وفاة حيوان أليف أو

موت زرعة أو فقد عزيز لن ينفعه في المستقبل. من المهم أن يعرف الطفل الحقيقة في وقتها وأن يفهم أن هذا واقع. دورنا ليس حجب حقيقة الموت عن الطفل لكن مساعدته على فهمها وتقبلها وعلى التعبير عن مشاعره بحرية تامة. إذا كان الطفل ذكراً، أرجوكم، لا تقولوا له أبداً إن الرجال لا يبكون.

* الحوادث

حوادث الطريق واقع نراه كل يوم. أتعمد أن ألفت نظر «آدم» للحوادث على الطريق، ونعتبرها فرصة لمراجعة أهمية التأني، وأهمية ربط حزام الأمان، وأهمية النظر جيداً قبل عبور الطريق، وأهمية احترام إشارات المرور. نتحدث عن سيارات الإسعاف وعن الطرق، وكيف يجب أن تكون لتقلل من نسبة الحوادث.

* الأمراض

الأمراض أيضاً واقع. بعضها بسبب واضح والكثير منها بدون سبب. الإصابة بالأمراض مثلها مثل الموت لا ترتبط بعمر ولا جنس. يسأل «آدم» عن فلانة فأقول له إنها مريضة وتحتاج علاجاً طويلاً. يسأل عن السبب فأقول له إني لا أعرف. قد يكون بسبب أسلوب حياة أو أنواع طعام وقد يكون مجرد أن نصيبها كده! أبتعد تماماً عن ترسيخ فكرة أن المرض عقاب أو ابتلاء، المرض ليس إلا مرضاً!

* الحروب

في كتابنا المفضل «حياتهم مثل حياتي، كيف يعيش أطفال العالم»، يوجد جزء عن الأطفال في مناطق الحروب وكم كانت صدمة «آدم» هائلة عندما رأى منازلهم المهدومة ومدارسهم التي احترقها الرصاص ولعبهم ببقايا الدبابات والطائرات. تحدثنا كثيراً عن الحروب وعن أسبابها وعن ضحاياها. نتحدث أيضاً عن الحب والسلام، وأن هذا ما يفتقده العالم.

* الانفجارات والحوادث المدبرة

يجلس «آدم» في حضني كثيراً ويتصفح معي الأخبار على الفيسبوك. مرة يرى حطام طائرة ومرة يرى قرية محروقة ومرة يرى كنيسة تم تفجيرها وغيرها من الحوادث المحلية

أو العالمية. نتحدث عن الجريمة وعن الإرهاب وعن النفوس المريضة. للأسف هذا واقع! نتحدث عن الآخر وعلاقتنا به وحدودنا معه. نتحدث عن التقبل والتسامح. نتحدث عن العالم كما يجب أن يكون ولكننا نعرف أنه ليس كذلك.

* الخلافات العائلية

كان جدي وجدتي، أهل أبي، رحمهما الله، يخفيان أي مشاكل بينهما عن أبنائهم الثلاثة. كبر الأبناء ظناً منهم أن المتزوجين لا يختلفون، وأن زيجاتهم ستكون مثل زيجة أمهم وأبيهم. تزوج الثلاثة وصدموا! الواقع مختلف. لهذا، لا تخفوا مشاكلكم عن أعين الأطفال، لكن كونوا قدوة في كيفية التفاهم وحل المشكلات بتحضر واحترام. كونوا قدوة في التحكم بالغضب والتواصل البناء والذكاء العاطفي.

* قلة الموارد المالية

يفتح «آدم» محفظتي فيجدها شبه فارغة ويسألني عن المال. أقول له إنني لم أقبض بعد أو أنني سأذهب إلى البنك. يراني «آدم» وأنا أسحب المال ويراني وأنا أسدد البطاقات الائتمانية، ودائماً أبلغه بتطورات وضعي المالي بكل صراحة. لا ألومه على إنفاقي عليه ولا أحمله ذنب قلة الموارد المالية ولا أدعي الفقر في وجود الرزق. هو يعرف الحقيقة: لا بد أن نعمل لنجني الأموال ويجب أن نوازن بين المصاريف والمتوفر من الأموال.

* أولويات الصرف

في أوقات يطلب «آدم» لعبة وأقول له إنني ليس معي ما يكفي من المال. يجيبني أن في محفظتي 500 جنيه مثلاً. لا أنهره ولا أفقد أعصابي ولكنها فرصة لأوضح له أولويات الصرف، فيم سأصرف الـ 500 جنيه وله الفرصة ليختار بماذا سوف يضحى لشترتي اللعبة.

* الفقر

الفقر واقع في هذا البلد ولا يمكن تجنبه. دائماً يخلط «آدم» بين الفقراء والشحّاتين بناءً على مظهرهم. كل مرة أوضح له الفرق بناءً على تصرفاتهم. الفقر أيضاً نصيب، وأوضح لـ «آدم» أهمية التعليم وأهمية العمل وأهمية تطوير الذات حتى لا يكون في يوم من الأيام

معدماً أو شحاذاً. دائماً في كلامي عن الفقر أتكلم عن التعليم، وحتى عندما نختلف معاً أثناء درس ما وأغضب، يجري «أدم» خلفي ويقول «من فضلك علميني!»

هذه بعض الأمثلة لواقع مؤلم مخيف مرير نتمنى جميعاً ألا يراه أبناؤنا، لكن من الأفضل أن نختبروه في وجودنا وتحت مظلتنا لنحميهم من العجز عن التعامل مع الواقع فيما بعد.

المسؤولية

كيف يبدأ الطفل في تحمل مسؤولية نفسه؟

لا أتحدث هنا عن قدرة الطفل على ارتداء ملابسه وتحضير طعامه، أتحدث عن قدرة الطفل على تحمل مسؤولية نفسه الأدبية والأخلاقية في عدم وجود رقابة الأهل.

تربية الطفل وفقاً لفلسفة المونتيسوري يمكن تلخيصها في هذه النقاط:

- لا للثواب والمكافآت والمحفزات الخارجية بكل أشكالها.
- لا لتجاهل احتياجات الرضيع للحضن والرضاعة والاهتمام الدائم.
- لا للعقاب اللفظي والبدني والنفسي.
- لا للتهديد والحرمان وكرسي العقاب.
- لا للمقارنة بين طفل وآخر.
- لا للمنافسة بين الأطفال في أي صورة.
- نعم لاحترام الطفل وقدراته ومهاراته.
- نعم للتعاون بين الأطفال.

- نعم للقواعد. لا للفوضى.
- نعم للمشاركة وتحمل المسؤولية.
- نعم للطعام الصحي.
- نعم للاستكشاف والحركة بحرية.
- نعم للسلام. لا للعنف.

إذا اتبعتم هذه المبادئ في تربية طفلكم من الميلاد حتى عامه السادس، فستبدءون في جني الثمار واحدة تلو الأخرى، ستجنون طفلاً يحبكم ويحترمكم ويثق بكم، طفلاً يجدكم عوناً له ولا يتعامل معكم كعقبة يجب إزالتها من طريقه، طفلاً يحترم القواعد ويشعر بالسعادة في الابتعاد عن الخطأ واختيار الصواب.

عندما أوشك «آدم» على إتمام عامه السادس، وجدت أن دوري كأم تغير من شخص يلاحظ الطفل في كل الأوقات، ويوجهه دائماً، ويسيطر على البيئة الخارجية التي قد تؤثر على الطفل، إلى شخص يعلم الطفل كيفية التفكير في غيابي.

كيف يتحمل ابني مسؤولية نفسه في غيابي؟

بدأت المواقف تتوالى وبدأ احتكاك «آدم» بالعالم الخارجي يزداد وبدأت أرى صراعه الداخلي بين رغباته وتربيتي له وبين الضغوط الخارجية.

بدأت في وضع قواعد جديدة تساعد على التصرف خارج المنزل:

• اختر الصح

بناءً على تربية الستة أعوام السابقة والمواقف الكثيرة التي مررنا بها معاً، «آدم» يعرف الفرق بين الصواب والخطأ. بعد سن السادسة، يمكن للطفل اختيار الصواب والشعور بسعادة داخلية عند اختيار ما يعرف أنه الاختيار الصحيح.

• ما هو ممنوع داخل المنزل ممنوع خارج المنزل

هذا ينطبق على الطعام والشراب والألعاب.

• هناك فرق بين المعارف والزملاء والأصدقاء

الصديق الحقيقي لن يتركك ولن يرفض اللعب معك عندما تختار الصواب.

• تجلس بمفردك أفضل من جلوسك مع الناس الخطأ.

من الصعب أن تطلب من طفل في بداية تكوينه لعلاقاته الاجتماعية اختيار الوحدة، ولكن للأسف هذا الدرس الصعب سينقذه اليوم، وفي المستقبل، من الرضوخ لضغوط الأغلبية للتخلي عن مبادئه.

• فكر قبل التصرف

الاندفاع هو عدو هذه النصيحة. مع الوقت والمواقف والتدريب قد ينجح الطفل في التحكم باندفاعه وراء الآخرين أو اندفاعه وراء متعة مؤقتة من جراء اختيار خاطئ.

• تحمل مسؤولية نفسك

هذا هو أصعب درس ولكن هذا هو وقت تقديمه.

من حقلك أن تختار طعامك وملابسك وأصدقائك وهواياتك وألعابك لكن مع هذه الحرية تأتي مسؤولية تحمل عواقب الاختيارات على صحتك ونفسيك ومستقبلك.

المرحلة العمرية من 6 إلى 12 سنة هي فترة التدريب على استخدام هذه النصائح قبل المواجهة المباشرة مع الحياة من بعد الثانية عشرة. من الطبيعي أن يسيء «آدم» التصرف أو الاختيار، لكن المهم أن أكون دائماً مرجعاً له إذا احتاج إلى الدعم أو المشورة.

الهواجس

يوم ميلاد «آدم»، في الحضانة، رأيته صغيراً جميلاً رغم الألم والصراخ. بعد أن ضممته إلى صدري وأرضعته وتأملمته نائماً في حضني، بدأت الهواجس! هواجس مرعبة الشكل والمضمون! فجأة استرجعت كل مشاعري كطفلة، كفتاة، وكامرأة تعرضت للتحرش. فجأة استرجعت قصص أصدقائي ودموعهم وهم يحكون لي عن قصص التحرش، والاعتصاب، التي تعرضوا لها! فجأة استرجعت كل مشاكل القراء والقارئات التي كنت أجيب عنها بكل حب ودأب في الحياة ما قبل «آدم».

بدأ خوفي على «آدم» من الناس والمجتمع والمرضى النفسيين والمتحرشين واللا أخلاقيين وولاد «البيت» الذين يعيشون بيننا! كلما كبر «آدم»، كبرت معه مخاوفي وهواجسي!

كيف أحمي طفلي من التحرش؟

أولاً: هل يستطيع أن يقول «لا»؟

إجابة هذا السؤال قد تبدو بسيطة ولكن الموضوع معقد وصعب. الكثير من الناس مؤمنون بنظرية «الطفل المؤدب»، الذي يقول نعم وحاضر. نظرياً هذا الطفل جميل ومثالي

وحلم الكثير من العائلات، ولكن هل تعلمون كيف يتم تفعيل هذه النظرية؟ الطفل الطبيعي يجب أن يستخدم «لا» ويجب الاعتراض وتحدي القواعد و«المقاوحة»، ولكي تحصلوا على طفلكم «المؤدب»، حسب النظرية السابقة، عليكم بكسر روح الاعتراض والمقاومة داخله. الطفل أقل من 6 سنوات لا يستطيع التمييز بين الشخص البالغ الصديق والشخص البالغ العدو، ونتيجة توجيهاتكم المستمرة بالطاعة وتكرار العقاب اللفظي والجسدي، يفقد الطفل القدرة على الرفض. يفقد الطفل القدرة على التلفظ بـ«لا» حاسمة قوية ترد عنه الكثير من الأذى، ولأن شخصية الطفل تتكون في أول 6 سنوات، يكبر هذا الطفل ويعاني من نفس المشكلة، كيف يقول «لا»!

ثانياً: هل يعرف الطفل حرمة جسده؟

هذا السؤال أيضاً قد تبدو إجابته سهلة ولكن حرمة الجسد إحساس وليست معلومات يقرؤها في كتاب أو يتعلمها في درس! حرمة الجسد إحساس ينمو مع الطفل أو يقتله الأهل بأفعال غير مقصودة. من أمثلة التصرفات التي تقتل الشعور بحرمة الجسد، أمر الطفل بتقبيل شخص ما! قد يكون الشخص قريباً أو غريباً لم يشاهده الطفل سابقاً! يشعر الطفل أنه مستباح لأي شخص بالغ وأن من حق أي شخص حضنه أو تقبيله وأن عليه الطاعة!

دوركم كحماة لهذا الطفل لا ينتهي عند عدم غصبه أو ابتزازه لقبول أو يحضن شخصاً ما، دوركم هو منع لمس طفلكم بدون استئذان! لا يجب أن يضع شخص ما يده عليه لأي سبب من الأسباب! لا يلمس أحد شعره أو وجهه أو خدوده أو يده أو أي جزء آخر. مداعبة الطفل لها طرق عديدة لا يجب أن يكون ضمنها التعدي على جسده بدون إذنه.

ثالثاً: هل يعرف الطفل الفرق بين اللعب الجسدي واللعب الجنسي؟

يجب الأطفال اللعب الجسدي مع المقربين منهم مثل المصارعة أو الاستغماية أو أي لعبة أخرى تستدعي التلامس الجسدي. هذه الألعاب لا ضرر منها مادام الطفل هو الذي يسمح ويمنع ويضع شروط التلامس. قد تتحول هذه الألعاب إلى ألعاب جنسية بقصد أو بدون قصد! قد تتطور محاكاة التصارع إلى خلع بنظنون الطفل أو إلى تعرية مؤخرته أو إلى العض أو إلى عض رقبتة. قد يتطور اللعب مع البنات إلى لمس الصدر أو أي جزء آخر من جسدها. هنا يمتزج اللعب بالجنس وهذا مضر جداً للطفل وخاصة إذا كان أصغر من أن يعترض بالقول أو الفعل!

قد تلعبون أنتم معه هذه اللعبة اليوم بحسن نية، ولكن ماذا يحدث إذا حاول شخص غريب أو شخص مريض تكرار هذه اللعبة؟ للأسف لن يرفض الطفل وسوف يظن أن هذه الأفعال جزء من اللعبة!

رابعاً: هل هو مستقل؟

عند الحديث عن الاستقلال يفكر أغلب الناس في الاستقلال العاطفي لكن سؤالي الحقيقي هو عن قدرة الطفل على العناية بنفسه. هل يستطيع الطفل أن يدخل الحمام وحده وقضاء حاجته والعناية بنظافته وارتداء ملابسه؟ إذا كانت الإجابة «لا»، فالحقيقة هي أن ترك الطفل مع غرباء يعتنون به يجعله عرضة للتحرش والنسبة هي 50%!

خامساً: هل يجب الطفل اللعب مع من هم أكبر منه سنًا؟

قد تشعرون بسعادة لأن طفلكم يندمج مع جميع الأطفال حتى من هم أكبر منه سنًا، لكن هل فكرتم في خطر التحرش؟ قد لا يعني الطفل الأكبر التحرش بطفلكم، لكن قد يحدث التحرش من قبيل الاستكشاف أو التجربة أو لعبة من ألعاب فرض النفوذ والقوى. اسمحوا لطفلكم باللعب والاحتكاك، لكن لا تتركوه في حجرة مغلقة مع أطفال آخرين أو في منزل لا تعرفونه أو في مكان لا تعرفون القائمين عليه ومدى قدرتهم على مراقبة الأطفال والسيطرة عليهم.

عزيزتي الأم، عزيزي الأب، دوركم الأساسي في حياة الطفل هو حمايته من القريب قبل الغريب، ولا تتعجلوا انفصاله عنكم قبل أن يكتسب المهارات اللازمة للدفاع عن نفسه. لا تقتلوا قدرته على الرفض أو الصراخ تحت مسمى التربية، ولا تثقوا في أشخاص تتوسموا فيهم العلم أو التدين أو السلامة النفسية!

الأطفال والأسئلة الجنسية

يسأل الطفل ابتداءً من عمر ثلاث سنوات أسئلة يجدها الأهل محرجة، ويكون التسوية، أو التضييل عن غير عمد، أو التبسيط الشديد، هم المخارج التي يلجأ لها ولي الأمر المحرج من أسئلة طفله المخجلة. «لما تكبر»، «عيب الكلام ده»، «بس أسكت»، «إيه قلة الأدب دي» هي بعض العبارات التي يواجهها الأهل سؤال الأطفال من البنين أو البنات عن

أسماء أعضائهم التناسلية أو عن الفرق بين الذكر والأنثى. يبدع العديد من الأهل في تأليف قصص تبرر كيف يأتي الطفل إلى العالم!

لم أجد في نهج المونتيسوري كلامًا واضحًا ومحددًا يجيب عن أسئلة الأطفال، لكن في دراسة علم الحيوان _ التي تبدأ من سن ثلاث سنوات _ يتم شرح كل شيء بوضوح مما يؤكد أن د. «ماريا مونتيسوري» تريد الحفاظ على براءة الطفل وفي الوقت نفسه تريد أن تحفظه من الجهل! بالنسبة للطفل هذه أسئلة مثل كل الأسئلة، وكل ما يطلبه هو إجابة منطقية لأسئلته! بالنسبة للطفل، عضوه التناسلي لا يفرق عن يده أو فمه أو عينه، كلها أعضاء تساعد الطفل على إدراك العالم من حوله.

أفضل فترة لتقديم الطفل لفكرة التزاوج بين الثدييات _ ومنها البشر _ والطيور والأسماك والحشرات، هي ما بين ثلاث وست سنوات وفقًا لأسئلة الطفل وقدرته على الاستيعاب. لا أتخيل نفسي أشرح لطفل على أعتاب المراهقة هذا الكلام، ولا أريد أن يكبر ابني ويكبر معه تابو الجنس والجسد!

أول سؤال فاجأني به «آدم» كان عن سبب اختلاف الفرق في الشكل بين عضوه وعضوي! أصعب ما واجهني في إجابته كان التغلب على الموروث الثقافي الثقيل! نظرت له مثلًا أنظر له وأنا أجيب أي سؤال، وقلت له «كل عضو له وظيفة ولهذا كل عضو له شكل مختلف. لا يمكن لعضو الأنثى أن يكون بارزًا لأن هذا هو مكان خروج الطفل عند ولادته».

في يوم آخر أراد «آدم» أن يحمل وأن يلد! يومها قلت له «إن الأنثى تحمل وتلد».

ثم جاء اليوم الذي سأل فيه عن كيفية مجيئه إلى العالم، وحكيت له القصة كالتالي «بابا وماما حبوا بعض وحبسوا بعض وبعدين، زي المفتاح ما بيدخل في الكالون، عضو بابا دخل جوا عضو ماما وخرج منه حاجات زي السمك الكثير. سمكة واحدة بس وصلت لبيضة جميلة جوا ماما والبيضة والسمكة عملوا نقطة والنقطة لزقت جوا بطن ماما وفضلت إنت تكبر لحد لما بقيت بيبي جميل وبعد يوم ويوم قررت إنك عايز تشوف ماما وخرجت من بين رجلها وشيلتك في حضني ورضعتك».

خلال هذه الفترة شاهد «آدم» صور وفيديوهات السونار أثناء فترة حملي فيه، ورأى

النقطة ملتصقة برحمي وسأل إذا كانت هذه حجرة في بطني مخصصه للبيبي، وأجبت أنه هذه الحجرة اسمها رحم وأنها تكبر كلما كبرت النقطة. كم كنا محظوظين إذ حضرنا ولادة كاملة لمعزة، وسأل «آدم» إذا كان ولد هكذا، وأجبت بالإيجاب. رأى «آدم» التزاوج بين القطط، وبين الحمام، وبين فراشات دود القز، وبين الهامسترز، وأدرك أن الطيور تبيض، والبيضة إما تأكلها أو تفقس كتكوت، وأن النساء تبيض، والبيضة إما تصير دمًا شهريًا أو تصبح جنينًا.

سأل «آدم» أين كان قبل أن يصبح نقطة في رحمي وقلت له الحقيقة، إنه كان يعيش في قلبي!

بالنسبة لطفل في الرابعة أو السادسة، لا يوجد شيء اسمه جنس ولا يوجد شيء اسمه «سؤال عيب»! هذه هي الفرصة لشرح الأمور بمنتهى العقل والمنطق دون الخوف من إثارة الغرائز، فكما يعرف الطفل أننا نتبول ونتبرز يعرف أن الجنس البشري يتزاوج!

ماذا تفعل عندما يداعب طفلك أعضائه الجنسية؟

بين عامه الثاني والسادس سوف يبدأ طفلك أو طفلتك في لمس الأعضاء التناسلية. قد يكون الموضوع مجرد لمس أو مداعبة أو استمناء كامل! لا تفزع ولا تفعل!

أولاً: تأكد أن طفلك أو طفلتك في طفولته المبكرة غير مستثار جنسيًا ولا يفكر بالجنس كما تعرفه أنت. دافع طفلك هو الفضول! طفلك يتعامل مع القضيب، أو الفرج في حالة الأنثى، مثلما يتعامل مع أذنه أو أنفه. يصر طفلك على لمس نفسه عندما يدرك أن هذا الفعل يثير حفيظتك! يرى الطفل حرجك وانتفاضك وغضبك ويسمع نبرة صوتك النهائية الفرعة ويقرأ ملامحك المشمزة فيقرر استفزازك وابتزازك!

ثانيًا: عندما يلمس الطفل أعضائه، عرفه باسم ما يمسك: قضيب/ خصية أو فرج/ مهبل. لماذا؟ لأنك عودته على تسمية أجزاء جسده عندما يشير إليها، وهذه أعضاء مثلها مثل باقي الأعضاء لها اسم أيضًا. لا تقدم الاسم الدارج ولكن قدم الاسم العلمي الصحيح بكل هدوء وكل ثقة وبدون شرح.

ثالثاً: إذا وجدت طفلك يداعب أعضائه، اسأل بكل هدوء: «هل تريد الذهاب إلى الحمام؟».

رابعاً: يمكنك دائماً تشتيت الطفل بشيء آخر. طفلك يداعب نفسه بينما هو سرحان تماماً، اعرض عليه نشاطاً: «هيا بنا نرسم لوحة فنية.» أو «هل تريد أن تصنع معي كعكة؟» أو «هل تريد أن تبني عمارة طويلة بالمكعبات؟»

خامساً: إذا وجدت طفلك يداعب نفسه قبل أن ينام، لا تعلق! اعرض عليه أن تحكي له حدوتة. إذا وجدت طفلك يحك أعضائه التناسلية بوسادة أو مرتبة أثناء النوم، لا تفعل شيئاً! طفلك نائم ولا يعي ما يحدث.

سادساً: إذا وجدت طفلك يلمس نفسه في وجود ضيوف، أشركه في الحديث واجعله محور الحديث.

سابعاً: إذا لاحظت أن طفلك يداعب نفسه طوال الوقت، ويفضل العزلة للاستمنا عن اللعب مع أقرانه، أو المشاركة في الأنشطة الأسرية، فاعلم أن هناك مشكلة! قد تكون المشكلة الملل والزهق بسبب ترك الطفل وحده لفترات طويلة والانشغال عنه، أو عدم توفر الأنشطة المناسبة لسنه ومهاراته.

الأم النفسي والتوتر دوافع أخرى لاستمنا الطفل، قد يكون كلاماً سمعه الطفل خلسته أو شيئاً عنيفاً رآه أو خوفاً من شخص ما. قد تكون ضغوطاً نفسية أخرى مثل المقارنة المستمرة بينه وبين أقرانه أو التقيد الدائم، كل هذه الآلام النفسية والضغوط ينفس الطفل عنها بالاستمنا! الحل في هذه الحالة معرفة سبب التوتر وعلاجه وتوجيه الطفل لطرق أخرى للتخلص من المشاعر السلبية مثل الرياضة أو الموسيقى أو الفن أو الحوار.

أخطاء الأهل:

الزعيق والضرب والإهانة والفضيحة والتهديد والعقاب والإيذاء البدني لن يمنعوا طفلكم من استكشاف جسده، ولكنهم سيؤثرون سلباً على صورة الجسد لديه. ستغرسون بتصرفكم هذا بذرة «وساخة» الجسد والجنس وسوف يجني طفلكم مشاعر الذنب والرغبة كلما مارس الجنس، حتى بعد الزواج!

إذا أسأتم التصرف في هذه المرحلة، فسوف تقدمون طفلكم على طبق من ذهب للمتحرش! طفلكم لا يعرف الأسماء الحقيقية لأعضائه والمتحرش يستخدم كلمات تدليل للقضيب والفرج. طفلكم لا يثق بكم ولن يخبركم لأن جسده تابو ولا يمكنه السؤال عنه أو الحديث بشأنه. طفلكم يعلم أنكم ستعاقبونه ولهذا سيبتزه المتحرش مرات عديدة قبل أن تعرفوا أنتم أي شيء عما يحدث.

هل من الطبيعي أن يستكشف الأطفال بعضهم أجساد البعض؟

سأتحدث الآن عن سيناريو آخر مرعب لكل أم وأب؛ طفلين أو أكثر يتعرون بعضهم أمام البعض ويستكشفون أعضاءهم التناسلية.

أولاً، يحدث هذا الموقف في الأطفال ما بين الثالثة والسابعة ودافعه الفضول وليس الرغبة الجنسية.

ثانياً يكون الاستكشاف في نطاق اللعب، وأشهر لعبة هي لعبة الطبيب والمريض.

ثالثاً رد فعلكم سيتوقف عليه الكثير!

ما هو السيناريو الطبيعي؟

عندما تدخل الحجرة، وتجد الأطفال «يستكشفون»، من الطبيعي أن يكونوا في نفس العمر ومن الطبيعي أن تكون بينهم معرفة مسبقة من الحضانة أو الزيارات العائلية أو التدريب أو النادي. هم في نفس العمر ويعرفون بعضهم معرفة وطيدة. إذا راقبتهم، فسوف تكتشف أنهم يلعبون بدون قهر أو غصب وبكامل رضاهم. من الطبيعي أن تجدهم يضحكون ويتبادلون الأدوار.

ما هو السيناريو غير الطبيعي؟

ليس من الطبيعي أن يوجد طفل أو طفلة أكبر من طفلك أو من باقي الأطفال بثلاثة أعوام أو أكثر، وليس من الطبيعي أن يكون طفل واحد هو محل الفحص والاستكشاف لجميع الأطفال. ليس من الطبيعي أن يكون هناك «غاصب» و«مغصوب»، وليس من الطبيعي أن يلعب طفل دون إرادته أو بضغط من طفل آخر. ليس من الطبيعي أن تجد طفلاً يبكي أو طفلاً يشعر بالخزي أو طفلاً محل سخرية. ليس من الطبيعي أن تجد طفلاً متألماً، وليس من الطبيعي

أن تسمع أصوات ضحك ساخر أو صمت! ليس من الطبيعي أن تجد تواصلًا جنسيًا أو ما يشبهه مثل الجنس الفموي. ليس من الطبيعي أن يتم تهديد الطفل لإبقاء الأمر سرّيًا!

كيف تعالج الموقف؟

- لا تنهار ولا تصرخ في طفلك ولا تضربه! لا تستخدم السباب ولا الإهانة! تمالك نفسك وسيطر على أعصابك!
- اسأل طفلك عن اسم اللعبة التي كان يلعبها! إذا قال إنه كان يلعب لعبة الطبيب فذكره أنه ليس بطبيب/ مريض وأن صديقه أو صديقتها ليسوا كذلك. ذكره أن في زيارة الطبيب يجب أن يكون مع الطفل والدته أو والده.
- ذكر الطفل بالقاعدة الأساسية في التعامل مع جسده: «كل ما يغطيه المايوه غير مسموح لأحد أن يراه أو يلمسه».
- تحدث بجدية لكن بهدوء حتى لا يفقد الطفل ثقته بك.
- ضع قواعد للعب في المنزل وأولها أنه ممنوع غلق الباب.
- تأكد أن لعب الأطفال مراقب ولو من بعيد.
- تأكد أن أصدقاء طفلك من عمر مناسب.
- تحدث مع طفلك ومع الطفل الآخر وكأنه طفلك، وإذا تكرر الموقف تحدث مع أهل الطفل الآخر ويمكنك في بعض الأحيان إنهاء الصداقة.
- تأكد من وجود أنشطة ملائمة لطفلك وأصدقائه عند زيارتهم.
- إذا علمت/ شعرت أن طفلك تم استغلاله جنسيًا من قبل طفل آخر، قم بإنهاء الصداقة.
- أكد لطفلك أنه لم يقترف خطأ. لا يوجد ما يعيب الجسد ولكن يوجد ما يعيب السلوك تجاه الجسد.
- تأكد أن طفلك قادر على الرفض!

ما يمكننا استنتاجه

يظن البعض أن نهج المونتيسوري يعتمد على تصميم معين للفصل، وتقديم أنشطة معينة باستخدام أدوات معروفة باسم أدوات المونتيسوري. هذا الاعتقاد أبعد ما يكون عن الصحة! نجاح أو فشل نهج المونتيسوري يعتمد في الأساس على مقدم هذا النهج، الأم والأب والمدرسات والمشرفات وأي شخص يتعامل مع الطفل! الكثير من المراكز والحضانة تقدم نفسها للأهل على أنها حضانات ومراكز مونتيسوري من حيث التصميم والأنشطة، لكن العاملين في تلك المراكز أبعد ما يكون عن شخصية المونتيسوري!

كيف تصبح «شخص مونتيسوري»؟ كيف تتعامل مع طفلك وفقاً لنهج المونتيسوري؟ كيف تمتص فلسفة المونتيسوري وتطبقها في تربية طفلك؟ إليكم بعض النصائح:

أولاً، عليكم بدراسة وقراءة مراحل نمو وتطور الطفل حتى تستطيعوا تقديم الأنشطة الملائمة لقدراته، مثلاً هل تعلمون أن الطفل أقل من ستة أشهر لا يدرك الألوان؟ هل تعلمون أن أول لون يراه فيدركه عند ستة أشهر هو اللون الأحمر؟ هل تعلمون أنه يدرك اللون الأزرق عند تسعة أشهر؟ هل تعلم أنه يدرك اللون الأصفر عند 12 شهراً؟ هل

تعلمون أن الطفل حتى عامه الثاني يدرك من خلال اللمس ومن خلال وضع الأشياء في فمه، وأن دوركم في هذه المرحلة هو تشجيعه على الاستكشاف وحمايته من الاختناق؟ هل تعلمون أن الطفل أقل من ثلاث سنوات يدرك من خلال حواسه، وأنكم يجب أن تساعدوه في استكشاف الألوان والأشكال والأوزان والأسطح والروائح ودرجات الحرارة المختلفة؟

ثانياً يعتمد نهج المونتيسوري على التعامل مع الطفل - حتى وهو رضيع لا حول له ولا قوة - باحترام وتقدير! تعاملوا مع طفلكم في جميع الأوقات كأنه شخص بالغ قادر على الرد والدفاع عن نفسه! عليكم في كل الأوقات النظر إلى الأشياء من منظوره هو! مثلاً هل جربتم أن تناموا مكان نومه؟ أن تجلسوا حيث يجلس؟ أن تمسكوا لبعبه؟ أن تتذوقوا طعامه؟ أن تتحسسوا ملمس ملابسه؟ أن تجلسوا على الأرض حيث يجلس وتروا العالم من منظوره؟ أن تتخيلوا أنفسكم في كرسي السيارة، لفترات طويلة، وحيدين مربوطين وعاجزين عن الحركة؟

ثالثاً يعتمد تعليم المونتيسوري على القدوة أكثر من دور الوعظ والإرشاد! كونوا السلوك والمظهر الذي تريده لطفلكم. كن هادئاً قبل أن تطالب طفلك بالهدوء. كن محترماً. كن مهذباً. كن لبقاً. كن ودوداً. كن حنوناً. طفلكم سوف يمتص كل تصرفاتكم وسلوكياتكم!

رابعاً البطء! نعم! امشوا ببطء وتحدثوا ببطء ووضوح واستمتعوا برحلة الأمومة والأبوة في الحارة البطيئة. الطفل يمشي ببطء وينزل السلم ببطء ويأكل ببطء ويحمل الأشياء ببطء، لا تتعجلوه! شجعوه واستمتعوا بنموه السريع!

خامساً أكثر من الاستئذان، «هل تحتاج مساعدة؟» «أسمح لي بحملها معك؟» «هل تريد أن تمسك يدي؟»

سادساً أكثر من استخدام «من فضلك» و«شكراً».

سابعاً لا تلعبوا مع الطفل إلا إذا دعاكم للعب معه، ولا تغيروا من قواعد اللعب بدون أخذ رأيه وموافقته، ولا تفرضوا أنفسكم في مساحته الخاصة. في أوقات كثيرة يريدكم

الطفل أن تجلسوا لتشاهدوه يلعب وسوف يستاء حين تقحمون أنفسكم في لعبه!
ثامناً احترموا لعب الطفل وتركيزه في عمله. لا تقاطعوه بالفعل أو القول. احترموا
رغبته وكونوا مرنين. احترموا قدراته ولا تجبروه على شيء. احترموا إنسانيته ولا تسخروا
منه ولا تهينوه.

تاسعاً الطفل هو معلمكم الأهم! دعوا الطفل يعلمكم احتياجاته ورغبته! تنازلوا عن
الكبر والغرور ودعوا الطفل يعلمكم كيف تكونون الأم والأب والمعلم الذي يحتاجه.
تذكروا دائماً أن كل مناسبة هي فرصة للتعلم وأن الطفل يتعلم من أفعالكم أكثر مما يتعلم
من كلامكم.

عاشراً للمرة المليون، انظروا لطفلكم! انظروا لطفلكم حين تخاطبوه وحين تلعبوا معه
وحين توجهوه وحين يتواصل هو معكم! انظروا لطفلكم في عينيه بحب واحترام!

موافق عليّ؟

خلال شهور حملي الجميلة وعدت «آدم» بشيئين، وكأنني كنت أعرف أن هذه الأشياء تحديداً سوف تكون أسباب تجبطني كأم، ونقاط ضعفي التي يجب أن أعمل على تقويمها كل يوم!

وعدت «آدم» أن أحترمه وأن أحبه حباً غير مشروط!

قد تبدو أشياء سهلة، وقد تكون بالفعل سهلة لدى الكثير من الأمهات، لكنني أجد نفسي أتعثر وأعثر فيهما مرات عديدة! تساعدني دراسة نهج «ماريا مونتيسوري» في الالتزام بعودتي وفي تذكيري بتكرار المحاولة! بالإضافة إلى وعودي له، طالبته بتعليمي كيف أكون الأم التي يحتاجها! أنا أعرف كيف أكون أمّاً لكنني أحتاج مساعدته وإرشاداته لأكون أمّاً له هو بالذات!

أم تتفهم احتياجاته وتستوعب قدراته وتوفر له نمط الحياة الذي يساعده على الازدهار كإنسان! منذ بدء تكوينه كجنين في رحمي، وأنا أستمع له، وحتى اليوم، نجحت في استقبال رسائله واستطعت أن أطور من نفسي لأكون جديرة بأن أكون أمه!

هناك أوقات أتعرض لضغوط وتقلبات في حياتي الشخصية أو العملية، مما يؤثر على قدرتي على الصبر والاحتمال، أجدني سريعة الغضب متجهمة شاردة في أغلب الأوقات، ويصبح صدى صوت زعيفي يتردد في أذني ويذكرني بإخفاقي! أتذكر مشاهد من طفولتي! أتذكر مشادة بيني وبين والدي بسبب أدائي في المدرسة، وكنت حينها أكبر من «آدم» قليلاً.

قال لي في نهاية تعنيفه «ناقصك إيه؟» وجاء ردي وقتها «عايزة حنان!»

لن أسرد بقية المشادة وكيف تطور الحوار، ولكن استعادتني لهذا الموقف في هذا التوقيت جعلني أسأل «آدم» عن رأيه فيّ كأه! كان حواراً مفاجئاً، لقد كبر رضيعي وأصبح له رأي وفكر محترم جداً!

«آدم، هو أنا ماما حلوة؟»

«آه»

«يعني مش عايز أم تانية غيري؟»

«أنا ماعرفش أم تانية غيرك! أجيب أم تانية منين؟»

«أنا كمان بحبك زي ما إنت ومش عايزة بيبي تاني غيرك! فيه حاجة أنا بعملها بتضايقك؟»

«بتزعقي»

«ما هو إنت بتضايقني»

«خلاص زعقي بصوت واطي»

«وانت هتسمع إزاي؟»

«أصل أنا مخي كده»

«مخك كده إزاي؟»

«مخي فيه كورة فيها كل الحاجات الوحشة»

«أنا كمان عندي صندوق أسود فيه الحاجات الوحشة»

«أنا الكورة بتاعتي خضرا. الحاجات الوحشة بتطلع لوحدها. عندي كمان صندوق أخضر فيه حاجات حلوة.»

«يعني أنا ممكن أزعق لما الحاجات الوحشة تطلع من الكورة؟»

«بصوت واطي! أصلاً أنا نخي كده! ممكن أم جيمي أو أم أيمن تبقى أمي!»

ثم ضحك وقبلني وانتهى الحوار!

قدرة الأطفال على حب وتقبل أهلهم مبهرة! أكبر مثال على الحب غير المشروط! يمكن للطفل أن يعذركم وأن يسامحكم، وأن يغفر أخطاءكم وأن يتقبل قصوركم وتقصيركم، وأن يعطيكم كل يوم فرصاً عديدةً لإسعاده ولإضحাকে ولتكوين ذكريات سعيدة عن طفولته! للأسف تبدأ هذه القدرة في الضمور ببطء غير ملحوظ بعد سن السابعة ويغلق هذا الباب مع بداية سن المراهقة! يجاسبك المراهق حساباً عسيراً على كل أخطائك الماضية والحالية والمستقبلية في حقه، ولا تنتهي هذه المرحلة بانتهاء سنوات المراهقة!

اسألوا طفلكم عن رأيه فيكم واستمعوا إلى كلامه ومحاولاته لإرشادكم إلى كيفية التعامل معه وتربيته! أعطوه الفرصة ليعلمكم كيف تكونون أباً أو أمّاً مناسبين له! تذكروا أن سنوات الطفولة المبكرة هي الأهم في حياة كل إنسان! انظروا إلى طفلكم وسوف تعرفون مدى نجاحكم أو فشلكم في استيعابه واحتوائه! فلنتذكر جميعاً أن دورنا في حياة أولادنا هو إسعادهم بما يسعدهم حقاً! أحلامنا المجهضة وطموحاتنا الشخصية ليست إرثاً لهم وليست ثأراً عليهم! ليس علينا تنشئة بطلاً رياضياً أو فنانياً موهوباً أو نابغةً أو مخترعاً أو شخصاً ناجحاً، بمعايير المجتمع، رغم أنفه! واجبنا الأول هو تحقيق السعادة، تربية طفل سعيد يجب نفسه ويتقبلها وراضٍ عن أهله وأدائهم!

خمسة علامات أن طفلكم يعاقبكم بطريقته

جميع المقالات والكتب تتحدث عن عقاب الطفل عندما يخطئ، وعن تهذيبه عندما يسيء الأدب، وعن كيفية التعامل مع أخطائه في حق الأهل. لم يفكر أحد في الطفل وكيف يعاقب أهله على أخطائهم وسهوهم وإساءتهم. قبل أن أدخل في صلب الموضوع وأتحدث عن العلامات التي تشير إلى عقاب الطفل لأهله، سوف أبدأ بالحديث عن أخطاء الأهل في حق الطفل، وأعترف أنني قد وقعت في بعضها وهناك محاولات يومية لتداركها.

الجزء الأول: أخطاؤك في حق طفلك

* الحزن الصادق:

طفلكم الرضيع يحتاج إلى الحزن بصفة شبه دائمة ومستمرة، وطفلكم في طفولته المبكرة يحتاج حزنكم 12 مرة يومياً على الأقل.

* الإطراء:

الكثير منَّا يقصر الإطراء على «برافو» أو «أحسن»، ولكن الإطراء الحقيقي هو الإطراء على صفات مثل الإصرار والمحاولة والمثابرة والدقة والجودة وغيرها من الصفات التي تود أن ينميها طفلك بدلاً من الإطراء على النجاح في حد ذاته.

* الضحك:

هل ضحك طفلكم اليوم؟ لا أتحدث عن ابتسامة عابرة، كلامي هنا عن الضحك والقهقهة المتواصلة. طفلكم يحتاج المرح والضحك والفكاهة أكثر من التوجيهات واللوم والعتاب والعقاب. هل تعلمون أن ضحككم مع طفلكم يساعده على طاعتكم وعلى السيطرة على مشاعره السلبية؟

* البهجة:

كيف تدخلوا البهجة على قلب طفلكم؟ هذه مهمة يومية لا يجب أن تتجاهلوها. مصادر البهجة عديدة ولا يمكن حصرها في مقال لكن هذه بعض المقترحات، اللعب والانطلاق في مكان مفتوح. زيارة شخص عزيز ومقرب إلى قلب الطفل. مشاهدة الأراجوز. مشاهدة فرقة من فرق عروض الشارع مثل «قوطة حمراء». مشاهدة عرض التنورة. مسرح العرائس. لمس الحيوانات الأليفة. رعاية نبتة تكبر.

* المشاركة:

مشاركته فيلماً يحبه أو مشاركته الغناء أو مشاركته الجري أو مشاركته البناء أو مشاركته الرسم أو مشاركته الطبخ أو مشاركته الفراش ولو ليلة واحدة ينام في حضنكم.

* الاحترام:

هذا هو الفخ الذي أفزع فيه بصورة أو أخرى! هل ضبطتم أنفسكم، مثلي، تحدثون طفلكم بلهجة غير مقبولة؟ هل استخدمتم كلمات عنيفة؟ هل تحدثوه بأسلوب غير لائق؟ هل تفقدون أعصابكم باستمرار؟ هل نبرتكم تعكس دائماً نفاذ الصبر أو الضيق؟ هل تشيخون في وجهه؟ هل تتناولون عليه بالقول أو الفعل؟، توقفوا!

الجزء الثاني: كيف يعاقبك طفلك على أخطائك

العلامة الأولى: العند، العند من أجل العند، العند الذي يولد الكفر، العند الذي لا يقهره الحرمان أو العزل أو الضرب! المادة الخام للعند!

العلامة الثانية: الزن، الزن صوتاً وحركة وفعلاً، الزن على شيء، الزن بدون توقف أو فهم أو استيعاب، الزن الذي يقودكم إلى الصريخ!

العلامة الثالثة: الدمار، ينظر لكم الطفل ثم يسقط الكوب، يعلم أنه ممنوع من الكتابة على الحائط ويترك كل الأوراق والمساحات المسموحة ليهدم الحائط والفرش، دمار التلفزيون والثلاجة والموبايل، دمار كل ما يعلم أنه هام!

العلامة الرابعة: الإحراج المتعمد، يتعمد طفلكم افتعال الأزمات أمام الأهل والأصدقاء والأغرب، يتحدث بأسلوب غير لائق حتى تصفعوه علناً! يتصرف بشكل مستفز حتى تفقدوا أعصابكم! يتعمد أن يستفزكم ويحرجكم ويضايقكم بكل الطرق أمام الناس ليقهركم بطريقته!

العلامة الخامسة: التجاهل، يتعامل الطفل معكم وكأنكم غير موجودين! تجاهل لتوجيهاتكم وطلباتكم وأوامركم ومحاذيركم ونواهيكم وتهديداتكم ومحايلتكم له، أنتم غير موجودين. لقد انحنى د. «ماريا مونتيسوري» احتراماً للأطفال لتفوقهم علينا كبالغين بفضل براءتهم وبسبب أبواب المستقبل اللامتناهية المفتوحة أمامهم!

قواعد الأمومة / الأبوة الأربعة

أنا أحتاج إلى التذكرة! مثلي مثل «آدم»، أحتاج إلى من يذكرني بالأساسيات والأصول والقواعد حتى لا تأخذني الدوامات والمتاهات بعيدًا عن هدفي! هدفي هو أن يكون «آدم» سعيدًا! أستيقظ كل يوم وفي نيتي إسعاده وقبل أن ينام، كل يوم أسأله إذا كان يومه سعيدًا. لكن هناك أيامًا تعكر صفوها مشاغل أو مخاوف أو مشاكل أو منغصات أو ضغوط، وفي هذه الأيام أحتاج إلى التذكرة! هذه هي قواعد الأمومة - لي ولكم.

1 - انظروا لطفلكم! انظروا لطفلكم جيدًا! انظروا لطفلكم من بعيد! راقبوه! تأملوه! لاحظوا نظراته واهتماماته وحركاته ولعبه وتعبيره عن نفسه وخياله! انظروا لطفلكم كثيرًا وسوف تعرفون ما يحتاجه! انظروا لطفلكم حينما تخاطبوه، وحينما يخاطبكم، انظروا له وانزلوا لمستواه حتى يقترب طولكم من طوله.

2 - ساعدوا طفلكم على الحركة والحرية والاستقلال من خلال اختيار ملابس تساعد على الحركة والحرية والاستقلال! مثلًا لا تختاروا بنطلونًا لن يعرف كيف يخلعه إذا أراد دخول الحمام ولا تختاروا حذاءً لن يعرف كيف يربطه وحده!

- 3 - تأكدوا أن طفلكم ينام جيداً وفترة كافية، وتأكدوا أنه ينام سعيداً ويستيقظ نشيطاً وأنه يشعر بالحب في بداية يومه ونهايته.
- 4 - عاملوا طفلكم كما تحب أن يعاملكم، وخاطبوه كما تحبون أن يخاطبكم، وكونوا قدوة له في الذوق والأدب.
- 5 - تذكروا أن طفلكم لا ذنب له بظروفكم ولا يجب أن تعاقبوه على رد فعله تجاه قصوركم! طفلكم له حقوق ومن أهمها الاحترام والحب واللعب.
- 6 - اقرءوا لطفلكم و اقرءوا معه، واشتروا له الكتب كتعبير عن الحب! اقرءوا عن أشياء حقيقية وأحداث حقيقية وأشخاص حقيقيين وأماكن حقيقية!
- 7 - احترموا مواعيدكم و علموه احترام الوقت والالتزامات.
- 8 - ساعدوا طفلكم على احترام مواعيده بإعطائه وقتاً كافياً_مثلاً_ لارتداء حذائه بدون مساعدة.
- 9 - أعطوا لطفلكم مسؤوليات ولا تحرموه من متعة المشاركة.
- 10 - لا تحرموه من متعة رعاية زرعة أو حيوان أليف!
- 11 - استمتعوا بالمشي مع طفلكم ببطء وهدوء وعلى مهل! توقفوا كلما توقف، وتحدثوا عما يريد أن يتحدث عنه، وأظهروا استمتاعكم بصحبته.
- 12 - تمهلوا! تمهلوا في كل شيء! امشوا على مهلكم وكلوا على مهلكم وتحدثوا على مهلكم!
- 13 - لا تستسلموا وتركوا طفلكم أمام التلفزيون أو اللابتوب أو الموبايل أو أي شاشة أخرى. قاوموا رغبتكم في الانفراد بأنفسكم، واقضوا هذا الوقت مع طفلكم في اللعب أو الحوار أو القراءة أو الضحك.
- 14 - اجعلوا النزاهات الهادفة في صدارة اهتمامكم، التعرف على إعادة تدوير النفايات أو التعرف على الثقافة الصينية أو التعرف على فن العرائس المتحركة أو التعرف على الحرف المصرية التقليدية وهكذا.
- 15 - علموا طفلكم كيف يحمي نفسه من التحرش!
- 16 - علموا طفلكم كيف يطلب المساعدة!
- 17 - احكوا لطفلكم عن ميلاده وطفولته وذكرياتكم معه.

- 18 - تصفحوا ألبوم الصور معاً، سوف يسعد هو بالقصص والذكريات، وسوف تستعيد أنت الكثير من الحب والطاقة التي تحتاجها للاستمرار.
- 19 - ساعدوا طفلكم على التعبير عن نفسه ولا تقمعه مهها كان كلامه مؤلماً.
- 20 - علموا طفلكم فعل الخير ودعوه يستمتع به.
- 21 - اجعلوا مراقبة الطيور ومشاهدة النجوم والكواكب من الهوايات المشتركة بينكما، منها يتعلم الطفل الصبر والهدوء والتركيز.
- 22 - اشكروا طفلكم!
- 23 - قدموا لطفلكم الطعام الصحي فقط!
- 24 - مهها كنتم مرهقين، لا تبخلوا على طفلكم بالمعلومة! كل فرصة هي فرصة للتعلم!
- 25 - ساعدوا طفلكم على الاستقلال! أعطوه الأدوات المناسبة ليطول الحوض والمرحاض وألعبه وكتبه!
- 26 - لا تقودوا سيارتكم في صمت! الطريق فرصة هائلة لمعرفة العديد من الأشياء عن التاريخ والجغرافيا والمهن والثقافة والعادات وغيرها من المواضيع.
- 27 - لا تجعلوا النقد هدفاً لكم، علموا طفلكم السلوك الصحيح بدلاً من انتقاد سلوكه الخاطئ.
- 28 - احرصوا أن يقضي طفلكم وقتاً مع أشخاص من أعمار مختلفة - الأولوية ليست لمن هم في مثل عمره.
- 29 - ساعدوا طفلكم أن يدرك الاختلاف ويتقبله من خلال الحوار والمناقشة والقراءة.
- 30 - لا تسخروا من طفلكم ولا تعنفوه، أمام أحد أو بينكما.
- 31 - لا تقولوا «لا» إذا كان بإمكانكم أن توافقوا على طلب طفلكم.
- 32 - علموا طفلكم الاستمتاع بالطبيعة ورؤية الجمال في الألوان والروائح والملابس المختلفة.
- 33 - لا تساعدوا الطفل قبل أن تستأذنه، ولا تساعدوه فيما يستطيع هو عمله.
- 34 - طفلكم يحتاج مساحة للجري والقفز والتسلق والحركة بدون مخاطر أو عراقيل!
- 35 - أعطوا لطفلكم الفرصة ليلعب في الطين والرمال وليجلس على الحشائش الخضراء.

36 - عندما ينجز طفلكم مهمة ما، اسأله إذا كان سعيدًا بالإنجاز! هكذا يتعلم الاعتزاز بعمله.

37 - إذا أخطأتم اعتذروا!

38 - تعلموا الصبر! الأطفال يحتاجون وقتًا وكثيرًا من الصبر.

39 - لا تكذبوا! لا تكذبوا أبدًا!

40 - استمتعوا بطفلكم ورحلتكم معه!

في الأولة سبعة

يسألني الكثيرون عن أسباب تفرغي شبه التام لتربية «آدم»، وتسأل الكثيرات إذا كان يجب أن يترك عملهن والتفرغ للأطفال.

الإجابة هي: الأم السعيدة تربي أطفالاً سعداء والعكس صحيح. المشكلة الحقيقية هي الأم التعيسة غير الراضية والمتذبذبة.

خلال فترة حملي قرأت كثيراً عن سنوات تكوين شخصية الطفل ووجدت أنه رغم قصر هذه المرحلة، فإن أول سبع سنوات تشكل حجر الأثاث في حياة الطفل كمراهق وكشاب وكرجل، حياة الطفلة كفتاة في سن المراهقة والشباب والنضج.

الطفل في رحم أمه يشعر بكل ما تشعر، يعرف إذا كانت تريده أم لا، ويشعر بالطمأنينة أو الخوف أو الحزن أو السعادة، وغيرها من مشاعر الأم في هذه المرحلة! يولد الطفل وتولد معه شخصيته، طفل هادئ، طفل كثير الحركة، طفل مريح، طفل كثير المتطلبات، طفل حذر، طفل متأمل، طفل متهور، وغيرها من السمات التي تكون جزءاً من هدية الله لنا نحن الأمهات!

في هذه المرحلة دوركم هو احتواء هذه الشخصية! لا تحاولوا تعديلها ولا تقويضها ولا ترويضها ولا تغييرها! دوركم هو التقبل والاحتواء! التوافق بين شخصية الأم وشخصية الطفل تشبه كثيراً التوافق بين شخصيات الأزواج والزوجات وكلما استوعبتم شخصية طفلكم كلما تجاوب معكم!

خلال السنوات الثلاث الأولى تتحدد الأساسيات من حيث درجة الصحة ومراحل النمو الجسدي والعقلي والعاطفي واللغوي وتتحدد كذلك الشخصية! طفل مرح، طفل كئيب، طفل صارخ، طفل عصبي، طفل شغوف، طفل لا مبالي، طفل راضي، طفل ناغم وهكذا!

خلال السنوات الثلاث التالية _ ما بين 3 و6 سنوات _ يتشكل السلوك والاتجاهات وردود الأفعال! في هذه الفترة كذلك تعرفوا أسلوب طفلكم التعليمي وكيف يستوعب المعلومات وكيف يعمل عقله وكيف يتفاعل في المواقف المختلفة. الكثير من الكتب تمد هذه المرحلة حتى سبع سنوات!

في السبع سنوات الأولى من عمر طفلكم يتشكل مستقبله ويتحدد مصيره! انظروا إلى البالغين من حولكم وانظروا إلى تحبطهم وصراعاتهم ومشاكلهم النفسية من هروب إلى إنكار إلى عنف إلى قهر إلى تنافسية بغيضة وحاول أن تستشف كيف كانت طفولتهم!

في حالتي، أنا سعيدة، ومحظوظة، لأنني اخترت التعرف على «آدم» عن قرب وفهمه ومعرفته واحتوائه! أنا سعيدة لأنني اكتشفت أنسب الطرق لتعليمه والتواصل معه، ولأنني اكتسبت ثقته وحب واحترامه! قد يتخبط «آدم» في مراهقته وقد يعاني في شبابه ولكنني أعرف أنه سوف يستند إلى طفولته المليئة بالحب والاحتواء والاحترام ليستعيد توازنه!

قد يبدو للكثيرات أنني تركت career من أجل الأمومة لكن في واقع الأمر، أنا أتعلم في رحلتي مع «آدم» أكثر مما تعلمته في جميع مناصبي وأعمالي السابقة! في النهاية، سوف أختم بنفس الجملة التي بدأت بها حديثي: «الأم السعيدة تربي أطفالاً سعداء»! عزيزتي الأم، لا تحاربي طفلك ومتطلباته ووجهي كل قوتك لمحاربة كل ما/ من ينغص حياتك ويقلق راحتك ويسحب طاقتك!

كل شيء في الحياة قابل للتعويض وكل قطار قابل للحاق به، إلا السنوات الضائعة من عمر معرفتكم بطفلكم ومعرفته بكم! سبع سنوات لا تعني الكثير من الزمن لكنها تعني كل شيء لطفلكم! جلسات تعديل السلوك ليست ممتعة وكرسي الطبيب النفسي ليس هدفًا وإدمان الفشل أو الحزن أو السلبية أو المخدرات أو المسكرات أو مذاهب العقل، كلها طرقات مظلمة مؤلمة يمكنكم تجنبها إذا حرصتم على طفولة سعيدة صحية ممتعة لطفلكم!

أهم عشر أشياء يحتاجها طفلك في أول سبع سنوات:

• الحضان

لا تسمعوا كلام من يمنعكم من حمل طفلكم بحجة أنه «هيتعود»، ولا تسمعوا كلام من يهمل أهمية الحضان! أثبتت الأبحاث أن الحضان يزيد ذكاء الطفل ويعزز ثقته بنفسه ويساعده على الاستقلال ويكبر الطفل ويصبح رجلًا أو امرأة قادرًا على إرسال واستقبال الحب والحميمية، ومتأكدًا أنه يستحق الحب والاحترام، وينفر من الاستغلال أو الإساءة!

• القبلة

قبلوا رأس طفلكم وكفه وقدمه وبطنه وظهره، قبلوا يده، قبلوا كل موضع إصابة ومكان كل وقعة! قبلوا طفلكم كل يوم ولا تنتظروا مناسبات! قبلوا طفلكم لأنكم تحتاجون لهذه القبلة أكثر منه!

• الابتسامة

طفلكم يحفر ملامحك في ذاكرته! ينظر لكم رضيعكم ويسجل انطباعاتكم وتعبيراتكم! ابتسموا كثيرًا حتى يتذكركم دائمًا بشوشين! ينظر لكم طفلكم ويكون انطباعاته حول العالم وعليه سيصبح متفائلًا بشوشًا شاكراً أو متشائمًا متجهماً ناقماً! لا تتركوا خلفكم صورة رجل أو امرأة هزمتهم الكآبة أو الحزن أو العنف أو القسوة.

• الضحك

اضحكوا مع طفلكم! اضحكوا بصوت عالٍ! اضحكوا وكأنكم أطفال! اضحكوا واستمتعوا برنين ضحكاته! ضحكات الطفل تزيل الهم والغم وتفرج الكرب!

• الوقت

وقت سعيد! وقت يفعل فيه ما يشاء وما يستهويه وما يحتاجه لينمو!
وقت بدون مقاطعات! وقت بدون شاشات! وقت بدون أولويات أخرى مهما كانت!
وقت طويل! وقت طويل غير أوقات الطعام وأوقات الاستحمام وأوقات دخول الحمام
وأوقات النوم والقيلولة! وقت طويل دون أن تشعروا بالملل أو الضجر أو الرغبة في انتهاء
هذا الوقت!

• الابتكار

ابتكروا أنشطة وألعاب خاصة بكم وبطفلكم وكأنكما تبتكران «كود سري» بينكما
بعيداً عن العالم ولا يفهم أهميته سواكما! كونوا مبدعين في اختيار الزهات والكتب والقصص
والألعاب! ابتكروا في كل ما يناسب ميول ومواهب طفلكم! ابتكروا لأن كل طفل مختلف
وهذا الاختلاف هو العمود الفقري لنجاح طفلكم في حياته العملية! طفلكم سينجح فقط
عندما يعرف نقاط اختلافه عن غيره ويستثمر فيها!

• الذكريات

بعد عامه السابع سوف يبدأ الطفل في الاصطدام بالحياة وسخافتها تدريجياً، وسوف يستند
إلى ذكرياته السعيدة كلما ضاق به الواقع! كونوا معه وله ولكم مخزون كبير من الذكريات
السعيدة التي ستكون مصدر قوته وصلابته في مواجهة مرحلة ما قبل المراهقة والمراهقة
والبلوغ وبدايات سن الرشد وما يتلو الرشد من مراحل!

• الصبر

اصبروا ولا تتعجلوا الفطام! اصبروا ولا تتعجلوا نومه مستقلاً! اصبروا ولا تتعجلوا
خلع الحفاضات! اصبروا ولا تتعجلوا لعبه منفرداً! اصبروا ولا تتعجلوا استقلاله عنكم
في الطعام والشراب! اصبروا على الأخطاء والهفوات! اصبروا لأنه سوف يكسر أكواباً
وأطباقاً وزهريات وألعاباً وأدوات! اصبروا لأنه سوف يبكي ويزن ويقاوح ويتفاوض!
اصبروا لأنه ما زال يتعلم التحكم في مشاعره وانفعالاته وأعصاب يديه وحركة جسده
والتعبير عن احتياجاته! اصبروا لأنه ينظر لكم ويتعلم منكم الصبر والحب والمسؤولية!

الوصايا العشر

هذه الوصايا مترجمة مباشرة من كلمة لـ د. «ماريا مونتيسوري» تم نشرها في مجلة «حول الطفل». أما تفسير الوصايا فهو اجتهاد مني كأم وكموجهة مونتيسوري.

«الوصايا العشر» تلخص فلسفة المونتيسوري للقائمين على رعاية الطفل سواء في المنزل أو الحضانة أو المدرسة.

• الوصية الأولى: لا تلمس الطفل إلا إذا دعاك بطريقة أو أخرى.

المقصود هنا هو عدم الإمساك بيد الطفل وهو يعمل أو يكتب أو يرسم في محاولة منك لتصحيحه، وعدم حمل الطفل من مكانه بدون استئذانه، وعدم مساعدته بدون أن يطلب منك، أو أن يتقبل عرضك بمساعدته.

• الوصية الثانية: لا تتحدث بكلام سلبي عن الطفل في وجوده أو عدمه.

أنت قادر تمامًا على صنع مصير طفلك والتنبؤ به. الاسم الرسمي لهذه النبوءة هو: نبوءة ذاتية التحقق! مثل سلسلة من التفاعلات الكيميائية، تعمل هذه النبوءة، تقول شيئًا ما بناء

على إحساس أو حدث أو تصور، ثم تكرر هذا القول، ثم تبدأ في التعامل على أساس ما قلت، حتى يصبح ما تنبأت به حقيقة.

المثال الأول:

تقول الأم لطفلتها «ما حدش عدل هيرضى يتجوزك» كمحاولة منها لتحفيزها على تعلم الطبخ أو المشاركة في الأعمال المنزلية أو لأي سبب آخر. تتكرر هذه الجملة في مناسبات مختلفة وفي كل مرة تطلق هذه النبوءة يتشكل مصير الطفلة. تصدق الطفلة أنها غير جديرة بالحب أو أنها لا تستحق حياة زوجية مستقرة وتبدأ تتعامل مع الحياة على هذا الأساس، على أساس أن «ماحدش عدل هيرضى يتجوزك». إذا حاول شخص مناسب الارتباط بها ترفضه تلقائياً لأنها مدركة في أعماقها أنها لن تجذب شخصاً جيداً. ينتهي الأمر بأنها لا تتزوج على الإطلاق أو أنها تختار كل من هو غير مناسب لترتبط به، وهكذا تتحقق النبوءة.

المثال الثاني:

يقول الأب لابنه «إنت فاشل» أو «إنت غبي» أو «إنت خسارة فيك التعليم» أو «إنت ما فيش منك رجا». في البداية يشعر الطفل بالجرح والإهانة ويحاول إثبات عكس النبوءة، ولكنه يعرف في أعماقه أن الأب لا يمكن أن يخطئ، وأن المدرس أكبر وأكثر علماً، فلا بد أن كلامهم عنه حقيقي! يصدق الطفل أنه غبي أو أنه فاشل، ويبدأ في التصرف بغباء ويفشل دون حتى أن يحاول فيكبر ويصير بالفعل فاشلاً!

المثال الثالث:

يقول رجل الدين للطفل «هتدخل النار» أو «ربنا مش بيحبك» أو «إنت شيطان»، وتبدأ رحلة تحول الطفل من البراءة والطفولة والإيمان الفطري إلى التحدي والعند والتمرد واللامبالاة.

في كتابها سر الطفولة، نهت د. «ماريا مونتيسوري» القائمين على رعاية الطفل عن توجيه الكلام السلبي له، وضربت مثلاً لطفل يتسلق شجرة. إذا قالت له أمه «هتقع»

سيقع، ولكن إذا قالت له أمه كن حذرًا حتى لا تقع، سيكون حذرًا حتى لا يقع. لقد رأت د. «مونتيسوري» طفلًا بالفعل يتسلق شجرة عالية، ويقول في سره بصوت خافت: «كن حذرًا، كن حذرًا».

للأسف الأشخاص المتحكمون بمصير الطفل هم البالغون الذين وثق بهم الطفل ثقة تامة، مثل الأم والأب والجد والجددة والمعلم/ة والمدرّب/ة. إذا كنت أحد هؤلاء الأشخاص، أنصحك بأقصى درجات ضبط النفس عند التعامل مع الطفل، لأن ما تقوله في لحظات الغضب، أو من أجل تشجيعه أو تخفيفه، قد يصيبه في مقتل ويقضي على فرصه في السعادة وتحقيق ذاته!

• الوصية الثالثة: ركز مجهودك على تنمية وتطوير كل ما هو جيد وطيب في طفلك حتى لا تترك مساحة كبيرة لظهور المساويء أو الشرور

المقصود هنا هو استغلال مزايا طفلك وصفاته الحميدة في تربيته وتعليمه، وهكذا لا يفقد الطفل إيمانه بنفسه، بسبب كثرة الانتقاد والرفض، فيبدأ في تصدير كل ما هو مسيء وخبيث للعالم من حوله.

• الوصية الرابعة: كن فعالاً نشطاً في إعداد بيئة عمل الطفل. ساعد الطفل على تكوين علاقة بناءة ببيئته من خلال معرفة مكان أدواته وكيفية استخدامها والحفاظ عليهم.

المقصود هنا هو أن تعني عناية فائقة ببيئة طفلك من حيث النظام والجمال والتناسق والنظافة، ليتعلم طفلك هذه القيم. كذلك علم طفلك أماكن أدواته وأنشطته وكيف يستخدمهم ويحافظ عليهم. لا تنس أن من حق الطفل الوصول لجميع الأرفف والأدوات، والطريقة الوحيدة للحفاظ عليهم هي تعليم الطفل كيفية التعامل معهم.

• الوصية الخامسة: كن جاهزاً مستعداً لتلبية نداء طفل يحتاجك، وأتقن الإنصات والاستجابة لطفل يستجدي اهتمامك

المقصود هنا هو عدم تجاهل نداء الطفل لأي سبب، وعدم تجاهل أسئلة الطفل، وعدم تهميش الطفل واحتياجاته الملحة مهما بدت غير ملحة لك.

• الوصية السادسة: احترم الطفل الذي يخطئ والذي يحاول تصحيح خطئه في نفس الوقت أو في وقت آخر، ولكن لا تتهاون في منع الطفل من إساءة استخدام الأدوات أو من الإضرار بنفسه أو غيره.

المقصود هنا هو عدم الهجوم على طفل يحاول أن يتعلم مهارة ما وعدم سحب الأدوات منه وهو ما زال يحاول إتقان استخدامها وفهم مغزاها، ولكن إذا وجدت طفلاً يخرب أو يدمر أو يخل بقواعد احترام المكان تدخل فوراً من أجل حمايته وحماية الآخرين.

• الوصية السابعة: احترم الطفل الذي اختار أن يستريح أو أن يشاهد عمل الأطفال الآخرين في صمت أو طفل وقف يتأمل عمله ويفكر به. لا تناديه ولا تجبره على البدء في نشاط ما.

المقصود هنا أن من حق الطفل أن يرتاح وأن يتأمل عمله وأن يشاهد الآخرين ويتعلم منهم. من حقه أن يفكر وأن يستوعب وأن يختار متى يبدأ نشاطه التالي. هذا جزء أساسي من عمل عقل الطفل وهضمه للمعلومات التي تلقاها من خلال حواسه أثناء العمل.

• الوصية الثامنة: ساعد من يبحث عن نشاط ولم يجده

المقصود هنا هو مساعدة فقط من يحتاج المساعدة، وفي هذه الحالة، طفل يبحث عن نشاط ما ولا يعرف أين هو أو ما هو. في هذه الحالة يمكنك أن تساعد بالنشاط أو البدائل.

• الوصية التاسعة: لا تكل ولا تمل من تقديم العروض لطفل ما، حتى وإن رفضها فيما مضى، ولا تمل من مساعدة الطفل في الحصول على علم ليس ملكه بعد أو تطوير نفسه. افعل هذا من خلال تحريك البيئة المحيطة بالطفل، من خلال الصمت وضبط النفس، ومن خلال الكلمات اللينة والحب، ومن خلال إظهار نفسك للطفل الباحث عن شيء ما، وإخفاء نفسك عن طفل وجد ضالته.

تخاطب هذه الوصية أخطاءنا المتكررة، الملل من تقديم العروض للطفل وخاصة في حالة رفضه للنشاط وانصرافه عنه. الملل من عدم قدرة الطفل على الاستيعاب، بحكم مهاراته وقدراته وعمره. الملل من أخطاء الطفل المتكررة. الملل من أسئلة الطفل. في نفس هذه الوصية

تقدم لنا د. «ماريا موتيسوري» الحلول الذهبية لمعاناتنا: تقديم العروض مرات ومرات وفقاً للمراحل الحساسة للطفل واحتياجاته، تغيير الأنشطة المتاحة أمام الطفل ليجد الطفل الفرصة لتطوير نفسه وإشباع شغفه، الصمت بدلا من الكلام الجارح وضبط النفس عن استخدام العنف اللفظي أو الجسدي، تعليم الطفل بالحب والصبر والكلمة الطيبة، مساعدة الطفل الذي يحتاج مساعدة، وترك الطفل المنهمك في نشاط ما يعمل منفرداً مستقلاً.

• الوصية العاشرة: عامل الطفل بأفضل أخلاقك وقدم له أحسن ما عندك وأرقاه.

لا تحتاج هذه الوصية إلى تفسير! هذه دعوة للتأمل ولتجديد العهود مع النفس والوعود للطفل.

سوبر ماما

في يوم من الأيام ساقطني الظروف والأقدار في اتجاه الكتابة في الحب والعلاقات العاطفية. كان الطريق مفتوحًا أمامي وكانت الفرص للتألق والنجومية أكبر بكثير من الآن. كانت المجلات الشبابية باللغة الإنجليزية في أوجها وكانت قنوات التليفزيون الخاصة في قمة الإقبال عليها. كان ظهور فتاة شابة متفتحة على الشاشة لتتحدث بكل ثقة عن الحب والمجتمع والعلاقات أمرًا جديدًا ولاقي نجاحًا جماهيريًا في هذا الحين. بعد المقالات والحلقات التليفزيونية، بدأ المراهقون والمراهقات، والشباب والبنات، والمتزوجون والمتزوجات، وكل من يعانون في علاقاتهم العاطفية في التواصل معي. هكذا، أصبحت مشهورة.

فرحت بإنجازاتي وشعرت بالفخر وتذوقت متع الشهرة والتألق لفترة لم تطل. مع الشهرة تأتي ضغوط لم أتعرض لها من قبل. مثلًا، ضغط أن أكون في علاقة عاطفية سعيدة ومستقرة، أم باب النجار مخلع؟ ضغط أن أظهر في كل المحافل بصحبة شريك. ضغط أن أشارك نجاحي العاطفي مع الناس الذين لجئوا لي للمشورة. ضغط الزواج! لماذا أنا عزباء في منتصف الثلاثينيات؟ رسم لي المتابعون والمتابعات صورة ما ورضخت لضغوط الظهور

بالكمال والسعادة! بدأت أكذب على نفسي وأتخيل مشاعر لم أشعر بها، أفصح عن علاقات وأنفاخر بها فقط لإرضاء جمهور المشاهدين والمشاهدات.

دخلت في دوامات الاكتئاب وصراعات بين ما أظهر وما أبطن. كنت أشعر أن هناك امرأة أخرى تعيش حياتي وتمثل أنها أنا! ظهر في حياتي أناس قدموا أنفسهم لي على أنهم/أنهن أصدقاء وصديقات، وفي الحقيقة كان الأغلبية مستمتعين بالعرض المستمر لحياتي العاطفية وأبطالها المتجددين. تحولت من إنسان إلى بهلوان وظيفته إضحاك الجمهور وتسليته. انتظروا مني الكمال والمثالية والبراعة فتصنعت كل هذا وأديت دوري، إلى أن لم أستطع التمثيل أكثر من هذا!

صرحت بحزني وألمي ولكنهم لم يتقبلوا أخطائي واختياري السيئة. بدأت أتهاوى وانقسم الجمهور إلى فئة تتابع في صمت، وفئة انتشت بفعل مشاعر الشماتة والتشفي، وفئة أغرقتني في مشاعر الشفقة، وفئة هاجمتني بقسوة وعنف في السر أو العلانية. احترقت العنقاء! في قمة ضعفي وانكساري وانهمزامي، أرسل الله لي طوق النجاة، تحققت المعجزة، بصرف النظر عن التفاصيل، أصبحت أم «أدم».

اخترت اسم «أدم» ليكون يوم 31 أغسطس 2010، يوم ميلاد «ماريا مونتيسوري» التي لم أكن أعرفها أو أسمع عنها من قبل، هو يوم معرفتي بأني سأصبح أمًا. اخترت اسم «أدم» ليكون نقطة النهاية ونقطة بداية جديدة. قامت العنقاء من بين الرماد أكثر قوة وأكثر حكمة! لقد تعلمت أن «الشهرة» زائلة، ومشاعر «الجمهور» زائفة، وأنه لا يوجد في هذه الحياة ما يستحق أن أنفي عن نفسي جمال آدميتي، أجمل ما في الآدمية هو تطورها، تطورنا، نخطئ، نجاهد، نتعلم، نتطور، نرتقي، ثم نخطئ ونجاهد ونتعلم ونتطور ونرتقي، ثم نخطئ لنرتقي!

في بدايتي الجديدة مع «أدم»، كنت قد ابتعدت تمامًا عن الكتابة وكل ما يخص الإعلام. كنت سعيدة وأنا أخذ خطوات صغيرة حقيقية في رحلة الأمومة. تعرفت على د. «ماريا مونتيسوري» وبدأ فصل جديد من الرحلة. بدأت أطبق ما أتعلمه وأنشر صوري و«أدم» على حسابي الشخصي على الفيسبوك من قبيل التوثيق لا أكثر. طوال فترة الحمل، ولمدة ثلاث

سنوات من بعد ميلاد «آدم»، وأنا بعيدة تمامًا عن مواقع التواصل الاجتماعي. أهملت صفحتي وموقعي وشعرت بالراحة وأنا أفقد اهتمام كل من ادعوا الحب أو القرب أو الصداقة من الجمهور.

لكل منا طريق مرسوم له لحكمة ما.

سرت في طريقي حاملة طفلي فوجدتني أسير مرة أخرى في طريق يؤدي إلى الجمهور، هذه المرة أصبح الجمهور هو الأمهات والآباء من المهتمين والمهتمات بالتربية، والتعليم، وفلسفة ونهج المونتيسوري. لقد تعلمت الدرس جيدًا! أنا لست مديونة لأحد بالكمال! أنا لست مديونة لهم بالمثالية! أنا لست مطالبة بتفسير أي شيء أو تبرير أي شيء! أنا حرة! أكتب كما أشاء عن مشاعري السلبية ومخاوفي وإحباطاتي وأخطائي! أكتب ما يعبر عني لا ما ينتظره مني أحد!

بالتأكيد فعلت شيئًا عظيمًا في حياتي ليرزقني الله بطفل مثل «آدم». أقول له إنه «أحلى بيبي في الدنيا» وأنا أعنيها تمامًا. لم ينظر لي أحد مثلما ينظر «آدم» لي، نظرة لا توصف بالكلمات. يصلني حبه لي في كل لحظة، لم يجبني أحد كما يجبني هذا الصغير. عندما كان رضيعًا كنت أنا الشمس والهواء والدنيا بحالها بالنسبة له. عندما كبر قليلًا وجد حل كل مشكلاته على صدري وفي لبني وداخل حضني. كبر أكثر واقتنع أنني امرأة خارقة قادرة على تحقيق كل أحلامه وتلبية كل احتياجاته. يأتي إليّ بكل لعبة مكسورة وكله إيمان تام بقدراتي الخارقة. إلى يومنا هذا يعتقد «آدم» أن قبلي تشفي الألم ولمستي تداوي الجرح. يهلل الصغير الحنون بكل صدق كلما حققت إحدى انتصاراتي الصغيرة. كل يوم، يدفعني دفعًا لأكون إنسان أفضل.

في يوم من الأيام سيكبر ويعرف أنني مجرد امرأة محدودة مهما بدت إنجازاتي. سيتعرف على باقي مخاوفي وحوازي النفسية. سيعرف أنني أخطئ وأهزم وأجرح وأبكي. سيعرف أنني لست مثالية كما ظنّ. سيعرف أنني أخطئ بحقه مهما حاولت أن أسيطر على غضبي وانفعالي. سيرى ندبات وكدمات في أعماق نفسه وسيعرف أنني السبب فيها. أسأله كثيرًا إذا كان سعيدًا معي. أسأله كثيرًا إذا كان يفضل أن تكون أمه مختلفة. يقول إنني «أحلى بنت

في الدنيا». يقول إنه محظوظ أننا نتفق في الكثير من الأمور. أشرد بفكري في يوم يكبر ويدرك حقيقتي.

أتمنى، عندما يأتي هذا اليوم، أن تأخذه بي الشفقة وأن يتأكد أنني حاولت قدر استطاعتي. أنني بذلت قصارى جهدي. أنني لم أبخل عليه بعزيز أو غالٍ. أنني حقاً «أعطيت ما استبقيت شيئاً». أتمنى أن يغفر ضعفي وسهوي وغضبي وانفعالي. أتمنى أن ينظر إلى عيوي وأمراض قلبي بعين أكثر رأفة من تلك التي أنظر بها إلى قصوره البشري الطبيعي.

بحبك قد الحاجات إلي نعرفها والحاجات إلي ما نعرفهاش، قد الحاجات إلي شفتهاها وإلي ما شفتهاهاش، قد الحاجات إلي أكلناها وإلي ما أكلناهاش.

بحبك قد ذرات الهيدروجين في الكون وقد ذرات الكربون في الأرض، بحبك قد النفس وتمسكنا به، بحبك قد اللون الأخضر المفضل لديك، بحبك قد حضنك إلي صالحني على دُنيتي، بحبك إلي ما لا نهاية يا قلب ماما.

«وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإلي فيه.

وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإلي فيه

بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر
بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر
دا حلم أنا عايشة بيه».